

صَوْنٌ فِي مَحْجُوزِ النَّبِيِّ الْأَمْلَاءِ

تأليف
عبدالمجيد العارفي

الطبعة الثانية

١٩٩٣

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد

صَوْنٌ فِي مَحْشَرِ النَّبَاتِ وَالْأَسْطَلَا

تَلْفِيف

عَبْدُ الْحَمِيدِ الْقَبَارِي

العميد السابق لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ،
وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ التاريخ العربى
بمعهد الدراسات العربية العالية سابقا

الطبعة الثانية

١٩٩٣

الناسِر

مَكْتَبَةُ الْأَنْجَلِ وَالْمُصْرِیَّةِ

١٦٥ ط محمد فريد

الى القارئ العزيز

هذا الكتاب الذى صدر اليوم هو فى الاصل كتابان ظهرا على التوالي فى عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٢ ، وقد راينا ضم الكتابين فى مجلد واحد نظرا لاتحاد الموضوع ، مع الإبقاء على التسلسل على ما هو عليه . فالكتاب الأول والذى كان عنوانه « صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى » ، هو الجزء الأول من هذا المجلد . والكتاب الثانى والذى صدر بعنوان « صور وبحوث من التاريخ الإسلامى ، العصر العباسى والمغرب والأندلس » هو الجزء الثانى من هذا المجلد . وقد راعينا المحافظة على ذات النصوص وترتيبها كما كانت تماما دون أى إضافة أو تعديل .

وقد راينا إعادة طبع هذين الكتابين فى مجلد واحد فى هذا العام ١٩٩٢ بمناسبة مرور مائة عام على مولد المؤلف المرحوم والدنا الأستاذ عبد الحميد العبادى .

وحفاظا على الشكل الذى ظهر به كل من الكتابين فانتنا نورد فيما يلى الامداء الذى كتبه المؤلف وقدم به الكتاب الأول يليه الامداء الذى قدم به الكتاب الثانى يليها كلمة الجمعية التاريخية لمخرجى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة وكان موقعها فى الأصل فى صدر الكتاب الأول .

واش ولى التوفيق

للقاهرة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٩٢

حسان عبد الحميد العبادى

الإهداء

إلى إخواني وتلاميذي من خريجي مدرسة القضاء الشرعي ، ودار العلوم
وكلية الآداب بجامعة قواد الأول وفاروق الأول ، والأزهر الشريف ، ودار
المعلمين العالية بغداد ، أهدى الكلمات التي يشتمل عليها هذا الكتاب ؛ فهي
نمرة دروس وبحوث ألقيتها عليهم ، وكان حسن قبولهم لها ، وانتفاعهم بها
أكبر باعث لي على أن أستخلص منها هذه الكلمات التي نشرتها من قبل
مفتحة في الصحف والمجلات ، والتي أهدى نشرها إليهم في كتاب ؟

عبد الحميد العبادي

بمكة الاسكندرية في ١١ ربيع الأول سنة ١٣٦٧
(٢٠ يناير سنة ١٩٤٨)

تقدمة وإهداء

من خمس سنوات مضت نشرت لى الجمعية التاريخية عريجي كليات الآداب بجامعة الإسكندرية مجموعة من المقالات تتصل بالعصر العربي الإسلامى القديم، وكان ذلك فى كتاب عنوانه « صور من التاريخ الإسلامى : العصر العربى » .

واليوم تنشر لى مكتبة الأنجلو المصرية مجموعة أخرى من مقالات وبحوث نشر بعضها منفرداً وبعضها الآخر لم يبق نشره ، وذلك فى كتاب عنوانه « صور وبحوث من التاريخ الإسلامى : عصر الدولة العباسية والغرب والأندلس » .

والقالات والبحوث للشورة فى الكتاب الجديد يدور أغلبها على بعض أعلام الإسلام فى العصر المذكور فى العنوان ومائل أخرى طلية ، إلا أن الناظر للتوسم لا يعدم أن يلح فيها إشارات تكشف عن بعض جوانب الحياة الإسلاميه القديمة من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية . فعلى من أجل ذلك لا تغفل من القارئ للجيل الجديد من طلاب التاريخ والتاريخ الإسلامى بوجه خاص . ولعل هذا الترى هو الباعث الأول على جمعها ونشرها فى كتاب .

وقد جرت عادة كثير من الكتاب والزلفين أن يهدوا تأليفهم إلى بعض من يحبون أو يحلون ، فجزا على هذا السن الطيف والرف لألوف أهدى هذا الكتاب إلى الذين أهديت إليهم كتابى السابق : أهديه إلى أصحابى من عريجي مدرسة القضاء الشرعى والأزهر الشريف ، ودار العلوم وكليات الآداب بجامعة القاهرة والإسكندرية ، ودار المعلمين العالية ببغداد . فالحق أن الكتابين كليهما من وحى الدروس والمحاضرات التى سعت إلى إعدادها عليهم ؟

عبد الحميد العبادى

١٩١٢ هـ / ١٠ المحرم سنة ١٣٧٢
١٩٥٢ هـ / ١٠ المحرم سنة ١٣٧٢

كلية الجمعية التاريخية

للمرجعي كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

هذا هو الكتاب الثاني من الكتب التي تصدرها جمعيةنا التاريخية^(١)، وهو كتاب نعتز به كل الاعتزاز، لآلئيه كتاب رئيس الجمعية، بل لأنه كتاب عالم من المثاني، بين كتب التاريخ. وقد يحق لكثير من الجمعيات أن تسابق في الأفراد بتقديمه إلى الشعوب العربية المختلفة التي عرفت المؤلف الجليل من مقالاته ومحاضراته قدّرت فوقه التاريخي تقديرًا لم يبلغه فيما نرى أحد من مؤرخي الإسلام في الشرق الحديث.

ولاستاذنا عبد الحميد العبادي بك فضل كبير على التاريخ الإسلامي تعرفه حتى المعرفة أجيال تخرجت على يديه منذ ثلاثين عامًا أو يزيد. فقد استمعت لدروسه القيمة أجيال من الشباب كثيرة، فظلت تحتفظ بأجل الذكرى لما سمعت، وظلت على الأخص تحتفظ بصورة الماضي الإسلامي التي رسمها لهم ونقشها في أذهانهم رسمًا بسيطًا ونقشًا حيًا، حتى لم يجدوا عناء في حملها كأنها صاغرة. من قوسهم. بل قد لا يتجاوز الحق في شيء. إن زعمنا أن جيل المؤرخين الحاضر إنما يردد بعض صور الأستاذ أو يتخذها أساسًا لدراسته الإسلامية. ولقد سمعت دروسه تليذا ثم سمعت شيئًا منها زميلًا، فخليل إلى أنني كنت أشد إعجابًا بها وأعظم طربًا لها حين أصبحت زميلًا متى حين كنت تليذا. ولكن هذه الدروس جانب مجهول مجيد لم يذهه الأستاذ الجليل على الناس بعد.

نعم، فضل الأستاذ الجليل على التاريخ الإسلامي كبير الأثر، لأنه نقله من

(١) الكتاب الأول، أنجل في تاريخ لوبيا، تأليف مصطفى بيبرس الغرابي، ١٩٤٧.

هذه الأول إلى عهد جديد : كان التاريخ الإسلامى لا يزال فى آخر القرن الماضى وأول القرن الحاضر من العلوم النقلة العرفية . فكان للزورخون فى الغرب الأوروبى والشرق العربى أيضا يقتصرون على تمحيص الروايات التاريخية المختلفة بقدر ما يتيح لهم طرائقهم الرفيعة فى التحجيس ، ثم يسوقونها فى سرد متسق لا يحتاجون فيه إلا إلى اليسير من الربط . هكذا كان كرسان دى برمسفال ودفرميرى وغيرهما فى فرنسا ومور فى إنجلترا وقايل فى ألمانيا ، وهكذا أيضا كان ما كتب الترفيرون أنفسهم ، فنهى من كان يعتمد إلى المصادر فيلخصها تلخيصا يتفاوت فى إعجازه قصرا وطولا ، مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى . ومنهم محمد الحضرمى بك ، بل لعل الحضرمى كان يقال فى الطريقة القديمة حتى ليحفظ لرواياته بلفظها القديم . وكتابه لهذا يعد من أصلح الكتب فى نوعه إذا اعتبرناه كتاب فصوص ، ولا تزال إلى اليوم تنضج المتدين فى التاريخ بقرائه لينمودوا أساليب المصادر . حتى أُنشئت الجامعة المصرية القديمة فأُنشأت جيلا جديدا كان خير شاهد بفضلها . من هذا الجيل أسأذتنا أصحاب المنهج العلمى الحديث : طه حسين بك فى الأدب ، وأحمد أمين بك فى الحياة العقلية ، وعبد الحيد العبادى بك فى التاريخ .

ففى فجر التاريخ الإسلامى طريقه القديم الذى سلكه قرونا طويلة ، وسائر باقى فروع التاريخ الأخرى فى أوربا . وتجاوز الدور البسيط الذى مرت به كل الشعوب قريبا ، ثم لم يقنع بالتقدم البراق الذى عرض له فى القرن التاسع عشر على بنى جيون وفولثير من قبل ، لأن هذا التقدم لم يكده غير الإلماطة بما أحتل عليه من تنظيم الواقعات وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض وترتيبها فى أسلوب جميل يختلف حظه من الإمتاع . وإنك لتقرأ المختارات من كتب التاريخ التى ظهرت فى فرنسا على هذا الأسلوب فتجدها قلعلا رائنة من الأدب الخطاطى

الرفيع ، تحدث في النفس أروع الأثر . ولكنها على ما تقتصر من الروعة قليلة
الخط من الصفة التاريخية الصحيحة ، وخاصة حين تغلب عليها النزعة الفنية .
وتمثل هذا الانتقال في آثار الأستاذ الجليل . فإذا الأستاذ يقفز بالتاريخ
الإسلامي في مصر قرة العسل ، وإذا به يتبع آثار جيون ويورى وغيرهم
من عظماء المؤرخين ويعالج التاريخ الإسلامي كما يعالجه كبار المؤرخين المعاصرين
في أوروبا بالقياس إلى فروع التاريخ الأخرى .

فالأستاذ الجليل طريقة علمية دقيقة أعانت عليها ملكاته : فإنه يجمع إلى قوة
النقد وطرافة الاستنباط فطرة سليمة تجلبه على السعي إلى فهم كل شيء ثم
أسلوب أدبي رزين يعارض به الأساليب القديمة أحيانا ويبلغ به حد الإجابة
لا عن طريق الأسلوب وحده ولكن عن طريق الرسم السهل الممتنع خاصة .
ومن وراء كل هذا أساس تاريخي عتيق مبني على قراءات واسعة مستفيضة وأفرة
الخط من الإجابة والإيقان ، أعانه عليها ذوقه الأدبي الممتاز ، فهو يحفظ بعضها
عن ظهر قلب ويمثل بعضها تمثيلا حيا . ولكن الأستاذ حريص دائما على أن
لا يشغل بها القارىء ، وأن لا يتقل بها سرده التاريخي القوى البناء . ثم هو
من أكثر المؤرخين حرصا على تجنب التفاصيل التي تملأ الصورة التاريخية أحيانا
فتذهب بروقتها ووضوحها ، وهو من أوسعهم نظرا أيضا : فلا يكاد ينتهي من
تصوير الواقعة الخاصة حتى يضمها في إطارها من التاريخ العام وضعا لا تنبوعه .
ولهذا كان مجيدا في صورته التاريخية . فهي أشبه شيء بالتخطيط القوي في دلالاته .
ولهذا كان عبد الحميد العبادي بك مؤرخا فنانا فذا صاحب طريقة خاصة ،
فاستطاع أن يجمع بين الأدب وبين التاريخ في آن واحد . له من التاريخ منهجه
العلم ، الدقيق ، وله من الأدب جمال الصورة وروعها . فإن صح هذا الوصف

لحريته فهو يعالج نوعين من العلم في فرع واحد ، ويأتي على نفسه حملا كان
حرمانا بشفه لولا أن ملكاته الوفرة تبعه عليه وتقدره على حمل لوائه ،
وترفعه إلى منزلة جليلة .

وفي هذا الكتاب فرع خاص من أبحاثه : هو صور من التاريخ الإسلامي
بعضها يدخل في باب التراجم فيقتزيم ذا الباب إلى مستوى رفيع ، والذين لم يظن
إليه الأقدمون على كثرة تأليفهم فيه ، وبعضها إحياء رائع للأجواء التي كانت
مواطن الإسلام الأول مثل دار الندوة أو دار الأرقم الخزومي . وهو فرع
من البحث تظهر فيه مواهب الأستاذ ظهورا يغتينا عن وصفها والإدلال على
عاسنها . فهي غنية بذاتها عن الوصف والثناء . وما أردنا إلا أن نبين طريقة
للتؤلف الجليل ومنهج التاريخي الدقيق المحكم . وقد كان من حقه علينا أن نشيد
بأناره ، لولا أن في الثناء وقرعا في المرح ووضعنا لأحسن فرق موضعها .
ونسجل في آخر هذه الكلمة شكرنا لأستاذنا على استجابة رجائنا ، وإذنه
في نشر هذه المقالات التاريخية القيمة ؟

عن الجمعية التاريخية

محمد عبد الهادي شمير

الاسكندرية في ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٧
(٢١ يناير سنة ١٩٤٨)

دروس من الصحراء

لقد أسعدني الحظ فسارت في الصحارى وسلكت طرقها وصالكتها
تخيّر مرة .

تجولت في صحراء مصر الغربية وتمقلت بين واحاتها النبتة المتقادمة . وضربت
في صحراء مصر الشرقية مرثداً شعابها وأوديتها وشم جبالها . وسلكت من جزيرة
العرب ما بين جدة ومكة ، وما بين مكة والمدينة ، كما جرت بادية الشام وعبرت
البرية المترامية الواقعة بين الشام والعراق . وأشهد لقد علنتى هذه الأسفار من
أمر الصحراء ما لم أكن أعلم ، ووقفتى من أسرارها ومكنون أمرها على ما
لم أكن لأبلغه بالدرس والقراءة ، مهما جهدت .

لقد كنا عند اعتزام السفر في الصحراء تأخذ أمبتنا الأمر أشد الأخذ ،
ونستعده أتم الاستعداد ، نقادياً بما عسى أن يفتأنا في سفرنا من تقاد الزاد
أو الماء أو العتاد ، وكنا في ذلك إنما نقول على أنفسنا موقنين بأن التفريط والنهوان
قد يكون وخيم العاقبة ، وقد يفضى بنا إلى الملاك المحقق وليس من شك في أن
التعويل على النفس والاحتياط للمستقبل أول سمات الرجولة الصحيحة وملاك
أمرها ، وهذا أول درس تلقىه الصحراء على من يقامر بنفسه في مجاميلها .

واكتنا على الرغم من استعدادنا ومباغتتنا في الترقى والاعتماد على

النفس كنا لا نبرح بخالجنا شعور قوى خفى بأننا على شفا أمر مخوف ، وغيب مجهول ، وأتقنا هزايرون فى حماية لا تأمن بعتاتها ونجاساتها ، فمن يذرى ؟ قلعلنا لخلل فى تقديرنا وأمر لم يدخل فى حسابنا ، نمسى وقد اضطرت علينا الصحراء اضطواء اليم الحضم على من انخرقت به سيفيته ، فإذا أجسادنا جزر ريباعها وعقبانها ومدب حشراتنا وهوامها .

من أجل ذلك كنا لاندع التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الاعتماد على أنفسنا ، مسندين إليه سبحانه حولنا وقوتنا . ولا شك أن الإيمان بالله على هذا النحو هو الإيمان الصحيح ، وأن التوكل على الله على هذه الحالة هو التوكل المحمود ، وهذا درس آخر بليغ يستفيدة المسافر فى الصحراء .

ثم إن للصحراء روعة أى روعة ، وجمالا أى جمال . ونحذر أن نخدعك عن روعتها وجمالها رمالها للوعاء ، وجمالها الجرداء ، وحرها اللافح ، ويردها القارس ، فإتلك لعمرك إلا بمنزلة أطمار على أقار ، وأجمال على حشناء مغضال . ورويدك حتى يقبل الريح ، وريق الهواء ، وتضع الأرض حملها ، فتزى عجباً من العجب ، فى الزهر المفوف ، والعشب المخضر ، والطيور الصادحة والظباء السارحة ، والإبل الراعية ، والشاة الثاغية ، والقوم يتصايحون جذلاً وجورا .

ورويدك حتى يقبل المساء ، وطلع القمر ، وتلألأ النجوم والكواكب ، ويخيم على الصحراء سكون يكاد لربهته يحسه ممالك المرفف ، فتزى ضالة غير متناهية إزاء عظمة غير متناهية . فإذا غاب القمر ومد الظلام على اليباء رواقه ، وطرق ممالك عصف الرياح وهى تسلك بين الجبال أو تهوى فى المهاوى السحيجة ،

وترأت إبنك أشباح غريبة وصور عجيبة ، وخيل إليك أنك تسمع عريف
الجن وصراخ السمالي ، وأنتك تراها وتحسها ، وأنها تراوئك فتارة عن يمينك
وأخرى عن شمالك ، فلا ترع ، لجن الصحراء وسعاليها ليس الخبز والغد من
طبعها ، وقد عرفها قديما العرب وعرفتهم ، وكان لهم معها أولها معهم شئون
وشئون ، فتارة كانوا يصارعونها فيصرعونها أو تصرعونهم ، فتارة كانوا يحبونها
وتحبهم ، ويصبرون إليها قتلهم البنين والبنات ، وطورا كانوا يصادقونها
ويحالفونها حتى لهم ويثقون لها ، وطورا كان يستلمها شعراؤهم فتلهمهم عيون
الشعر ودواع القوافي . فهل تدري ماذا توحى الصحراء بكل ذلك ؟ إنها توحى
معنى الفن الرفيع والعبقريه والجمال .

الصحراء تبعث في نفوس أهلها وعشائرها الرجولة الكاملة ، والإيمان الصادق ،
والعبقريه التامة . فان شئت على ذلك دليلا فعليك بأبطال العرب في الجاهلية
والإسلام ، فان آيت إلا الطريق السهل ، والقول الفصل ، والحجة البالغة ، المعجزة
الدائمة : فعليك بسيرة نبي الهجرة عليه السلام ؟



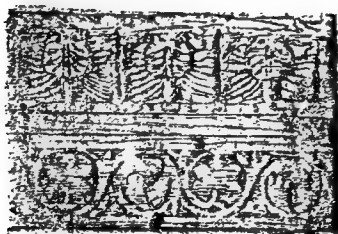
« مصر القديمة » وآثارها »

مصر القديمة حتى من أحياء العاصمة ، له من أفرادها جنوبها ، ومن صيته الوطنية الخالصة ، ما يجعله أشبه شيء بمدينة قائمة بنفسها . وهو عريق في المصرية ، ترى فيه المسلم إلى جانب القبط في المسكن والمتجر والمصنع ، وتعرف فيه الأثر التاريخي الإسلامي قريبا من الأثر التاريخي القبطي . ثم لا نجد فيه سلطان الأجانب الاقتصادي وانحوا ولا عنصر مماثلا مثوله في أحياء العاصمة الأخرى . والحي هادئ ، ساكن ، قد خلع عليه القدم ثوبا ضائبا من وحشة مقرونة بجلال . والسكان قارون وادعون لا يكاد يهيجهم حزن أو يستخفهم فرح ، كأنهم لطول ما تتابع على حبيهم من غير الدهر وضروقه قد رسخت أحلامهم وصاروا إلى شيء . من الاطمئنان الفلسفي غير قليل .

ومصر القديمة ، على ضيق رقعتها وتقارب أرجائها ليست بقليلة الآثار . وآثارها برغم ما أصابها من البلى والعفاء لا تزال ماثلات شواهد بكثير من حداثات التاريخ العظيم . فإذا بكرت مرة أيها القارىء إلى مصر القديمة ، ووقفت في هدأة الصبح وحين اذكرك القلب ونشاط الذاكرة حبال ، حصن بابلون ، أو وسط ، الجامع العتيق ، أو بين خرائب القساط ، فقد تزدى إليك الذاكرة أنباء كثيرة من عبر التاريخ المصرى .

فهذا الحصن الذى تستنفذه الآن مصلحة الآثار من أيدي البلى يذكرك

بقيام دولة في هذه البلاد على أطلال دولة تآذن الله بانحلالها وذهاب ريعها .
 وهذا الجامع العتيق يريك معنى للفتوح العريضة الأولى قد يخفى على من يقرأ
 للتاريخ عجولان غير مثبت . وتعلق بين يديك خرائب القسطنطين بما قاسته
 القسطنطين من نيران ، شاوور بن مجير السعدى ، وزيره للعاضد لدين الله ، الفاطمى
 وقد زحفت إليها الجيوش الصليبية من فلسطين حتى أصبحت أثرا بعد عين .
 فإذا تركت أيها الفارس تلك الآثار ، وأخذت في سيرك ذات اليسار ، وجدت
 النيل لم يبرح كما كان أيام الفراغة والفرس البطالة والرومان والعرب والترك ،
 يتدفق تدفق الزمن هيناً ليناً حديثاً مطرداً ، لا يعبأ بما يتعاقب على عذوبته من
 الدول والأجيال . إنه يمثل القوة الباقية الخالدة ، كما تمثل الخرائب القائمة على
 جانيه القوة الزائلة الفانية ٥



دار الندوة^(١)

كان العربي القديم ، ديموقريطا بطبعه ، بمعنى أنه كان ينفر من الاستبداد ، ويؤثر الشورى ورأى الجماعة على رأى الفرد . وأقدم أخبار العرب تدل على توافر هذا الروح الديموقراطى عندهم . من ذلك ماورد فى القرآن الكريم حكاية عن بلقيس ملكة سبا حين جاءها الهدد بكتاب سيدنا سليمان ملك بنى اسرائيل ، قالت ياها الملائى ائنى الى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على واتوفى مسلمين . قالت ياها الملائى أفتوفى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وبأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ، ، وعمل الشاهد هنا استشارة بلقيس للملائى من قوما ، وقولها إنها لا تقطع أمرا قبل الرجوع اليهم ، ورد الملائى عليها . وقد فسر الملائى ، بأنه الرؤساء لانهم ملاء بما يحتاج إليه ، وبالجماعة ، وأشراف القوم ووجوههم ومقدمهم الذين يرجع إلى قولهم . ويروى أن النبي ﷺ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول : ما قتلنا إلا عجايز صلحاء ، فقال عليه السلام : أولئك الملائى من قريش ، لو حضرت فعالمهم لاحتفرت فمك ، ومن معانى الملائى : المشاورة .

وفى حديث عمر بن الخطاب حين طعن : « أكان هذا عن ملائمتكم ؟ » ، أى مشاورة من أشرافكم وجماعتكم . وكأنهم لخطوا فى أشراف القوم صفة تلزمهم وهى حسن الخلق ففعلوا من معانى الملائى ، حسن الخلق وأنشدوا :

(١) حديث براء بن عازب فى ١٨-١-١٩٤٥ .

تبادوا يا لبهة إذ رأونا قتلنا أحسن ملاء جبيننا
 أى أحسن أخلاقا يا جينة أو أحسن الممالة والمعاونة ، ومنه قول النبي
 ﷺ لبعض أصحابه وقد ضربوا أعرايا بالفي المسجد : « أحسنوا أملاءكم ، أى
 أخلاقكم ، فالأملاء معناه أشراف القوم والجماعة والمشاورة ، كما يفيد أحاسن
 الأخلاق ومكارم الطباع .

وما جاء به القرآن عن وجود نظام للشورى عند النبي القدماء قد صدقته
 الكتابات البنية القديمة التي عثر عليها العلماء الأوربيون الذين عنوا بتاريخ
 النبي القديم ، فالحبر صحيح من ناحيتي الأثر السباوي والتاريخ البشري .

ولا يقل عرب البوادي عن عرب الحواضر من حيث الروح الديموقراطية ،
 فكان سيد القبيلة أو شيخها كما نقول الآن ينتخب انتخابا طيعيا ، على معنى أنه
 يصبح بالفعل سيد القبيلة إذا فاق أفرادها في الفضائل التي تأتي عادة من قبل
 الطبع لا الطمع كالشجاعة والفصاحة والكرم ونضج العقل ووقار السن . ولما
 لم يكن من المؤكد أن تنتقل هذه الصفات من طريق الوراثة من الآباء إلى
 الأبناء والأحفاد لم تكن سيادة القبيلة منصبا وراثيا إلا في النادر ، وإلى ذلك
 يشير عامر بن الطفيل أحد سادات العرب في الجاهلية بقوله :

وإن وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
 فاسودتني عامر عر وراثة أبي الله أن أسمو بأب ولا أب
 ولكنني أحمي حماها وأنتي أذاها وأرى من رماها بمنكبي
 وليس سيد القبيلة بالحاكم المستبد بقبيلته ، وإنما هر خادمها الأول ، يدل على

ذلك قولهم المأثور : سيد القوم عادوهم ، ويعد من سلطانه مجلس القيلة الذي يتألف من أشراف القيلة وقوى المكانة والرأى والسفن فيها . يجتمعون للتشاور في شئون القيلة وليمدوا أيديها بالراى ، إذا حزب أمر أو ألم خطب .

لم يصل إلينا مع الأسف شيء يذكر من المناقشات التي كانت تجري في هذه المجالس القبلية كما يصح أن نسميها ، وذلك لأن العرب كانوا أمة أمية لاتدون أخبارها . ومع ذلك ففي الشعر الجاهلى ما يلقى ضوءا على حقيقة هذه المجالس . ومن ذلك قول مهمل في رثاء أخيه كليب :-

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا في أمر كل عظيمة لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

* * *

وأشهر المجالس القبلية عند العرب قبل الإسلام المجلس الذي كان لقريش بمكة ، وكان يعرف بدار الندوة .

كانت هذه الدار فيها يروون دار قصى بن كلاب الذي جمع بطون قريش وأنزلها بمكة ، وذلك قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة . وكانت الدار ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشمالية من الكعبة . وكانت فسيحة وسيدة ، وفيها كانت قريش تقضى في شئونها العامة :

(١) ففي دار الندوة كانت تعقد قريش لوائها إذا خرجت للحرب .

(٢) ومن دار الندوة ترحل قوافلها للتجارة ، وفي فنائها تحط هذه القوافل حولتها إذا رجعت .

(٣) وإذا بلغ غلام لقريش عذر (أى ختن) فيها .

(٤) وإذا لفتت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعاً (أي قميصاً)، ثم درعها إياه، ثم انقلب بها أهلها فحججوها، والظاهر أن الغرض من الآخرين الأخيرين تجريد إحصاء وتسجيل اللبنانيين من قريش من الذكور والإناث .

(٥) على أن أم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش، فيها يجتمع ملؤها لتتداول في أمورها، ودار الندوة، الاجتماع والجماعة. ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة، في حين كان يدخلها بنو قصي

ولدينا نص عربي قديم يصح أن نعتبره مثالا لنوع المناقشات البرلمانية التي كانت تجري في دار الندوة، إذا حزب قريشا أمر أو أُلْمَ بها خطب. يصف هذا النص اجتماع قريش في دار الندوة وحوارها عندما أرادت الحيلولة بين محمد ﷺ وبين الهجرة إلى المدينة. وما انتهى إليه رأيها في ذلك. قال المؤرخ العربي القديم محمد بن اسحق « فاجتمعوا في دار الندوة ... يتشاورون فيما يصنعون . وانهدوا يوما يجتمعون فيه ، فلما كان ذلك اليوم اعترضهم إبليس (والمراد بالطبع زعيم المعارضة المتطرفة في ذلك اليوم) ، في هيئة شيخ جليل عليه بت له . فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفا على بابها قالوا من الشيخ ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يعدمكم منه رأى ونصح . قالوا أجل ! فادخل ! فدخل معهم » . ثم يسرد المؤرخ أسماء من

حضر في ذلك اليوم من أشراف قريش فيقول : وقد اجتمع فيها أشراف قريش
كلهم من كل قبيلة : من بني عبد شمس شيعة وعتبة ابنا ربيعة وأبوسفيان بن حرب ،
ومن بني نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن
عالم بن نوفل ، ومن بني عبد الدار ، النضر بن الحارث . ومن بني أسد ، أبو
البحترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام . ومن بني مخزوم ،
أبو جهل بن هشام . ومن بني سهم فيه ومنه ابنا الحجاج . ومن بني جح
أمية بن خلف . قال واجتمع غير هؤلاء من لا يعد من قريش . . ثم يمضي
ابن اسحق في تصوير ما حدث فيقول : قال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد
كان من أمره ما كان وما قد رأيتم ، وأنا والله ما تأمنه على الوثوب علينا بمن قد
اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا قال فتشاوروا . ثم قال قائل منهم : احبسوه في
الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله
زهرا والثابتة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه منه ما أصابهم
فقال الشيخ التجدي : لا والله ما هذا لكم برأى . والله لو حبستموه كما يقولون
لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشوا
عليكم فينزعه من أيديكم ، ثم يكاذبكم حتى يطلبوكم على أمركم هذا ، ما هذا لكم
برأى فانظروا في غيره ، ا

ثم تشاوروا ، فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فنتفيه من بلدنا ، فإذا خرج
عنا فراقه ما نبال أين ذهب ولا حيث وقع ، غلب عنا أذاه ، وفرغنا منه
فأصلحنا أمرنا وألقتنا كما كانت . .

فيقول الشيخ التجدي : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وخلاوة

منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، واقه لو فعلتم ذلك ما أنتم أن يحل
على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ،
ثم يسير بهم إليكم حتى يظلمكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ا
أدبروا فيه رأيا غير هذا .

قال فقال أبو جهل بن هشام : واقه إن لي فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعدا
قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ ، قال أرى أن تأخذوا من كل قبيلة قى شابا جلدا
نسيبا وسيطا فينا ، ثم تعطى كل قى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ، ثم
يضربونه به ضربة رجل واحد فيقتلونه فستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق
دمه في القبائل كلها فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ورضوا منا
بالمقل ، اى بالدية ، ففعلناه لهم . فيقول الشيخ الجدى : «القول ما قال الرجل ا
هذا الرأى لا رأى لكم غيره ا» تفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له . . ونحن
نعلم أن ما دبرته قريش في ذلك اليوم لم يفلح وأن الرسول أتم هجرته إلى يثرب .
وإلى هذا الذى جرى من اجتماع قريش واتجارها بمحمد بشير القرآن الكريم بقوله
« وإذ يمكركم الذين كفروا لينبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون
ويمكر الله واقه خير الماكرين » وبقوله أيضا ، أم يقولون شاعر تترجص به ريب
المنون . قل تربعوا فاني معكم من المترجصين .

هذه دار ندوة قريش وبرلمانها في الجاهلية وعند ظهور الدعوة الإسلامية .

أما ما آل إليه أمرها بعد الإسلام فليس يهمننا كثيرا ، ويكفى أن نقول إنها بدخول
قريش في الإسلام انتهى أمرها من حيث هي دار مشورة وندوة ، فلما كانت خلافة

معاوية بن أبي سفيان اشتراها من صاحبها بمائة ألف درهم ، وجعلها دار الإمارة
بمكة ، ثم أهمل أمرها وخرت ، فلما كان زمن الخليفة المعتضد بالله العباسي أمر
بهدمها وإدخالها في المسجد الحرام . وبذلك اندرجت دار الندوة القرشبة
الصغرى في دار الندوة الإسلامية الكبرى .

• • •

أما بعد ، فلعلنا نكون قد أوغنا في هذا الحديث أن العرب القدماء كانوا
مشبعين بالروح الديمقراطية على اختلاف عصورهم وتوعد درجات تحضرم ،
ولقد أقر الإسلام نظامهم الديمقراطي فيما أقر من نظمهم وعاداتهم ، وأمر الله
رسوله بالأخذ به ، فقال سبحانه وتعالى : « وشارهم في الأمر » ، وجعله من
صفات المؤمنين في قوله : « وأمرهم شورى بينهم » . ثم زاد سبحانه هذا
النظام تنويها بقدرة وإعظاما لشأنه ، فأنزل سورة من سور القرآن أسمها
« سورة الشورى » ،



أحايش قریش

هل كانوا عربا أو حبشا (٥)؟

يستعمل لفظ «الأحايش» في الدلالة على القوة العسكرية التي كانت قریش تستأجرها قبيل الإسلام، للدفاع عن بلادها وقوافلها التي كانت تتردد بين الشام واليمن. ويؤخذ من صريح النصوص العربية، لغوية كانت أو تاريخية، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمه اللتين كانتا تزلان أغوار تهامة، ومن خزاعة التي كانت تنزل بظاهر مكة. بهذه النصوص أخذ المستشرق الألماني الكبير فلهاوزن، فقال في كتابه الذي ألفه عن الوثنية العربية (١) هذه العبارة: Die politischen Verbundeten den : هذه العبارة : Quraish sind die Ahabisch. ومعناها : «الأحايش أحلاف قریش السياسيون».

ولكن الأب لامانس المستشرق اليسوعي المعروف نشر في المجلة الآسيوية (٢) مقالا ضافيا عنوانه : Les Ahâbis' et l'organisation militaire : de la Mecque ، ذهب فيه إلى أن رواية اللغة العربية قد وهماوا في تفسير هذا اللفظ، وأن الأحايش كانوا كلهم، أو جلهم على أقل تقدير، زنوجا من بلاد

(٥) نشرت في القسم الأول من المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة مؤاب الأول (مايو ١٩٣٣)

Reste des Arabischen Heidentum. 88. (١)

Journal Asiatique, t. 1916, 25-182 (٢)

الحبيشة ، وأن رواية السيرة تسمى القول بأنهم عرب ، أتت من أن يقولوا إن قريشا كانت في الجاهلية تستعين السودان في الدفاع عن حوزتها^(١) .

ومع أن الأب لامانس قد اتفق جهدا عظيما في التدليل على صحة نظريته ، وأن أحدا ، فيما أعلم ، لم يتصد لمناقشة هذه النظرية ، فإني أرى الموضوع لا يزال مفتقرا إلى التحقيق . وأريد في هذا البحث الموجز أن أثبت ثلاثة أمور :

(أولا) أن الأحابيش كانوا عربا .

(ثانيا) أن القول بعربييتهم هو المتفق مع تاريخهم .

(ثالثا) أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم في حروبهم لم يكونوا من

الأحابيش في شيء .

(١)

لا شك أن بين كلتي « حبش » و « أحابيش » تجانسا شديدا في اللفظ وأنحدادا في المعنى من بعض الوجوه .

ولكن ثاني اللفظين يفرد بجماع تعدل به في أغلب أحواله عن مدلول اللفظ الأول عدولا تاما . جاء في القاموس المحيط في مادة « حبش » : - الحباشة ككثامة : الجماعة من الناس ليسوا من القبيلة كالأحوشة . وجاء في لسان العرب في المادة المذكورة : - والأحوشة جماعة الحبش ، ويقال هم الجماعة أيأ كانوا ، لأنهم إذا تجمعوا اسودوا ، والتحيش التجمع وفي المجلس حباشات وهباشات ، أي ناس ليسوا من قبيلة واحدة ، وهم الحباشة الجماعة والأحابيش ، وتحبشوا عليه اجتمعوا ... والحبشان الجراد الذي صار كالمل

أسوداً . فالتفسير اللغوي يفيد أن لكلمة « الأحايش » ثلاثة معان خاصة :
 (١) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة . (٢) التجمع والتأشب ،
 ولا بأس أن تلاحظ بهذه المناسبة أن كلمة « حبش » و « حباش » و « تحيش » ،
 تفيد هذا المعنى في اللغة العربية الدارجة . (٣) كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ،
 لأن العرب تمت الشيء إذا كثرت تكاثف بسواد اللون .

وهذا التفسير اللغوي يتمشى مع مدلول الأخبار الواردة في بيان أصل
 نظام الأحايش . جاء في سيرة ابن هشام ما يأتي : قال ابن اسحق : والأحايش
 بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والمون بن خزيمه بن مدركة ، وبنو المصطلق
 من خزاعة . قال ابن هشام : « تحالفوا جميعاً فسموا الأحايش لأنهم تحالفوا
 بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »^(١) . ويقول صاحب معجم البلدان :-
 « حبشي ... جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ، يقال به سميت أحايش قريش
 وذلك أن بني المصطلق وبني المون بن خزيمه اجتمعوا عنده وحالفوا قريشاً ،
 وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضع نهار ، وما رسا
 حبشي مكانه ، فسموا أحايش قريش باسم الجبل ، وبين مكة ستة أميال .
 مات عنده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فجاءه ، وحمل على رقاب الرجال إلى
 مكة »^(٢) . وجاء في لسان العرب^(٣) : « وحبشي جبل بأسفل مكة ، يقال منه
 سمى أحايش قريش ، وذلك أن بني المصطلق وبني المون بن خزيمه اجتمعوا
 عنده لحالفوا قريشاً ، وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جوتيجن : ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) معجم البلدان - مادة حبشي .

(٣) لسان العرب - مادة حبش .

ووضع نهار ، وما أرمى حبثى مكانه : فسموا أحايش قريش باسم الجبل .
ولا بأس في هذا المقام أن نستدل بشعر السيرة ، فإنه على كثرة منحوه وقلة
صحيحه ، شعر دون في القرن الثاني الهجري وبين ما كان متعارفاً إذ ذاك من
الأحايش . قال هيرة بن وهب الخزومي يقتخر يوم أحد :^(١)

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن عرض البلاد على ما كان يزجها
قالت كنانة أفي تذهبون بنا ؟ قلنا النخل فأمرها ومن فيها ١

فأجابه حسان بن ثابت فقال :-

سقم كنانة جهلا من سفاكم إلى الرسول لجند الله مخزما
جمعتموم أحايشا بلا حسب أئمة الكفر أغرتكم طواغيتا
فهذه الآيات ضريحة في أن المراد بالأحايش هو كنانة . وقال
حسان أيضا :

إذا عضل سبقت إلينا كأنها جدابة شرك معلبات الحواجب

أقنا لهم طعنا مبيرا منكلا وحزنناهم بالضرب من كل جانب

قلولالواء الحارثية أصبحوا ياعون في الأسواق بيع الجلاب

وعضل حمى من بني الهون بن مدركة^(٢) ، فهي من الأحايش . ومعنى البيت
الآخر أنه لولا استقتال هذا الحمى حول اللواء الذي رفته يوم أحد تلك المرأة
الحارثية لوقفوا في الأسر فبنام بالأسواق كما تباع العيد المجلوبة . من هذه
القول التاريخية نأخذ أن الأحايش :

(١) كانت أحياء عربية شتى تسمى إلى كنانة وخزيمة وخزاعة .

(١) سيرة ابن هشام ص ٦١٢ - ٦١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٦٣٨ .

(٢) أن هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش ، أو عند جبل يقال له
عبيث ، وتحالفت فسميت الأحايث .

(٣) أنها سالت قريشاً على التناصر والتآزر فالمطلوب التاريخي لكلمة
الأحايث ، متمش مع مدلولها اللغوي ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف
هذه القبائل ومخالفتها قريشاً بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال في صحة
النتيجة التي وصلنا إليها بهذه المقارنة : وهي أن الأحايث عرب . والحق أنا
بإزاء قبيلة عربية آخذة في التكون ، بواسطة الحلف الذي كان سياً في تكون
كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجيء الإسلام وجعلك دون تمام
المزج بين الأحياء المؤلفة للأحايث لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة ،
على نحو ما أصبحت البطون التي منها تألفت قبيلتنا ، تنوخ ،^(١) وده الرباب ،^(٢) .

(٢)

وجنسية الأحايث العرب يؤكد ما تاريخ حلقهم الذي ترجع أنه قام في
النصف الثاني من القرن السادس الميلادي وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان
الهجرة . فإنا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحايث طوال ذلك
العصر الخطير قوة عربية لها خصائص القبيلة ، من سيد يزعمها ، وأرض تزعمها ،
وراية تحف بها عند الحرب ، وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش
تتميز منها منزلة الحليف من الحليف ، والتد من التد ، وأنها كانت مسموعة
الكلمة في الشئون العامة لقريش ، وإلى القارىء التصور التي تريد ذلك :
(١) كان سيد الأحايث في السنوات الأولى من عهد النبوة رجلاً يقال له

(١) الطبرى - المجلد الأول ص ٧٤٦ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١١١ .

« ابن الدغنة » . فلما خرج أبو بكر من مكة مهاجرا للأذى الذي ناله من قريش لقيه ابن الدغنة فأجاره وورده إلى مكة . ثم تعرض قريش لابن بكر بسوء ، احتراماً لهذا الجوار . وظلت كذلك إلى أن عافت أن يغتن أبناؤها ، ففكت أبا بكر إلى مجيره ، فمّا كان من أبي بكر إلا أن رد على ابن الدغنة جواره (١) .

(٢) يقول الطبري في كلامه على غزوة أحد ، رواية عن ابن إسحق : « وقد كان الحليس بن زبان أخو بني الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، مربأني سفيان وهو يضرب في شدة حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عتقاً فقال الحليس : يا بني كنانة اهذه سيد قريش يصنع بابن عمه ماترون لحماً . فقال : « ويحك اكتمها على فإنها كانت ذلة » (٢) .

(٣) ويحدث الطبري في خبر الحديدية عن ابن إسحق عن الزهري فيقول : « ثم بشروا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، قال : « إن هذا من قوم يتألمون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ . إعظاما لما رأى ، فقال : « يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل ، صد الهدى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله . » قالوا له « اجلس ، فأما أنت رجل أعرابي لا علم لك . . . » ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال « يا معشر قريش اواقه ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عقداكم ، أن تصدوا عن بيت الله من جاء

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) الطبري - طبعة ليون ، المجلد الأول ص ١٥٣٧ .

ومعظمها له . والذي نفس الخليس يده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ،
أو لأنفرن بالأحايش نفرة رجل واحد .

فقالوا له : « ما لكف عنا يا حليس حتى تأخذ لأنفسنا ما نرضى به » ،^(١)

(٤) بروى الطبري في خبر الحديدية أيضا عن ابن إسحق أن النبي دعا
جراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على جمل له يقال
له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . ففقروا به جمل رسول الله ، وأرادوا
قتله ، فنبذته الأحايش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ^(٢) .

وقد عرف الرسول كيف يفل قوة الأحايش التي كانت تعز بها قريش .
وسلك إلى تلك الغاية طريق السياسة وطريق العنف معاً . فأما السياسة فإنه
اجتنب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التي تنتمى إليها أحياء الأحايش . فكانت
خزاعة كما بروى ابن إسحق ، « مسلمهم ومشرکهم عيبة نصح رسول الله ﷺ
بتهامه ، صفتهم معه ، لا يخفون عنه شيئاً »^(٣) . كما أن غفارا^(٤) وهي من كنانة ،
وأسلم^(٥) وهي من خزاعة ، أخذتا جانبه ؛ ووردت في الثناء عليهما أحاديث
عدة . فلما كان صلح الحديدية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ، ودخلت
في عقده ، كما دخلت بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقد قريش . وأما العنف
فتبينته في غزوة بني المصطلق سنة ٦ للهجرة . بهذه السياسة المحككة انكسرت
شوكة الأحايش كما يرى من موقعهم في صلح الحديدية .

(١) الطبري - المجلد الأول ص ١٥٤٢ .

(٢) الطبري - المجلد الأول ص ١٤١٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ٥٨٩ .

(٤) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٢٥ .

(٥) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٢٥ .

وفي يوم فتح مكة قاتلت الأحابيش خالد بن الوليد بأسفل مكة قالوا
يسيرا^(١).

واستعانة أهل الحواضر بأهل البوادي كانت ظاهرة سياسية عامة في بلاد
العرب قبل الإسلام . فمما كانت الأحابيش بالإضافة إلى قريش ، كانت الأوس
والخزرج بالإضافة إلى يهود يثرب^(٢) ، وكانت بنو عامر بن صعصعة بالنسبة
إلى ثقيف بالطائف^(٣) . ولقد عاهد يهود خيبر بنى فزارة على نصف غلة أرضهم
إذا هم حاربوا معهم النبي ﷺ^(٤) .

(٣)

وبعد ، فلقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تكن من
الأحابيش في شيء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد مسلوقة الحقنوق
العامة ، ومسخرة لأشراف مكة في حال السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة قد
شرى بالمال ، وبعضها كان من قلول حملة أبرهة الحبشي على الحجاز .. يقول
الأزرق^(٥) : « وأقام بمكة قلال من الحبش وعسفا . وبعض من ضمنه العسكر
يعتلمون ويرعون لمكة » . ويقول صاحب الأغاني^(٦) : « وكان لعبد الله بن أبي
ربيعه عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا . فروى عن
سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله ﷺ : هل لك في حبش بنى المغيرة

(١) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

(٢) السهودي : ج ١ ص ١٢٥ (طبع مصر) .

(٣) ابن الأثير : ج ١ ص ٢٥٣ (طبع مصر) .

(٤) السهودي : ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) أخبار مكة للأزرق ص ٩٧ .

(٦) الأغاني : ج ١ ص ٢٢ .

تستعين بهم؟^(١) فقال لا خير في الحبش : إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا .
 وإن فيهم لحلفين حسنين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس . فلما ظهر الإسلام
 بمكة أسرع عدد وافر من هذه الطبقة إلى اعتناقه ، فحضر ذلك عليهم اضطهاد
 أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش .
 من هذه الطبقة المخلوبة على أمرها أبو رافع ، وبلال بن رباح ، وعامر بن
 فهيرة ، ووحشي قاتل حمزة يوم أحد ، وصواب حامل لواء قريش في ذلك اليوم .
 كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص في كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرير
 بعضهم من الرق .

ومما يدل على تمييز هذه الطبقة من الأحايش قول الطبري في غزوة أحد^(٢) :
 فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحايش وعبدان أهل مكة ،
 وعطف عبدان على ما قبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح
 ويان كما يرى الآب لآمانس^(٣) .

بهذه التفرقة بين أحايش قريش وعبيدها يستقيم قول النصوص التي
 أوردناها أن الأحايش كانوا حلفاء قريش ، وقول صاحب باب النقول^(٤) :
 « واستأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين من الأحايش » ، فالمخالفة والاستئجار
 إنما ينضبان على الأحرار دون الأرقاء .

وعندما دون عمر بن الخطاب الدواوين أفرد لهذه الطبقة ديوانا خاصا ، سماه
 ديوان الحبش . يقول الماردي^(٥) : وذلك لما كان بلال منهم ؟

(١) وذلك عند مسيره إلى هوازن

(٢) الطبري المجلد الأول ص ١٣٩٩ .

(٣) باب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٢٥ من الطبعة المصرية .

(٥) الأحكام السلطانية (وضع الديوان)

دار الأرقم المخزومي

لقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من دخلوا في الإسلام في السنوات الأربع الأولى من بعثة النبي ، عليه السلام ، فإذا هم بضع وثلاثون نفساً ، جلهم ممن كانت فصل بينهم وبين محمد صلة قرابة أو صداقة . ولقد يعلل بطء الدعوة في تلك السنين العجاف من حياة الإسلام بأن محمد لم يكن يجد فيها من حرية القول وأمن المضطرب ما يمكنه من إيصال الدعوة إلى من هو مستعد لقبولها من خاصة قريش وعامتها . لقد كان أبداً معرض أذى وإعنات ، كما كان النفر الذين أتبعوه أبداً معرض فتنة واضطهاد .

ولقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من هاجروا إلى الحبشة في العام السادس للبعثة ، فإذا هم لا يتجاوزون مائة نفس غير من تحمل معهم من ذرايعهم ، فيهم الرجل والمرأة ، والحر والعبد ، والصريح في نسب قريش والدخيل . لشدة ما أعقبت هذه السنوات الست العجاف من حياة الدعوة الإسلامية سنوات سمان ؛ ففي نحو ستين اثنتين بلغ عدد من دخل في الإسلام مثلي من دخلوه من قبل ، إذا قدرنا أن مهاجرة الحبشة كانوا ، على أقل تقدير ، على النصف من عدة الجماعة الإسلامية .

وليس من شك في أن تلك الثقلة العجيبة راجعة إلى أن محمداً أصبح يجد في هاتين السنتين ، من حرية القول وهدوء السرب ما لم يكن يجده من قبل . ولقد وجد محمد الأمرين جميعاً في دار من دور مكة ، لم تنب به ، ولم يضق صاحبها به وبأصحابه ذرعاً ، كما ضاق كثير غيره ، تلك هي دار أرقم بن أبي الأرقم المخزومي .

والأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة سبقوا الناس جميعا إلى الإسلام . وهو من بني مخزوم ، وكان بنو مخزوم ممن نصب للنبي العدواة ونفس عليه الرسالة . فقد فسروا قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، يقولهم : أي على رجل عظيم من أهل مكة ، كالوليد بن المغيرة المخزومي ، أو من أهل الطائف كمروة بن مسعود الثقفي . وكان خالد بن الوليد بن المغيرة هذا قائد خيل مشركي قريش في وقعة أحد ، وبتيديره انكسر جيش محمد عليه السلام في تلك الغزوة المشهورة .

ولاشك أن سبق الأرقم المخزومي إلى الإسلام دليل على أن دعوة الرسول غزت من أول أمرها أمتع صفوف أعدائه وألدّها خصومة . وقد هاجر الأرقم إلى المدينة ، وحضر مع رسول الله بدرًا وأحدًا والحنديق وسائر مشاهد صلى الله عليه وسلم .

وقد عمر طويلا ، فقد توفي عام ٥٥ هـ عن سن عالية جاوزت الثمانين سنة . وأما دار الأرقم فتقع شرقي الكعبة ، على منحدر جبل الصفا ، يربها الباعون في سعيهم بين جبلي الصفا والمروة جنة وذهابا . ورؤخذ من لحوى الرواية القديمة أنها كانت فسحة ، وثيقة البنيان ، بحكمة الرناج ، ثم من مطلة على الكعبة والمسعى وغير بعيد من دار السيدة خديجة ، فكانت بكل هذه المزايا مركزا صالحا لنشر الدعوة الجديدة .

« دخل النبي دار الأرقم ، في السنة الرابعة من بعثته ، وجعل يدعو فيها ، كما يقول مؤرخو السيرة . وقضى النبي فيها سنتين أو أكثر قليلا ؛ وقد حقق عليه السلام ، في هذه الدعوة غرضين عظيمين : أولهما تقريره أصول رسالته في قلوب أصحابه ، وثانيهما بثه الدعوة من هذه الدار في جميع آفاق المجتمع المكي . وفي

طاقة الخيال المحدود أن يتصور ما كان يجري عادة في تلك الدار أيام مقامه عليه السلام بها . فما هو ذا في صدر فناء الدار بسمته ووقاره وجاذبيته وروحانيته ، ومن بين يديه أصحابه ، وكلهم أوجلهم في مستقبل السن وغفران الشباب .
ما هو ذا ينزل عليهم ما ينزل عليه من الوحي من تلك السور المسكية الأولى ، بما اشتملت عليه من أمر بعبادة الله وحده ، وترغيب في ثوابه ، وتحذير من عقابه .

وهام أولاء أصحابه يلقفون كل كلمة تخرج عنها شفتاه الكريمتان وحيا كانت أو حديثاً .

وهام أولاء ينقلون دعاء ينشرون الدعوة في أنحاء مكة ، فيستجيب لهم من رأى في الدين الجديد جمالا وخيرا . وهام أولاء الراغبون في الدخول في الإسلام يسرعون إلى دار الأرقم ليعلموا إلى عهد دخولهم في دينه وقبولهم لرسالته . فمنهم من يأتي إليها تسلا وخفية ، كإفعل حبيب وعمار ومصعب بن عمير . ومنهم من يأتي إليها في وضع النهار ، كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وهامو ذا النبي يأخذ بمجامع رداء عمر وقد التبس عليه أمر مجبه ويجبذه جذوة يتزلزل لها قلب ذلك الفتى المتعنت الجامع ، فلا يملك أكثر من أن يعلن إيمانه بآله ورسوله . وهامو ذا النبي يكبر عندما يسمع إسلام عمر وهام أصحابه يكبرون من داخل الدار لتكثيره عليه السلام .

كان إسلام عمر بن الخطاب في ختام السنة السادسة للبعثة . عند ذلك يرى النبي أن قد آن أن يرحل دار الأرقم ، فقد كثر أصحابه ورسخت في قلوبهم دعوته ، فيرحلها ويواجه قريشا بأولئك الصحابة الذين أصبحوا من الخير كل الخير في أن يسم الدين الجديد مكة ، بل الحجاز ، بل جزيرة العرب ، بل العالم جميعا .

أما بعد، فقد عرف المسلمون في مختلف عصورهم لدار الأرقم عظيم حرمتها
وشرفها، فأولوها عناية بالغة .

اشترى أبو جعفر المنصور حق حفدة الأرقم فيها بمال كثير . والظاهر أنه
أراد أن يضاهي بعمله هذا ما عمله معاوية بن أبي سفيان من شرائه دار الندوة .
ثم صيرها المنصور لولي عهده المهدي . وصيرها المهدي لزوج الخيزران . ولما حجت
الخيزران سنة ١٧١ هـ وسعتها بأن ضمت إليها الدور المجاورة لها . بعد شرائها من
أصحابها . ويظهر أنه في ذلك الوقت أصبح مكان اجتماع النبي بأصحابه في تلك
الدار مسجداً أقيمت عليه قبة عالية ، وأن الدار كلها أصبحت تسمى بدار
الخيزران ، بعد أن كانت تسمى بدار الإسلام . وقد جددت الدار غير مرة بعد
ذلك ؛ وأشهر من عمرها عمارة حسنة الوزير أبو جعفر الأصفهاني في سنة ٥٥٥ هـ
كما يؤخذ من كتاب لا تزال محفوظة بها .

وانتقلت الدار من يد إلى يد، حتى صارت إلى السلطان العثماني مراد الثالث .
وكان السلطان سليم الثاني قد أراد أن ينشئ فيها مبرة عظيمة لفقراء مكة ،
فصرفته عن ذلك شواغل الملك .

فليت القائمين بأمر الحجاز يعتنون بأمر هذه الدار العظيمة ، فينشئوا فيها
مدرسة تعلم فيها أصول الدين الإسلامي، فلعمرى لقد كانت أول وأعظم مدرسة
في الإسلام ، ومنها سال السيل وانبتق النور ؟

أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال ، مطلق العاطفة ،
جزل الالفاظ ، مری المعاني ؛ إذا لاستطاع أن يصرغ للقراء من سيرة
أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عسما يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة ،
وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية
بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة في أشرف معانيها .

ولكن صاحب هذا المقال ، وأسفاه ؛ ليس شيئا من ذلك الشاعر الذي
يتمنى أن يكونه . إن هو الا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها
الوطنية جهد طاقته ، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له
ولا بمحاولة التناثر والتخليق ، ويكنم عاطفته حتى لا يطنى عليه سلطانها فيتسكب
سيل المؤرخ الذي همه البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ؛ فليقتنع
القارى الكريم بالصورة الجملة التي أرسما في هذا المقال ، حتى يتأذن الله
بظهور شاعر عظيم ينظم الالباذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك
السيدة يكون من أبلغ ما خطه براع شاعر وأروعه .

كانت جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي قد أخذت تنبأ للأحداث

(١) الرسالة ، ٢٠ أبريل ١٩٢٦ .

الجسام التي تخضع عنها القرن السابع ، وقد بدا ذلك التهيؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامة ، سياسة كانت أم اقتصادية أم اجتماعية ، وبهنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة .

كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول في حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة إلى النحو الذي أقره في جلته الإسلام فيما بعد ، فأخذت ثلاثي ضروب الأزواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحا ، ويحمل عليها نظام الزواج القائم على التراضي والتعاقد .

وصاحب هذا التطور الخطير في بناء الأسرة تطور خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية ؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الإرث ، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف في مالها ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا في الحياة الملكية العامة قيل الإسلام وفي عصر النبوة .



ولدت خديجة بمكة حوالي منتصف القرن السادس المذكور . وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وكان خويلد من قاد قريشا في حرب الفجار ، ثم هي ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي ، ولا يعرف عن فاطمة شيئا ، غير أن الذهبي يقول في جدها عمرو بن خنسر المزني أنه كان من أبطال الجاهلية . فنسب خديجة لأبيها وأما يدل على أنها تنتمي إلى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصي ، وإلى قبيلة من أعز قبائل مضر هي عامر بن لؤي ، واكتفت عمود هذا النسب الجليل

فروع وحواش زاهية زاهرة ، قد منها عثم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومته حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فاما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى في صنيعه لبني هاشم والمطلب عندما حصرهم قريش في الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا في تلك العصابة المستنيرة التي يعرف أحادها باسم المتحنفين ، قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوراة والإنجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة في ميوله الأدبية والدينية ، فكانت بمن ينظر في الكتب ، على حد تعبير القدماء ، ومن هذه الفروع آخر خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجال قريش ، وهو والد الزبير بن العوام حوارى رسول الله .

خديجة من أوسط نساء قريش نسا ، كما يقول مؤرخو العرب ، وإذا جاز للتورخ أن يلحظ عمل الوراثة في هذا المقام ، فإننا نقول إنها ورثت عن أبيها مزايا السؤدد العربى ، من نبل وكرم خلق ، ووفاء وشجاعة ، كما لفتت عن عمومته تلك الاستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحاني الذي أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر .

تزوجت خديجة مرتين في مستقبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرة النخعي . ثم توفي أبو هالة فعدت أيماء . وقد ورثت على ما يظهر عن أبيها وزوجها ميراثا قويا رأت أن تقوم على استغلاله في التجارة التي كانت مرتزق قريش في ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تسأجر الرجال في الأتجار لما يمالها لقاء نصيب تسببه لهم من الربح .

لكن خديجة الحسية النقية ، الثرية الوسيمة ، لم تزل بعد نصفاً في النساء ،
عروانا بين الشباب والكهولة ، قد شارفت الأربعين ولما تعدها ، وهي ست لها
عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذه ، وكان غير واحد من كبار
قريش حريصاً على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تنأى على الخطاب ، لا رغبة
منها في العزوبة ، فهي أعمر قلباً وأضرم شباباً من أن ترغب فيها ، ولكن لأن
الأيدي التي كانت تمتد لخطبتها ليست من العراز الذي يعجبها . لقد فضج قلبها ،
وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد الكف والمثيل ، ومن لها بالعقل الراجح ،
والقلب الكبير في مجتمع خشن ، ككثيف غليظ ؟ أصبحت لا يروقهـا ذلك
السؤدد العربي الجاهلي بما ينطوى عليه في واقع الأمر من بداوة واعرايسة ،
لا يمكن أن تبقى منهما إلى ظل ظليل .

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت
تتطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق في أفق المجتمع المكّي ، ويوشك أن
ينكشف عن كوكب وقاديل الكون نوراً هادياً . وحرارة تبعث فيه الحياة
قوية بعد أن لم يبق له منها إلا الذمء . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة
لا من الوهم ولا الخيال . أنها كانت صورة فتى لا يزال مغموراً ، ولكن كل
محايله كانت تؤذن في فطر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة
جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله .

كان محمد إذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الحلقة ،
مشرق الطلعة ، ذليل المظهر ، كريم الخبر . وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها
بمكة أحد غيره . كان زاهداً في الناس ، عزوفاً عنهم ، إلا ما اقتضته ضرورة
المعاشة والمساكنة ، نزوعاً إلى التفكير ، محباً للعزلة ، قادعاً للشهوة رادعاً

لنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغدا أنه في وحشته ،
وانبساطه في انقباضه ، وغناه في اقلاله ، قد حد ما بينه وبين الناس بمحد واضح
المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم ان تتجاوز هذا الحد فتغص عليه نعمة باله ،
وتفسد عليه هدوء سر به .

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقانا شديدا عندما كانت تلح هذا الفتي
العجيب ، يروح لطيفه ويغدو في طرق مكة وأسواقها وأنديتها ، وأدركت من
فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولكن كيف تفضى إليه بدخيلة نفسها ،
وتبته لآعج حبا ؟ ان الحسب والنسب ، والخقر والحيا ، كل ذلك كان يمنعها
أن تكون هي التي تخطو في الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى .
لقد كانت الموقف دقيقا كل الدقيقة ، حرجا كل الحرج فلنسر في الأمر بمحذر
واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرتها وقية لحياتها .

انها كانت تستأجر الرجال في الاتجار لها بما لها وتساهمهم بنصيب مسمى من
الربح ، فلم لا تستأجر محمدا وتضاعف له الجعل الذي كانت تجعله لغيره ؟
وانشأت من فورها تحجب عن هذا السؤال ، فوسطت إلى محمد من عرض عليه
ورغبته . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر إلى الشام في صيف عام ٥٩٤ متجرا
في مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينبى إلى
السيدة عند عودته جملة حاله في السفر ، فلم يجملة حاله في السفر والحضر . وباع
محمد ، واشترى ، ولقي الرهبان بإيادية الشام ، وتحدث إليهم ، وتحدثوا إليه ، ثم
عاد وقد ربحت التجارة ربحا وفيرا . وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد
في السفر من رقة الثبائن ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ، فعلبت السيدة عند
ذلك أن قلبها لم يكذبها ، فقطعت كل تردد ، وأجمعت أن تخطو هي الخطوة

الأولى ، ونقول هي الكلمة الأولى ، وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه ، فذهبتا إلى محمد لتلوح له بالامر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة - يا محمد ! ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد - ما يبدى ما أتزوج به !

نفيسة - فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمل ، والمال ، والشرف ،

والكفاية ، ألا تجيب ؟

محمد - فن هي ؟

نفيسة - خديجة !

محمد - وكيف لي بذلك ؟

نفيسة - على !

محمد - فأنأفعل !

لا شك أن محمدا لم يقل مقاله الأخيرة إلا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورهما نحوه ، وبعد أن أصبح يادها علقا بعطف ، وتقديرا بتقدير . نعم إنها أسن منه ، ولكن ذلك ليس شيئا بالقياس إلى محاسنها وفضائلها الكثيرة التي جعلته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه : وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضه خديجة على عمها ، فكل وافق ، وبني محمدا بعد أن أصدقها عشرين بكرة كايروون .

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأودعها وأهتها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر

في محمد كرم الخلق ورقة القلب ، وروحانية النفس ، وكان هو يقدر فيها
رجاحة العقل وكثرة العطف عليه ، والأعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته
في منزله . ومطابقته فيما يجب وما لا يجب .

ولأنفس ان محمدا لم يكن كآثر الرجال يعيش كيفما اتفق . فهو رجل
كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يعلم . ولا كل الشراب يشرب ،
ولا كل الملبس يلبس . ولا بكل الزينة يزدان . ثم هو مبال بطبعه إلى العزلة
مؤثر للصمت ، مغيل للفكر . فعلى جليبه وعشيرته أن يعرف فيه كل ذلك
وبرعاه له ، وقد عرفت ذلك خديجة ورعته له أتم رعاية ، فلا شك أنها كانت
تعد له ما يستطيعه من الدباء والعسل والتمر المنقوع في اللبن المخلوط بالقشاش
أحيانا ، ولا شك أنها كانت تقل في طعامه من البصل والثوم الذين كانت تعاف
كثرتهما نفسه . كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدبهاته . فقد كان
محمدا يحب أن يبرز للناس عطر الجسم ، نظيف الملبس . ولا شك أنها كانت توفر
له الهدوء في المنزل . وإذا جنح إلى الخلاء أو التحدث في الغار لم تقطع عليه
سكوته . بل أعانتته على ذلك بإعداد الزاد الذي يحتاج إليه . فإذا طالت غيبته
افتقدته من غير ازعاج له . ولا تكدير لصغره نفسه .

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفية بزوجها . فإنها كانت مثال الأم المعنية
بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير إبراهيم . رزق منها القاسم وبه
كان يكنى . ثم ولدت له زينب ورقية . وفاطمة وأم كلثوم . وكل هؤلاء ولدوا
قبل النبوة . ثم ولد له في الإسلام عبد الله الذي عرف بالطيب والظاهر . وقد
مات الغلامان صغيرين .

أما البنات فكلهن أدركن الإسلام . وتزوجن ، وهاجرن . وقد انضم إلى

هؤلاء على بن أبي طالب . ضمه لثني إلى أولاده تخفيفاً عن عمه أبي طالب وكان فقيراً كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعمل أولادها وتنشئهم ، غير أن ماورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة . روى ابن سعد عن الواقدي قال : « وكانت سلى بنت حبة مولاة عبد المطلب فقيل خديجة في ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام فيشأتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها ستة ، وكانت تسترضع لهم . وتعد ذلك قبل ولادها ، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تنخير الأزواج لبناتها عفى التي أشارت على النبي بأن يزوج أبا المعبص بن الربيع من بنتها زينت . فلما زفت إليه أهبتها خديجة قلادة كان لها شأن فيما بعد سيرد ذكره . ولما أرادت قریش حمله على أن يطلق زينب نكاحه في محمد أبي أن يفارقها مع أنه لم يكن قد أسلم بعد . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية قلبا توفيت ورآه النبي حزينا مهموما لطيفان زوجه أختها لم تكلوهم وكانت فاطمة عتيق زوجها على بن أبي طالب بالمحل الرفيع والسكان الممتاز

لكن فضل خديجة الأكبر وغررها الحالد خلوة الزمن ، انما هو في موقفها من زوجها عندما نبى . ومن الدعوة الإسلامية التي أخذ يدعو اليها بعد خمس عشرة سنة من زواجه منه

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادىء السرب ناعم البال ، وأصبح له منزل يأوى اليه وأهل يسكن اليهم ، فانصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الجليوة وإطالة الفكر فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى في مسلكه

بأبى . فلما لحى الوحي محمدا ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذبول
والخبرة ، ورجع إلى منزله رعبا جارا ، وقال لخديجة : « لقد خشيت أن يكون
بى جين » ، لم يكن منها إلا أن ثبتت فؤاده ، وسكنت خاطره بمقاتلها المشهورة :
واقه لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، ... وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ،
وتقوى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ... الخ ، ثم أنها انطلقت من
غورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . وقصت عليه خبر زوجها . فبشرها ورقة
بأن الذى رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى . وقد
أنهجت تلك المقالة فؤاده وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها .
فيكانت بذلك أول من صدقه وآمن به . روى الطبري بإسناده إلى عفيف
البيكندي أنه قال : « كنت امرأة تاجرا ، قدمت أيام الحج ، فأثيت العباس .
فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلى معه . فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة
فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه . فقلت : يا عباس ما هذا
الدين ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى
وقبصر سبئ فتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام
ابن عمه على بن أبى طالب آمن به ، قال عفيف . فليتنى كنت آمنت يومئذ ،
فيكنت أكون ثالثا . »

ولم يزد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخا . ولا يقينها إلا قوة ، ولا تعلقها
بزوجها إلا شدة ، فكانت فى سنوات العشر الأولى للبعثة ، وهى السنوات التى
توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أبما
إضطهاد ، كانت خديجة فى تلك السنوات إلى جانب زوجها تريض بتأييدها
محنه ، وقاسم بمطقتها جراحه . روى ابن الأثير بإسناده قال : « وكانت

خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به ، فتخفف الله بذلك عن
رسوله لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه
بها ، إذا رجع إليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدق ، وتهون عليه أمر الناس .
ولم تتردد خديجة عندما جد الجد ، أن تشرك زوجها في محنته ، وتقاسمه مر
العيش كما قاسمته حلوه ، وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة . فعندما اشتدت
قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم في الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ،
كانت خديجة في الشعب تقاسي ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سننها
واضمحلال بنيتها : فلما قامت قريش إلى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين
المجهودين . كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش
إلا قليلا . وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة . بالغة من العمر
خمسة وستين عاما . وقد دفنها الرسول بالحجون . وسوى عليها التراب بعد أن
نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة .

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفي نفس العام عمه أبا طالب .
وهو الذي كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أهدائه . فاجتمع على محمد
في وقت واحد خطبان فادحان . ورزآن بالغان . ولكن لا شك في أن داخل
ورثته كان الأفصح : وباطن جرحيه كان الأذى . لقد تهدم صرح سعادته
المنزلية . وغدت الحياة مشقة له في الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه
الله في الداخل والخارج .

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه . وأكرم من ألا ينسى لحبيب
صدقه الحب . وأصفاه الود . ولو باعدت بينه وبينه طباق النوى . وكذلك

كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد وفى لها في حال الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها في حياتها ، فلما لجفت برها لم يبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه . وهم يرون في شأنه عليها ودوام تذكره لها أخبارا كثيرة ، يرون أنه فضلها هي ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها بيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب . وأنه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بقلادة قلبتها إياها خديجة ، لتفتدي بها زوجها أبا العاص بن الربيع وكان قد أسر يدرق النبي لذلك رقة شديدة ، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها وما لها ففعلوا ، وأنه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى إليهن منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثنى عليها ، والحق أن دوام تذكره لها حاج غيرة عائشة وهي بعد أثر نسانه لديه ، وأجملن ، وأصغرهن سنا . روى بن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت : وكان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا فقد أبدله الله خيرا منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبنى الناس ، وواسقتني في ما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء ، قالت : فقلت في نفسي لا أذكرها بسبب أبداً .

تلك بالإختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة ، يعرف فيها الفارئ المثل الأعلى للمرأة ، زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور في غير خروج على طبيعة الجنس ومواضع الناس منذ صار الإنسان إنساناً ؟

الهجرة^(١)

كان من أثر الإنجاء المادى الحديث فى فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شئ بالفلاسفة الكليين القدماء الذين كانوا يحدون الإنسان من عاطفة الخير ، ويعتقدون أنه أنانى بطبعه ، لا يصدر عنه الخير إلا رياء ونفاقا ، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى ويقضها نقضا صريحا . ولست أجد فى التاريخ الإسلامى أنقض لتلك الدعوى وأشد تكذيبا من حديث الهجرة التى وقعت زمن النبوة ، سواء أكانت هجرة الحبشة أم الهجرة إلى المدينة ، فى كلتا الهجرةين تجسد الإخلاص للعقيدة مجسما محسوسا والتزهد عن حطام الدنيا واضحا ملموسا . وإلى القارىء أسوق المقال الآتى توضيحا لهاتين الهجرةين فى ضوء الجاه العامة التى ابتعثتهما وأدت إليهما .

لقد حمل الإسلام من أول الأمر على ما كان لفريش من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة . فكان محمد يقرع أسماع قومه بما ينزل عليه من القرآن ناعيا عليهم وثنيهم المنحطة ، ونظامهم الاجتماعى الذى فرقهم أغنياء وفقراء وسادة وعبيدا ، مهجنا تكثرهم بالأحساب والأنساب ، مقبحا طرقهم المتسوية فى المعاملات . من تظيف الكيل والميزان وأكل أموال

(١) الرسالة العدد ٤٤ ، ٢٣ أبريل ١٩٣٤ .

الناس بالباطل . عذرا لهم إن هم أصروا على عتوم واستكبارهم أن يهيم
ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به إليها الرسل من أسباب
الهداية والإصلاح .

لم يجب هذه الدعوة التي تكفلت بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق
قليل العدد وسيط المكانة في المجتمع القرشى . أما الملأ من قريش فرأوا
دعوة صريحة إلى الفوضى وقلب الأوضاع . ورأوا في محمد نائرا يريد هدم
النظم التي درجت عليها الجمهورية المسكبة من قديم . ثم من يدرهم لعلمهم إن هم
اتبعوه التأف عليهم الأمر واضطرب الحبل ، فإن الهدم عادة أيسر من البناء .
تلك كانت حجتهم في عدم متابعتها ، وهى حجة الجامدين على المصلحين في كل
زمان ومكان .

وكان موقف قريش من محمد أول الأمر سلبيا محضا . ولكن محمدا كان
النشاط واللباقة والفصاحة وقوة الخلق مجتمعة . فوجدت قريش نفسها يازاه
رجل لا كالرجال وخصم ليس كغيره من الخصوم ، فبى إن لم تعاجله عاجلها ،
وإن لم تقض عليه قضى عليها . لذلك أخذت تنجح في مقاومته خطة إيجابية
تدرجت فيها تدرجا . فكانت أول الأمر تستهزئ به وبدعوته وبمن اتبعه ، فهو
شاعر وساحر ومجنون ، ودعوته إنما هى محض خداع وغرور ، وأتباعه ليسوا
إلا أراذلها وسفاتها ، ثم جعلت تحاول إعجازه ومعانيته . إن يكن صادقا فيما
يدعى فليحول جبال مكة جنانا وأنهارا ، أو فليكن له بيت من زخرف ، أو ليرق
في السماء ، أو فليسقط عليهم كفا ، أو فليأت بالله والملائكة قبلا . ثم انتقلوا
من هذه المعايير الدالة على قصر عقولهم إلى التعريض له بالمال والسلطان . فلما
أعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالآذى

والعذاب ، فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته ، ومنهم من كان يفتن من
شدة البلاء . .

عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التي هي آخر ما يلجأ إليه الحق
الضعيف في مقاومة المظلم القوي . أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهي أرض
قديمة الصلة بمكة . وبها ملك نصراني رشيد لا يضام من يلجأ إليه ويحتجى بحماه .
فخرج من مكة في شهر رجب من سنة خمس للنبوة زهاء مائة مسلم ومسلمة ،
وكلمهم جاز البحر الأحمر من الشعبة إلى بر الحبشة فتلقاهم النجاشي لقاء حسنا
وأذن لهم في المقام بأرضه آمنين على دينهم وأنفسهم . وقد أبي أن يخفر ذمته
لهم عندما أرسلت إليه قريش في رد اللاجئين إليه . فلما تبذلت الأحوال
بالحجاز وعلا شأن الإسلام به جعل هؤلاء المهاجرون يعودون إلى الحجاز
وكانت عودة بقيةهم إلى المدينة سنة سبع للهجرة أي بعد أن لبثت بأرض
الحبشة نحو خمسة عشر عاما ، وقد جرت الرواية الإسلامية النجاشي عن صنيعه
بهذا بأن اعتقدت إسلامه ، وبأن النبي ﷺ قد صلى عليه عندما بلغته وفاته .

ولما رأت قريش خروج من خرج إلى الحبشة من أصحاب محمد أرادت أن
تحسم مادة الخطر فاجتمعت كلمة ملتها على حبس محمد وعشيرته من بني هاشم
والمطلب في بعض شعاب مكة ، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم
وبين جمهور قريش ، وقد انفذت هذا الحكم ، وقضى بني هاشم والمطلب في
الشعب نحو ثلاث سنين قاموا فيها جهدا جامدا حتى لقد كان يسمع صوت
صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعا . وأخيرا قام في قريش من عطفته
عليهم عاطفة الرحمة والقرابة فسعى في إخراجهم من الشعب فأخرجوا .

على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التي سبقت إليه طويلا ، ففي السنة

العاثرة للنبوة أصيب بفقد عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، فخلا الميدان من
البصير الزائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤنس ، وأصبح محمد وجهاً لوجه أمام
عدو حق عليه كان يترقب فيه الفرصة ، فلما أمكنت استغلها استغلالاً . فجعل
يأخذ عليه المذابح ويعزى به السفاهة يعمدونه بالأذى والحرمان .

عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به على أصحابه منذ سنين
عندما اشتد تحامل قريش عليهم : يأخذ يفكر هو أيضاً في الهجرة . لقد دلته
تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة في واد
ونفخة في رماد ، وإذا بقيت المقام بواد غير ذي زرع حقيقة ومجازاً ؟ فليهاجر !
ذلك ما قر عليه رأيه . ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث
إلى العرب أولاً وإلى سائر الناس أخيراً . فليخرج إلى أقرب قرية عربية من
مكة : إل الطائف ، لعل ثقيفاً يجيره حتى يبلغ رسالته . ولكن ثقيفاً لم تكن
أبهر به من قريش ، فقد أعرضت عن سماع دعوته ، وضفت عليه بجوارها ، ثم
زادت فأغرّت به سفهاءها ، فازالوا يتعقبونه حتى الجأوه هو ومولاه زيد بن
خارثة إلى حائط من حوائط ثقيف وهنا . وقد خلا إلى نفسه وربه . فاضت
أشجانه واعتلجت في صدره همومه ، فانبعث يناجي ربه ، اللهم إليك أشكو
ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ! أنت رب
المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو
حكمته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي
أوسع لى . أعود بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلىح عليه أمر الدنيا
والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ،
ولا حول ولا قوة إلا بك . .

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها إلا في جوار سيد من ساداتها هو
المعلم بن عدى . وكف محمد مؤقتا عن توجيه الدعوة إلى قريش واكتفى
بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج لعل كل قبيلة تصنى إليه فينتقل
إليها ويبلغ دعوته في ظلها وسلطانها . فكانت القبائل ترد عليه بأنه لو كان صادقا
لا تبعه قومه ، إلا ما كان من أمر أهل يثرب . ففي عام ١١ للنبوة لقي النبي عند
العقبة ستة نفر من الخزرج فعرض عليهم الإسلام فأمنوا وصدقوا ، ووعدوه
أن ينشروا الدين الجديد في قومهم . تلكبيعة العقبة الأولى . فلما كان العام
القابل وافي الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، لقوا النبي عند العقبة
أيضا فبايعوه علىبيعة النساء ، وذلك قبل أن يشرع القتال ، على ألا تشرك بالله
شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا تقتل أولادنا ، ولا نأتي يهتان ففقرته من
بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف . فبن وفيم فلكم الجنة ، وإن
خشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب ،
تلكبيعة العقبة الثانية ، وبعث الرسول معهم صاحباً من أصحابه ديناً لبقاً فطنا
ليفقه القوم في الدين ، وفي الوقت نفسه لينبئ أحوال يثرب العامة ويسير
غورها وينهى إلى النبي ما يصل إليه من ذلك . ذلك هو مصعب بن عمير . وقد
أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه ، ثم عاد إلى مكة فأطلع الرسول
على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الإسلامية بها . فلما حل موسم الحج وافي
مكة جم غفير من الأوس والخزرج ، مسلمهم ومشركيهم . فواعد المسلمون
منهم رسول الله أن يلقيه عند العقبة ليلا ، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلا
وأمرأتان ، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهي تقوم على تعهد
الأوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والحرب من دونه ، يقول الطبري

هـ فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهدهم ، هل أنا منك وأنت منا ، وعلى أنه من جاءنا من أصحابك أو جئنا فإنا نمنعك عما يمنع منه أنفسنا ، وبهذه البيعة أصبح للرسول يثرب أنصار يؤرونه وينزدون عنه .

لكن ندرك السبب في مسارعة الأوس والخزرج الى قبول الدعوة الإسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه ، ينبغي أن نلم بحال يثرب في السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية ، فمن الناحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدت الأنصار لقبول الدعوة الإسلامية ، لأنهم أهل كتاب منزل ودين مشروع . وكان الأوس والخزرج يلقفون منهم معنى النبوة والرسالة والوحي ونحو ذلك من المصطلحات الدينية . ثم إن اليهود كانوا كدأهم يتوقعون ظهور نبي منهم يجمع شملهم ويعيد إليهم سلطانهم وقهر بهم أعداءهم ، وكانوا لا يعدمون أن يروحوا بشيء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج . قال ابن اسحق عند كلامه على استجابة الأنصار لدعوة النبي في بيعة العقبة الأولى : « وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم بيلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوه بيلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نينا مبعوث الآن ، قد أطل زمانه تتبعه فقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلوا ، والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام . »

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبل الهجرة أبلغ من تصوير الحالة

المدينة في فهم قبل الانصار دعوة النبي والتزامهم الدفاع عنه يلد لهم . لقد كانت
 الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الأوس والخزرج
 التي سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثارات . وكانت الغلبة بوجه عام في
 تلك الحرب للخزرج على الأوس ، حتى لقد همت الأوس حوالى السنة العاشرة
 قبل الهجرة أن تجلو عن المدينة جملة ، وأخذت تفاوض قريشا في أن تأذن لها
 بالنزول عليها بمكة ، ولكن قريشا كانت أحرص من أن تأذن بذلك ، فلما طلبت
 إليها الأوس أن تحالفها على الخزرج أبت أن تتورط في شيء من ذلك أيضا .
 فعادت الأوس تلتصق الحلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير . وكان
 اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق ، فلما بلغ الأمر الخزرج
 أرسلت إلى اليهود تحذرم عاقبة هذا الحلف إن تم ، فلما أكد اليهود أنهم غير
 معالي الأوس عادت الخزرج تطلب منهم رهنا أربعين غلاما من غلمانهم يكونون
 بأيديهم ضمانا لهذا الحياد . فلم يسمع اليهود إلا أن يسلموا إليهم الضمان الذي طلبوا .
 ولكن الخزرج كانت قد قرمت إلى أرض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع
 يثرب فأقبلت تتجنى على اليهود وتخبر قريظة والنضير بين أمرين كلاهما شر : فإما
 أن يجلوا عن يثرب وينزلوا لهم عن أرضهم ، وإما أن تقتل غلمانهم . فلما رأت
 أن الخزرج قد لجأت في طغيانها ، وأن جباها لن يجر إليها خيرا ، عند ذلك
 خرجت من جباها وحالفت الأوس صراحة ، قتل الخزرج الغلمان وعقدت
 حلفا مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قبيلة بنى قينقاع ، وبذلك استحالت يثرب
 عسكرين تشد فيهما السيوف وترش النبال استعدادا للواقعة الفاصلة .

وقد وقعت الواقعة الفاصلة في يوم بعث الذي كان قبيل الهجرة بنحو
 خمس سنين . في ذلك اليوم أدبل للأوس وحلفائها ، من الخزرج وحلفائها ، وقتل

من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرفهم . جاء في صحيح البخارى عن عائشة : « كان يوم بعث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملوهم وقتلت سراهم ، ويفسر السموذى هذا الحديث بقوله ، ومعناه أنه قتل فيه من أكابره من كان لا يؤمن أن يتكبر ، ويأنف أن يدخل في الإسلام ، إلى أن يقول ، وقد كان يبق معهم من هذا الخط عبد الله بن أبي بن سلول . . . وكذلك ابو عامر الراهب . . . فشقيا بشرهما . »

ورأى أهل يثرب غداة يوم بعث أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الأموال ، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعا ، وأنه أولى بهم أن يقيموا يثرب حكومة تزع القوى وتأخذ بتناصر الضعيف . وكان عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي قد رأى غدر قومه في الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان يده من غلمان اليهود ، ولذلك اتجهت إليه أنظار القوم وهموا أن يملكوه على يثرب ، وأقبلوا ينظمون له الحرز ، وكان ذلك شارة الملك عندهم . ولكن يظهر أنه لم تكن هناك رغبة صادقة في تملكه . أما الأوس فكانت تسكره أن يصير الأمر إلى خزرجي مهما تكن فضائله ، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولى رجلا وسما بالفدر وخذلها عند الحرب ، فكان بذلك مستولا إلى حد ما عن هزيمتها . وأما اليهود فلا شك في أنها كانت تستسكف أن يلى أمرها مشرك ولو كان ابن أبي نفسه .

فلما لقي حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج واطلموا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالتهم المنشودة . فبروحه الرجل الذى تستقيم على يده حاكم المختلة ، وتجتمع على حكمته آراؤهم المختلفة ، هو نبي عرب ينزل عليه الوحي

من السماء ، وبذلك يحتجون به على اليهود . نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر
أجنيا عن يثرب ؛ ولكن حكومته لن تكون أجنبية . أليس الأنصار هم الذين
سيكونون عدته ومادته ؟ فأى حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة ؟
إذن فليعدلوا عن تمليك ابن أبي ، وليأبوا محمدا ، وليكن ذلك في غية ابن أبي ،
وليكنتموا ذلك الأمر عنه كتمان النبي إياه عن قریش .

تلك كانت الحال المعنوية للأنصار عندما بايعوا النبي بعهدهم الثلاث بمكة .
قال ابن اسحق عند كلامه على العقبة الأولى : « ... وقالوا له ، للنبي ، إننا قد
تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله
بك ، فنستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من
هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول
الله ﷺ راجعين إلى بلادهم . وروى ابن اسحاق أيضا عند كلامه على
بيعة العقبة الكبرى : « ... فافترض القوم أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول
الله إن يتنا وبين الرجال حبالا وإننا قاطعوها . يعني اليهود ، فهل عديت إن نحن
فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال قبسم رسول الله
ﷺ . ثم قال بل الدم الدم ! والمهدم والمهدم ؟ أنا منكم ، وأنتم مني ،
أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . فالمسألة من ناحية الأنصار لا تبدو أن
تكون حلقا سياسيا قوامه الفكرة الدينية . أما من ناحية الرسول فلم تكن
كذلك . فالرسول إنما كان يريد إذ ذاك بلدا يأمن فيه على دعوته وأصحابه ،
وقوما يحمون ظهره حتى يبلغ رسالته . وقد أصبح ذلك مكفولا له بالبيعة
الآخيرة ، وإذن فلم يبق إلا الرحيل من مكة إلى المدينة .

ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه في الخروج إلى يثرب في
أواخر ذى الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوّة . فجعلت جماعاتهم عندما استهل
الحرم تخرج من مكة أرسالا وتزل على الأنصار في دورهم . فخرج في نحو
شهرين زهاء المائتين . وقد أقفرت دور برمتها بسبب الهجرة ، من ذلك دور بنى
مظنون وبنى جحش وبنى البكير . قال ابن هشام وقفلت دار بنى جحش هجرة ،
فر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة .
وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا ليس
فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها التكبّاء والحبوب
ثم قال هذا عمل ابن أخى هذا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا ،
ولم يبق بمكة من المسلمين إلا النّبي وأبو بكر وعلى وإلا من كان مفترقا أو
محبوسا أو مريضا أو ضعيفا عن الخروج .

وأحست قريش الخطر الذى أصبح يهددها من جراء تلك الهجرة وذلك
لحلف الذى عقده محمد مع أهل يثرب . فأجتمع ملؤها في دار نذوتها ليقلب
الأمر على وجوهه ويصدر فيه رأيا حاسما . وهنا افتزلت بها الآراء وتشعبت
المذاهب ، فنهّم من رأى أن يحبس محمد حتى يموت ، ومنهم من رأى أن ينفي
من البلد ، ومنهم من رأى قتله . والظاهر أن الرأى الأخير هو الذى اجتمعوا
عليه آخر الأمر . وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله « وإذ يمكر بك الذين
كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »
ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتع على عشيرته المطالبة بدمه وأمرؤا فينا من بطون
قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل ويرضى

يؤ هاشم بديته.

ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأسرع إلى الخروج خفية من داره إلى دار صديقه أبي بكر ، وكان قد أعد عدة السفر إلى المدينة ؛ دليلا وظهرا وخادما وزادا . وخرج الرسول وأبو بكر إلى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام احتاجت فيها قريش احتياجا شديدا وجعلت لمن يأتي بالنبي حيا أو ميتا جملا مبنيا . وإلى حادث الغار يشير القرآن بقوله ، إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ، إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بخوده لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز ذو انتقام .

توصف الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها حزنة وعرة موحشة ، ليس بها ما يرفه عن المسافر في بلاد العرب من ماء أو خضرة ثم هي يشقها طريقان : أحدهما شرقية محاذية لنجد ويمارز طولها الثلاثمائة ميل بقليل ، والآخرى غربية محاذية لساحل البحر الأحمر وقرب طولها من مائتين وخمسين ميلا . وقد آثر الدليل الذي اتخذ أبو بكر هاديا له وللرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية . غير أنه كان ينحرف يمنة ، ويسرة قليلا لمن عسى أن ترسله قريش في إزم . فخرج بالجماعة من جبل ثور أسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك رافقه بن سنان طامعا في قتل الرسول وأخذ جمل قريش ، ولكنه وجد معه أمام أربعة أشداء فكان قصاره أن نجما بنفسه بعد أن أعطى الرسول وأصحابه موثقا ألا يدل عليهم . ثم سار الدليل بهم إلى أبح قديد ، فلما قارب بدرا مال بهم يمنة إلى العرج ، ثم هبط وادى العميق الذي يؤدي إلى المدينة . ولكن النبي أمر بأن يكون المسير أولا إلى قباء قرية بنى عمر بن عوف . فبلغها ظهر يوم

الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانية أيام .
وأقام النبي ثلاثة أيام بقاء وثق فيها من حسن استقباله بالمدينة . فلما كان يوم
الجمعة خرج من قباء إلى المدينة بحف به ملأ بئى التجار . وقد لحقه بقاء على بن
أبي طالب بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع . ولما
اطمأن الرسول بالمدينة أتقذ إلى مكة من حمل إليه أهل بيته .

ليس يسيرا على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التي لحقت المهاجرين
الأولين من جراء هجرتهم من وطنهم إلى بلد ناء ومعشر غريب . لقد كان أول
مظهر لهذه المشقة أن تأثروا بجو المدينة الوخم لأول قدمهم فاعتلت صحتهم
وأصابتهم الحمى وعراهم داء الحنن إلى وطنهم القديم ، حتى لقد كان بعضهم يهذى
بذلك إذا أخذه دوار الحمى . روى البلاذرى بإسناده عن عائشة أم المؤمنين
أنها قالت : لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان من
اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فيرة . فكان أبو بكر يقول في مرضه :

كل امرئ مصيب في أهله والموت أدنى من شرك نعله
وكان بلال يقول :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة بفخ وحول أذخر وجيل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل تدون لى شامة وطفيل
وكان عامر بن فيرة يقول :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حنقه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

قال فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا

مكة وبأرك لنا في مدعا وصاعا ،

وتمثل هذه المشقة كذلك في العاقبة الشديدة التي صار إليها المهاجرون بسبب الهجرة . فقد خلف أكثرهم أمواله بمكة فعدت عليها قريش فاعتصبتها تنقيا من أصحابها . روى صاحب أخبار مكة ، إنه قيل للنبي ﷺ يوم الفتح (فتح مكة) ألا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال وهل ترك لنا عقيل من لا . قال وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقيل لرسول الله ﷺ فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك فأبى رسول الله ﷺ وقال لا أدخل البيوت ، فأنزل مضطربا بالحجون ، وكان يأتي المسجد من الحجون ، ويروي ابن هشام أن عبد الرحمن بن أبي بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته ، فلما كان يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فناداه أبوه : أين مالي يا حييت ؟ فأجابه عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة وبعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

ويروي ابن هشام كذلك ، أن صبيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صلوكا حقيرا ، فكثير مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صبيب . أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا نعم . قال فإني جعلت لكم مالي . قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صبيب ! ربح صبيب ! ، ويروي ابن اسحق أنه لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعوا من عمرو بن علقمة ... فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ

ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة؟ قال على ما قال
 فذلك لك . فلما انتح رسول الله ﷺ مكة ، كله أبو أحمد في دارهم فأبطأ عليه
 رسول الله ﷺ . فقال الناس لأبي أحمد يا أبا أحمد ! إن رسول الله ﷺ
 يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب في الله عز وجل ، فأمسك عن
 كلام رسول الله ﷺ (فيها) ، وما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول هدمهم
 بالمدينة أن الرسول عندما خرج بهم إلى وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة دعا الله
 في رواية الراقي قال : اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراء فاكسهم ، وجياع
 فأشبعهم ، وعالة فاعنهم من فضلك .

من أجل تلك العاقبة كان المهاجرون في السنوات الأولى من الهجرة عالة
 على الأنصار . وذلك مظهر نالك للحقوق المشقة بهم - نعم إن الأنصار أكرموا
 وفادتهم كل الإكرام وواسوم أتم المواساة ، ولكن تلك الحال ليس من
 السهل على كرام النفوس احتمالها . يرى البلاذري أن النبي عندما أراد قسمة
 غنائم بني النضير قال للأنصار : : ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن
 شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً ، وإن شئتم أمسكن أموالكم
 وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا
 ما شئت . فزلت الآية (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) قال
 أبو بكر : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما
 قال الغنوي :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلت بنا نعلنا في الواطين فزلت
 أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذي يلقون منا ملك
 فذو المال موفور وكل معصب إلى حجرات أدفات وأظنت

من أجل تلك المشقة التي نالت المهاجرين الأولين في سبيل الله اعتبر القرآن
هجرةهم هجرة إلى الله ورسوله ، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع
طبقات المسلمين درجة وأجر لهم ثوبة ، وفرض مثل هجرةهم على كل مسلم عند
خوف الفتنة ولحوق الضيم ، قال تعالى : إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم
قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله
واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك ظأوام جهنم وساءت مصيرا : إلا المستضعفين من
الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك
عسى الله أن يغير عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في
الأرض مراعما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم
يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما .

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عندما اتخذ هجرة
الرسول من مكة إلى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سنينهم وأيامهم
ويؤرخون منه أحداثهم ووقائعهم . إنه لا شك قد لحظ في الهجرة أنها بدو
رسوخ الإسلام ، ولسكننا نلاحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظرا رائعا لعناصر
الحياة القوية الثيلة : حياة الألف والتضحية والإخلاص ؟



مسجد قباء

كيف كان الرسول يسوس أصحابه

لقد تحدث المؤرخون فأكثروا عن قدرة الإسكندر قديما ونابليون حديثا على اختيار الرجال واجتذابهم واصطناعهم ؛ فوصفوا صبر أصحاب الإسكندر على أهوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق أسفاره البعيدة المترامية ؛ وبينوا كيف بلغ من إخلاص أصحاب نابليون له أنهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة إلبا ، لم يسعهم إلا ترك صفوفهم والانضمام إلى نابليون ، فاضطر لويس الثامن عشر إلى الخروج من فرنسا هجلا .

ولكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون مع ذلك أن الإسكندر عندما طارحت به فتوحه إلى أقصى المشرق وأراد التوغل في بلاد الهند ، امتنع عليه جنده وحملوه على أن يعود بهم أدراجه ، وأن رجال نابليون لم ينتصروا لقصيته بعد كسرتة في واترلو ، بل إن قائدا من أعظمهم هو المارشال ناي الذي لقبه نابليون بأشجع الشجعان قد اضطرب في ولائه بين آل بوربون ونابليون ، فخر بذلك على نفسه البوار .

ليت أولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبد الله ! إذا علموا أن الرسول العربي قد بز الأولين والآخرين في اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته في حياته وبعد مماته . ذلك بأن محمدا لم يكن يتنزل من أصحابه منزلة فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علوا في الأرض

ولكن منزلة الأب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بأدواء النفوس
وأساليب علاجها ؛ وكان عليه السلام يروضهم ويوسمهم على هذا الاعتبار
وحده ، ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه السلام مع أصحابه بعض
ما يوضح هذه الرياضة ويملئ تلك السياسة .

عندما هاجر الرسول وأصحابه من قريش إلى المدينة رأى أن يحكم أسباب
المودة بين المهاجرين والأنصار ، فعمد إلى المؤاخاة بين الفريقين ، فكان يؤاخى
بين المهاجرين والأنصار ، مرتباً على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون
في الحياة ، والتوارث بعد الموت . وقد غلّ التوارث جارياً على هذا النظام إلى
أن شرعت أحكام الميراث ، فصار التوارث يجرى على مقتضاها .

إلا أن فريقاً من أهل المدينة يزعمهم عبد الله بن أبي وقرفوا من الدعوة
الإسلامية وصاحبها موقف العناد والمعارضة ، ونظروا إلى الرسول والمهاجرين
نظراً إلى قوم دخلوا عليهم بدم وراحوم فيه ، واستبدوا به دونهم ، فكانوا
يتطلعون إلى الإفلات من النظام الجديد والعود إلى الحال السابقة بالمدينة .

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن وعرفتهم السيرة . وقد لقي الرسول
منهم عتاشاً شديداً ، ولكنه كان يداريهم ويحتاط منهم في أناة ورفق يستثيران
منتهى الإعجاب ! من ذلك ما حدث في غزوة بني المصطلق سنة ٦ للهجرة . فإنه
لما فرغ الرسول من قتال بني المصطلق أقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه
ويستقون ؛ فازدحم على الماء واقتتل عليه رجلان أحدهما يقال له جهجاه الغفارى
كان أجيراً لعمر بن الخطاب ، ويقال للآخر سنان بن برة الجهنى كان حليفاً
للأنصار ، وصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! فضرب عند ذلك عبد الله بن أبي ،

وطلق يلوم من كان حاضرا من قومه لأنهم أحلوا المهاجرين ديارهم ؛ ولج به الغضب حتى قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وهي المقالة التي سجلها القرآن الكريم . وبلغت مقالة ابن أبي رسول الله . فأنقم لذلك غما شديدا ؛ وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن أبي ، فأجابه الرسول : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ ، ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الأمر أمر من فوره بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن من عادته أن يسير فيها . وراح عليه السلام وأصحابه يطاؤون المراحل ويصلون النهار بالليل سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة ؛ وإذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوها . فهذا عبد الله ابن أبي قد أتى إلى الرسول يحلف له أنه ما قال ما بلغه عنه ، وهذا ابنه يطالب إلى النبي إن كان لا بد أمرا بقتل أبيه أن يتولى هو ، أي الابن ، قله ، فيقول له الرسول : « بل قترني به ونحسن صحبته ما بقي معنا ، وهؤلاء رهط عبد الله بن أبي قد استخذوا لسوءك ابن أبي ، وأصبحوا كلما أحدث حدثا هم الذين يعتفونه ويؤنبونه .

هنالك أقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آتف لو أمزتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : « لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

وإلى القاريه مثلا آخر قد يكون أبلغ مما تقدم في بيان ما نحن بهنده .
رووا أنه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى أكثر من كان معه أن الرسول أعطى في هذا العهد أكثر مما أخذ ، فهم لم يدخلوا مكة في عامهم ذلك بل سيعودون من حيث أتوا ، وقد قيل الرسول أن يرد على قريش كل من أتى

إليه منها بغير إذن وليه . وإن لا ترد إليه قريش من يأتي إليها عن مع محمد ،
وفوق ذلك قد رد الرسول إلى قريش أبا جندل بن سبيل بن عمرو ، وهو رجل
مسلم انقلب إلى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح ، وساور الناس غم شديد
أشرف بهم على الهلاك حتى أنهم عند ما أمرهم النبي أن ينحروا بدنهم ويحلقوا
رؤوسهم لم يعطهم منهم رجل واحد . فدخل الرسول على زوجته أم سلمة ،
وذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له ... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة
حتى تنحر بدتك وتدعو حالك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم
كلمة حتى نحر بدته ودعا حلقه فحلقه ؛ فلما رأى القوم ذلك توابوا ينحرون
ويحلقون .

وفي رواية ابن اسحق عن ابن عباس أنه خلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون .
فقال رسول الله ﷺ : « يرحم المخلقين » ، قالوا والمقصرين يا رسول الله . قال
« يرحم الله المخلقين » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال : « والمقصرين » ، فقالوا
يا رسول الله ، فلم ظهرت الترحم للمخلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » .

• • •

ويروون أنه كان عليه السلام قد خص المؤلفة قلوبهم من قريش وقبائل
العرب من قبائل هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلها أحدا من الأنصار ، فوجد
الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ، ودخل عليه
مسعد بن عباد وأبلغه رأى قومه ، فقال له الرسول : « فأين أنت من ذلك
ياسعد ؟ » قال : ما أنا إلا رجل من قومي قال « فاجمع لي قومك في الحظيرة ،
فلما جمعهم مسعد أتاهم رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« يا معشر الأنصار ! لقد بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ! ألم أتكم

ضلالاً فهداكم الله وعالة فأهناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم؟
 قالوا: بل الله ورسوله آمن وأفضل . ثم قال : ه ألا تحيوني يامعشر
 الأنصار؟ .

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : ه أما
 والله لو شئتم لقتلتم ، فلصدقتم ولمصدقتم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ، وغدولنا
 فنصرناك ، وطريدنا فأويناك ، وعائلا فأسيناك . أوجدتم يامعشر الأنصار في
 أنفسكم في لماعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلبوا ، ووكلتم إلى إسلامكم ؟
 ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالثاة والبعر ، وترجعوا برسول
 الله إلى رحابكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ،
 ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار .
 اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .
 قال فبكي القوم حتى أخضلوا الحام ، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا
 ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

من هذه المثل تدبين الأسس التي كانت تقوم عليها سياسة الرسول أصحابه .
 كانت تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق ، بذلك كان عليه السلام يقتاد
 المعصي ، ويتألف النافر ، ويحمل المحسن على أن يزداد إحسانا . على أن الأمر لم
 يكن مجرد تأليف وحلم ورفق ، بل كان من وراء ذلك كله الأسرة الحسنة والروح
 المتبقي والقلب الرحيم ، والخلق العظيم ، والعلم بطباع النفوس وأسرارها الذي
 لا يدرك كنهه ، ولا يسير غوره ؟

من ذكريات الحج

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطوفت في الآفاق شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ؛ فكنيت في كل أسفارى السابقة أشعر ، من شدة تعاقب بأهل بيتى وأولادى وخواص شئونى ، كأنى غادرت قلبى ورائى ، فكنيت دائم التلفت كثير التذكر لى . خلفت وما خلفت . ولكنى عندما يسر الله لى العام الماضى حج بيته العتيق . وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأنى عجبا من العجب ! فقد شعرت كأن قلبى أمامى ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلت إلى الوراء . ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجه إلى الامام ، واندفاع ، بل انجذاب نحو الغاية التى تركت من أجلها من أحب وما أحب . بل لقد أنسيت نفسى ، وكنت مريضا موعوكا ، وكان الطبيب قد رسم لى بما أتداوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحكمة فى ذلك النسيان .

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو المشرق ، وماهى إلا أن تراءت سواحل الحجاز ، ورفعت لنا قمجباله ، حتى عرا الركب نوع من الوجد والهام يعرفه العشاق المعاميد ، ويعرفه المقربون الواصلون من الصوفية . وحاذت بنا السفينة رابعا ، فأذن مؤذنها أن أحرموا إليها الحجاج ، فاهى لإسويحات قلائل حتى خيل لى أن أهل السفينة قد استحالوا ملانكة أظهارا :

(الزمالة عدد ١٨ ٢٤ مايو ١٩٣٩ .)

أشباح قد اشتملت عليها ثياب بعض سلاذجة ، ونفوس مطمئة راضية ، ووجوه
 وحيثة مستبشرة ، وألسنة بالثبية والدعاء منطلقة لاهجة . وكان لذلك المنظر في
 الركب جمال أى جمال ، فأما الشيب فقد غاط فيهم وقار السن جمال التقي فزادهم
 روعة ومهابة ، وأما الشباب فقد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة الصبا ، فملتهم
 مسحة من التوقر والاطمئنان اللطيف ا

• • •

وما يرح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة واستقلنا السيارات نؤم
 مكة أم القرى . فبلغناها في المزيغ الثاني من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو
 نحس نصبا ، على بعد الشقة ، واتصال الحركة ، وامتاع النوم إلا غرأرا فوق
 متن السفينة أو تهويما على ظهر السيارة . وراح محبي وقد شارفنا البلد الأمين ،
 يتذاكرون الحديبية ، وذا طوى ، وغار حراء ، وغار ثور ، وغير ذلك من
 المعاهد التي أثارَت في أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه ونأناته ، وذكريات
 ذلك النضال العظيم الذى كان بين محمد وقريش ، بين الإسلام الهادى والوثنية
 الضالة ، بين الحق الأبلج والباطل اللجلج ، نعم وذكرى ما احتمله الرسول
 وعصابته القليلة في سبيل الدعوة ، من تكذيب ، واضطهاد ، وعدوان ،
 وانزعاج آخر الأمر عن الأهل والوطن والمال .

وبلغنا النزل الذى أعد لقائنا بأعلى مكة ، فقدقنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا
 نؤم الحرم لنطوف بالكعبة ونسعى بين الصفا والمروة . وإن أنس لا أنس
 مشهدنا وقد انتظنا مركبا واحداً وأخذنا نتحدر من المعلاة في جوف الليل
 الأبيم ونسير رويدا رويدا ، ومطوفنا بين أيدينا يهتف علينا بصوته الأجلش ،
 فتردد نحن الثلية بأصوات منبعثة من أعماق قلوبنا ، فتجاوب بأصدائها جنات

الطرق وتمضي صعداً في السماء . لقد كان المشهد رهيباً رائعاً ، ومنه عرفت كيف
تتم الروحانية في الإنسان على المادية متى استغرقته الفكرة السامية وتولاه
الإيمان العميق .

ثم يقف المطوف ويقف الموكب لوقوفه ، فإذا بنا قبالة باب عظيم من
أبواب الحرم الكثيرة . ونحن بين الأنفاس ، ونحب القلوب ، وتمتد الأبصار ،
كأنما تريد أن تلفظ بنظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذي كان يضم
في تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والقائمين والركع السجود .
وكنت قد قرأت في بعض الكتب وصف الحرم المكي فلم يشق علي أن أتبين
معاليه لأول منولى فيه . فهذه الكعبة مؤطرة بالسواد ومختلة قرارة المسجد
ووسطه . وهذا الحجر الأسود يزاحم الناس على استلامه ، وهذا حجر اسمعيل ،
وهذا المطاف من حول الكعبة يتدافع الطائفون فيه تدافعا ، وهذا مقام
إبراهيم ، وتلك بئر زمزم يردعا الطائفون ويشربون منها علا بعد نهل . وهذا
سائر المسجد من حول ذلك كله . والمسجد في جملة مسقوفة حواشي ، وأما
سائر فسقه السماء وفرشه الحصاء ، وتطل عليه جبال أبي قيس وقميعان
والصفا والمروة .

وأما لك بقعة هجبية قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشاداً ، واحتفلت
فيها مظاهرها الرائعة احتفالاً لقد تمثلت فيها السماء بنجومها وكواكبها ، والأرض
بسبلها وجبلها ، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة ، فأنا حر لارض ، وأنا
برد قارس ، وآوة جفاف تغلص منه الشفاء ، وأخرى سيول دافعة تنحط من
أعلى الجبال وتستقر حول الكعبة نفسها ، وأنا سماء مصحبة وجو طلق ، وأنا
صحاب مركوم ، ورعد مجلجل وبرق خاطف .

كم للتعب في هذه البقعة بعينها من تعاقب التوجه المباشر إلى الواحد القهار
المسخر لقوى الطبيعة ، والمصرف لها على هذا النحو الذي لا يحتمل جدلاً
ولامراء ، وكفى بهذا التعب باعثاً للعب على الإثابة والإحبات والخشوع ، وكفى
به مشعراً لقلبه بمقارة الإنسان وضعفه وعجزه ، وبأنه إنما هو ذرة في محيط
هذا الوجود الذي لا يسير الوم غوره ، ولا يدرك الخيال مداه . هنا يجد
الإنسان نفسه وجها لوجه أمام ما يعرف في الفن الرفيع والآدب العالي بالمعظيم
والجليل حساً ومعنى .

إذا كان الحرم المكي يوحى إلى النفس معنى ما هو قوى ورائع وجميل ،
فإن الوقوف بركة - وهو أهم مناسك الحج - وحيا آخر ومغزى
عظيم الشأن .

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلو متراً . ويشرف على هضبة
مترامية الأطراف ، يترها الحجيج في مضاربهم وخيامهم ، معهم أزوادهم
ورواحلهم وسياراتهم التي تقلهم . فإذا كان عصر يوم الوقوف بركة أخذ
الحجاج يخرجون من خيامهم فيصعدون في الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه ،
ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم ، ثم يعودون وقد طفقت الشمس للغروب
مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حطت عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من
حياتهم . يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم . ولقد وقت
برقة مع الواقفين ، ودعوت الله مع الداعين ، وأشهد أن المنظر رائع ، بل
هائل ! وأي منظر أشد هولاً من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء
ولكن من خلايق موج بعضها في بعض ، فتحس لما هممة البحر المحيط أو

الجيش اللام ؟ ومع ذلك فكل ملق السلاح ، وكل مقر بالضعف ، معترف بالعبودية ، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها ، فلا فاضل ولا مفضول ، ولا سيد ولا مسود ، ولا رفيع ولا وضع . لقد جاءوا الله كما خلقهم ، وكما يقبضهم ، وكما ينشئهم النشأة الأخرى . لقد ردوا أنفسهم في ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التي يتساوى فيها الناس جميعا ، وعلوا أن ما سواها متاع الغرور .

وإذا كان الحج بركنيه العظيمين من طواف بالكعبة ووقوف بعرفة يوحى معاني الجلال والبساطة ، فإن في الحجاز مشهدا ثالثا ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس ، ولكن شهوده واجب على المسلم في شرعة الذوق السليم على أقل تقدير . ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة . ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا ، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يهزنى شوق يختلف عن ذلك الذى كانت تضطرم به جوانحي عند توجعنا إلى مكة . لقد كان الشوق الأول شوقا إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير . أما الثانى فكان شوقا إلى المعلوم غير المجهول ، إلى إنسان أثير حبيب .

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على الثاوى بالمدينة عليه السلام ، فهو حبيب إلى الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته ، وهو حبيب إلى الإنسانية بما أسدى إليها من صنيع باق على الزمان .

شارفتنا المدينة فتواردت على الذاكرة أحداث ذلك البلد الذى يعد في مقدمة البلدان التي أثرت في تاريخ العالم أبلغ التأثير . ألا إنه إذا عدت أثينا عظيمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة ، وعدت روما عظيمة بما بعثت في عالم السياسة من دولة غلبة ، فإن المدينة عظيمة بالأميرين جميعا ،

وكفاهما علماً أنها مهد المدينة الإسلامية والدولة العربية، ومثوى محمد بن عبد الله.
 وطفقتا تجول في خطط المدينة وطرقها الضيقة الملتوية ونشقت فيها ريح
 القدم وعظمة الماضي وتعرف معالمها ومعاهدها. هنا بركت ناقة الرسول لأول
 قدومه المدينة، هناك السح الذي نزل أبو بكر، تلك أطام اليهود، هذا أثر
 الخندق، ذلك جبل أحد، تلك سقيفة بني ساعدة، هذا البقيع، وهذا مهوى
 الأئمة وعط الرحال، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف.
 ألا لقد رأيت في أسفاري قبور كثير من عظماء الشرق والغرب، وأشهد أني
 لم يأخذني شيء من الرهبة والهيبه التي أخذتني عندما وقفت جبال قبر الرسول
 العربي. إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمكان. أما
 عظمة محمد فطيفة ليس للمكان ولا للزمان عليها سبيل. أولئك وردوا وشلا
 تحت أقدامهم وفي متناول أيديهم، أما محمد فورد بحر الحقيقة الطامى وسر
 الوجود الخافي قهـل وعـل، أولئك بادوا وأصبوا أحاديث، أما محمد
 فاستحال قوة في هذا العالم كقوى الطبيعة باقية مابقيت الأرض والسماء.

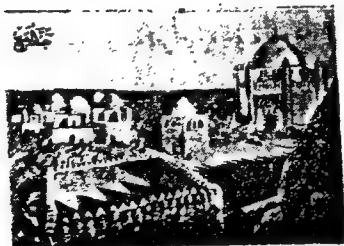
والمسجد النبوي تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفة الروح والوقار والهيبه.
 وقد لزمه الطابع الذي كان له على عهد الرسول، طابع منزل الرسول، ومجلس
 الرسول، ومسجد الرسول؛ فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسنت أنك في
 منزل صديق حميم أو أخ كريم. كل شيء فيه يبعث فيك الانس وينبئ عنك
 الوحشة، فأنت في منزلك، على حد تعبيرنا المألوف؛ تلك السقوف العالية
 تبدل منها التريات الوهاجة، وتلك البسط الوثيرة، وتلك النقوش المذهبة
 تغشى الجدران، وتلك المحاريب الأثرية النفيسة؛ وتلك القبة المذهبة في السماء،
 كل ذلك فيه معنى اللطف ومعنى الانس، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان.

الصادق والإنسانية الصحيحة . الحرم المكي يريك معنى الإله والالوهية ،
والحرم المدني يريك معنى الإنسان والإنسانية .

كل ما في المدينة جميل : جمال في الطبيعة تعرفه في الماء والزرع والسهل
والجبل ، وجمال في الخلق تعرفه في دعة أهل المدينة ، الذين رضى أسلافهم
الأصهار برسول الله قسما وحظا في حياته وبعد مماته ، ثم جمال ثالث في المسجد
وفي الذكرى التي يثيرها ، جمال في جمال في جمال .

•••

أما بعد فإن الجلال بمكة ، والبساطة بمرقة ، والجمال بالمدينة . ولست
أعرف قطرا آخر أجمع لهذه المعاني الثلاثة من الحجاز ؟



رسالة الحج

تأليف الأستاذ ح. ع. (١) (دبلوماسي)

الأستاذ ح. ع. من خيرة رجالنا العاملين في السلك الدبلوماسي ، مثل
مصر ولا يزال يمثلها في ممالك الشرق العربي ، فأفاد من ذلك خبرة نادرة بأحوال
البلاد العربية في الوقت الحاضر ، وأنشأ لنفسه بخلفه وإخلاصه ونشاطه مكانة
عالية عند ملوك العرب وسائهم وأدبائهم وعلماهم . وإن لسعيد بأن أقول إن
أطلعت على ذلك بنفسى في بعض تجوالى في ربوع الشرق الأدنى والأوسط .
وقد واتى الحظ الأستاذ ح. ع. وسأعفته ظروف عمله الدبلوماسى فأدى
فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس في أنشائها على هدى التاريخ وفي
ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامى الجليل المعداد خامس أركان الإسلام .
ثم صاغ خلاصة دراسته في رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة ، يعرف فيها
من يطالعها بلاغة الأديب ، وفكرة الفيلسوف ، وزعة المصلح المؤمن برسالة
الإسلام وإمكان إنهاء المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم
وسنتهم الأولى . فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن الحج ، ومن خير
ما أخرجته المطابع المصرية في هذا العام .

(١) نشرت بالعدد ١٢١ من الرسالة (السنة الثالثة) بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٥ .

(٢) هو المرحوم الطيب تذكرو الأستاذ حافظ عامر بك .

ينبغي الأستاذ على المسلمين في صدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد من الناحية العملية الحكمة التي قصد إليها الشارع من تشريعه . فهو يقول :

« أما بعد فقد أديت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجيج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وحدثت كبارهم وذوى العقول منهم ، ودرست بفكرى وعينى وقلبي ، فكنت أرى وأفكر وأبحث وكنت أستلهم كل شيء . حكمت وكل مكان وجه ، وكل عمل سره ، فظهر لى أخيرا أن الحج لا يزال مجهولا فى حقيقته ، وأن الذين يحججون إنما يؤدون عملا فرديا محضا ، ولا يعرفون إلا ظاهرا من الأمر ... »



والرسالة تنقسم ثلاثة أقسام ، أولها فى أن الإسلام دين إنسانى عام ، وأنه دين المساواة التى تظهر فى شكلها المادى المحسوس فى الحج ، وأن الكعبة من العالم الإسلامى بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه إليها فى الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثانى يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفيل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذى دعا إليه الفلاسفة أمثال روسو ولكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفى مزايا نظام الكشافة ويربى عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الإسلامى فى أسمى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جذير بأن يصبح مؤتمرا عاما لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة إسلامية على أن تحج كل عام قرا من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأى والمشورة ، والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها مما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم » .

على أن الجديد الممتع في هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التي عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التي خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقفية لا مجال لتفكير العقل البشري فيها ، فالأستاذ يتناولها منسكا منسكا : من الإحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعي بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمي الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدى ، إلى إستلام الحجر الأسود والإهلال بالنبلية ، فإذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حِكمتها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير .

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الإسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجيا الأخذ بها حتى يتفجع المسلمون بنظام الحج .

وإن الذي يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتنمى أمرين : أن نحمد دعوة الأستاذ ح.ع. من أولى الرأى في العالم الإسلامى آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، ولا يجرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من ثقات براعه ، فهو يراع بصدور عن فكر ناضج وعاطفة نيرة ٩



عمر بن الخطاب في عام الرمادة

(١)

عرف الناس عمر بن الخطاب في الجاهلية قى في خلقه جفاء وشدة . وعرفوه في عهد النبوة محاييا من أمضى الصحابة عزيمة ، وأغلظهم على معاندى الدعوة الإسلامية من الكفار والمنافقين ؛ وعرفوه في خلافة فاتحا عظيما ومنظما قديرا . ولكن الناس لم يعرفوا عمر را عياره و فاعيته كل الرأفة ، وأبا لأمته شفيقا عليها كل الشفقة ؛ وإن يكونوا قد فعلوا فهم لم يعرفوه من هذه الناحية الإنسانية حق معرفته ، ولا قدروه حق قدره .

ونحن نجلو على القراء من تاريخ الفاروق صحيفة يضاء مشرقة ، تصوره لنا حاكما شديد الشعور بالمسئولية عن ألقيت إليه مقاليد حكمهم ، حتى لقد أزلهم من نفسه منزلة دونها منزلة النفس والولد والأهل والشيرة . تلك صحيفة سيرته في الشدة التي نزلت بحزيرة العرب في العام المعروف بعام الرمادة .

ويسمى أخباريو العرب بعام الرمادة : العام الذي بدأ من منصرف الناس من الحج في سنة ١٨ هـ ، وامتد إلى موسم الحج من سنة ١٩ هـ ؛ وسمى بعام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبعت لذلك بالرماد .

ولقد دم عمر بن الخطاب من أمر الناس في ذلك العام شيء عظيم . ففطرة

الحاكم الإنسانى الشفيق كانت تمثل له هوى القسط وفك الجوع بالناس ؛ وقطرة
السياسى الرشيد كانت تؤدى إليه أن قلب الدولة العربية الناهضة يوشك أن تلم
به سكتة يكون فيها انتصار تلك الدولة وذهابها .

ولكن عمر تجرد للأمر تجردا . وعلم أن فى إنكار الذات ، ومضاء
العزيمة ، وسرعة المبادرة ما يكفل تهوين الشدة على أقل تقدير . فأنشأ يأخذ
الناس بالاقصاء فى معيشتهم ، وجعل يخلطهم بنفسه ويمش كواحد منهم . فكان
يطامهم أول الامر الثريد من الخبز مآدوما بالزيت ، وزباجا نحس لهم فى أيام
معينة جزورا يجعل لها على الثريد ، ويأكل مع الناس عما يكون . ويرى أنهم
غرفوا له ذات مرة أطياب الجزور « فإذا قد من سنام وكبد ؛ فقال : بخ البخ !
بش الوالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كرايسها ، وأمر مولاه بأن
يرفع هذا الطعام ويحمله إلى أهل بيت مقفرين ، وأن يأتيه هو بخبز وزيت .

على أنه لم يلبث أمام اشتداد الحال أن حرم على نفسه وأهل بيته لذائذ
العيش من سمن ولحم وفاكهة . ولذلك قصص يروونها عنه ؛ منها أنه أتى مرة
بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلا بدويا فأكل معه . فجعل البدوى يتبع الودك
فى جانب الصفحة ، فقال له عمر : إنك مقفر من الودك ؟ فقال : أجل !
ما أكلت سمنا ولا زيتا ، ولا رأيت أكلا له مذكزا وكذا قبل اليوم . خلف
عمر لا يذوق لحما ولا سمنا حتى يحيا الناس . وكان بطنه ربما تفرق من أكل
الزيت المطبوخ على النار ، فكان يقول : تفرق ! لا والله لا تأكله حتى يأكله
الناس . وكانت لابته عيدة الله همة فجعلها فى التنور ، فخرج ريمها على عمر
وهو فى نفر من أصحابه ، فقال : ما أظن أحدا من أهلى اجتراً على هذا ! وقال
لمولاه أسلم : اذهب فانظر من أين هذه الريح ، قال : فوجدت البهمة فى التنور ،

فقال عبيد الله : استتر على سترك الله ! قلت : قد عرف عبيد أرسلني أني لا أكذبه . قال : فاستخرجها ، ثم جاء فوضعها بين يديه واعتذر إليه من أن يكون علم بها . وقال : أنا كنت اشتريتها لابني قمرم إلى اللحم ، فذبحت له وشويت .

ونظر يوما إلى بطيخة في يد بعض ولده ، فقال : بخ ! بخ ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلي ؟ فخرج الصبي هاربا وبكى ، فسأل عمر عن أمر تلك البطيخة فقيل له : اشتريت بكف من نوى . فسكت عمر .

وتشتد المجاعة في داخل الجزيرة ويهجم الشتاء ، وتعصف ريح الموت بأرجائها فتحمل القبائل من بواديها إلى الخواضر عامة ، والمدينة خاصة ، على عادة أهل الحدود في النواصب والأزمات ، فأزلهم عمر بأرضها فيما بين رأس البنية ، إلى بني حارثة ، إلى بني عبد الأشهل ، إلى البقيع ، إلى بني قريظة . وأزل منهم طائفة بني سلة ؛ وكان عمر يتعاهد بنفسه . قال أبو هريرة : برحم الله ابن حنطة ، فقد رأيت عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرايين ، وفي يده عككزيت ، وإنه ليعتقب هو وأسلم . فلما رأي قال : من أين يا أبا هر ؟ قلت قريبا ، قال : كن معنا . فحملنا ذلك حتى اتينا إلى حرم نحو عشرين بيتا من محارب . فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا الجهد ! وأخرجوا لنا جلد مينة مشويا كانوا يأكلونه ، ورمة عظام مسحوقا كانوا يستفونها . فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم اقتزر ، فإزال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شعوا . ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبرة لحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم كسام وكان يختلف إليهم حتى رفع الله ذلك .

ورأى عمر أن الأقطار المفتوحة إن يكن فيها خير فذلك وقته . فكتب إلى عماله عليها يستعينهم ويستجدم . وإلى القارىء نص الرسالة التي دارت بينه في هذا الشأن وبين عمرو بن العاص عامله على مصر : **و من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص : سلام عليك . أقراني هالكا ومن قبلي ، وثعيش أنت ومن قبلك ، فياغرثاه اثم ياغرثاه . فكتب إليه عمرو : سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الفوث . فلا بعث إليك بعير أو لها عندك وآخرها عندى والسلام .** ويظهر أن عامل الشام والعراق ردا بمثل هذا المعنى . فأما أمداد مصر فوردت في البحر الأحمر في عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك . وبعث عمرو في البر بألف بعير تحمل الدقيق والزيت . وبعث بخمسة آلاف كساء . وبعث معاوية من الشام بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق ، وثلاثة آلاف عباءة . وبعث سعد من العراق بألف بعير عليها الدقيق . وندب عمر من ثقات رجاله من استقبال المدد الوارد في البر من مصر والشام والعراق ومال به إلى البادية . وأمره أن يجعل الظروف ، أي الأوعية ، لحفا يلبسونها ، وأن ينحر لهم الإبل يأكلون من لحومها ويحملون من ودكها . وبعث إلى الجاز ، وكانت إذ ذاك مرفأ المدينة ، من حمل ما بعث عمرو في البحر إلى تهامة فأطعمه الناس .

وقد نظم عمر توزيع الطعام على الناس توزيعا ساذجا ، ولكنه واف بالغرض المطلوب . فكفون لجنة تتولى ذلك مؤلفة من أربعة نفر ، هم : ابن أخت النمر ، والمسور بن غرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود . وكان كل رجل من هؤلاء الأربعة على ناحية من المدينة . واتخذ عمر مواعيد عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم من أيام معلومة

عشرون جزورا من جزر بعث بها عمرو من مصر . ومن لم يحضر العشاء العام من العيالات والصبيان والمرضى أرسل إليهم طعامهم في منازلهم . هذا في الأيام التي يباح فيها أكل اللحم . أما في الأيام الآخر : فكانت عمر يأمر بالزيت فيصير في القدور الكبار على النار حتى يذهب حره ، ثم يترد الحبز ويؤدم بذلك الزيت . وكان متادى عمر ينادى : من أحب أن يحضر طعامنا فياكل فليفعل . ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأمله فليأت فياخذ .

وكان نفر الذين سمينا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه ما كانوا فيه . فسألهم عمر ليلة وقد تعشى الناس : أحصوا من تعشى عندنا فأحصوهم من القابلة فوجدوا سبعة آلاف رجل ، وأحصوا من أرسل إليهم الطعام في منازلهم فوجدوا أربعين ألفا . ثم أحصوهم بعد ليال فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف ، ووجد الآخرون خمسين ألفا .

خير أن ذلك الجهد كله لم يزد على أن يخفف من وطأة المجاعة ؛ فلقد كان متعترا أن ينقل إلى الجزيرة في تلك الأيام من المأوى ما يكفي لسد حاجة أهلها دفعة واحدة ، كما كان مستجيلا ألا تتأثر الصحة العامة بهذا النوع من الطعام الحشن الجشب ، الذي اضطر إليه الناس اضطرارا ، وحملوا عليه حملا . فوقع الفناء في الناس ، حتى قيل إنه ملك في تلك السنة من العرب الذين نزلوا بأرض المدينة نحو ثلثهم . وكانوا يزيدون على مائة ألف . هذا عددا من هلك في داخل الجزيرة .. وكان عمر يأتى بنفسه فيصلى على الموتى . ولقد روى مرة وهو يهلى على عشرين جمعا . فلما تاهت الشدة إلى تلك الحال لم يبق عمر بالأمم ولا ضاق به ذرعا . بل نهج في تفريج الكرب وتهوين الخطب منها جديدا هداه إليه فكره السليم وقبه الكبير .

عمر بن الخطاب في عام الرمادة

(٢)

لقد كان عمر بن الخطاب أكبر قلباً وأصح تفكيراً من أن يقف في
مكالفة الشدة التي نزلت بالجزيرة عام الرمادة عند الناحية المادية وحدها . لقد
علم أن الناس إذا صار أمر بطونهم شغلهم الشاغل ، وهمم الناصب ، فربما
انقلبوا سباعاً عادية وذئاباً ضاربة يأكل بعضهم لحم بعض ، كما وقع عند بعض
الأمم في مثل تلك الحال . فنبغى إذا أن يعصموا من الكفر والهلاك ، أو من
التدهور والانحطاط بعاصم الدين ووازع العقيدة . ينبغى ، وقد خوت بطونهم ،
أن تعمر قلوبهم بذكر الله ، وأن يتوجهوا إليه سبحانه في الشدة كما يتوجهون
إليه في الرخاء . ولعمر الحق ! لو لم يكن من وراء ذلك إلا أن يردوا إلى خالقهم
وإل أنفسهم من معرفة الفرع والمطلع ، ويستقبلوا الموت راضية نفوسهم ،
مطمئنة قلوبهم ، لكنى ؛ فكيف والصبر على الحن والشدائد من صفات المتقين
دلائل الايمان الصادق الصحيح !!

ومن ثم جرد عمر لمنازلة ما حل بالناس من آفات الجوع والعري والمرض
قوة الدين ووسائلها من دعاء وصلاة وابتهال وأخذ بالصبر على ابتلاء الله
وتحميه . وهي نفس القوة التي نازل بها من قبل ومن بعد عوامل الفساد
الاجتماعي والاضمحلال السياسي في أملاك الفرس والروم .

(١) الفتاة ، المبدع ٢٦٠ ٢١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

وبدا عمر بنفسه على عادته في المنهج الجديد الذي نهجه والحطة التي اختارها،
فكما جعل نفسه المثل والقُدوة في الاقتصاد وعفة النفس، فكذلك أحب أن
يكون المثل والقُدوة في صحة الدين وصدق التضرع إلى من يده الأمر كله .

روى الواقدي بإسناده إلى ابن عمر قال : « أحدث عمر في زمان الرمادة
أمرأ ما كان يفعله من قبل . كان يصلي بالناس العشاء ، ثم يدخل إلى بيته فلا
يزال يصلي إلى آخر الليل . ثم يخرج فيأتي الأقباب فيطوف عليها ، وإن لاسمعه
إيلة في السحر وهو يقول : اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي وفي ولايتي . »
وحدث ابن سعد بإسناده إلى من رأى عمر عام الرمادة قال : « قال رأيت
عمر رضي الله تعالى عنه يصلي في جوف الليل في مسجد رسول الله ﷺ عام
الرمادة وهو يقول : اللهم لا تهلكنا بالسنين ، وارفع هذا البلاء عنا : يردد
هذه الكلمة . »

ثم يلجأ إلى دعاء الاستسقاء وصلاته ، وهي صلاة يهليها المسلمون عند
امتناع المطر واشتداد الجذب . روى البلاذري بإسناده إلى السائب بن يزيد ،
قال : نظرت إلى عمر يوماً في الرمادة وقد غدا متبتلاً متضرعاً ، عليه برد لا يبلغ
ركبته ، رفع صوته بالاستغفار وعيناه تهرقان على خديه وعن يمينه العباس بن
عبد المطلب ، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافع يديه إلى السماء ، وعج إلى
ربه ودعا ودعا الناس معه . »

ورأى عمر أن يكون دعاء الاستسقاء عاماً يشمل عرب الجزيرة جميعاً ،
فكتب إلى عماله على نواحي الجزيرة وقبائلها أن يخرجوا للاستسقاء بالناس
يوم كذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه رفع هذا المحل عنهم . وخرج
عمر لذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلي فخطب

الناس فتضرع، وجعل الناس يلحون، فأتان أكثر دعائه إلا الاستغفار، حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مداً وحول رداءه كما يفعل المستسقي لجمل العيين على اليسار ثم اليسار على العيين، ثم مد يديه وجعل يلح في الدعاء ويكي بكاء طويلاً حتى اغضلت لحيته، وخرجت العرب في ذلك اليوم عنه يستسقون فلم يبق منهم إلا ضربات أي بقايا. فخرجوا يستسقون كأنهم السور العجاف تخرج من وكورها يعجون إلى الله.

وأخيراً يتأذن الله بالفرج بعد الشدة، وبالبسر بعد العسر. حدث ابن سعد بإسناده قال: قال عمر العباس بن عبد المطلب، يا أبا الفضل أكم بق علينا من النجوم؟ قال العواء أقال كم بق منها؟ قال ثمانية أيام! فقال عمر، نسي الله أن يجعل فيها خيراً.

والعواء بالتشديد نجم يظهر في أفق الجزيرة في فصل الحريف والشتاء، وطلوعها يكون لاثنتين وعشرين ليلة من أيلول، وسقوطها لاثنتين وعشرين ليلة تخلو من آذار.

قال ساجهم: إذا طلعت العواء وجشم الشتاء، طاب الصلاة. وقد جعل الله في تلك الأيام الثمانية خيراً كما رجا عمر. حدث محمد بن سعد بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال كنا في الرمادة لا نرى سحاباً، فلما استسقى عمر بالناس مكثنا أياماً، ثم جعلنا نرى قزع السحاب، وجعل عمر يظهر التكبير كلما دخل وخرج، وجعل الناس يكبرون، حتى نظر إلى سحابة سوداء جاءت من ناحية البحر، ثم تشامت فكان الحيا،.

وأرسل الله السماء على الجزيرة مدراراً، فاعتمت الأرض المائدة السوداء.

أن دب فيها ديب الحياة ، فاهتزت وربت وأنبت الكلاء والعشب ، ففتق الطير ورعت الآرام ، وثقت الشاء ، ورغت الإبل ، وحممت الخيل ، وبدت معالم الربيع العربي في جميع أرجاء الجزيرة .

هناك رأى عمر أن قد انتهى واجبه ، فأمر أولئك نفر الأربعة الموكلين بمن في نواحيهم بأرباض المدينة أن يخرجوا الأهراب إلى البادية يعطوهم قوتا وحلانا ، وكان عمر ربما تولى العمل في إخراجهم بنفسه .

ورب سائل يسأل ، ماذا كان عمر فاعلا لو تهادى القحط عاما آخر ، أو لم تتوافر عنده المؤن الكافية ؟ ويجيبنا عمر نفسه عن هذا السؤال . روى البلاذري بإسناده إلى ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال عام الرمادة : « لو لم أجد للناس من المال ما يسعهم لأدخلت على كل أهل بيت عندهم فقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأني الله بالحيا ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم . ولعل من هنا نشأت عند عمر خطة المقاسمة التي اتخذها بعد يازاء المال الذين كانوا يثرون على حساب مناصبهم ، فكان يقاسمهم أمراهم على النصف ، فيأخذ النصف ليت المال ويدع لهم النصف الآخر .

وكم كان عمر بليغ الزفق بالناس عندما آخر تحصيل الزكاة عام الرمادة ، فلما كان القابل مبعث السعاة ، وأمرهم أن يحصلوا زكاة عامين ؛ وأن يوزعوا سبعا على الفقراء ويقدموا عليه بالنصف الآخر . وقد بين عمر لموزعي الصدقات من يعطون ومن لا يعطون . فأمرهم أن يعطوا من أبقت له السنة غنما وراعيا ، ولا يعطوا من أبقت له غنمين وراعيين ، وكذلك وامسى عمر

الفقراء في تلك الشدة في غير ما عنف بالأغنياء. ولا إعانات لهم .

ولقد لقي عمر في عام الرمادة نصبا شديدا ، ونال منه الجهد والإعياء .
حدث ابن سعيد بإسناده إلى عياش بن خليفة قال : رأيت عمر رضي الله
تعالى عنه عام الرمادة وهو أسود اللون ، وعدهته قبل ذلك أبيض ، فقلت ، ولم
أسود ؟ ، ف قيل إنه كان يأكل السمن واللبن ، فلما أحل الناس حرمها حتى يحبوا ،
فأكل الزيت ، فتغير لونه وجاع فأكثر . . .

وحدث ابن سعيد بإسناده إلى أسامة بن زيد عن أبيه عن جده ، قال :
« كنا نقول لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت بها بأمر الناس » .

رحم الله عمر ، كما رحم عمر الناس ؟



عمر الفاتح

(الروح الذى وجه المسلمين إلى النصر الباهر)

مهما بعد العهد فليس ينتضى عجب المؤرخين وعشاق البطولة من فعال
يقواد العرب القدماء ، أمثال المثني بن حارثة ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن
أبي وقاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعمر بن العاص ، وحذيفة بن اليمان .
فهم الذين قوضوا ملك كسرى ، وزلزلوا عرش قيصر . وهم الذين شادوا في
مدى من الزمن لا يتجاوز عشر سنوات ملكا ضخما انتظم الجزيرة والعراق
وفارس والشام ومصر . ولكن ينبغي ألا ينسيتنا لآلاء هذه الفتوح ، وما انتقد
على مفارق هؤلاء الأبطال المغاوير من أكاليل المجد ، أنهم ما كانوا يفعلون
ما فعلوا ويملون ما أبلوا الولا روح فياض غرهم ، وعقل جبار سيطر عليهم ،
وعزيمة ماضية صرقتهم ، هي روح عمر بن الخطاب وعقله وعزمته .

ولعلنا لا نكون مسرفين إذا قلنا إنهم جميعا لم يزيدوا على أن يكونوا
أعوانا وجنودا لعب بهم عمر لعبة الحرب الرهيبة مع كسرى وقيصر ، وإنه في
حقيقة الأمر هو الفاتح الذى فتح الممالك ودوخ الأمصار ، وأقام الدولة العربية
عالية الذرى ، نابتة الأساس ، متينة البنيان . ورعى الله أبا الطيب حيث يقول :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثاني

ولربما طعن الفنى أقرانه بل رأى قبل طعان الأقران

لم يكن عمر قبل الخلافة بالجندى البارز بروز من ذكرنا من القواد . وتعليل ذلك الخول الظاهرى غير عسير . لقد كانت سنه فى الجاهلية أصغر من أن تأذن له بنشيان الحرب . أما زمن النبوة والخلافة الأولى فكان سداد رأيه وشجاعته الأديبة أثر عند الرسول وعند أبى بكر من شجاعته الحرية . فكان هتدهما أظهر فى مقام الرأى والمشورة منه فى مشاهد الجلاذ والطعان . هل أن عمر كان من غير شك ذا كفاية حرية ممتازة اكتسبها من حضوره المشاهد مع رسول الله ومن تديره قتال الردة مع أبى بكر . وقد أدرك أبوبكر تلك الكفاية وود لو أنه انتفع بها انتفاعا مباشرا . فيروى أنه قال وهو على فراش الموت : « ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام . كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدى كليهما فى سبيل الله » . فقد عده أبو بكر عدل « سيف الله » وضربته . وكفى بذلك دليلا على رسوخ قدمه فى فن الحرب وكفايته فى شئون القتال . فلما ولى عمر الخلافة ظهرت تلك الكفاية أيما ظهور وأثمرت أيما ثمر .

كانت كفاية عمر الحرية من ذلك الطراز العالى الذى يقوم على قوة التصور ، وسلامة الإدراك ، والإحاطة بطبائع البشر أفرادا كانوا أو جماعات ، وعلى معرفة الفرص عند سنوحها والعلم بطرق اقتراضها ، ومواجهة الأزمات والطب لها . هذا إلى نشاط جم ، وعزيمة صارمة ، وذهن نقاذ . وهى صفات لم تجتمع بعد رسول الله لواحد من المسلمين غير عمر بن الخطاب .

وكان لعمر مظهر وعجز . وما بعد ما كان بين مظهره وعجزه ! فهو بآدى الرأى رجل من أهل المدينة ، ساذج العيش ، يأكل أجشب الطعام ، وطيب

أحسن الثياب ، ويثام حيث يدركه النوم . وسلاحه درته ، ومطية قدمه ،
 يروح ويغدو كأحد الناس ، لا يفضلهم إلا بأنه أول خدامهم ، وأشبه ساداتهم
 بعبادتهم . يد أنه إذا تأمله المتأمل وقد نصب نفسه لحرب الفرس والروم لراى
 دون ذلك المظهر ، أحوزيا مشمرا ، قد استحضر في ذهنه ميادين القتال في الشرق
 والغرب . فهو ينتخب الرجال ، ويعي الجنود ، ويرسم المواقع ، ويخطط الخطط ،
 ويحث رجلا بعينه إلى العراق وآخر إلى الشام وثالثا إلى مصر ، ويأمر بالإقدام
 تارة وبالإحجام أخرى ، وينقل الأمد المر الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى
 الشرق ، لا يكاد يستأخر حسابه في ذلك أو يستقدم يوما واحدا . فإذا ما أحكم
 الخطة وأعد العدة قال لأصحابه في هدوء الوائق بنجح مسعاه : ه قد رمينا ملوك
 المعجم بملوك العرب . فاظفروا عم تنجلي ، ، فإذا ما أفلح سعيه ، وأثمر غرسه ،
 وجاءه نبأ الفتح والظفر تلقاه في خشوع وإخبات وتواضع تزيد روعة
 وعظمة وجلالا .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نقيم البيئة على صحة تلك الدعاوى في جميع ميادين
 القتال الذى نشب في أيام عمر بين العرب وبين الفرس والروم . فنكتفى بالتدليل
 على صحتها في مقام واحد : هو وقعة القادسية (٦٤ هـ) المعدودة أعظم وقائع
 العرب مع الفرس .

لما اشتد الأمر على العرب بالعراق بعد وقعة الجسر (٦٣ هـ) التى أودت
 بقائدين عريين هما أبو عبيد ثم المنى بن جارثة ، وصمم الفرس على طرد العرب
 من بلادهم ، قام عمر للأمر وقدم واهتم له غاية الإهتمام فكتب^(١) إلى عماله
 على قبائل العرب وكورهم : ه ... ولا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة

(١) الطبرى : ٤٤ ص ٨٢ .

أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والمجل العجل ١ . . فلما توافت إليه
 النجدات حارفين يؤمره عليها . وم أول الأمر أن يسير فيها بنفسه إلى العراق ،
 ولكن قوى مشورته ثنوه عن ذلك . ثم وفق إلى رجل لحظ فيه أصالة الرأي
 وتعام الصجاعة وبين النقية فأمره عليها . روى الطبري (١) قال : . وكان سعد
 على صدقات هوازن ، فبعث إلى عمر بألف فارس وكتب إليه كتابا بذلك ...
 فوافى كتابه مشورتهم ، فدلوا قد وجدته ا قال : من ؟ قالوا : الأسد عاديا !
 قال : من ؟ قالوا : سعدا فأنهى إلى قولهم . فأرسل إليه فأمره على حرب العراق
 وعقد له على أربعة آلاف معهم ذراريهم ونساؤهم . وأتاهم عمر في عسكرهم
 فأرادهم جميعا إلى العراق ، فأبوا إلا الشام ، وأبى إلا العراق ، فسمح نصفهم
 فأمضاهم نحو العراق ، وأمضى النصف الآخر نحو الشام .

• فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيها بين غضى
 إلى الجبانة . فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابي هذا فاعشر الناس ، وعرف
 عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعيهم ، وواعدم القادسية ، واضم إليك المغيرة
 بن شعبة في خيله . واكتب إلى بالذى يستقر عليه رأيهم ، (٢)

ثم يكتب عمر إلى سعد بالمنازل التي ينزلها وبخطة الحرب وبمبعاد تحركه ،
 قال الطبري (٣) : • وقد تم على سعد وهو بشراف كتاب عمر ... أما بعد فر من
 شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين . . فإذا انتهت إلى القادسية . . وهو
 منزل رعيب خبيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتعة فتكون مالحك على
 أقبابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدبر ، على حافات الحجر وحافات المدبر

(١) المصدر نفسه ص ٨٥ .

(٢) ٣ ص ٨٦ .

(٣) ٣ ص ٨٧ .

والجرع بينهما . ثم أزم مكانك فلا تبرحه ، فإنهم إذا أحسوك أنقضتهم
رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجمعهم . فإن أتم صبرك
لعدوك واحتسبت لقتاله ونويت الأمانة رجوت أن تصروا عليهم ، ثم لا يجتمع
لكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الآخرة
كان الحجر في أديارك فاضرقم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من
أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرا وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجمل حتى يأتي
الله بالفتح ... فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس فيما بين عذيب المهجانات
وعذيب القوادم ، وشرق بالناس وغرب بهم .

ثم كتب عمر إلى سعد يستوصف المنازل والبقاع ويستخبره عن
أحوال العدو^(١) : « ... واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلى
مصادمتكم ، فإنه منى من بعض ما أردت الكتاب به فله على بما هجمتم عليه ،
والذي استقر عليه أمر عدوك . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين
المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلبة . »

فكتب إليه سعد : « القادسية بين الخندق والعتيق ، وإن ما عن يسار القادسية
بحر أخضر في جوف لاح إلى الخيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما
الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورتق
والخيرة ، وإن ما عن يمين القادسية إلى الوجلة فيض من فيوض مياههم ، وإن جميع من
صالح المسلمين من أهل السواد قبل إلى أهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا . وإن
الذى أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم . فهم يحاولون إتناضنا وإقحامنا
ونحن نحاول إتناضهم وإبرازهم . وأمر الله بعد ماض ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر

لنا . فكتب إليه عمر : « قد جازى كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى ينقض
الله لك عدوك ، وأعلم أن لما ما بعدها . فإن منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم
حتى تقتحم عليهم المدائن » .

« ووضع سعد بالمذيب خيلا تحوط الحريم ... ونزل سعد القادسية ، فنزل
بقديس ، ونزل زهرة بحيال العتيق في موضع القادسية اليوم ... وبعث سعد إلى
عمر بنزوله قديسا ، وأقام بها شهرا ... ثم كتب إلى عمر : « لم يوجه القوم إلينا
أحدا ، ولم يستدوا حربا إلى أحد علينا ، ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به .
واستنصر الله فإننا بمنحة دنيا عريضة دونها بأس شديد »^(١) .

« وبعث سعد عيوننا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس
فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولى رستم بن الفرخذاذ الأرمي حربه وأمره
بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر . فكتب إليه عمر : « لا يكرئك ما يأتيك
عنهم ولا ما يؤثونك به ... وابعث إليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد
يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وقلجا عليهم . واكتب إلى في
كل يوم » .

« .. ولما عسكر رستم بسباط كتبوا بذلك إلى عمر »^(٢) . « ثم إن سعد بن
أبوقاص حين جاءه أمر عمر جمع قرا عليهم نجار ولهم آراء ، وقرا
لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء .. فبعثهم دعاة إلى الملك ، وكان من أمر
هذا الوفد العربي ما رواه الطبري من مفاوضاتهم لرستم أولا ويزدجرد
أخيرا . وهي مفاوضة صورية بطبيعة الحال ؛ وقد انتهت بأن زحف رستم من

(١) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٩١ .

(٢) ٣ ٣ ص ٩٢ .

ساباط إلى القادسية لقاء سعد^(١) . المحرم عام ١٤ هـ .

كانت كفة الفرس هي الراجحة في اليومين الأولين من أيام القادسية ، ثم كان من صنع الله للعرب ، ولطف تدير عمر أن قدم المدد من الشام في اليوم الثاني وقد زلزل العرب زلزالا شديدا ، فقويت عزائمهم واتصفوا من الفرس في اليوم الثالث ، وهو المعروف بيوم عماس . قال الطبري^(٢) : « وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدا ، العرب والمعجم فيه على السواء ، ولا يكون بينهم نقطة إلا تناورها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجرد فيبعث إليهم أهل النجدات من بني عنده ، فيقروون بهم . قالوا الذي صنع الله للمسلمين بالذي ألم القدماء في اليومين وأتاح لهم بها شتم كسر ذلك المسلمين . »

واتصل القتال ليلة اليوم الرابع ، وهي المعروفة عندهم بيلة الحرير . فلم يتنفس صبح ذلك اليوم إلا وقد انتصر العرب على عدوهم انتصارا عظيما .

قال الطبري^(٣) : « وكتب سعد بالفتح ... وكان كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على فارس ومنهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الرأون مثل زهانتها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ، ونقله منهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذ جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٠٠ .

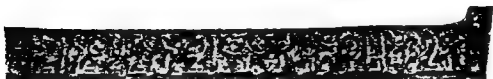
(٢) » » » ص ١٢٦ .

(٣) » » » ص ١٤٤ .

من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم .

ولما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقي البشير سأله : من أين ؟ فأخبره . قال يا عبد الله ! حدثني . قال : هزم الله العدوا وعمر يحب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلمون عليه يأمرة المؤمنين . فقال الرجل : فهلاخبرتني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى ، (١) .

ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة ، فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بناها ووطئه بمنسما ، نادى فقال بالفارسية ما تعريه : ه أنانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل . أكل عمر كبدى ، أحرق الله كبده ، (٢) ، ولما أجم المقيمون بالمدينة أن يتقموا من فتح بلادهم لم يعمدوا إلى خالد ولا إلى سعد ، وإنما عمدوا إلى عمر ابن الخطاب فاغسأوه . ولعمري لقد كان رستم وأبولؤلوة ومن أمروه على قتل عمر أصرح وأشجع ممن جاء بعدهم روافض الشيعة وغلاتهم الذين أسسوا رفضهم عمر على استشارته بالخلافة ، كأن لم يكن هناك سبب آخر أدعى إلى الرفض وأجل خطرا ؟



(١) الطبرى ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) د د ص ١١٤ - ١١٥ .

دولة الأكاسرة

٢٢٦ - ٦٥١ م

لقد شهدت إيران في تاريخها الطويل دولاً إيرانية كثيرة : شهدت في الزمن القديم دول عيلام ، ومادى ، والكيانيين ، والاشغانيين ، والساسانيين . وشهدت في عصورها الحديثة دول الصفويين والزنديين والقاجاريين إلا أن الدولة الإيرانية التي يعظمها الإيرانيون أشد التعظيم وبخرونها بها الفخر كله ، ويرونها عنوان المجد الإيراني والقومية الإيرانية بكل معانيها ، هي الدولة الساسانية ، أو دولة الأكاسرة التي قامت سنة ٢٢٦ م ، وعبرت من الزمان أربعمائة عام تزيد قليلاً .

والساسانيون ينسبون إلى رجل يسمى ساسان ، كان قياً على بيت ناز مدينة اصطخر بإقليم فارس . وقد ولد له ابن يسمى بابك ، نشأ جليداً هماً ، حريصاً على بث القومية الإيرانية التي أماتها أو كادت غارة الإسكندر المقدوني على فارس في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، راغباً في استعادة المجد الذي كان لإيران على عهد الدولة البكيانية العظيمة ، والذي قضى عليه الفاتح المقدوني في عشية وضحاهما . وما زال بابك يسمى وتوابعه المقادير ، حتى أنشأ نفسه ملكاً كانت قاعدته

(١) الثقافة ، العدد ٤٦٤ ، إبريل سنة ١٩٢٩ .

مدينة (خير) الواقعة شرقي شيراز . فلما توفي خلفه ابنه أردشير (٢٢٦ - ٢٤١) فاقبى أثر أبيه ، ونزع منزعه في السياسة ، فصار يوسع رقعة ملكه على حساب مجاورة من ملوك الطوائف ، حتى فطن لمآربه كبيرهم أردوان الاشغانيين ، فنهض لحسم الأمر قبل استفحاله ، ولكن أردشير ساجله الحرب حتى قضى عليه في واقعة عظيمة جرت سنة ٢٢٤ م ثم دخل بعد عامين المدائن مظفراً منصوراً . فكان ذلك الفتح ختام عهد الفوضى السياسية التي نشأت عن الفتح المقدوني ومبدأ عهد مجيد حافل بالأحداث العظام ، هو عهد الدولة الساسانية .



والمتمصفح لتاريخ الدولة الساسانية من أول قيامها إلى أن تضعضت أمورها واختلت أحوالها في أوائل القرن السابع الميلادي يلحظ فيه ظاهرة ماثلة كل المثل ، هي ظاهرة الحروب المتلاحقة ، بل المتصلة ، التي وقعت بينها وبين الدولة الرومانية . وليس من شك في أن تلك الوقائع الجسام ، والخطوب العظام ، إنما هي فصل من فصول تلك المأساة التاريخية الكبرى مأساة الصراع بين ما يسمى على سبيل الاصطلاح شرقاً وما يسمى غرباً .

ولقد كانت كفة الدولة الساسانية ، هي الراجحة على وجه الإجمال في ذلك الصراع العنيف . فلم يوغل الروم قط في الهضبة الإيرانية ولا قاتلوا خصومهم في عقر دارهم وصميم ملكهم ، بل كان قصارهم أن يرددوا الغارة على أرمينية ، وأن تنساح كتائبهم في سهول العراق ، لا يكادون يزيدون على ذلك ، في حين أن الفرس على عهد كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) أمكنهم أن ينزعوا من الروم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ، وأن يراجلوا في البر الآسيوي تجاه القسطنطينية نفسها ، وأن يعملوا بغض الصليب الأعظم من بيت المقدس إلى

فاحصتهم المدائن . وإلى هذا النصر أشار القرآن الكريم في أول سورة الروم بقوله : « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون » الآية . ولقد يكون أدوم حوادث ذلك الصراع الحاد العنيف وقوع الإمبراطور الروماني وليريان أسيرا في يد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) وذلك عام ٢٦٠م وقضاء ذلك الإمبراطور التعس بقة حياته أسيرا ذليلا . لقد رجح هذا الحادث الجلال العالم الروماني رجاء عثفا ، كما كان سبب فخر لاحد له للفرس الساسانيين . ولقد استظهر الساسانيون في حروبهم مع الروم بالعرب فأذنوا لهم أن ينزلوا بادية العراق ، ويستقروا بالحيرة في القرن الرابع الميلادي ، وينشئوا بها مملكة الحيرة المشهورة التي نعتت الدولة الساسانية قفعا مزدوجا ، فكانت عونا لها على الروم ، كما أنها بسطت نفوذها على شرق الجزيرة العربية وجنوبها . ولقد تهج الروم منهج الفرس فأقاموا من عرب بادية الشام مملكة الغساسنة ، وكان موقفها من الروم موقف الحيرة من فارس سواء بسواء .

على أن المظهر الحربي للدولة الساسانية لم يكن مقصورا على مجالتهم الروم وحدهم ، فلقد كانوا عرضة لهجوم القبائل البدوية الهجيرة التي تنزل حدودهم الشمالية الشرقية ، ولكنهم استطاعوا أن يدروا ذلك باتصاراتهم العديدة على التتار المعروفين بالهياطة أولا وعلى قبائل الترك أخيرا ، وأن يسيطروا سلطانهم على رقعة واسعة من الإقليم الذي عرف بعد بما وراء النهر .

وإذا صح أنه لا يوجد في هذا العالم خير محض ولا شر محض ، فيمكن القول بأن هذه الحرب على كثرة ما أزهقت من نفوس ، وخربت من بلدان ، وأكلت من مال ، لم تكن شرا محضا ، بل لقد نتجت خيرا كثيرا للفرس أنفسهم وللروم والعرب والترك . فأما الفرس فقد كان من سياستهم إزاء عدوهم الروماني

أن يفتحوا أبواب بلادهم للخالفين على الدولة الرومانية من رعاياها . فأتجعت
أرض فارس فسطرة النصارى الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية ، ووزلوا أميين
مطمئين ونشروا فيها العلوم والآداب السريانية المستمدة من علوم الأغريق
وآدابهم ، فكان لذلك أثر كبير في رفع المستوى العلمى والتغافى للدولة
الفارسية الساسانية .

ولما أمر الامبراطور جستيان (٥٢١ - ٥٧٨ م) بإغلاق مدارس الفلسفة
بآثينا وإخراج الفلاسفة من ملكه ، لم يكن لفولاء العلماء من ملجأ سوى فارس ،
وقد تقبلهم العامل الساسانى العظيم كسرى أنوشروان (٥٢١ - ٥٧٩ م) بقبول
حسن وأذن لهم في نشر علومهم في بلاده ، فنشروا فيها مذهب الأفلاطونية
الحديثة الذى امتزج بالعقيدة الإيرانية والخيال الإيرافى ، فكان لذلك الامتزاج
أثر قوى في ظهور التصوف الفارسى المشهور فى آداب الفرس قديما وحديثا .
ولقد أخذ الروم عن الفرس الساسانيين أن دينارسميا واحدا خير للدولة
من أدبان متعددة ، فاتخذوا النصرانية ديانتهم الرسمية وهجروا الوثنية ، فكان
ذلك بدء اعتزاز المسيحية وانتشارها فى الأرض .

ثم أن اتصال العرب بالفرس الساسانيين وقف العرب على أساليب الفرس
والروم فى الحرب . كما أظهرهم على معارف ومعلومات دينية لم يكن لهم بها عهد
من قبل ، فضلا مستواهم الثقافى ، وتهدبت نواحي حياتهم الحشنة الساذجة إلى
حد بعيد . وما يقال عن العرب يقال مثله عن الترك فإنهم تأثروا بالمدنية
الإيرانية تأثرا كبيرا إلى حد أن غير واحد من فلاسفة الإسلام الذين نبغوا بما
وراء النهر لا يدرى أصله على التحقيق : أفرسى هو أم تركى ؟ .

تدعبل إلى القارىء أن الساسانيين لكثرة غزواتهم خلدوا الحرب مع الروم
 تجارة وترك أخرى ، قوم لام لهم إلا الحرب والجلاد ، وأن شأنهم فى ذلك
 شأن الآشوريين والاسبيرطيين والترك العثمانيين . ولكن الواقع ليس كذلك ،
 فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تجلى فى زمن السلم أكثر مما تجلى فى زمن الحرب .
 لقد كان لهم سياسة داخلية مقررمة محكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا
 سمومورى الحظ من الخبرة العملية بشؤون الناس وعلى علم تام بطبائعهم . فمن أسس
 هذه السياسة حملهم على التفكير للنظام الملكى فى إيران وجعله لا مجرد نظام
 سمعرض لمواصف السياسة العاتية وأعاصيرها الهوج ، ولكن عقيدة تملك على
 الشعب الإيرانى به وقلبه على السواء ، فآلقوا فى نفسه أهم سلاله الملوك السكانيين
 النظام الذين كانوا يحكمون فى الأرض بتفويض من إله النور آهورامزدا ، وأنهم
 ورثة ملك السكانيين وأنهم إنما يحكمون بهذا التفويض الإلهى ، وأن عليهم وحدهم
 سمة الملك وطابع الحكم لا ينتقل ذلك عنهم إلى غيرهم أبدا . وقد عززوا هذه
 الدعوة بأن أحاطوا الملك بسياس من المهابة والابهة والعظمة ، يتمثل فى تاجه المتألق
 وسريه العالى وإبوانه المنيف ، وفى احتجابه عن الشعب ، وفى تلك المراسم الدقيقة
 التى كان يؤخذ بها كل من يسعده الحظ بالثول بين يدى كبرى ملك الملوك .

ومن الأسس التى عنى بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء
 الدين . والدين الفارسى القديم هو الزرادشتية التى ظهرت قبل الدولة
 الساسانية بأزمان طويلة . والزرادشتية ديانة رمزية تؤله الخير والشر
 وتأمرا بالخير وتنبى عن الشر . والخير والشر عندها أمران ماديان محسوسان
 إيجابيان ، فى تأمر بالعمل والإنتاج والزراعة والتجارة ، وتحت على الزواج
 والنسل وتمد ذلك خيرا ، وتنبى عن أصداد ذلك وترأها شرا .

ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية للديانة المذكورة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الإيرانية ، فأنشأوا في كل مدينة ، بل في كل قرية ، بيوت النار حيث يعبد الناس النار ، مبعث النور الذي هو رمز الخير وطاردة الظلمة التي هي رمز الشر . وقد أدت تلك العناية بالدين الزرادشتي إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالموبدنة على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر ماني ودعا إلى مذهبه ، وكان مذهبا عدنيا سليا يرى الخير في الزهد ، وعدم الإنتاج ، والامتناع من الزواج والنسل . فإن بهرام الأول (٢٧٣ - ٢٧٦ م) تجرد لمحاربته قتل ماني ونكل بأصحابه شر تنكيل . وقد قايل رجال الدين الزرادشتي هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسي بما لهم على الشعب من نفوذ روحي عظيم .

ومن المبادئ المقررة في سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة الثابتة على النظام الاجتماعي الإيراني القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلما ظهر مزدك في أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نخلته الشيوعية الهادمة لنظام الأسرة والملكية ، وافتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة نخلته ، قضى على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على ماني وأصحابه .

وأجل الفضائل السياسية التي كان يتوخى أكاسرة الدولة الساسانية التحل بها فضيلة العدل . وهي ملحوظة فيهم من أولهم إلى آخرهم ، فقد ورد في عهد أردشير الأول إلى ابنه قوله : لا ملك بغير جند ، ولا جند بغير مال ، ولا مال بغير زراعة ، ولا زراعة بغير عدل ، فالعدل عنده أساس الملك . وكان أنوشروان يلقب بالملك العادل ، وعلى هذه الفضيلة العظيمة جروا في نظمهم

التي تصل بالحقوق والواجبات بوجه علم .

•••

ونمود فتقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر . فإذا كانت سياسة
الأكسرة تنطوي على خير كثير فإنها للأسف كانت تحمل في ثناياها العناصر
التي أدت في النهاية إلى انتفاض أمرم وضياح ملكهم ، فإن حملهم الشعب على
اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به
إبان قوة الأسرة الساسانية ، فلما اضمحلت ، وعراها الوهن والمهرم من بعد
كسرى أنوشروان لم يكن يمكننا أن نقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان ،
وينقله إلى أسرة أخرى فنية فاهضة . فإذا حدث أن رجلا قويا حدثه نفسه
بذلك لى الخذلان من الشعب ، على نحو ما حدث لبرام جوبين في أواخر
القرن السادس . ثم إن انتصار الدولة الزرادشتية والمياعة في رفع أقدار رجالها
قد أدى في نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة متبيدة لا تعرف الرفق
بالناس في مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان
منهم ياران خلق كثير .

ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذي كان عليه دون تعديل
بطابق الظروف ، أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة
كثيرة الامتيازات ، كما قسم الشعب طبقات متحاجة متحاجزا تاما أوغر قلوب
الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجا عمليا
على ذلك النظام بصورته التي أصبح عليها في القرن السادس الميلادي .

وكان اجتماع هذه العوامل في نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة في
الفوضى والارتباك ، وهي فوضى يكفي للتدليل عليها أن اثني عشر مليكا جلسوا

على سرير الملك فيما بين عامي ٦٢٨ و ٦٣٢ م ، أى في نحو أربع سنوات . ومن الاتفاقات العجيبة أنه في تلك السنوات عيّنوا أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين أقلم بقو صرح الأكاكسة المتداعى على صدماتهم العنيفة في ميادين الفادسية وجولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكاكسة وهو يزديجرد بن شهريار بقية أيامه شريدا مطردا إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٥٣١ هـ (٦٥١ م) ، فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلا واضحا لبحرود العامة وغرور الحياة .

على أن الدولة الساسانية لم تذهب إلا بعد أن أدت واجبها من حيث هي دولة عظيمة . لقد أقامت ياران معالم حضارة رائعة ، لا تزال آثارها شاهدة بروعتها . كما أنها ثقفت الشعوب المجاورة لها ، وبخاصة العرب والترك ، وهياتهم للقيام بدورهم التاريخي العظيم . وهي التي علمت الروم أن وحدة الدين خير في السياسة من تعدده ، وقد علم الروم ذلك وعملوا به ، فكان من وراء ذلك الخير كل الخير للصراية . وأخيرا فإن دولة الأكاكسة الساسانية بنظمتها وسياستها وإدارتها وحياتها العامة ، كانت المثل والقُدوة للسليين في عصرهم العباسي العظيم ؟



فتح العرب لمصر

تأليف الدكتور ألفرد ج. بتلر

ومعرب محمد فريد أبو صمد

سمعت مرة أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بك يقول ما معناه : أننا الآن فى دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية ، وهو قول لا غبار عليه ، فإن زمن الإقتصار على تراثنا العلمى والأدبى القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار فى العلم والأدب لم يأت بعد ، وينبى أن يتقدمه زمن تتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والأداب الغربية إلى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح فى صدر الدولة العباسية .

إننا بهذا التوافر نبث فى حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا فى البحث والعرض العلمى جديدا ، ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة وأعدنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البيان ومرور الزمان ، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والإنسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضمّن يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية . فهى من ناحية المترجم تطلب غزارة علم وأدب وإنكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للؤلؤ الذى ينقله ، وقليل من النامى

(١) نشرت بالعدد الخامس من الرسالة (السنة الأولى) ١٥ مارس ١٩٣٢

من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هي تقتضى من ناحية الناشر ، وبخاصة في بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية التى تصيبه مما ينشر ، فإذا استطاع أن يخرج من الأمر كفافا لا عليه ولا له لحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فإذا يجعله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة في بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذا الكساد تأثرا شديدا ، حتى أصبحت لا شرقية ولا غربية ولا قديمة ولا حديثة . ولكن الحد لله ، فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما نسمعه عن التفكير فى وضع قاموس عربى جديد يجمع شتات اللغة التى أصبحت إلى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آيته أيضا ما ترجم فى السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعليه ، نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لإفلاطون ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب الكون والفساد ، ونظام الآئينين وآلام فرتر لجوته ، وفارست له أيضا ، والشاهنامة للفردوسى ، وأصل الأنواع لدارون . ثم كتاب فتح العرب لمصر وهو الذى سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

ألف كتاب « فتح العرب لمصر » منذ ثلاثين عاما بحاجته إنجليزى هو الدكتور ألفرد ج . بتر . ونقله إلى العربية منذ عام صديقتنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ثم نشرته فى هذه الأيام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع فى قرابة ستمائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . فى الفصول الأربع عشرة الأولى يعرض المؤلف الحال السياسية للدولة الرومانية فى

أوائل القرن السابع الميلادى . ويتكلم عن الثورة التى انتهت بأن أصبح هرقل
 حاكم الدولة المذكورة ، وفى الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع
 يتكلم على غزو الفرس الشام ومصر ، فهتضة هرقل واسترداده الإقليمين
 المذكورين ، وعقده مع الفرس صلحا أعاد إلى الروم شرفهم العسكرية ، فالحال
 الادبية للإسكندرية خاصة لذلك العهد . وفى الفصل العاشر والحادى عشر والثانى
 عشر والثالث عشر يتكلم على ظهور الإسلام . وفتح العرب الشام ومصر ،
 واضطهاد قيرس البطريرك الملكانى للأقباط فى السنوات العشر السابقة على الفتح .
 ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام على
 حوادث الفتح العربى لمصر . فيتكلم على زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه
 مدينة مصر ، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس ، لحصار حصن نابليون وأخذه ،
 فالزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها ، فأخذ المدن الساحلية الشمالية ،
 فانتهاه السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين إلى الثلاثين
 يتكلم المؤلف كلاما ممتعا موضوعه حال الإسكندرية وقت الفتح ومكبتها
 المشهورة ، وحريق هذه المكتبة المنسوب إلى عمرو ، وغزو عمرو لبرقة
 وطرابلس ، والنظام الإدارى الإسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع
 المؤلف هذه الفصول بملحفات حقق فيها بصفة خاصة ، شخصية المقوقس ،
 والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى ، والكتاب إلى جانب ذلك مزود بمخرائط
 ورسوم تعين على فهم موضوعه

من هذا العرض يتبين القارىء أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى
 لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائمه كل الاستيعاب ، والحق أن الدكتور
 بتر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الإسلامى ، وحل كثيرا من

الغازي : أوضح شخصية المقوقس ، وكانت غامضة ، ورتب حوادث الفتح ترتيباً
أوفى إلى الصحة منه في أي مصدر قديم . وأن بالقول الفصل في حريق مكتبة
الاسكندرية ، وبين وجه الخلاف القديم في فتح مصر ، أصلاً أم غزوة ؟ على
أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عني بالجانب
السياسى والدينى فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الإدارية
والإقتصادية ، على ما كان لها من أثر قوى في سهولة انتقال مصر من حكم الروم
إلى حكم العرب . ولقد ظهر في هذا الموضوع في العشرين سنة الأخيرة بحوث
قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها . من هذه البحوث :
النظام العسكرية لمصر البيزنطية ، لجان ما سبرو . و الإدارة المدنية لمصر
البيزنطية ، لجرمين رويارد .

ثم أننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن
عمراً عندما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجند وخرج موقفه بين
جنود الروم جنوباً وشمالاً ، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ورأى
في الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستقدم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف
عبور النيل إلى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبّر النيل ثانية ،
فوجد المدد قد قدم من المدينة . لاشك أن هذه طريقة غريبة جداً في الخلاص
من المواقف العسكرية الحرجة ، ثم هي لا تألف بحال مع ما عرف عن عمرو
من شدة الدهاء وبعد المكيدة . يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية من حيث
هذه الغزوة نوعان : فنوع لا يعرفها بالمرّة ، ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على
صورة تجعلها أقرب إلى المعقول من الصورة المذكورة ، ومع ذلك لم يعتمد عليها
المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا التقيومى بحجة أنه أقدم عهداً من كل المصادر

العربية ؛ ولكن القدم وحده لا يكون دائماً دليلاً على صحة المصادر التاريخية .
كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه في الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك
المشهورة كانت فشلاً لأنها لم تؤد إلى ما كان الرسول يرى إليه بها من مصادمة
الروم ، والحق أنها أدت إلى ما كان النبي ﷺ يرى إليه من شد سلطانة السامى
على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد توهم المؤلف أن مسيلة المنذر
ظهر باليمن (١٢١) والصحيح أنه ظهر بالهامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العالية وحسب
القارىء أن يعلم أن الدكتور بتر قد أقام في كتابه تاريخ الفتح العربى لمصر على
أساس على متين ، وأنه إلى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يذاته ،
فضلاً عن أن يفوقه .

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شئ أن
أهني صديق فريداً على توفيقه فيها أخلص النهضة ، فقد جاءت صورة صادقة
للأصل مطابقة له فقرة فقرة ، وجملة جملة ، هذا مع سهولة العبارة وسلاستها
ووضوحها ، مما يشهد للأستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة ، ولكن ليت شعري
أبى مترجم ولو كان الأستاذ فريد نفسه يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا ينفو
قله ولا ينحرف عن الأصل الذى ينقل عنه يمتة أو يسرة ؟ على هذا الاعتبار
أهدى إلى الأستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة . (النذر اليسير) وصوابها (النزر) بالزاي
المعجمة ؛ وفى ص ٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De Goeje بـ (دى جويجه)
وصوابه (دى غويه) ؛ ووردت فى صفحة ٢٧ أيضاً كلمة (المرونفيسية) وأحسن
منها أن يقال (المذهب اليعقوبى) ؛ وجاء فى ص ١٢٣ (هزيمة تبوك) بدلاً من

(فشل غزوة تبوك) وهو المتأيل للأصل . وفي ص ٨٣ ترجمت Theology
 (بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ؛ وجاء في ص ٢١٨ تسور الزبير إلى الحصن
 والصواب أن يحذف حرف الجر . وفي ص ٢٢٨ ترجمت Drawbridges
 بـ (قاطر) وأصح من ذلك (جسور) ، لأن العرف جرى بإطلاق اللفظ
 الأول على البناء الثابت الذي يعقد فرق الأنهار ، وهو غير المراد من اللفظ
 الانجليزي . وجاء في ص ٢٥٥ : وكانت « ملحة » المدينة بدلا من : وكانت
 « حامية المدينة » . وفي ص ٤٠٦ : وقال عن (النواوى) وصوابه (النوى)
 بدون ألف المد .

على أن هذه الملاحظات أيضا لا تضر الترجمة شيئا ؛ وإذا كان الكتاب مثالا
 يحتذى من حيث دقة البحث العلمى فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من
 حيث أمانة النقل وصحة التعبير ؟



على ساحل بحر الروم

إن عهدي يحر الروم بعيد ليس بالقرب ، فلمشرات من الستين خلت
أذكر أني كنت بمدينة الاسكندرية ، وأنى كنت طفلا عليل الجسم ومد العينين ،
قد أعيا نطس الأطباء علاجه ، وحار في أمره والداه أشد الحيرة . وأخيرا
وصف الواصفون لوالديه رحمة الله عليهما ماء البحر المالح ، وقالوا لها أنه ينفع
طفلهما المريض . فكان أكبر إخواني يتنادى كل صباح إلى ساحل البحر من
« حى الأنفوشي ، فيدفعني في الماء إلى حيث تغمر لجته ساقى التاحتين ، ثم يجعلني
أنضح وجهي بالماء المالح بحيث يتخلل جفوني الرمد . وربما تجرد هو بمقب
ذلك من ثيابه نعبت في الماء بعد أن يكون قد استسكنتنى ذلك عن والدى .
وربما قضينا بعد ذلك كله بعض الوقت نعبت بالرمل أو نلتقط من صندوق
الساحل بعض ما علق بها من الأصداف .

تم تأذن الله بذهاب المرض عني وعود الصحة إلى . ولست أشك في أن
الفضل في ذلك يرجع إلى ماء البحر ، وهوائه ، وشمسه ، وإلى الحرية التي كنت
أنعم بها على ساحله . ومهما يكن من الأمر فقد نشأت على حب البحر ؛
واعتقاد أنى مدين له في صحتي وعافيتي وحياتي كلها . ومما حب واعتقاد لم تردهما
الأيام إلا رسوخا في نفسي وتمسكنا من قلبي .

ودارت الأيام ، فإذا أنا تليف بمدرسة رأس التين ، أغدو إليها كل صباح وأروح منها كل مساء . فكنت أجمل طريق غدوى إليها ورواحى منها على البحر ، لا أكاد أعدل عنه إلا مضطرا وإن أنس لا أنس ما كانت تجتلى عيناى فى تلك الأيام من البحر فى مختلف حالاته وتنوع منظره . فتارة هو ساج ساكن كصفحة المرأة ، وتارة هو هائج مضطرب يرى موج كالجبال ، وأخرى هو بين بين ، فليس بالساجى ولا الهائج المضطرب . ولقد كان البحر فى تلك الأيام يهدى بتعدد صورته وتنوع منظره إلى فكرى الفض وخيال الناشء ضروبا من معانى الروعة ، والقوة ، والحركة ، واللاتهائية .

كان مبلغ حظى من البحر فى ذلك العهد أن أسير وساحله ، وأن أنعم بالنظر إليه ، لا أتجاوز منه غير ذلك . فقد كان أبواى يحذرانى الدنو منه فضلا عن التورط فى لجته . وكانا يلقيان فى روعى أن فى البحر كائنات مخيفة تخطف الأطفال الذين يجرءون على نزوله . فلما ترعرت بعض الشيء كانا يقصان على نأ التيارات الخفية التى تذهب بالأولاد المجازفين إلى حيث لا يعودون .

ولم يكن يعمر ساحل البحر فى ذلك الزمان إلا طوائف من الناس يعملون فى البحر ، من سفانى السفن ، وصيادى السمك ، ونساجى شباك الصيد ، وإلا أوزاع من الشبان العاطلين من العمل ، يغشون ساحل البحر لتزجية الوقت ، أو للشجار على عادتهم أيا من ضرباه بالبونيات والروسيات ، وتطاعنا بالمدى والسكاكين أحيانا .

ثم دارت الأيام دورة أخرى ، فإذا بي قد أتممت دراستى ، وبلغت مبلغ الرجال ، وارتفعت عني رقابة والدى ، وإذا بسواحل الاسكندرية قد قامت على

حافاتها المصايف والحمامات والملاهي والمقاهي .

وكننت لما قدمت من الأسباب لم أنعم السباحة بعد . فوطئت النفس على استدراك ما فاتني من ذلك زمن الطفولة . وأردت الاستعانة فيما قصدت بكتاب انجليزى فى فن السباحة ، ولكن الكتاب لم يسعفنى ، فاستعنت بصديق كريم عليم بذلك الفن . وماهى إلا أسابيع معدودة حتى حذقت أن أسك جسمى فوق سطح الماء ، ثم أن أحرك أطرافى جيئة وذهابا ، ثم أن أقذف بنفسى فى الماء من عل ، وأن أغوص تحت لجته أخيرا . ومن ذلك الوقت صار البحر متعة نفسى وبهجة قلبى وبخاصة زمن الصيف . فكنت أغشى الحمامات مقبدها ومطلقها . ففى الحمامات المقيدة حيث لا يباح اختلاط الجنسين فى مكان واحد كنت أعنى بتقوية جسمى وتقويمه ، وتشذيبه وتهذيبه ، عملا بالحكمة الفرنسية القائلة إن كل مجهود يتفقه الشاب فى تقوية جسمه يكسبه قوة أديبة . وفى الحمامات المطلقة حيث يباح استحمام الجنسين فى مكان واحد كنت أروض عيى على تعرف مواقع الحسن والتعبج من جسم الإنسان . وكان رائدى فى ذلك ما لقفته لإبان الدراسة من كتب الفن والأدب . فكنت وأصدقائى عند كل مناسبة تمثل شيئا مما أثر فى الغزل والنسب عن امرئ القيس ، وابن أبى ربيعة ، وأبى تمام ، والبحترى وغيرهم . وقد تذاكر آلهة الجمال عند اليونان والرومان ، وغمائل فدياس وشخصيات شكسبير ، وصور ميشيل انجلو وغيره من أئمة الفنانين .

والحق أنى لم أدرك إلا على ساحل بحجر الروم جمال الجسم الإنسانى الذى هو أصل الفنون وملهمها وموجيها ، وبدايتها ومنتهاها .

ثم مضت أيام ، وتقصت أعوام ، فلذا بي أعلم في بعض الجامعات ، وإذا
بي زوج ورب بنين وبنات . وإذا الدافقة المشوبة قد هدأت ، والعين الخائنة
قد ادرعت ، وإذا العقل هو الآخذ بالزمام ، وعليه المعول وإليه الاحتكام .
جلست في يوم من أخريات صيف هذا العام على سيف البحر من رمل
الاسكندرية . فلم يستهوي هذه المرة ما كان يستهوي من قبل ، من جسوم شبه
عاريات كالدي ، مرموقات كالتي ، أنا تصافح الموج وتلاعبه ، وأنا تخوضه
وتخالطه . وطورا ينتظمها الرمل ، فلو لا الحياة لخلتها تماثيل من عاج مكفوءة ،
وطورا يتوزعها الصخر ، فكأنما هي قطع الرياض المطورة ، وأنا من بين
الحالين ، يحظرن رائحات غاديات ، آتسات نافرات ، قريبات بعيدات .

كلا ! ولم تأخذني هذه المرة روعة البحر ، وهو الذي طالما فتنت روعته
خاطري وسحرت لي ، والذي له على من الفضل ما أنا عاجز عن شكر بعضه
فكيف بشكره كله ! وإنما عراني ما يعرو الأساذة المحنكين ، وإن شئت قل
الكهول المجربين ، من ميل إلى التفكير وتزوع إليه عند كل مناسبة وحين
لا مناسبة . فذهبت أفكر كأنما أنا وحدي بذلك الساحل ، وكأنما الساحل
قد خلا من أسباب الفتنة ودواعي الهوى .

سبحانك اللهم ! هذا بحر الروم مهد الملاحة عند آبائنا الأولين . هذا بحر
الروم الذي قامت حوله حضارة مصر ، وبابل ، وفينيقية ، واليونان ، والرومان ،
والعرب ، وهي الحضارة التي ترتكز عليها حضارة العالم الحديث وإن جدد
الخلف فضل السلف . هذا بحر الروم أجل بحار الأرض شأنًا وأبعدها أثرًا في
التاريخ ، قديمه ، ووسيطه ، وحديثه ، ومعاصره .

هذا البحر يقال إن مصر تملك من سواحله ما يقدر ذرعه بمئات الأميال ،

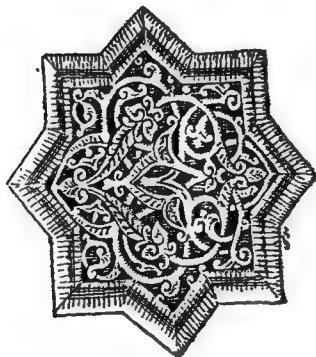
ومع ذلك فليس لها فيه سفن تجارية تتمثلها زمن السلم، ولا أسطول حربي ينافح
نحها إذا جد الجدد، وعظم الخطب .

ولا يظن ظان أن تلك الجبال الطبيعية ، بل هي مقصودة متممة . فإن
البحر باب عظمة الأمم وطريقها ، وما من أمة عظم شأنها وعلا نجمها إلا كان
البحر سلها إلى المجد وسيلها إلى النبوغ . وحذاق المؤرخين يرون البحر قسم
البر في تنشئة الدول ورفع عمادها . ولئن خفيت تلك الحقيقة على محدثي المشاركة
فقد أدركها مستعمرو بلادهم فحرصوا على أن تكون مفاتيح الشرق بأيديهم ،
وتركوا الأهل البلاد ما وراء ذلك من رمال يتمرغون عليها وأحوال يضطربون
فيها . وإن نظرة عجل يلقيا القارىء على خريطة الشرق لكفيلة بأن تثبت له
صححة هذه الدعوى . فامر مرفأ منيع ولا مرمى أمين ، من لندن طنجة
بأقصى المغرب إلى سواحل الصين بأقصى المشرق ، إلا وهو بأيدي المستعمرين
الفاصين .

لقد غدوت يابح الروم لا تقترن في أذهان شبابنا إلا بذكر الحمامات
والملاهي ، والمصايف والمقاهي التي ياترى تصبح مقترنا بذكر الأسفار
الطوال ، والقوائم الجسم ، إن كان ولا بد من وقائع جسم ؟ متى تضعون
أيها المصريون أيديكم على سواحلكم حقا وتستغلونها حقا ، فتصبوا أمة
ملاحين ، إلى جانب كونكم أمة فلاحين ؟ لقد استرهنكم المستعمر الأرض
ووضع في أعناقكم أغلالا وفي أقدامكم قيودا . ولا خلاص لكم من ذلك الرق
المضروب عليكم إلا بركوب متن البحار . هنالك تنشقون فوق ثبح الماء
ريح الحرية الصحيحة ، وتبرأون من علل وأدواء أودتكموها لزوم البر أحقابا
طوالا ، هنالك تنبعث مصر الحرة حقا ، مصر الحديثة حقا ، مصر العظيمة حقا .

ولقد كنت أسترسل في تفكيري هذا لولا أن قطعه على ابني الصغير بقوله !
لقد ابتعد الجو ، وكانت الشمس تغرب ، فبنا إلى المنزل ، واتجهت ، فإذا الأفق
الغربي قد أحالته الشمس الغاربة لها مضطربا ، وإذا الأفق الشرقي قد أخذ
يتلفف في غلالة سوداء . ثم جعلت ظلة المشرق تشتد وتمتد حتى استحال الأفق
كله ظلاما في ظلام . وتألف من ظلام الجو وهدير البحر منظر يبعث في النفوس
الوحشة والرهبة . هنالك نهضت فأتت أولادى نحو المنزل وأنا أردد قول
القائل :

للدهر لو كنت تدري هول منطقته لحن تردده الأصال والبكر



شعراؤنا وسيدنا عثمان

أبت الأندار إلا أن يشقى بالخلافة سيدنا عثمان في حياته وأن تشقى بها ذكره بعد عاته . فقد تولى الخلافة بعد عظيم من عظماء الأمة العربية فاستقامت له الأمور ست سنين ثم اضطرب بحر السياسة وهبت أعاصير الفتنة من كل جانب ، قلبت بغالبها وتغالبه ست سنين أخرى ، ثم طأطأ لها من هامته ومضى مقتولا شهيدا ، فكان أول خليفة سفك دمه جهارا ، وانصدع بمقتله شمل الأمة الإسلامية انصداعا لم يليثم حتى يومنا هذا .

عابوا عليه ليه وإيثاره مع هنات آخر ، ولو أنصفوا لعدوا عثمان من أولئك الرجال الذين لطف مزاجهم الأخلاقي وترقق ماء الحياء في وجوههم وأصبخوا بعبدين عما تتطلبه مآزق السياسة ومحرجاتها من جراءة وإقدام . وإن كان لين الرجل لم يكن عن جبن في النفس وخور في الطبيعة : فقد نصر النبي في كثير من المواقف الحرجة وثبت يوم الدار والموت يتوئب عليه من كل جانب وما رعدت له فريضة ولا اضطرب له جنان .

قلبا مضى لسبيله كان خلفه بطلا من أبطال العرب ذا فصاحة وشيعة تعصب له وتحمي على مخالفيه . والناس عامة يتعجبون بالمتهمجين من السواس والمشهورين من أبطال الحروب ومساعير القتال ويتشوقون سماع أخبارهم وقراءة سيرهم ، ولكنهم لا يحرصون كثيرا على مطالعة سير الأنبياء والتفديسين والعلماء

والأخلاقين وكان ذلك نزوع منهم إلى معيشة أبائهم الأولين أيام كان للشجاعة
الطبيعية الشأن الأكبر في حياة الإنسان .

من أجل ذلك نرى أن عثمان الحلي الوجه، الرقيق الطبع، الدمشقي الخلق، قد
أصبح بينه وبين سابقه ولاحقه تباين في نظر الجمهور كبير . فلا هو في شدة عمر
وصرامته ، ولا هو في جراءة على وإقدامه ، فكان كواديين جليلين تتخطاه أقطار
المتحمسين من المؤرخين ، كما تتخطاه أقطار المتحمسين من شعرائنا . وإن كان
وإدبا يجرى فيه الماء العذب وينبت على جانبيه غصن الزهر ويانع الفخر .

قبرانا ، البردة ، ودهج البردة ، ودهج الغمة ، ودهج العمرة ،
والبكرية ، ولبننا حين توقع قراءة العثمانية ، فإذا بنا في شهر وبعض شهر
نقرأ ثلاث ، علويات ، طوال ، فنجينا من متابعة شعرائنا للرأى العام حتى في
اختيار الموضوعات الشعرية .

إذا كان التاريخ يخطئ عثمان فإن الشعر يعطف عليه العطف كله . وإذا كان
المؤرخ يستخلص العبرة من عصر عثمان فإن الشاعر يجد فيه كثيرا مما يهمه
خاصة من محرك العواطف ومستفز للقلوب ؛ ولعلنا لا نجد في التاريخ كله موضوعا
أروع وأدعى إلى أن يكتب فيه الشاعر الفيلسوف والكاتب التمثيلي والعالم الاجتماعي
من موضوع الثورة التي انتهت بقتل عثمان بن عفان . ولو أننا ارتفعنا الأيام
الحوالي وألقينا نظرة تفقد قلوب الناس أيام تلك الثورة وتستقرى . وحى
غرائم رأينا منظرًا عجبا :-

فهذه روح الجاهلية الأولى ، روح الخلاف والشقاق ، ترفع من رأسها مناهضة
روح الدين الجديد ، روح التضامن والاتحاد . وهذا الباطل يغلب حينًا على الحق .
وتتجم رؤوس الفتنة في الكوفة والبصرة ومصر ، ثم تندفع من هذه النواحي

الثلاث شطر حاضرة الخلافة فتسحك - لحقتها بالمدينة حول دار عثمان . وهذا
التخاذل يدب إلى قلوب النصراء كما يؤلف التناصر بين قلوب الاعداء . وهذا
عثمان نفسه يطل على الثوار وينصح لهم ؛ ولكن أنى لصوته الخافت الضعيف أن
يعلم ضوضاء الجماهير وقمعة السلاح . ثم يشتد الخطب ويعظم البلاء ويمنع
خليفة الإسلام الماء . ولكن القوم الذين بلغوا من التدنى والنذالة مكانا قصبا
أبر إلا أن يذهبوا إلى أبعد منه . لقد اشتت الذئاب الضارية ربح فريستها
وهبات أن تصرف أو تلغ في دمها وتعلم من لحمها . هاهم أولاء يحرق بعضهم
على عثمان باب داره ، في حين أن بعضا آخر يتسور الجدران ويقتحم الدار .
وماذا يرون ؟ يا لله ! يرون شيخا قات السبعين من عمره ، أهزل من
السلاح قد اتشى مكانا من غرفته الهادئة يقرأ القرآن ، وبالقرب منه زوجه
، نائلة بنت الفرافصة ، توازره في بلواه . فابتخشع الجرمون لذلك المنظر
الساذج المريب ، بل يتقدمون إليه بأقدام ثابتة ويعملون فيه سلاحهم . حتى إذا
همت الزوجة البارة بالذود عن زوجها لم تخرج أحدهم أن ينفع يدها بالسيف
نضحة أطنت أصابعها . وهكذا احتسى القوم كأس النذالة حتى الصباية . ثم آبروا
شرمآب ؛ على أن الرواية لم تتم فصولا : فالحروب الطاحنة التي انتشرت بعد بين
المسلمين إنما كانت انتقاما عدلا للخليفة المظلوم . لقد تفرقت جماعة الأمة ، وبد
الله إنما تكون مع الجماعة ما دامت مجتمعة ، فإذا تفرقت فبد الله عليها تذيبها
وبال تفرقها .

تلك عظة بالغة ومجال للشعر قد لا نجد له مثيلا غير مقتل يوليوس قيصر
في الزمن القديم ، ومقتل قيصر روسيا في أعماق سيبيريا في أيامنا هذه ؟

أبو ذر الغفاري



العربي القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأوسعهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشدهم استمساكا بما يراه الحق ، وأعظمهم حجة أن يجري عليه ذل أو ضم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف . ذلك الخلق ، الذي قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الأخلاقية الحديثة ، يرجع إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأ العربي في حجرها وصنع على مثالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعي إنما هو نظام الأسرة مكبرا . وكل الناس من فضائل هي وليدة يديهم ، وإن شئت قل : كم من فضائل الناس ما هو مرذوق غير مجلوب ، وموهوب غير مكسوب .

ولقد جاء الدين الإسلامي مطبوعا في جملته بالطابع العربي ، موسوما بسمته ، قد سلك إلى الحقيقتين الدينية والاجتماعية أقرب السبل ، وعبر عنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهو من ناحية يأمر بالتوحيد المنحصر ، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس في الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن يبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وأن يحورا نواريث أم التبت عليها أمر الحقيقتين المذكورتين ، فلم يلبث العرب أن تأثروا بتلك الأمم وانتقلت إليها أدواؤها وأصابعهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السهلة قد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء

والنحل ، أمرا صعبا مستصعبا ، له ظاير وباطن ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية في صدر الإسلام ، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول إن هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بضلالهم النفس العرية الساذجة ، وأبدلوا بالزهد في الدنيا شغفها ، ونهالوا عليها . نعم إن أبا بكر وعمر أئقعا جهدا غير يسير في سد ذرائع هذا الخطر ، وبدءا في ذلك بأنفسهما . فكانا مضرب المثل في القناعة والزهد وخشوة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال ، فلم يقم بينهم الأرض المفتوحة عنوة ، ثم زاد فتح قريشا من الخروج إلى البلدان المفتوحة إلا بإذن وإلى أجل . فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التي تفيض قوة وتصميا :... ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا إني قائم دون شعب الحرة فأخذ بجلاقيم قريش وحجزها أن يتهاوتوا في النار . فلما ذهب عمر لسيله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها ، وأقبلت تستغل لين ذى النورين وحياء الجمل ، فانطلقت إلى الأمصار تفتن المال الوافر والعقار الواسع والإقطاعات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل ، وتملك أرضها هي بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا في غنائه . فأثرت قريش وربك ، وصارت إلى رفاغة عيش لم تلها من قبل بخيال . يحدثنا أبو الحسن المسعودي فيقول :... وفي أيام عثمان أفتى جماعة من أصحاب النبي الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ... وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما علم من دوره وضياعه فعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين

ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخطا بحج ذكرنا من الأمصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ، ابني داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالكناسة بدار الطلحين ؛ وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (١) وبناحية سراه (٢) أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابني داره ووسعها ، وكان على مرعاه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ؛ وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيدا بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتني المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها بمحصة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك . ثم يقول المسعودي : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه ، ولم يكن مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بيّنة .

مهما يكن من المبالغة في هذا النص فهو لا ريب يشير إلى حال كانت لا بد مثيرة لمعارضة جادة غير هائلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الإسلامية وبالشيخين كان لا يزال قريبا ، ومبادئ الإسلام الديمقراطية لم تمتح بعد من الأذهان ، وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال : نوع يستند إلى العنف والقوة المادية ، وكان بالأماصار الكبرى حيث الجند الذين شادوا الدولة بسيوفهم والذين أصبحوا يرون قريشا استأثرت بحقهم في النبي ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر

من أهل الكوفة :-

يلينا من قریش كل عام أمير حدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشی وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت خافت
مجمیع ، لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية في الدولة العربية ، فقد خلفتها في ذلك
الأمصار المذكورة . والحق أن الأوس والخزرج قد أدوا الواجب الذي من
أجله لقبوا بالانصار ، ثم أخذ نجم مجدهم السياسي في الأفول .
وأما النوع الآخر من المعارضة فكان يستند إلى الدليل الشرعی وإلى مبدأ
الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عالیا رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان
صریح في الحق كل الصراحة : ذلك أبو ذر الغفاری .

كانت غفار من القبائل الضاربة بين المدينة ومكة ، وكانت في الجاهلية تحترف
قطع الطريق واعتراض القوافل التي تمر من أرضها ، وهي حرقة لم يكن بها بأس
في عرف ذلك الزمان . فنشأ أبو ذر نشأة أعرابية ، وانصف بما يتصف به
الأعراب عادة من صدق اللهجة وصرامة القول ، ومرن على حياة البادية بما
فيها من خشونة وسذاجة . ويقال إنه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه
قومه من فساد العقيدة فاطرح الأوثان ووجد الإله ، وذلك قبل أن يبعث
النبي ﷺ بثلاث سنين . فلما نبيه عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته ، وجد
مشكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اعلمت إلى من قبل ، فرحل
إليه من فورده وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم ، وكان خامس
خمس مائة الجماعة الإسلامية وقتئذ . ولقد أبى إلا أن يهجروا في مكة بدينه الجديد

فعمدته فريش بالأذى، ثم ذكرت أنه من قوم ثمر عيرها من أرضهم،
فكفت عنه .

وعاد أبو ذر بعد ذلك إلى البادية فدعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم ،
ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول إلى المدينة . وبذلك أصبحت غفار من
القبائل التي ظهرت الرسول في عاربه قريشا . وقد لبث أبو ذر في قومه إلى
أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق ، ثم قدم المدينة وخرج مع
الرسول في غزوة تبوك ، ولزم صحبه إلى أن توفي عليه السلام فكان بذلك من
أكبر رواة الحديث .

وقد وردت أحاديث تشير إلى أخلاق أبي ذر : فيروى أن النبي سمعه يقول
لآخره : يا ابن الأمة ، فقال عليه السلام : ما ذهبت عنك أعرايتك بعد ، وغفلت
بأبي ذر راحلته عن الجيش في غزوة تبوك فتركها وأدرك الجيش ماشيا وحده .
فقال الرسول : يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده ، وورد فيه أيضا
: ما أقلت الغبراء ولا أطلت الخضراء من ذى لمجة أصدق من أبي ذر .

وأقام أبو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب
الحق له عمر في العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وإن لم يكن منهم ، ففرض له حصة
آلاف درهم في السنة . ثم خرج إلى الشام وغزا مع معاوية أرض الروم سنة
٢٣ هـ وجزيرة قبرص سنة ٢٧ هـ .

فلما وقف تيار الفتح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام
فرأى ما آل إليه المسلمون من الحال التي سبق وصفها : رأى رجال الدولة
تسى النعم مال الله توصلا لهذه التسمية الخادعة إلى الاستئثار به ، أو التصرف

فيه كما يشاءون، ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين: أغنياء مترفين وفقراء
معدمين، فأثارت تلك الحال حفيظة أبي ذر وهو الذي شهد دورة الفلك كاملة،
ورأى العرب في جاهليتهم وما صاروا إليه في خلافة عثمان، فنصب نفسه
لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك، وأعلن برنامجا في الإصلاح. فأما الذي
فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الأغنياء فيجب أن يرد
فضل أموالهم على الفقراء، وذهب أبو ذر إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون
في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفعه في سبيل الله أو بعده
للكريم، أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى: والذين يكنزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم، وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر
داعية اشتراكيا صريحا. وقد شاعت دعوته في فقراء الناس ومحايبيهم قاروا
بالأغنياء وطالبوهم أن يشاركهم في أموالهم، فتوجه الأغنياء بالشكوى إلى
أمير الشام لذلك العهد: معاوية بن أبي سفيان.

أحب معاوية قبل كل شيء أن يختبر صدق أبي ذر فيما يدعو إليه، فبعث إليه
في جنح الليل ألف دينار، ولما كان الصبح أرسل إليه يستردها بحيلة احتالها،
فوجد أبا ذر قد فرقها كلها، فلم معاوية أن الرجل يفعل مايقول. فأقبل يجادله
فيما يدعو إليه، وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمى الذي (مال المسلمين) بدلا
من (مال الله)، ولكن أبا ذر أصر على أن ينزل الأغنياء عن فضل أموالهم
للفقراء، وعبثا حاول معاوية أن يقتنعه بأن الآية التي يستدل بها إنما نزلت في
أهل الكتاب وحدهم. وأعياء معاوية أمر أبي ذر، فجنح إلى أخذه بالشدّة، فنهى
الناس عن مجالسته وتهده بالقتل، فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره إلى عثمان فأمره
ياشخصه إليه، فأشخصه إليه على شر حال.

لم يكن أبوذر في المدينة بأسعد منه في الشام، فقد حاول عثمان أن يصرفه عن
دعوته، وربه أنه لا يملك أن يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير
فريضة الزكاة، وأن كل الذي يملك هو أن يدعو المسلمين إلى الاجتهاد والاقتصاد،
ولكن أباذر كان يريد برنامجا كاملا، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله.
فرأى عثمان آخره الأمر أن يحصر الخطر في أضيق نطاق ممكن، فبنى أباذر
إلى الربة، وهي مكان في البادية ناء عن المدينة؛ والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر
من إبعاد أبيذر عن الناس، فالروايات تقول أنه أجرى عليه رزقا يناله
كل يوم، وأنه لم يمنعه من الاختلاف إلى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد
أبرائما.

لم يكن أبوذر نازرا ولكن طالب إصلاح أرتاه. وما يدل على عدم
نزوه إلى الثروة أنه وهو في متفاه مربه ركب من أهل السكوة ممن كان منحرفا
عن عثمان، فطلبوا إليه أن ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته
وشاكلتهم، فأبى ذلك بتاتا ونهاهم عنه. وأما مذهبه في الإصلاح فلا شك أنه
ابن بحمدته، فالإسلام لا يحظر الثروة ولا الملكية، ولا يوجب على المسلم
حقا في ماله غير الزكاة، وكل ما ينهي عنه الإسلام في هذا الصدد إنما هو أن
تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته.

وعندى أن حركة أبيذر الاشتراكية تمت بسبب قوى إلى حركة مزدك
الشيوعي الذي ظهر بفارس على عهد قباد وكسرى أنوشروان، والذي كاد يقلب
نظام المجتمع الفارسي رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه. فإذا
عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيل الإسلام، وأن يهوديا من أهل صنعاء
يعرف بابن السوداء ادعى الإسلام في خلافة عثمان وجعل يُلوف الأمصار

الإسلامية داعياً إلى الثورة، وأنه هو الذى حرك أبا ذر لما أنس فيه من الميل الاشتراكية، إذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التى أوشكت أن تقع فى الدولة الإسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

لبث أبو ذر فى منفاه نحو ثلاث سنين يعانى ألم الوحشة وكبر السن وخيبة الأمل، فلما أدركه الموت فى سنة ٣٢ هـ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة ثباته على مبدئه حتى النهاية، وعلى أنه حقا قد مشى وحده ومات وحده، يروى ابن سعد فى طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أبان حارث امرأته فى أمرها لتوحيدها فى تلك الغلاة، فكانت تشد إلى كتيب تقوم عليه فتظن ثم ترجع إليه فمرحنه ثم ترجع إلى الكتيب، فيناهي كذلك إذا هى بنفر تخدعهم وواحلهم كأهم الرخم على رحلهم، فالاحت بشوبها فأقبلوا حتى وقفوا عليها، قالوا مالك؟ قالت أمرؤ من المسلمين يموت تكفنوناه. قالوا ومن هو؟ قالت أبو ذر. فقذروه بأبائهم وأمهاتهم، ووضعوا السياط فى نحورها يستبقون إليه حتى جاوروه. فقال لهم: لو كان لى ثوب يسعنى كفنا لم أكفن إلا فى ثوب هول، أولامرأتى ثوب يسعنى لم أكفن. فقالوا: بها، فأنشدكم الله والإسلام ألا يكفنى رجل منكم كان أميرا أو عريفا ربيح أو بريدا. فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك إلا قى من الأنصار قال أنا أكفئك فأتى لم أصب ما ذكرت شيئا، أكفئك فى رداق هذا الذى على وفى ثوبين فى عيتى من غزل أى حاكتهما لى. قال أنت فكفنى..... فكان ذلك القى الأنصارى هو الذى تولى تجهيزه، ثم دفنوه نجما.

وهكذا انطفأ سراج هذه الشخصية الفذة العجيبة . إنها لاشك من تلك
 الشخصيات التي يقدها الزمن عادة بين أيدي الأحداث الخطيرة إنذاراً
 للناس وإقامة للحجة عليهم إذا لج بهم الغرور فلم يرعوا ولم يزدجروا .
 على أن روح أبي ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه في تلك القلاة البلقع ، فقد
 ظل صوته داوياً إلى أن تحقق ما أنذر به المدينة من غارة شعواء وحرب
 مذكر ، ووقعت الفتنة الكبرى التي يقال إنها انتجت كل فتنة حدثت في
 الإسلام . ولقد كانت غمار من نهض فيها والتي في نارها حطاباً ؟



العتبات المقدسة^(١)

— ١١٧ —

كان يوم الجمعة الماضي من أيام ربيع العراق ، فالجوا باسم طلق والهوى ندى
رغاء ، وجوانب الأفق كاسية حالية بالماء والخضرة والزهر .

خرجنا في صبيحة ذلك اليوم لتودى واجب الزيارة للعتبات المقدسة
بكر بلاء والتجف الأشرف . وكنا رفاقا أربعة ، كلهم عارف بشروط الصحة
وأدب الطريق : ثلاثة مصريون وواحد عراقي هو في الحقيقة داعينا وهادينا في
طريقنا ، هو الشاب الأديب محمد كاشف الغطاء النجفي ، سليل آل كاشف الغطاء
الغنيين بفضلهم وإفضالهم عن التوبه والتعريف .

وانطلقت بنا السيارة تطوى المنازل والمراحل طيا عجيبا ، فكأنما عرأها
ما عرأنا من الشوق والحنين ، فهي تعدو غير متأية ولا مستعصية ؛ فأذكرني أمرها
قول الشاعر العربي القديم :

لقد زارني طيف الخيال فهاجني	فهل زار هذي الأبل طيف خيال ؟
لعل كراما قد أراها جذابها	ذوائب تطلع بالعقيق وضال
تلون زبوراً في الحنين منزلاً	عليهن فيه الضئير غير حلال
وأنتسدن من شعر المطايا قصيدة	وأودعتها في الشوق كل مقال .

(١) القرى ، السنة الثالثة العدد ٩٣ . التجف الأشرف ، الثلاثاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦١

و ٢١ نيسان سنة ١٩٤٢ .

وإذا بنا في أقل من ساعتين من الزمان نسير بين صفين من بساتين موقفة
متصلة الظلال ، فإذا بنا في ضواحي كربلاء .

فإذا بنا في شوارع كربلاء ، فإذا بنا قبالة مسجد الحسين بن علي ،
عليهما السلام .

كل شيء في كربلاء فيه مشابه من سيد شباب أهل الجنة : مياه جارية ،
ورياض ناضرة ، وبلدة آمنة مطمئة ، ومسجد خفيف الروح ، وجيران
أرحمهم كرام ، ولكن ذلك الجمال كله ملفوف في غلالة سوداء لا تبين إلا لعين
الناظر المتوسم ، فإذا تبينتها هاجت به لواعج أسى دفن لم يملك معها حسرة النفس
وابتدار الدموع .

ومال ميزان النهار وأخذت أشعة الشمس الفضية تتحول خيوطا عسجدية
اللون زادت معالم كربلاء جمالا كاسفا حزينا . فاستأذنا مضيفينا السكرام في
متابعة السفر إلى النجف الأشرف فأذنوا .

وراحت السيارة تعدو بنا عدو العظيم ، في قفاريابة جرداء قاحلة ، ليس بها
من أنيس سوى الضباب وكأنها ريعت من ديبب السيارة فهي تسرع إلى أبحارها
مستعيزة بالله من بغي الإنسان وعدوانه . وبينما نحن تتقاذفنا تلك المهامه الفعج إذ
رفع لنا على حافة الأفق الجنوبي ما يشبه أن يكون نجما متوقدا ، فأسأنا عنه
دليلنا الحريث ، فقال : تلكم قبة مسجد الإمام .

وما أسرع ما أسلستنا اليداء إلى مقبرة النجف الأشرف ، فإذا نحن عند
ربوة عالية يقوم عليها مسجد أمير المؤمنين وضريحه وقبته المذهبة الذاهبة في
السماء . هنالك ترحلنا وسعيننا على الأقدام إلى المسجد ، فدخلناه محبتين خاشعين .

والسلام عليك أبا حسن ! طبت حيا وميتا ! أما واقعك لست أعلم ميتا غيرك
 لم تزل يد الموت من شماته ونفحاته قليلا ولا كثيرا ! ها أنت ذا منفرد وحيد
 بذلك الفقر ، ولقد كنت كذلك منفردا وحيدا في حياتك ، شأن كل قوال للحق
 عمال به في هذه الدنيا ! ها أنت ذى على تلك الربوة عال على لحظ العيون ،
 كذلك كنت في حياتك عاليا بإيمانك وتقائك وزهدك على قد الناقدين وتنقص
 المتقصين ! وها هي ذا رياض الفرات وغياضه تترامى لك من بعيد كما كانت
 الدنيا تترامى لك بزخرفها وبهرجها ، وها أنت ذا كأنك تصدها كما كنت تفعل
 قائلًا : يا دنيا عرى غيرى ! وها هي ذى فئاس الأعلق وكرائم الأموال قد
 سبقت إليك وكدست عند قدميك مقدمة لك من موابك وعيبك ، وها أنت ذا
 كأنك تنجها عنك بلطف وتقول كما قلت يوم دخلت بيت المال : يا صفر
 ويا بيضاء غرى غيرى ! وها هي ذى جموع الوافدين حولك كأنهم ينصبون إلى
 خطبة من خلبك الجليلة الرائعة ، وكأنما أنت تخطبهم كما كنت تخطب في الحياة
 لك فتمدى القلوب وتبكى العيون . وحتى عذبت وفصاحتك وجودك
 ولطفك لم تزل منها أثار في جيرانك الأحياء الذين اختاروا جوارك والنزول
 في رحابك .

وانتبهت من أحلامي على دعوات الداعين وحفاوة المخفين من أهل النجف
 الأشرف ، فخرجنا من حضرة أمير المؤمنين ، وما زلنا نتمتع بلطف أهل النجف
 ونقتبس من علمهم وأدبهم حتى لم يبق من الليل إلا قليل .

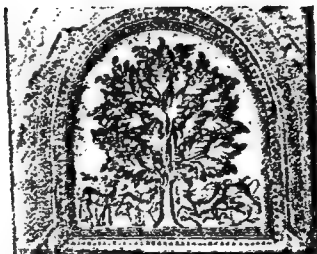
* * *

وانعقدنا في الصباح إلى الكوفة فوقفنا على ديارها البلاقع وأطلناها

الدوائر فكلت قوله تعالى . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في
الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين . .

وبرحنا الكوفة زيد بغداد ، فلم نخرج في طريقنا إليها إلا على الحلة الفيحاء ،
تالية منا لدعوة فاضل من فضلائها أبي إلا أن نطمع من زاده ، ثم استأنفنا السفر
فبلغنا بغداد وقت الغروب فألفيناها كعهدنا بها : هائجة مانجة ، ساحرة فاتنة ،
فقلنا لأصحابي : رجعنا إلى الدنيا ٩

بغداد في ١٦ نيسان سنة ١٩٤٢



الأب لامانس

والحكومة الإسلامية الأولى

إن الأيام بل الساعات القلائل التي مرت بالمسلمين عقب وفاة النبي ، عليه السلام ، هي لاشك أدق ظرف مر بهم في تاريخهم ، على كثرة ما شهد ذلك التاريخ من ظروف دقيقة عصرية ؛ ذلك بأنه في تلك الساعات المحدودة كانت الشريعة الإسلامية التي ظل الرسول سنين طويلة يعمل على تثبيت قواعدها وإدخالها على قلوب العرب ، معرضة لأشد الاخطار ؛ كما كانت الوحدة السياسية التي قضى النبي طوال العصر المديني من حياته يعمل على تكوينها وإحكامها ليتمكن لدعوته الدينية ، هي أيضا معرضة لخطر التفكك والانتقاض . ولكن ما هي إلا تلك الأيام أو الساعات القلائل حتى نجت من الضياع قضية الإسلام وقضية الدولة الإسلامية ، وافتتح كل منهما عصرا جديدا لا يزال إلى اليوم إحدا أعاجيب التاريخ ومن دواعي حيرة المؤرخين . تلك الأيام أو الساعات هي التي عبرها المهاجرون والأنصار بسقفة بني ساعدة بالمدينة والتي اشتد أثناءها الخلاف بين الفريقين حتى خيفت الفتنة ، ثم آل أمرهما جميعا إلى انتخاب أبي بكر خليفة لرسول الله على المسلمين ، وإلى قيام الخلافة الإسلامية بشكلها الديمقراطي المعروف .

وبعد فلاب لا مانس المسترق اليسوعى المعروف بسعة اطلاعه على آداب
العصر الجاهلى وتاريخ العصر الإسلامى الأول نظرية^(١) غريبة تتعلق بشكل
الحكومة الإسلامية التى قامت يوم السقيفة واستمرت طوال عهد
الشيخين .

فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثى
Triumvira المعروف فى التاريخ الرومانى فى طور الانتقال من الجمهورية إلى
الامبراطورية ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة : هم أبو بكر
وعمر وأبو عبيدة ، وأن هؤلاء اجتمعت كلتهم فى أواخر حياة النبي على أن
يحتكروا الحكم بعد وفاته عليه السلام ، ويتداولوه واحدا بعد واحد ، وأن
اثنين من أزواج النبي ، هما عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، مهدتا لهم
السييل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد . إذ أيد عمر
وأبو عبيدة أبابكر يوم السقيفة ، وفاز أبو بكر بالخلافة ، وقد عاونه صاحباه
فى الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على النية . فلما حضرت الوفاة
لأبابكر عهد إلى عمر من بعده . ثم إن عمر رشع أبابعيدة للخلافة من بعده ،
بأن ولاء القيادة العليا لجيوش الشام . غير أن أبابعيدة توفى فى حياة عمر ،
فخط مشروع الحكم الثلاثى ، وكان من وراء ذلك أن يرجع المسلمون إلى
الشورى التى حرّموا منها فى استخلاف أبى بكر وعمر ١١

ونحن مع احترامنا لعل الآب لامانس وإطلاعه نقول إن نظريته هذه
لا تقوم على أساس تاريخي متين ..

أولاً - لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئاً من هذا القيل ،
فالطبري والبلاذري اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة
بقيام الخلافة العرمة ، لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية
الآب لامانس .

ثانياً - إن الأحاديث التي يستشهد بها الآب لامانس أغلبها من الأحاديث
المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم . وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ تام ، وربما
كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح ، ذلك
بأن معظمها لا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب
السياسية إبان العصر الأموي وعهد العصر العباسي .

ثالثاً - إن الآب لامانس يميل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول
الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي ، وقد لاحظ جديقتنا الدكتور
الشهري بك في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ، ولكنه لا يعلق عليها
الاهمية التي نعلقها نحن . ولييان هذه الاهمية ثبت نص الرواية كما ساقها
ابن اسحق :

قال ابن اسحق : قال الزهري وحدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال
لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : ه إن رجالا من المنافقين
يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي ، وإن رسول الله ﷺ مات ولكنه
ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم
رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع

موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات ،
 وأقبل أبو بكر حتى رُئِيَ على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكمل الناس ،
 بلغت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ
 مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول
 الله ﷺ ، ثم أقبل عليه قبله . ثم قال : يا بني أنت وأمي أما المنة التي كنت
 الله عليك فقد ذقتها ثم لن نصيبك بعدها مئة أبدا . قال ثم رد البردة على رسول
 الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكمل الناس ، فقال : على رسلك يا عمر
 أنصت أو لا أن يكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع
 الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس
 من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت
 قال ثم تلا هذه الآية : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات
 أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي
 الله الشاكرين . قال فوافق له سكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت في
 تلاها أبو بكر فأنما هي في أفواههم . قال فقال أبو هريرة : قال عمر : فوافق
 ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففقرت حتى وقعت إلى الأرض مات محمدا
 رجلا ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

قال قاري . يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهو
 تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن . وهي من أجل ذلك بعيدة عن أن
 تكون مختلفة ، والمناسبة التي وردت في صددتها لا شك صحيحة .

إذا كيف نوافق بين عمر المؤتمر ، على رأى لا مانع ، وعمر الذاهل لموت



وبعد فإن القول باتهام أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به
روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخي في صدر
الإسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان لا أبا عبيدة كما يرى لا مانع ،
قد اتهموا بني هاشم وغصبهم حقهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا
للزعم من شعر السيد الحميري الذي يفرض مدحا لبني هاشم وذما للخلفاء الثلاثة
الأوائل . روى صاحب الأغاني (١) قال : جلس المهدي يوما يعطي قريشا صلات
لهم وهو ولي عهد ، فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش ، فجاء السيد فرفع إلى الربيع
رقعة مختومة ، وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه ، فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس متى عهد	لا تعطين بني عدي درهما
واحرم بني تميم مرة إنهم	شر البرية آخرها ومقدما
إن تعطهم لا يشكروا لك نعمة	وبكافؤك بأن تدم وتشتما
وإن اتهمتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعهم لقد بدأوكم	بالمع إذ ملكوا وكانوا أظلم
منعوا تران محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلة مريما
وتأمروا من غير أن يستخلفوا	وكنى بما فعلوا هناك مأثما
لم يشكروا محمد إسماءه	أفيشكرون لغيره إن أنما ؟
واقه من عليهم بمحمد	وهدام وكما الجنوب وأطما
ثم اتبعوا الوصية ووليه	بالمكرات بغيره العلقما

قال : وهي قصيدة طويلة حذف باقيا لقيح ما فيه . قال : فرمى بها إلى
أبي عبيدة الله ثم قال : أقطع المطامير أقطعه ، وانصرف الناس ، ودخل السيد
إليه ، فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ! ولم يعطهم شيئا .
وقال الشهرستاني في المال والنحل في كلامه على المغيرة إحدى فرق غلاة
الشيعة : إن زعيمها المغيرة بن سبيد العجلي كان يزعم أن أول ما خلق الله هو
ظل محمد وعلى قبل ظلال الكل ، ثم عرض على السموات والأرض أن يحملن
الأمانة ، وهي أن يمتنعن على بن أبي طالب من الإمامة ، فأبين ذلك ، ثم عرضن
على الناس ، فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن
يعينه على القدر به . على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده ، فقبل منه ، وأقدم
على المنع متظاهرين ، فذلك قوله تعالى : وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا .^(١)
فالآب لا مانس لم يرد على أن أخذ نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام
الخلافة ، وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى ، وهي بعد
وجهة نظر ليست لها قيمة عليية على الإطلاق ٩

(١) ابن حزم ج ٢ ص ١٤ .

زياد بن أبي سفيان^(١)

(١)

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسة ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك علماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار .

ولد زياد بالطائف في السنة الأولى للهجرة من أب قرشي هو أبو سفيان علي المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كلدة المعروف بطبيب العرب . وتعلم في كتاب من كتايب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فتشأ قارئاً كاتباً حاسباً . ثم اعتنق الإسلام في أغلب الظن عند ما أسلمت ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن غزوان إلى الأبله وجنوبي العراق ليكون رداً لسعد بن أبي وقاص ، كان الفتي زياد

(١) الثقافة .

فيمن اتتبع للخروج معه ، وكان هو الذي يقسم لهم الغنائم ، وأجرُوا عليه كل يوم
 درهمين . ثم ولي لسعد ديوانه فكان هو الذي يكتب الناس ويدونهم ، فلما فتحت
 جلولا سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمرو بعث بالحساب مع زياد
 وكلفه استئذان الخليفة في الانسياع في أرض فارس . فلما قدم الوفد للمدينة كلم
 زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذلك الفتي الناشئ . وفضاحة
 لسانه ، وقوة جناحه ، وأحب أن يستزيد من اختباره فسأله : هل تستطيع أن
 تقوم في الناس بمثل الذي كدنتي به . فأجاب الفتى . والله ما على وجه الأرض
 رجل أهيأ في صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ فلما كان
 البغد قام في الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه
 من الانسياع في بلاد فارس ، فازداد عمر إعجابا به وقال : هذا الخطيب المصقع .
 ولم يكن الإعجاب قاصرا على عمر ، بل لقد أعجب زياد من سمعه يومئذ من
 أكابر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : لو كان هذا الفتى من قريش لساق
 العرب بعصاه ، فيقال إن أبا سفيان همس في أذنه بقوله إنه هو أبوه الذي ولده
 حقا . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مضت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها
 زياد فيمن نزلها من ثقيف ، واتخذها مقرا مدى حياته بوجه عام . ولما ولي عمر
 المغيرة بن شعبة على البصرة سنة ١٦ هـ ورى المغيرة بما رى به ، وهم عمر بوجه
 لم ينجه من الهلاك إلا شهادة شهدا زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة
 سببا في ذمه الحمد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته وانعقدت
 بينهما من ذلك الوقت أواصر المودة والصداقة .

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبي موسى الأشعري سنة ٢٣ ، كان مما
 احتجوا به عليه عند عمر أنه فوض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد فتى حدث ،

ليست له من ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد عليهم أبو موسى بقوله : « إن وجدت له بلا ورأيا ، فأسندت إليه عمل ، وقد قبل عمر قول أبي موسى متأثرا لأخك بالصورة التي كانت زياد في ذهنه ، ولكنه أحب أن يتحقق بنفسه .
 الأم صار أمر ذلك الشاب في مدى سبع سنوات ، فأمر أبو موسى أن يشخص إليه زيادا . وقدم زياد على عمر قدمته الثانية وقام يباب عمر . فلما خرج عمر وجد شابا حسن الهيئة ، له ذؤابة . وعليه ثياب يضر من كتان ، فابتدره بقوله : ماهذه الثياب ؟ فأخبره زياد . فقال : كم ثمنها ؟ فأخبره زياد بشئ يسير . وصدق عمر . ثم قال له : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال ما صنعت في أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتي فأعتقتها ، واشتريت بالثمن ريبي عبيدا فأعتقته .
 قال الخليفة : وقتئذ اخبر عمر قدرته على الكتابة فأمره أن يكتب في معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة ، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر ، ثم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيها ، فردّه إلى البصرة وأمر أمراءها أن يسروا برأيه . وكذلك لم تحب قراءة عمر في ذلك الشاب مذكره عند قدومه عليه بأخماس جلولاء لسبع سنوات خلت ، ولم تزد الأيام إلا ثقة به واطمئنانا إليه ، كما أن هاتين القدمتين غرست لذلك الخليفة في قلب زيادا إكبارا وتحملا جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذي يتأثره ويقتدى به .

ولما شخص عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل عثمان إلى خراسان غازيا سنة ٢١ هـ استخلف على البصرة زيادا ، فقام بأمرها في غيبته خير قيام على صعوبة حكم ذلك المصر في تلك الأيام .

فلما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التي انتهت بمقتل عثمان ، واستخلف على بن أبي طالب ، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشه وطلحة

والزبير ، لم يحرك زياد في تلك الفتن سداً ، ولم يخض فيها مع الحاضرين ، ولا أتى في نازحاً جليلاً ، بل أعزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستغنياً في بعض دور البصرة ينتظرهم تنجلي الأمور . ولم يكن أمر زياد خائفاً على علي ، فإنه بعد أن ظفر بخصومه في وقعة الجمل سنة ٢٩ وجاءه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهو ابن أخي زياد لأمه ، مستأناً مابياً ، قال له علي : وابن عمك المترجس المتقاعد بي ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين إنه لك لمراد . وزنه على مسرتك لحريص ، ولكن بلغني أنه يشتكي ، أفأعلم لك غله ثم أنيك ؟ وكنم علياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه . فقال علي : إمش أمامي فأهديني إليه أفعل . فلما دخل عليه قال : تقاعدت عني وتربصت ! ووضع يده على صدره وقال : هذا وجع بيننا فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره . ثم استشاره على وأراده على إمرة البصرة ، فامتنع زياد من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ... وسأكفيه وأشير عليه . وافترقا على عهد الله بن عباس . إلا أن علياً ولي زياداً خراج البصرة وبيت مالها ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال علي إخلاصاً له ، وقد لبث على إخلاصه وولائه له إلى أن انتهت حياة علي نفسه . ويتضح هذا الإخلاص في حادثين وقعوا في ذلك الوقت في أم النواحي التابعة لملي ، في البصرة وفارس ، وهما يبينان مقدرة زياد ودعاه وسعة حيلته . أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبي بكر بمصر سنة ٤٩ هـ واضطرب الأمر على علي خرج إليه بالكوفة عبد الله بن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة . ودم زياداً غداة رحيل ابن عباس أمر عظيم ، فإن معاوية أنفذ إلى البصرة عبد الله بن

الحضري فاعياً مقتل عثمان وعمر كالأمل البصرة على علي . ونظر زياد فوجد نفسه في قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده . فأعمل الرأي والحيلة ولما كان ابن الحضري قد نزل في بني تميم فإن زياداً أسرع قتل ومعه الأموال في قبيلة الأزد المعادية هي وحليفتها بكر بن وائل لقيم . وكان لنزوله في الأزد معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزد بالذود عنه كأنها ما كان الأمر . وكتب زياد إلى علي يخبره بالخيال ويستمدد . فصوب علي رأيه وأنفذ إليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدي النخعي . وقد استطاع جارية أن يردقومه عن متابعة ابن الحضري ثم سار إلى ابن الحضري فقتل عليه وعلى أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال .

أما الحوادث الآخر خلاصته أنه عند ما اضطرب الأمر على علي طمع الفرس في استعادة استقلالهم ، فتمعروا الخراج واضطربت فارس ناراً . فأشار ابن عباس على علي أن يولي زياداً على فارس وكرمان ففعل . قال الطبري : ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعدهم من نصره ومناه ، وخوف قوم أو توهدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة قتل بعضهم بعضاً . وصفت له فارس ، فلباق فيها جمعاً وإحزاباً وفعل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار في كورها ومنام فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فزها وحسن قلعة بها ... فكانت تسمى قلعة زياد ، فحمل إليها الأموال سنة ٤٠ هـ .

ولقد أثنى عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي .
والظاهر أن زياداً لم يحسن قلعة اصطخر ويحمل إليها الأموال لمجرد التجنص

فيهما من العجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرى فوق ذلك إلى غرض آخر : لقد رأى بثواب ذهنة وبعد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين علي ومعاوية مت لا محالة بقلة معاوية ، ورأى في الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً في إحفاظ معاوية بأخذه جانب علي ، هذا إلى معضنة كان يحسها في قرارة نفسه تجعله لا يسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن في مكانه الحريز وبين أظهر القرض الذين غدوا معجيين به أيما إعجاب ، ثم يفارض معاوية وهو في حصنه ويساومه مساومة التدنؤد ولا ينزل إليه إلا على شروط يملها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يخطر له يال ، ففي عام ٤٠٠ قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأصبح زياد ومعاوية في حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا تجد رجلين متعادين عداً غريباً . كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فمساكة الحلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاء وأوسعها حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادئ بفتح باب المفاوضة والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل علي إلى زياد يتهدده ويتوعده ، ويعرض في الوقت نفسه بولادة أبي سفيان له . فلم يسع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه . فقام في الناس خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الأكباد وكيف التفات إلى رئيس الأحزاب ، كتب إلى يتهددني ويثني بينه وبيننا عم رسول الله في تسعين ألفاً وأضفى سيفهم على عرائقهم لا يتشكرون ، لئن خلص إلى الأمر ليجدني أحر ضراباً بالسيف ! . وكذلك أعرض زياد ونأى بجانبه مغللاً نفسه بأنه لا يزال بينه وبين معاوية الحسن بن علي وعبد الله بن

عباس . وأتبع وعيده بأن انتقل إلى القامة ومعها الأموال وامتنع بها ، وذلك
سنة ٤١ هـ .

أولسكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه
في الخلافة لمعاوية . وقدم معاوية الكوفة لينهى أمر العراق والمشرق جميعا ، وخلا
ما بين زياد ومعاوية مرة أخرى . إبعاد معاوية بجانب زيادا الحبل ولكن في
غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما في ذمته من
مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك في أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه .
ولكن زيادا أصم سمعه عن تلك الدعوة للخلافة . فلم يسع معاوية عند ذلك
إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بشر بن أرطاة عامله على
البصرة بأخذ الأكبر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبة ، عامله
على الكوفة ، بالشخص إلى البصرة واستصفاء أموال زياد التي كانت في يد
عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتعذيب عبد الرحمن إن امتنع من أداؤها . ولكن
زيادا لم تلن قناته إزاء هذا الجدر من معاوية في أمره . ولم بشر بأن يقتل أبناء
زياد فعلا لولا أن تدخل في الأمر أخوه لأمه أبو بكر ، على ما بينه وبين
زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التي شهدا زياد في حادث المغيرة . فقد
شفع في أبناء زياد لدى معاوية فشفعه فيهم ، وكتب إلى بشر بأن يغل سبيلهم .
واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعا . وبينما الحال كذلك إذا برجل
يقب به معاوية وزياد عنده يد مشكورة ، ومئة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين
الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل هو المغيرة بن شعبة . قالوا إنه
دخل يوما على معاوية وهو بالكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه المنتصح
فإذا بحت بسر قال ناصح يحسنه أو لانيح

قال: يا أمير المؤمنين إن استودعني تبتدع يا محمد شقيقاً، ورعاً وثيقاً،
 فإذا ذلك؟ قال: قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها، فلم
 أتم ليئلاً، فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال: ما زياد هناك فقال
 معاوية: داهية العرب، معه الأموال، متحصن بفلاح فارس، يدبر ويرجس
 الحيل. ما يؤمنني أن يبيع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد على
 الحرب جذعة؟ قال المغيرة: أأأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟ قال: نعم
 فإنه وتلطف له. فأتى المغيرة زياداً وأعلمه بنزول الحسن عن الأمر، وأن
 الأول له أن يصل جبهه بجبل معاوية. وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم،
 وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية.

قدم زياد على معاوية بدمشق في سنة ٤٢، ورفع إليه حساب فارس، فأحسن
 معاوية لقاءه وصدق كل ما قال، ثم أزاله الكوفة كما طلب. إلا أنه لم يركن
 إليه كل الركون فقد كتب إلى المغيرة بأمره بأن يأخذ زياداً ورموس أصحاب
 على بالكوفة، كحجر بن عدي الكندي وعمر بن الحنظلي بحضور صلاة الجماعة،
 فكانوا يصلونها معه.

يبدو أن معاوية كان أدهى من أن يقف في أمر زياد عند هذا الحد. لقد أراد
 أن يستخلصه ويحذبه إلى جانبه جملة، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفائته ومواهبه
 العظيمة. ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا عاين نفس زياد ما كان يحس من
 المضاضة، بأن يعلن على رؤوس الأشهاد صحة ما كان يتهمس به الناس من
 نسبة زياد إلى أبي سفيان. وتفصيل ذلك أن زياداً كان حتى ذلك الوقت
 لا يعرف له أب على التعيين، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد، وهو عبد روى
 كان للحارث بن كعدة، وبعضهم ينسبه إلى أبي سفيان، وبعضهم ينسبه إلى أمه

فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أمية أيا كان ذلك الأب . إلا أن
 ذلك الغموض في النسب لم يلحق زياداً منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب
 كما رأينا ، وهذا ما يدل على سماحة السياسة في ذلك الزمان وسعة أفتها . فإكان
 من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبي سفيان الذي سبقت الإشارة إليه ، وبشهادة
 شهود شهدوا ببنته زياد لأبي سفيان ، وأعلن في الآفاق أن زياداً أخوه لأبيه .
 ولقد أثار معاوية بعمله هذا دمهة الرأي العام ، واعتاض بني أمية ،
 وسخط بعض رجال الفقه والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقد
 نظروا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذي قضى
 بأن الولد للأفراش وللأعراس الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد في
 هذه المسألة التي وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبي سفيان ، حكم الإسلام
 بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم في الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم
 وعدّها سفاحاً . فكان لمعاوية في الأمر نظر أوسع من نظمهم وتقدير أبلغ من
 تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسي يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام
 يقضي باصطناع تلك الشخصية الفذة والانتفاع بها في إدارة الدولة
 ولقد كان معاوية مرتاح الفكر والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشت القالة
 واشتد التكدير عليه ، قام في الناس فقال : . . . أما والله لقد علمت العرب أنني كنت
 أعزها في الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدني إلا عزاً ، وإن لم أتكثر بزياد من ذلة
 ولكن عرفت حقاً فوضعت موضعه ، ألا إن يكن معاوية قد أظهر في هذه المسألة
 شيئاً ، فقد أظهر شجاعة أديّة نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر
 الخليفة المهدي العباسي الذي أمر في سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان
 قریش وردد هم إلى تقيف ؟

زياد بن أبي سفیان

(٢)

كانت دعوة معاوية زيادا في سنة ٤٤ ، وسرعان ما عرضت الظروف التي رأى معاوية أن ينفع فيها بكفاية أخيه الجديد ومواهبه . ذلك بأن البصرة قد اختلت أمورها اختلا لا كبيرا ، فكثرت في نواحيها عيث الخوارج ، والتلصص وقطع الطرق ، وفشت في البلد نفسه الآفات التي تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة إلى الحضارة والترف ، فكثرت الفسق وشاع الفجور . وزاد الطين بلة . تعمص القبائل بعضها على بعض ، مما جعل البلد يحيا حياة جاهلية إلى حد بعيد . ولقد عجز من ولائم معاوية أمر البصرة عن إصلاح تلك الحال ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والادارة يضع الأمور في مواضعها ، ويرد فساد ذلك المصير إلى صلاح . ولم ير معاوية أقدر على الاضطلاع بذلك العبء الجسيم من زياد ، فولاه في سنة ٥٤ على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الآلة وما إليها . رأى زياد أن الحال تقتضي حزما وعزما وشدة في بعض المواطن وضراعة ، ولكنه جهد في أن يعمل بالسياسة المعربة القديمة ، سياسة الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وإن يكن قد طبقها تطبيقا حريفا دقيقا في حالات معدودة قصد الإرهاب وقذف الرعب في قلوب المفسدين ، وقد وضع لسياسة برناجا

أعلنه في خطبته البتراء التي خطبها الناس بالمسجد الجامع لأول دخوله
 البصرة . فقد أعلن عزمه على حدم الموابير ودور الفساد ، فقال : « ما هذه
 الموابير المنصوبة ، والضعيفة المسلوطة في النهار المبصر والمعد غير قليل ؟ حرام
 على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، ونهى عن دجل
 الليل نهيأً بأننا ضرباً على أيدي المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب ، وذلك في
 قوله : « وإيأى ودلج الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه » . ونهى عن
 دعوى الجمالية منها لتعصب القبائل بعضها على بعض . « وإيأى ودعوى
 الجمالية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه » ، وأعلن تضامن الناس
 في حفظ النظام : « وإني أقسم بالله لأخذن أولي المولى ، والمقيم بالطاعن
 والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم . . . أو تستقيم لي فنانكم » . إلا أن
 زيادا وإن كان قد شد الوطأة على أصحاب الريب والفساد فإنه سكن خواطر
 الصلحاء وجهد في استئالة المنحرفين عنه : « فمن كان محسناً فليزدد إحساناً ، ومن
 كان مسيئاً فليزغ عن إساءته » ، ثم بين لهم حرصه على مصلحتهم : « واعلموا
 أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجاً عن طالب حاجة
 منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانة ، ولا مجزأ
 لكم بعداً . أيها الناس . . عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل
 فيما ولينا ،

وكان زياد عند قوله ، فارتعلق عليه أحد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده هذا
 في حالات تعد على أصابع اليد الواحدة ، بقصد الإرهاب ، لا حباً في سفك
 الدماء ، فاستقامت أمور البصرة ، ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر في نواحيها
 فاستكنى كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فكسر بذلك شريرة تلك الفرقة العاتية ،

وعمّ الأمن أطراف البصرة ونواحيها حتى قال زياد : لو قد جبل بيني وبين
خماسان لعرفت من أخذه . .

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفي المغيرة بن شعبة في
سنة ٥٠ لم يتردد معاوية في ضم إمارة الكوفة وأعمالها إلى زياد .

كان الخطر بالكوفة آتياً لا من قبل أهل الريب والفساد والخوارج
وتعصب القبائل كما كانت الحال بالبصرة ، ولكن من قبل الشيعة الذين كانوا
لا يعترفون بسلطان معاوية والذين وجدوا في لعن علي على منابرهم فرصة
لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله والترحم
على أبي تراب ، ولقد رأى معاوية فيهم خطراً جوهرياً على حكمه فأمر المغيرة
بأن يشعبه بمراقبتهم .

وكان المغيرة بن شعبة في أخريات حياته رجل رفيق ولين وإيثار للعاقبة ،
فكان يكتفي من الشيعة بالإخلاص إلى السكون وعدم مخالفة الجماعة ويدعمهم بعد
ذلك يقولون ماشاءوا . فلما أسندت ولاية الكوفة إلى زياد قدمها ، وشد الوطأة
على رؤساء الشيعة : حجر بن عدي وأصحابه ، وطوى ما بينه وبينهم من صداقة
قديمة ، إيثاراته على عادته لأداء واجبه نحو الحكومة التي يخدمها . ولما أحسن
منهم المقارمة لسلطانة والمجاهرة بلعن معاوية وعماله والترحم على علي ، قبض
على حجر بن عدي وبضعة عشر رجلاً كانوا زعماءهم ، واستشهد ناساً من
وجوه أهل الكوفة على أن حيزاً وأصحابه قد خالفوا الجماعة وشقوا عصا
الطاعة ، ثم بعث بهم وبالشهادة عليهم إلى معاوية . وهنا يتورط هذا السياسي
الحنك في الأمر ويضيق بهؤلاء الثفر حله المشهور ، فيأمر بقتل ستة منهم ، فيهم
حجر بن عدي ، قتلوا أصراً . بمرج عذراء بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ

وهذات أحوال الكوفة على أثر ذلك إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب
إلى معاوية يقول : إني قد ضبطت العراق بشمالى ويمنى فارغة ، يمرض برغبته
في أن تضم إليه الجامة ، لا الحجاز كما ورد في بعض الروايات . فضم إليه معاوية
الجامة وما إليها .
ولم تطل حياة زياد بعد هذا الحادث ، فقد أصابه الفالج وتوفي في رمضان

ذلك تصوير عام لحياة زياد السياسية . ومنه نرى أن زياداً كان سياسياً
حازماً يعرف مواضع الشدة ومواضع اللين ، وليس لكل حال لبوسها ، ويدأوى
كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثاني ، وكان يتأثره ويحب سماع
الحديث عنه ويعمل بسنة ويقضى بقضائه .

وأياً ما كانت الحال فقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للصليحة
العامة ، ولا أدل على ذلك من موقفه من معاوية عندما أراد أخذ البيعة بولاية
العهد لابنه يزيد ، فقد رأى زياد الأمر يجد خطير ، وأن واجبه نحو الإسلام
والمسلمين يحتم عليه ألا يمين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً مؤدباً
ينصح له فيه بالتريث وعدم العجلة . وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخط
الخطوة الأخيرة في هذا الأمر إلا بعد موت زياد .

ذلك وجه الحق في أمر ذلك السياسى الذى عاش في أيام قن واضطراب
وقلة من عصر النبوة والخلافة إلى عصر الملك والسياسة : أخذ بالحزم ، وأداء
للواجب ، ونصح لولى الأمر . ومع ذلك فتم روايات تصور زياداً طائش
السيف ، سفاكاً للدماء بغير حق ، فتزعم أنه قتل الأبرياء بالبصرة ، وأنه قطع

أبدي ثمانين أو ثلاثين رجلاً حصوه وهو على المنبر بالكوفة ، وأنه دفن رجلاً
 من أصحاب حجر حيا . إن هذه الروايات وأمثالها متمة ، لأنها صادرة عن رواية
 الشيعة المتحرفين عن بني أمية ، ومورخى بني العباس الذين قضوا على الدولة
 الأموية . ولا فكيف تصور أن ينال زياد بإجماع الأخبار رضا الأئمة
 المهديين عمر وعثمان وعلى ، وثقة عاملهم سعد وأبي موسى وابن عامر وابن
 رهباس ، وإعجاب الفرس وولاهم ، ثم يثقل بمجرد وضعه يده في يد معاوية
 سفكا سفاحا ؟ ألا إن سبب الوضع والاتحال أو المبالغة على أقل تقدير
 واضح في تلك الروايات من غير مراد .

•••

وكما كان زياد سياسيا حازما ، فقد كان إداريا بارعا ، لا يكاد يلحق به في
 ذلك الميدان من رجال الصدر الأول إلا قليل . والظاهر أنه لقف صناعة
 الإدارة أثناء عمله بقارس للإمام على ، وذلك بمعاشرته الدهاتين وسماعه أخبار
 الأكرسة الأولين . عني بعمارة قارس والعراق . فأما قارس فقد بلغه أن
 الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج ستة فاقدي بهم في
 ذلك ، فعمرت قارس عمارة عظيمة . وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية
 الزى بالنسبة له ، فحفر عدة أنهار ، منها نهر معقل ونهر الأبله ونهر ديس ،
 وأكثر من الانقطاع وإحياء الموات . قال المسدثي : وكان يقطع الرجل
 القطيعة ويدعه سنتين ، فإن عمرها وإلا أخذها منه .

وقد عمر العراق لهذه عمارة عظيمة . روى البلاذرى أن جباية كور البصرة
 على عهد زياد بلغت ستين ألف ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة
 آلاف ألف فقط ، ويتفق الباقي في أعطيات الجند وعامة ضروب الإصلاح .

وبلغت جباية كور الكوفة على عهده أربعين ألف ألف درهم كان يرسل منها إلى معاوية ثلثي ما يرسل إليه من جباية البصرة ، وينفق ما تبقى في مختلف بشئون الكوفة .

نوعى بأمر الأسواق ، فكان يراقب الأسعار مراقبة دقيقة متوخيا مصلحة الجمهور في ذلك . قال المدائني : « غلا الطعام على عهد زياد ، فذبح إلى التجار مالا فابتاعوا به طعاما ، وقال زيادوا ربما ربما ، فلبس رخص الطعام ارتفع ماله . » وربما تنكر ونزل إلى السوق واختبر الموازين والمكاييل بنفسه ، وكان يوقع العقوبة الموجهة بمن يطفف كيلا أو يخسر ميزانا .

وعنى العناية كلها بالشرطة والجند ، فاتخذ حرسا مؤلفا من خمسمائة رجل لا يبرحون المسجد ، وجعل الشرطة ٤٠٠٠ رجل ، وبلغت مقاتلة البصرة في زمنه ثمانين ألفا ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفا . وجعل جند البصرة أخصاسا ، وجند الكوفة أرباعا ، مازجا بين القبائل المتباعدة الأنساب ليؤلف بينها ، ويضعف من تعصب بعضها على بعض . وولى على كل خمسين أو أربعين رجلا من قبل الحكومة بدل سيد القبيلة كما كانت الحال من قبل ، ونقل إلى خراسان خمسين ألفا من عرب المصرين ، وجعلهم أرباعا على نظام جند الكوفة ، فكان ذلك بدء استعمار العرب ذلك الأقليم . وكانت أعطيات الجند وأرزاقهم وأرزاق عيالهم تصرف إليهم من دار الرزق في مواعيد معينة من السنة ، وأكثر ما كان ذلك في المحرم ورمضان .

روى البلاذري أن زيادا سأل أحد جلسائه فقال : ألت تعلم أن الأسواق قائمة وأن الاعطيات والأرزاق تخرج إلى شهر معلوم ويبيع البائع إلى شهر معلوم ؟ قال : بلى قال : فه الحمد لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا .

وكان زياد شنف بالبناء مع نوث في وخب للظافة العامة . بنى بالبصرة دار الامارة ؛ وهدم مسجدها ، وكان من القصب ؛ ثم وسعه وبناء بالاجر والجص وسقفه بالساج ؛ ونقل اساطينه من جبل الاهواز ؛ وانشأ به المقصورة يدخل إليها من دار الإمارة مباشرة دون أن يتخطى الناس . ويروى أنه حين بنى المسجد ودار الإمارة جعل يطوف فيها وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه : أنزروني خلافاً فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه ! فقال : بل هذه الاساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود ؛ لو كانت أغلظ من سائر الاساطين ؛ قالوا ولم يؤت من تلك الاساطين قط تصديق ولا عيب . وقد قال شاعر من شعراء ذلك الوقت في ضخامة بناء ذلك المسجد :

بنى زياد لذكر الله مفضعة من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تآور أيدي الإنس رفعها إذا قلنا من أعمال الشياطين
وكذلك وسع مسجد الكوفة واتخذ به مقصورة ، وفرش محته وحصن
مسجد البصرة بالحصاة حتى لا تقرب أيدي المصلين .

وقال المدائني . كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أصبحت برفع ما بين يدي قنائه من الطين ، فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقى في محله . ويأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات ؛ ثم انه اشترى عبيدا ووكلمهم بذلك . وكان زياد يعني بمظهره الرسمي للخاصة والعامة على السواء . كان يشتر بالبصرة ويضيف بالكوفة ؛ وكان له مجلس يحضره أشراف المصر يدخلون عليه فيه على السابقة والشرف والحسن ، ويسمرون عنده فيه جالسين على الكراسي ؛ وهو أول من جلس بين يديه على الكراسي ، وكان لا يطعم وحده ولكن مع الصحابة والشرط والمقاتلة ومن حضر ، وكان يغدي الناس ويمشيهم كل يوم إلا

يوم الجمعة فكان يمشيهم فقط ، وكان له قبة يشرف منها على عرض الجند كلها
أراد ذلك ، وكان إذا برز من دار الأمانة في موكب عظم يسار بين يديه
بالحراب والأعمدة ، وهو أول من سير بين يديه كذلك .

ولسيرة زياد الخاصة طرافة وروعة : كان زياد في صباه حسن الهيئة ، حسن
الثياب ذا ذؤابة . وقد وصفه من رآه في أواخر حياته فقال : رأيت فيه حمرة ،
وفي عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية ، مخروطها ، عليه قميص مرقع . وقد أجمع
الرواة على أن زيادا كان من أخطب الخطباء ، وأنه كان كاتباً بليغاً ومحدثاً لبق
الحديث . قال الشعبي : ما رأيت أحداً يتكلم إلا أحيت أن يسكت مخافة أن ينقطع ،
إلا زياداً فإنه لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن . وكان أباً باراً ببناته وأبنائه
الكثيرين ، وصديقاً وفيماً لم يخل بصدقة المغيرة ولا صداقة بدر بن حارثة الغدافي
الشاعر ، على قلة كلف زياد بالشعر ، ومع ما عرف به بدر من معاقرة الشراب .
وإن يكن قد تنكر لحجر بن عدي فمن أجل الواجب وحده تنكر . وفوق كل
شيء فقد كان زياد عفيفاً لم تؤخذ عليه هنة في حياته الخاصة ، زاهداً في الدنيا
غير حريص عليها . روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه أن زياداً لم يكن
من القراء ولا الفقهاء . واسكن كان يعد في الزهاد . وقال الأصمعي : مكث زياد
على العراق تسع سنين لم يضع لينة ، ولم يفرس شجرة . يريد أنه لم يمتعض
نفسه ببناء ولا زرع تعففاً وزهداً . وكان يقول : أغبط الناس حالاً رجل له
دار لا يجري عليه كراؤها وزوجة صالحة قد رضيت ، فهما راضيان بعيشهما ،
لا يعرفنا ولا نعرفه .

ولما مات زياد رثاه غير واحد من الشعراء ، وقال فيه صديقه بدر
ابن حارثة :

صلى الإله على قبر وطهره عند الثوبة يسقى فوقه المورد
أدت إليه قريش نعتي سيدها فتم كل النقي والبر مقبور
أبا المغيرة والدينيا مغيرة وإن من غربا لدينيا لغرور
قد كان عندك للبروف مرفة وكان عندك للسكراء تنكير
ولا تلبث إذا عوسرت معتسرا وكل أمرك ما يوسر تيسير
لم يعرف الناس مذ كفت سيدهم ولم يحل ظلما عنهم نور
والناس بمدك قد خفت حلومهم كأنما ففتت فيها الأعاصير
قد يقال تلك زفرة صديق محزون لفراق صديقه ، ولكن العواطف
التيلى ، لا يهيجها عادة إلا ما هو نيل حقا .



محمد بن القاسم الثقفي

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية قف في ثاي التاريخ عن شخصية تمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتي الشهيد والفاخ العظيم ، والشاعر الحساس : محمد بن القاسم الثقفي ، الذي شرع في غزو السند في السابعة عشرة من عمره ، وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين ، فأدخل بذلك في الهند الثقافة الإسلامية التي يدين بها في الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليوناً من أهلها . إنها شخصية تجمع إلى قناه السن حكمة السكولة ، وإلى خشونة الجندی رقة الشاعر ، وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم .. وكل صفات اتصف بها العرب في نهضتهم التاريخية الكبرى التي رجعت العالم القديم فنيته من سباته ورسمت للتاريخ مجرى جديداً . وهو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، فهو من ثقيف المشهورة في الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة ، ثم هو بن عم الحجاج ، أمير العراق ورجل الدولة الإسلامية في الربع الأخير من القرن الأول الهجري . يلتقي نسبهما في الحكم بن أبي عقيل . ولد في سنة ٨٧٢ ، ونقع الحوادث مثار ، وريح الفتن نكباء ، والسيوف يتجاوب صليلها في فارس والعراق والحجاز وإفريقية ، فجمل غلامنا بنفس في جو مكفهر عابس ، ولقف صناعة الحرب سماعاً وعياناً ، ثم شاه ربك رحمة منه بالناس أن يكون إلى جانب

هذه الحياة القلقة المضطربة الحائرة حياة أخرى آمنة هادئة هي: حياة الأدب الذى يتمثل فى الشعر الغنائى الرقيق الماثور عن ابن أبي ربيعة ، وجميل ، وكثير ، والفيرى وغيرهم من شعراء ذلك الزمان فمشا نظر الفنى الثقى الحائر إلى ذلك النور المشرق . لجأه . واهتدى به ، وهفت نفسه العطشى إلى ذلك المورد العذب فورده وارتنوى منه ، وبذلك اعتدل مزاجه ، وورقت حواشى نفسه ، وأصبح وهو فى السابعة عشرة من عمره أشرف ثقى فى زمانه كما يقول صاحب الأغاني ، وأقبل الحجاج ، وهو هو فى نقد الرجال وتمييز الكفايات ، يعتقد به آمالاً كباراً ، ويرشحه على حدانته سنة للأمر الجليل بعد الأمر الجليل .

لم يكد يتصف العقد التاسع من للقرن الأول الهجرى حتى كانت الفتن التى صدمت وحدة الدولة الإسلامية من بعد معاوية قد رككت ريعها ، فانهت ثورة ابن الزبير بالحجاز ، وكسرت شوكة الخوارج بفارس ، وسكنت العاصفة الهوجاء التى أثارها ابن الأشعث بالعراق . هنالك عاود العرب جبههم القديم الفتح والتغلب ، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومتفذاها ، ففزا قتيبة بن مسلم ما وراء النهر وأوغل فيها ، وتوطد سلطان الدولة ببلاد عمان ، وغزا موسى بن نصير المغرب ، وقرع أبواب الأندلس نفسها . وقد أراد الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتح الجسام ، فأغزى ابن عمه محمد بن القاسم السند التى هى مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والحافل بالخبرات ، والذي يسمى بلاد الهند .

الحق أن الحجاج لم يتسكر سياسة غزو الهند ، فقد عرف هذه البلاد عرب شرقى الجزيرة منذ الجاهلية . وطالما ركبو البحر إلى شواطئها مستبضعين وتجارا .

فلما قامت الدولة الإسلامية طمعوا في غزوها وتملكها : روى صاحب فتوح
البلدان ، إن عمر بن الخطاب ولي عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان سنة
١٥ هـ فوجه أهله الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان ، فأقطع جيشاً إلى ثانة
(قريب من موقع يومبای الحاضرة) فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه :
فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ! تحلت دوداً على عود ، وإنى أحلف بالله أن
لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم . وتتابعت غارات عرب البحرين من
عبد القيس وغيرها على شواطئ الهند وجزائرها ، وخاصة جزيرة سيلان التي
كان يقال لها اذذاك : جزيرة الياقوت ، لحسن وجوه نساءها ، فن هؤلاء
العرب من أفلح في المقام بها ، ومنهم من عاد إلى بلاده لملء يديه السبي الرائع
والمغنم الوافر . هذا من ناحية العرب . أما من ناحية الهند أنفسهم فقد
هاجرت منهم في الجاهلية طوائف إلى رأس الخليج الفارسي وخضعت للدولة
الفارسية القديمة ، فلما مصرت البصرة نزلوها وحالفوا من بها من العرب .
فلما كان زمن الحجاج أغرى عماله على مكران نهر السند ، فكلهم كان ينسكب
أو يقتل . وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم ، تزلها قياثل عديدة
قوية تذكر منها الرط والسيابجة والميد والبرهة . وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة
في أعضام الأودية ورءوس الجبال . منها الديبل ، وكانت نهر السند قبل كراتشي
الحاضرة ورمها ناز وراور والملتان . وكانت هذه البلدان قوية غنية بمداها
وخاصة معبد الملتان . قال البلاذري : وكان بد الملتان تهدي إليه
الأموال ، وتنذر له الذنور ، ويحج إليه السند ، ويأوفون به ويحلقون رءوسهم
ولحام عنده ، ويؤمنون أن صنما فيه هو أيوب النبي عليه السلام . أما الناحية السيامية
فقد كان يتوزع بلدان السند وبقائهم عدة ملوك متقاطعي الكلمة محتلي الأهواء .

وكان أقوام سلطانا إبان غزو العرب للسند ملك يقال له داهر ، فهو الذي أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة . والعريف أن مصرع هؤلاء القواد لم يحمل الحجاج على الجند في قتال داهر بمقدار ما حمله عليه استغاثة امرأة عرية اعتدى عليها ، وعلى نسوة عرييات كن معها ، بعض قراصين البحر من أهل السند التابعين لداهر .

وذلك أن ملك جزيرة الباقوت فيما يروى البلاذري ، أراد التقرب من الحجاج ، فأهدى إليه نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آياؤهن وكانوا تجارا . فعرض السفينة التي كن فيها قراصين من مبد الديل فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن من بنى يربوع : يا حجاج ! بلغ الحجاج ذلك ، فقال ليلىك وأرسل من فوره إلى داهر يسأله تخليّة النسوة . فأجاب بأنه إنما أخذهن لصوص لا قدرة له عليهم . فأغرى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند ، فكلما قتل ، فاحتاج الحجاج وتجدد لقتال داهر . وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الري فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى في هذا الشاب من يرأب الصدع ويدرك الثأر . فرده عن غزو الري وعقد له على مكران وثغر السند ، وأمره أن يقيم . إز حتى توافيه القوة التي أخذ يدها لقتال داهر .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش وأسطول . أما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين ألف مقاتل ، منهم ستة آلاف فارس من جند الشام الذين كانوا أعدة الدولة الأموية ومعمرها والذين وطأوا للأمويين أكتاف ملكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وأما الأسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة . ومن هذه خمس مجانبق ضخام ، يقال لأكبرها (العروس) . ويروى البلاذري أنه كان يمد فيها خمسمائة رجل . وبالغ الحجاج على عادته في إعداد الجيش حتى

أنه جهزه بكل ما احتاج إليه من الخيوط والمسال وعند إلى القطر
 المخرج فتقع في الحبل المخر الجاذق ثم جفف في الظل ، قال إذا صرتم إلى السند
 فإن الحبل بها ضيق فانقعوا هذا القطن . ثم اطحخوا به واصطبخوا ، ، ثم تقدم إلى
 محمد ألا يقطع عنه أخباره بحيث يختلف اليريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام :

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز ، سنة ٥٩٠ هـ ، فسار مشرقاً متبعاً
 ساحل البحر يطوى الخزون والسهول ، ويجوب المياه والمفار ، ويحدوه ما يجودو
 الشباب الحى من حب للجد وتعلق بأسباب المعالي ، تغلب على صحارى كرمان
 ومكران ، وبلغ الديبل سالماً . ولم يكذب يحط وحاله حتى كان الأسطول قد وافته
 بها . فنصر من فوره في مهاجمة المدينة . قال صاحب فتوح البلدان : تقدم الديبل
 يوم جمعة ، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة ، فالتحق حين نزل
 الديبل ، وركزت الرماح على الخندق ، ونشرت الأعلام ، وأزل الناس على راياتهم ،
 ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يد فيها خمسمائة رجل . وكان بالديبل
 دبد ، عظيم عليه دقل طويل ، وعلى الدقل (سهم السفينة) راية حمراء إذا هبت
 الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور وكانت كتب الحجاج ترد عليه بصفة
 ما قبله واستطلاع رايه فيما يعمل به في كل ثلاثة أيام . فورد على محمد من
 الحجاج كتاب : أن انصب العروس وأقصر منها قامة ، وتكن بما على المشرق ،
 ثم ادع صاحبها ، فره أن يقصد برميته الدقل الذى وصفت لى ، فرمى الدقل
 فمكسر ، فاشتد طرقة (جزع) الكفر من ذلك . ثم إن محمداً ناهضهم وقد
 خرجوا إليه فزهمهم حتى ردمهم ، وأمر بالسلايم فوضعت وصعد عليها الرجال ...
 ففتحت عنوة ... وهرب عامل داهر عنها ... واختط محمد للمسلمين بها ، وبني

مسجداً، وأزّلها أربعة آلاف، ثم سار محمد مصعباً مع النهر يريد داهراً، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الراور صلحا. وانضم إليه على أثر ذلك أربعة آلاف من الزط، وصار كثير من قبائل السند حوالة في حربه مع داهر. ثم هرب نهر مهران والتقى بذاهر وجيشه. وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمداً وجيشه بفنك ذريع. ولكن محمداً اتقى شر الفيلة بقذائف النبط الملقب يرميها بها، فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند. وانتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر. وتمزق جيشه وتراجع فلوله إلى مدينة برهنا باذ. واتفق محمد أثر تلك القلول فاستولى على مدينة راور فبرهننا باذ نفسها، ومن ثم زحف إلى مدينة الراور لحاصرها أشهراً ثم دانت له على أن يحقن دماء أهلها وألا يعرض لدم، وأن يؤدوا إليه الخراج. وقد وفى لهم بشرطهم وبني بالمدينة مسجداً. ثم قطع نهر رياس إلى الملتان، أعظم بلدان السند العليا، فامتعت عليه أول الأمر، ثم استولى عليها بمائة رجل من أهلها له. ووضع يده على أموال جسيمة كانت بمعبدها البوذي.

كانت الملتان أقصى ما وصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال، قال البلاذري: «ونظر الحجاج فإذا هو قد أفتق على محمد بن القاسم ستين ألف درهم، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف، فقال: شفيينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر».

أخذت الملتان سنة ٥٩٥ هـ. وعلى أثر ذلك أنت محمداً وفاة الحجاج قفصل راجعاً نحو الجنوب مستولياً في طريقه على مدن ملوك آخرين غير داهر. وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها (الكيرج) استولى عليها غزوة سنة ٥٩٦ هـ. ثم أنهى الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه سليمان، فلم يبرح تلك المدينة.

وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن ، وأخذ نجمه في الأفول .

لاشك أن الحجاج كان موقفا عندما عهد إلى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة
الخطيرة . فإن عمدا بجذاعة سنه وصدق فروسينه قد ملك زمام أمحابه . فلا
تسمع أن أحدا منهم جدته نفسه بخلاف عليه أو عصيان له . ثم إنه بهذه
الخلال نفسها وبرجاجة عقله وسعة حليه اجتذب قلوب السند أنفسهم ، فقد
تأثروا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجربين المتخاذلين فلم يتمالك كثير من قبائلهم
بأن أعطاه الطاعة وأخذ جانبه في الحرب كما سبق القول . ويروى إنه عندما شرط
عليه أهل مدينة الراور ألا يقرب بدم وفي لم بذلك وقال : ما البد إلا ككنائس
النصارى واليهود ويوزن ثيران الجوس . . . وكانت حكومته أيامه عادلة رفيعة
إذا قيس بمحكومة ملوكهم وأمرائهم ، فقد تقدم إلى عماله بهذه النصيحة :
« أنصفوا الناس من أنفسكم ، وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية ، وراعوا في
فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تختانموا ولا تنازعوا فتشقى بهم البلاد .
ثم إنه كان مدركا كل الإدراك أن عليه واجبين عظيمين : عليه أن ينشر في
البلدان التي فتحها الثقافة الإسلامية ، وأن يصل بين الشرق والغرب الإسلاميين .
من أجل ذلك كان إذا فتح مدينة أنزلها بعض أمحابه ، وبني بها مسجدا . ومن
أجل ذلك نقل طوائف من الزط والسيابجة إلى العراق . فأرسل الحجاج بعضهم
ككورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم إلى الخليفة ، فأرسلهم أنفاكية وسواحل
الشام ليتفح بخبرتهم البحرية في قتال الروم ، كذلك أرسل إلى الحجاج فيسلة
سميت ببعضها مشرعة الفيل التي كانت بواسطة .

كما بعث إليه أول جزء . بآلاف من الجواميس السندية ، فأطلق الحجاج

بعضها في آجام كسكر وكور دجة ، وبعث كثيرا منها إلى الخليفة فأطلقها في
الآجام التي بين أنطاكية والمصيصة ، واتفق بها سبع تلك الآجام وكانت قد
كثرت وأعافت السابعة . وقد نمت هذه الماشية بالعراق على مر الزمن حتى
أصبحت من أسباب ثروته الاقتصادية في الوقت الحاضر .

تلك غزوة محمد بن القاسم السند . إنها لا شك تذكرنا بغزو الاسكندر
المقدوني لتلك البلاد نفسها في أخريات القرن الرابع قبل الميلاد . فالغزوتان
تشابهان من عدة وجوه : تشابهان من حيث أن كليهما برية بحرية إلى حد بعيد ،
ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفائته ، ومن حيث أن كليهما نهج في نشر ثقافته
بالسند نفس المنهج الذي نهجه الآخر ، ومن حيث أن كليهما كان يهدى إلى
أستاذه طرفا من طرف قنوحه وراسله مستطلعا رأيه ، فالفاتح المقدوني كان
يهدى إلى أرسطو وراسله ، والفاتح العربي كان يهدى إلى الحجاج وراسله مصدرا
في بعض المواقف عن رأيه . ولو أن أهل السند الذين غرام ابن القاسم
والذين قد يكون منهم من يدين بشرعة التناسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فربما
رأوا في الفاتح العربي الحديث انبعث روح الفاتح المقدوني القديم .

وبعد فإذا كان مصير ذلك الفاتح العظيم ؟ لقد جاوزى جزاء مناه وحصار إلى
شر مصير ، فقد نسكه الخليفة سليمان بن عبد الملك نسكة كان فيها تلف مهجته
وبوار نفسه . والمصادر القديمة مختلفة في تعليل تلك النسكة : فالمصادر الفارسية ،
وهي حديثة نسبيًا وغير موثوق بها ، تزعم أن بنات داهر أفضين إلى الخليفة بأن
ابن القاسم عبث بهن ، فاضطرم الخليفة غيظًا ، وأمر بمحمد فوضع في أديم بقرة ،
ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ، وفاضت روحه بالطريق . فلما بلغ بنات

نظام مصرع الفتي استعمرن الدم وقلن إني نحن علي ابن القاسم ، انتقاما من
قتل أباهن وثل عرشه ، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك ، وأمر بهن فقتلن شر
قتلة : أما المصادر العربية ، وهي أقدم من المصادر الفارسية وأوثق ، فلا تذكر
شيئا من أمر النسوة ، ويؤخذ منها أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطضا
على الحجاج لأنه كان قد زين للخليفة الوليد بن عبد الملك خلع سليمان من ولاية
العمد : أما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان أن يشفي غيظه من
أقربائه ، متأثرا في ذلك بنظام النار عند العرب . وقد أذكر في الحقد والموجدة
في صدره زجلان كلاهما قد وتره الحجاج وكلاهما كان متأثرا بالمصيبة القلبية
بين قيس واليمن : أحدهما يزيد بن المهلب ، وكان أثيرا مبكنا لدى الخليفة ،
والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاء سليمان خراج العراق .

عزل محمد عن السند ، وولى مكانه يزيد بن أبي كبشة السكسكي ، فأخذ محمدا
وقيده وسيره إلى العراق مع رجل من بني المهلب على حال حركت قلوب أهل
السند ، فبكوا عليه وصوره أهل الكيرج بمديتهم التي كان منها شخوصه . وقد
تلقى محمد المحنة صابرا محتسبا ، ولم يكن في محنته أقل شجاعة وصبرا وأنفة منه
وقت الحرب وحين البأس . والغريب أنه على إخلاص أصحابه له وعطف السند
عليه لم تحده نفسه بالخلاف والانتقاض . والظاهر أن أيقن أنه قد أدى واجبه
وأن الحياة قد أصبحت بعد ذلك لغوا وفضولا لا طائل فيه . وقد جعل يسرى
عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه . فمن ذلك قوله
مشيرا إلى أنه لو أراد الثورة لثق على أعدائه تهضمه :

ولو كنت أجمعت القرار لو طئت أناث أعدت للرغى وذكر
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عك على أمير

ولا كنت لعبد المزوني تابعا فإلك دهر بالكرام ضررا
ولما صار إل واسط جيبه صالح بن عبد الرحمن فقال :
فلئن ثوبت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغاولا
فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا
وعذبه صالح في رجال من أقباء الحجاج حتى قتلهم ، فخلق الشعراء
يرثون عمدا ويذكرون فضائله ، فن ذلك قول بعضهم :
إن المروءة والديماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سوددا من مولدا
وقال آخر :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ولداته عن ذلك في أشغال
تلك خاتمة قى قتيان العرب وسيد فرسانهم غير مدافع . فن مبلغ مسلبي
الأرض عامة والهند خاصة أن النوحة الإسلامية العالية التي أظلت بلاد الهند
طوال العصور الوسطى إنما كانت غرس ذلك الفتي العربي النيل ؟ فليذكر
ذلك الذاكرون قد تبل الذكرى وفات ذلك الشهيد في قبره ، بعد أن عدم في
حياته من محمد بلاءه أو يرحم شبابه ؟

عمر بن عبد العزيز

٦٢-١٠١ هـ

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن
الفلاسفة كانوا ملوكا ، إذ لا تفرق السياسة بالأخلاق على أساس ثابت
مطرد . وتعاونتا جميعا على النهوض بالجنوع الإنسانى ، ولاستحالة عالمنا المضطرب
جنة راضية ونعيم مقبىا .

وكثيرا ما كتب الحكماء فى نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم وزعموها توفر على
الناس فى هذه الدنيا اللذة والسعادة ، وتنق عنهم الألم والشقاوة : فمثل ذلك
أفلاطون فى الجمهورية ، والفارابى فى أهل المدينة الفاضلة ، وتوماس مورفى
دأوطويا ، كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله .
هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد فى التاريخ مرة واحدة على ما نعلم ، وذلك على
عهد الخليفة العربى المسلم : عمر بن عبد العزيز ، فهو رجل ألقى إليه المقادير بزمام
أعظم دولة فى الأرض فى زمنه ، ومع ذلك استطاع أن يقدح شهبوته حتى كاد
يميتها ، وأن يروض نفسه حتى ردها إلى الرضا بالقليل الأقل . ثم تجرد لإصلاح
رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا .
هذا وذاك قد ترامت همته إلى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع أن يجمع
شعوب الأرض طرا فى نظام واحد يقوم على مبادئ الأخوة والعدالة والمساواة .

(١) الثقافة العدد ١٤ سنة الأولى ، ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٣ .

وقد وفق ابن عبد العزيز في هذا الموضع البعيد توفيقا حاد من مقداره، بالأدب،
أن جعلت إليه المنية وهو لا يزال في ميعه العمر وعنفوان الحياة .

• • •

قد اجتمع في تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثية والبيئة معا .
فأبوه عبد العزيز قد ولى مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية واضطلاعاه
بأعيا الحكيم ، وبصره بتألف القلوب . وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسي
الجرىء العارف بنفسية الأفراد والجماعات ، والخير باتساز الفرص عند إمكانها .
وأما نسبه لأمه ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكفى
باتسابه إلى تلك الشخصية العظيمة ترفيقا بسبب من أسباب ودهه وجبراته في
الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة في تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة . فقد
ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وثبت بها على أصح الروايات . فلما ولى أبوه مصر عام
٦٥ هـ حمل إليه ، ولبت بمصر زمنا ، ثم فيه بحجة أبيه ومشاهدة آثار
الحضارة المصرية والبيزنطية . وهنارحته دابة فتج شجته التي عرف من أجلها
بأشج بن أمية ، فلما بلغ سن الثأديب بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وينشأ
نشأة إسلامية مدنية ، وكانت المدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة ، يعرف
فيها من يحملها الروح الديني الصحيح مائلا في نفر من بقايا الصحابة وكبار
التابعين ، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله
بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ؛ كما يعرف فيها الجانب الأرقه من الحياة ، مثل
مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي ، وطائفة من المفتين
والقبائل يتقدمها معبد ومالك بن أبي السبع المفتيان المدينان الشهيران ؛ ثم إن

المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطناً للمعارضة التي تستند إلى الكتاب
والسنة في مقاومة الحكومة الأموية في هذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ،
فروى الحديث عن حملته ورواته ، ولقف صناعة الفناء وأعانه على المساهمة
فيها صوت ندى حذب . كما أشرب روح الحكومة الإسلامية القديمة التي كانت
تختلف عن الحكومة الأموية اختلافاً كبيراً . إلى ذلك كله كان ابن عبد العزيز
قضى طليح الخليفة ثاعماً مترفاً كعادة قتيان بني أمية . يروى أنه أبطأ يوماً من
الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب إبطائه فقال : كانت مرجلي
تسكن شعري ، فكتب مؤدبه بذلك إلى أبيه ، فيمت أبوه رسولاً فلم يكلمه
حتى حلق شعره .

في عام ٨٤ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر قد تم
تأديبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام وزوجه من ابنته
فاطمة ، ثم ولاده خنصرة ، وهي بليدة من أعمال حلب واغلة في البادية .
طلب واليا عليها ستين كانتا من أنعم سنى حياته وحياة زوجته . وقد أعجبه
خنصرة حتى أنه عندما استغاف اتخذها منزلاً على عادة مسلولك بني أمية في
إيتارم سكنى البادية على الحاضرة . وفي عام ٨٧ هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد
المالك لولاية المدينة بدلاً من هشام بن إسماعيل المخزومي الذي أساء السيرة في
أهلها ، ولا شك أن الوليد إنما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية
بينه وبين هذه الولاية ، ثم إنه بعد قليل ضم إليه مكة والطائف فأصبح عمر
بذلك أميراً على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣ هـ) حكومة شورية

لعمري يلزجها من ناحية الشخصية بمقدار غير قليل من الحرص على الترف
 والتمتع . فاول قدمه المدينة استلقى عشرة من العلماء انجذم نصحاء ومستشارين
 صدر في الامور عن رأيهم ، ثم عكف على اصلاح شئون الحجاز : فهدم المسجد
 النبوي واعاد بناءه على نحو اوسع واروع ، واصلاح الطرق ، واكثر من الابار
 فيسّر بذلك الماء في ذلك القطر الظمى ، كما أنه عمل بالمدينة فورا وسقى منها
 أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المدينة سنة ٥٩١ هـ وأمر
 للفورة بقوام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، فعمل عمر ذلك .
 ومن مظاهر بساطة عمر في إمارته بالحجاز أنه جلس يرثل القرآن بصوته
 العذب فتأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم
 ير عمر بأسا بأن يتحنى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه أن قاضيه على المدينة
 استخف الطرب عند ما سمع جارية تنقى حتى أخرجه من وقاره . فعزله عمر ،
 ولكن القاضي المعزول تحدى الأمير لسباع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو
 أيضا يستخف . فعذر القاضي وردّه إلى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر
 المدينة وكانت السنة محلة وخاف أهل المدينة لسانه وفعلوا أمرهم إلى عمر
 فأخرجه من المدينة ونهاه أن يمرض لاحد من أهلها بمجدح أو بهجو . أما من
 حيث حياة عمر الشخصية في تلك الفترة فكان مترقا مسرفا في الترف ، يرغب
 شره ويسبل إزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر من
 الطيب حتى لتتصف ربحه إذا مئى مشيته ، العمريه ، ، وهى مشية كان يتخرفها
 ويغثال ، وللملاحنة كانت الجوارى تأخذها عنه .

حادث واحد تنص على ابن عبد العزيز إمارته على الحجاز : ذلك حصر
 خبيب بن عبد الله بن الزبير : قد نعم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغت ههنا ،

وكتب إلى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكة . وقد جزع
هز لذلك جوعا شديدا ، ويقولون إنه لبس المسوح سبعين يوما حدادا على
خيب ، ثم أقطع عن ذلك . فلما استخاف دفع دية خيب إلى أوليائه ؛ ومع
ذلك كان يرى أن الله لا بد مواخذه بذلك الذنب ، فكان إذا بشره أحدكم
قال : ما وكيف خيب ؟

وتعدا الحجاز ينعم بأمن وعافية بما ابتليت به الأمصار الأخرى ، ولا سيما
العراق ، من الفتن والقتال . ولذلك أخذت قلوب ثوار العراق والخوارج تغدو
على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبيد العزيز
ثم لم يكتف بذلك : فكتب إلى الخليفة يشدد بنفس الحجاج
وطشه ، وكتب إلى الحجاج عليه ، وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة
يجهز مراق ، العراق وأن ذلك موهم له . وقد نظر الخليفة في الأمر مليا ،
ثم رأى أن يشد أزر الحجاج في هذه الخصومة ، فالتحق أخضر من الحجاز .
والحجاج أول بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز
بأمرين : أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعنا أن أخرجنا من
الحجاز إلى الحجاج كل عراقي في الجوامع والأغلال ، وتوعدنا كل حجازي
أزل عراقيا أو أجره دارا .

• • •

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضبا للخليفة الوليد ، وقد
سأله أن عزله عن إمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو يعض الطريق :
« أخشى أن أكون بمن تنفيه المدينة » ، إشارة إلى الحديث الوارد في أن المدينة

بثني خيئها . فلما حصل بالشام دخل نفسه بالفرار من وجه الوليد والجناس
 الآخر والسورة . فلما توفي الوليد عام ٨٩٦ م وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر
 وكان أثيرا عنده يستشير سليمان وينزل على رأيه في كثير من الأمور . على أن
 عمر قلعه أن عزل عن الإمارة على النحو المتقدم : فقد دفعه ذلك في السنوات
 الست التي قضاها بالشام قبل أن يستخلف (٩٣ - ٨٩٩) إلى النظر في حال الدولة
 العربية في أواخر القرن الأول الهجري .

نظر فإذا الدولة الإسلامية قد أهدت في التخلي عن الصفة الدينية التي كانت
 لها قديما ، وأسرفت في الاصطباغ بالصفة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة
 عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة عجم وطينان ؟ أليست حكومة
 سليمان حكومة الشهوة العنثى والجسد المنهوم ؟ لقد أصبح السلطان يستبد في شد
 أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف المرفف . أما العدل وأما الرفق
 وأما الرحمة : فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب . ونظر فإذا أحوال الدولة قد
 هراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فتحركت أموال الدولة قد استحالت
 ملكا خاصا لبني أمية ، وأكثر الضرائب يجبي من غير وجوهه ، وبصرف في
 غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضى الخراجية التي لا يصح تملكها قد
 استحالت أرضا عذرية يملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التي
 مقدارها أقل من مقدار الخراج ، وكثير من الموال أو مسلمي الأماجم لا يزالون
 مع إسلامهم يؤخفون بالجزية لغير ما سبب سوى أن العمال لحظوا في إسلامهم
 معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوم منها . هذا فوق أن هؤلاء الموال لم يكونوا
 والعرب سواء في الحقوق ، فكانوا يغزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم
 عطاء . ثم إن عدم اتفاق الزكاة في مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء

والمستأكلين والمرضى والزمنى ممن جعل لهم الشرع حقا في الصدقات العامة . ثم نظر فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديدا ، قد توزعت هذا الفرق المتباغضة والأخزاب المتناحرة ، فمن شيعية يطوون الصدور على الإحن لما تألم به بثو أمة من أذى ومنسامة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم وإحلال نظامهم محلّه ، ومن موال قد ساءم ألا يسوى بينهم وبين العرب في الحقوق العامة ، ومن مضرة وعمية وريبة ، كل يحاول أن يكون له النفوذ السياسي من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير في السلطان نفسه . هذا في الداخل أما في الخارج فرأى عمر أن الجهاد الذي شرع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لمنع العدوان على النفس والعقيدة ، وللمذى كلفت على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة ، قد استحال في زمن الأمويين أداة لتوسع في السلطان . وجبر للمعتم الوافر ، والسبي الرائع ، حتى قال الشاعر :

الأذهب الغزو المقرب للفتى ومات الندى والجود بعد المهب

نظر عمر في كل ذلك فرده إلى سبب جوهرى واحد : هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذى قامت عليه : أساس الدين ، والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة بعدما ويمغنها بقوة المعنوية ، والممسك لشئون الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذى أثره في الحاكم شعور حموى بالمسئولية وعمل صادق على إسماع العباد والترفيه عنهم ، والذى أثره في المحكومين اقتضاء العدل إذا حرموه ، وأتفه من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهم . الدين عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والإنسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

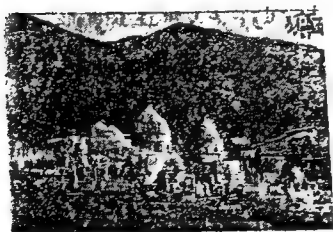
وبينا عمر يرسل الفكر في أنحاء الحياة الإسلامية العامة مترفا عليها إذا به في الوقت نفسه قد أخذ ينحضع لتطور نفساني حنيف . لقد أخذ حرصه على الترف

والنعم يضعف ويبدأ ويبدأ، وميله إلى الزهد والتفكير يقرى شيئاً فشيئاً، وأصبحت نظره إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل، لا يبعدل شيئاً بجانب حلمانية النفس وراحة الضمير، كما أصبح دائم التفكير في الموت وقيام بعد الموت: فالموت آت لا ريب فيه، والموت برزخ مؤبد إما إلى جنة وإما إلى نار، والمتشبه على كل حال رهن بما يكون عليه المرء في العدة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب.

ماسر هذا التطور العجيب الذي جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكاً زاهداً متصوفاً، تبيين ذلك السر في نفسية ابن عبد العزيز من جهة، وفي مقدار تأثره بالحياة الإسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى. لقد كان في عمر نزوع طبعي إلى الزهد، فهو كآريانا من سلالة عمر بن الخطاب، وكان في طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر، ولما تورط في أمر خيب لبس المسوح سبعين يوماً بأساً من خضارة العيش، ولذاذة الحياة، فلما فصع بالإفلاخ عن ذلك أقلع. ثم إن الحياة الإسلامية قد أملت بها في أواخر القرن الأول نزعة زهد جاءت كرد فعل للادية التي طفت عليها إذ ذاك: هذه النزعة التي تحولت بعد إلى الحركة الصوفية المشهورة متينها في طبقة العباد والنسك التي يتكلم عنها صاحب المقد الفريد طويلاً. وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو في المدينة، فكان من أشد الناس تأثيراً فيه عيد الله بن عبد الله بن عتبة. فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علماً وزهداً وورعاً: هذان هما الحسن البصري ورجاء بن حيوة الكندي. أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة، ولعله قد أخذ عنه كراهية القول بالقدر

الذى ينسب إلى الحسن خطأ . وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك
وكان لذلك أقرب إلى عمر وأقرب به اتصالا .

وبعد ، ففلئن كان النظر في الأحوال العامة قد أنتج لعمر ضرورة الرجوع إلى
الدين في إصلاح غيره ، فقد أنتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل
مصر ضرورة الزهد من أجل إصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان
هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام
مرشحوته للخلافة .



عمر بن عبد العزيز

(٢)

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية . ولكن ذبوع فضله وسموه الروحي على سائر بني أمية لفت إليه نظر أولى الحل والعقد من صلحاء الشام ، أمثال رجاء بن حيوة السكندى وابن شهاب الزهرى ومكحول الشامى ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بذائق مرضه الذى مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد إليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك . ثم أمر فأخذت البيعة من بني أمية لمن سعى في عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سليمان وأعلن الأمر إلى بني أمية تجددوا البيعة لعمر على كره منهم (٢٠ صفر سنة ٥٩٩هـ) .

شرح عمر في تنفيذ برنامج الإصلاحى منذ تم له الأمر . ولقد كان له من زهده ومتابعة العلماء له ومزاواة أهل بيته : زوجته فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه سهل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ما أراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة عملاً فيه تجرده من كل مظاهر الآبهة ورده إلى بساطته القديمة ، ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبد الحكم قال : « ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قريت إليه المراكب ، فقال ماهذه ؟ فقالوا مراكب لم تركب قط بركبها الخليفة أول ما لم يتركبها وخرج بلنفسه بغلته ، وقال : يا مزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين ، ونصبت له برادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب

للخلفاء أول ما يلون ، فقال ما هذه ، فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها
أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلون ، قال يا مزامح ! ضم هذه إلى أموال
المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى القصر والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد
قط ويفرش للخلفاء أول ما يلون ليجل بدفع ذلك برجله حتى يقضى إلى الحصيد .
ثم قال يا مزامح ! ضم هذه لأموال المسلمين .

• وبات عيال سليمان يفرعون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه
القارورة ، ويلبسون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر . وكان الخليفة إذا مات
فالميس من الثياب أو من من الطيب كان لولده ، وما لم يمس من الثياب وما لم
يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك
وهذا لنا . قال ، وما هذا ، وما هذا ؟ ... ما هذا ولا سليمان ولا لك ، ولكن
يا مزامح ! ضم هذا إلى بيت مال المسلمين ، ففعل . فتأمر الوزراء فيما بينهم فقالوا :
أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجا بعد أن
كان منه فيه ما قد علم ، وبقيت خصلة وهي الجوارى فعرضن ، ففسى أن
يصكون ما يريدون فيهن ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده . فأتى بالجوارى
فعرضن عليه كأمثال الدمي . فلما نظر إليهن جعل يسألن واحدة واحدة من
أنت ؟ ولين جنت ؟ ومن بعثك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولن كانت وكيف أخذت ،
فيأمر بردهن إلى أهلن ويعملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك
أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق . . .

ثم عمد إلى النظام الإقليمي فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح
الحجاج ، يزل يزيد بن المهلب وجبهه في مال كان للدولة في ذمته ، ونفى نفر من
بنى عقيل أسرة الحجاج ، وولى عمالا جددًا لم يحفل في تخييرهم بمصياهم ولا

بقتدرتهم على جمع الأموال كما كانت الحال من قبل، ولكن بحسن سيرتهم وطهارة
 ذمتهم، فكان من عماله: عدي بن أرمطة الغزاري والي البصرة، وعبد الحميد بن
 عبد الرحمن القرشي ووالي الكوفة، وعبد الرحمن بن نعيم الفسيري أمير خراسان،
 وأبو بكر بن حزم أمير المدينة، والسمح بن مالك الحولاني أمير الأندلس .
 وقد شد أزر الولاة بقضاة عدول، لجعل الحسن البصري على قضاء البصرة،
 وفامرا الشعبي على قضاء الكوفة كما جعل أبا الزناد كاتبا لأمير الكوفة . ولم
 يكف عمر بذلك في إصلاح الإدارة الإقليمية، بل تقدم إلى العمال في أمر
 العقوبات ألا يأمروا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولا .

ثم ثنى عمر بالمسائل المالية فرد المظالم، والمراد بالمظالم الأموال التي استولى
 عليها بنو أمية بغير حق، وقد بدأ في ذلك بنفسه، فخرج لبيت المال من كل مال
 لم يرخص سبب تملكه، حتى لم يبق له إلا عقار جدير ببلاد العرب يتلغاة بسيرة
 فوق مصاته الذي كان يبلغ مائتي دينار في العام، ثم أخذ يتبع أموال بني أمية
 يرد منها ما ليس مشروع الملكية إلى مستحقه، وقد هاج ذلك سخط بني أمية
 عليه، وذهبوا يتعنون عليه أخذه أموالهم باسم المظالم، فلم تكن لغناهم قناته،
 وأرام أنه لا يحجم عن بلوغ الغاية في التتكيل بهم إذا اقتضى الأمر ذلك. يروي
 ابن عبد الحكم وأن رجلا من أهل حمص أنه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك
 في حوائث بمحمص كانت أبوه الوليد أقطعه أياها، فقال له عمر أردد عليهم
 حوائثهم، قال له روح: هذا ممي بسجل الوليد . قال: وما يغني عنك سجل
 الوليد والحوائث حوائثهم، قد قامت لهم البينة عليها؟ خل لهم حوائثهم .
 فقام روح والحصى منصرفين، فتوعد روح الحصى، فرجع الحصى إلى عمر،
 فقال: هو الله متوعدني يا أمير المؤمنين . فقال عمر لكعب بن حامد وهو علي

جرسه : أخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوائته فذلك ، وإن لم يفعل
فأتني برأسه ! فخرج بعض من سمع ذلك عن بغية أمر روح بن الوليد فذكر له
الذي أمر به عمر ، فخلع قواده . وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا ،
فقال له : قم نخل له حوائته ! قال : نعم ! نعم ! وخلي له حوائته .

.. وسار عمر في إصلاح الشئون المالية على الأساس الشرعى ، فالأموال ينبغي
أن تنحى من وجوها وتنقى في مصارفها الشرعية ، فن أسلم من أهل الذمة سقطت
عنه الجزية ، وقد أسقط الجزية فعلا عن كثير من موالى خراسان وأهل مصر ،
وقال مقالته المشهورة : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يعنه جايبا » ، ونهى عن أن
تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ١٠٠ هـ ، مع عدم التعرض
للحقوق التي اكتسبت من قبل ، وألغى وظيفة مالية وظفها آخر الحجاج بن
يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء إطلاق مالية لم يرد بها
الشرع ، وقد جمعها في كتابه إلى عامله على الكوفة فقال : « ولا تحمل خرابا على عامر
ولا عامرا على خراب » ، انظر إلى الخراب نخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ،
ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا
تأخذن في الخراج ... أجور الضرايين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن
الصحف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا
خراج على من أسلم من أهل الأرض .

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ،
فإنه لما شكاه إليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم إلى العشر مع بقاء
جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم إلى العشر ^(١) ، كذلك رد جزية

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٦٧

فهرس إلى ما كانت عليه وقت الفتح ، وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن
 مزوان^(١) ، ويزوى البلاذرى أيضا^(٢) ، أنه ، وقد عليه قوم من أهل
 سمرقند فرضوا إليه ، أن كتبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على خدر ،
 فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى
 بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجى ، لحكم بإخراج
 المسلمين على أن يتأبدوم على سواء . فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا
 المسلمين . . وأبلغ من ذلك في الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق ما رواه
 البلاذرى^(٣) ، قال : . قال ضمرة عن علي بن أبي حمزة ، عاصمنا عجم أهل
 دمشق في كنيسة كان فلان أقطعها لى نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها وردھا
 إلى النصارى . . ويزوى البلاذرى أيضا^(٤) ، أن أنوليد بن عبد الملك قد أدخل
 كنيسة يوحنا في مسجد دمشق بغير رضا النصارى ، فلما استخلف عمر بن عبد
 العزيز شك النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيسهم ، فكتب إلى عامله يأمره
 برد ما زاده في المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك ، وقالوا نهدم مسجدا
 بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد يعة ، وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربى
 وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوه أن يعطوا جميع كنائس
 القروطة التى أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يصفحوا عن
 كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجمهم . فكتب به
 إلى عمر فخره وأمناءه . . ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة .

(١) البلاذرى ، ص ١٥٤ .

(٢) نفسه ص ٢٢٤ .

(٣) نفسه ص ١٢٤ .

(٤) نفسه ص ١٢٥ .

أما ما ينسب إليه في بعض كتب الفقه من تحامل عليهم ، وأنه كتب إلى عماله بعزمهم عن أعمال الدولة وأخذهم بالوائف من الاضطهاد والتضييق عليهم ^(١) ، فغير مؤلف مع المستيقن من سيرته على فرض صحة ، وقد يكون نوتا من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الإسلامية إذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين .

ولما كان عمر حريصاً على سبابة الأموال العامة من مصادرها الصحيحة ، فقد كان كذلك حريصاً على أن تنفق في مصارفها الشرعية . فن حيث الفى ، قد فرض للذرية المقاتلة وعيالهم ، عملاً بستر عمر بن الخطاب الذى ترك بنو أمية العمل بها ، وكتب إلى عامله على السكوة : « وانظر من أراد من الذرية الحج فعجل له مائة يبيع بها » . وفرض لعشرين ألفاً من الموالى كانوا ينزفون بخراسان بغير عطاء . وأظهر استعداده لأن يحمل من بيت المال إلى خراسان أموالاً إذا كان خراجها لا يبقى بقطاع أهلها . ومن حيث أموال الزكاة ، فكانت صدقات كل إقليم تقسم على عهده في فقراء أهله ، وقد قسم في قراء البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمنى خمسين وخمسين ، وفرض للفقيرات من عوانس النساء ، وأعتق كثيراً من الرقاب . وقد كتب إلى أحد عماله « أن اعمل خانات في بلادك ، فمن مراكب من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة ، وتمهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين . فإن كان منقطعاً به فقروه بما يصل به إلى بلده » . وأمر عماله بقضاء الديون عن الفارمين ، فكتب إليه بعضهم : « إنا نجد الرجل له المسكن والخدام وله الفرس والأثاث في بيته » ، فكتب عمر

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٣ .

ولا بد للرجل من المسلمين مأوى إلى رأسه ، وغام يكفيه مهته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، فهو غلام قانصواعه . . ولما رأى عمر أن ليس للشعراء حق في بيت المال جعل يجزئهم من عطائه وماله الخاص على قلته ، بالدرهم والدنانير المعدودة ، وقد أدرك الشعراء علة تحرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير أو الرد أحيانا بغير عطاء ، ولم يقصروا في مدحه والثناء عليه .

على أن أهم ميزة تميز عمر بن عبدالعزيز عن غيره من خلفاء الإسلام ورؤساء الدول طرا فيما نعلم إنما هي رغبته الصادقة في نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره . وليان ذلك نقول إنه عمد في داخل الدولة الإسلامية إلى الأحزاب التي ناوت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من إثارة السلم والعاقبة . فالشيعة استجلب مودتهم بأن منع سب علي بن أبي طالب على المنابر ، وبأن رد على العلويين (فدكا) التي رأها حقا قديما لهم اغتصب منهم . والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والإقناع بالحجة والبرهان . فعندما ظهر شذوب الخارجي بأرض فارس أمر عمر الأيقانلوأحقى بسفكوا دما أو يفسدوا في الأرض ، وكتب في الوقت نفسه إلى شذوب يطلب إليه المناظرة في دعواه ، فأخذ إليه الخارجي اثنين من فقهاء الخوارج ليماظراه ، وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداهما إلا ما احتجابه عليه من إقراره ببيعة يزيد بن عبد الملك بولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريقة أن انضم أحد الخارجيين إلى عمر ، أما الآخر فعاد إلى أصحابه وأنهى إليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده . وأما الموالى فقد قطع أسباب شكواهم ، بأن أسقط الجزية كما

وأبنا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصية القبلية من يمنة
ومضربه وربعية فقد هدأ من حديثها ، بأن ردع الدماء الذين كانوا يذكون
نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر إلى كفايتهم لا إلى قبائلهم .

أما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز في الأمر
مسلكا بدعا لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الإسلامية
التي كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلمة بن عبد الملك وكان مرابطا حول
أسوار قسطنطينية وأعاناه على القفول بأموال بعث بها إليه . وأقفل الغزاة بما
وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف
في هذا الأمر الخطير عند هذا الحد ، بل أتبع الدول عن سياسة العنف بالدعوة
إلى السلمية إلى الإسلام . يروى البلاذري أنه لما أقفل الجيوش التي كانت تغزو بما
وراء النهر كتب إلى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم .
ولما انتفض ملوك السند كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ،
ولهم ما للسلمين وعليهم ما عليهم . قال البلاذري : وقد كانت بلغتهم سيرته
ومذهبه فأسلم جيشة والملوك وتسموا بأسماء العرب ، كذلك كانت سياسته
يأزاه بربر المغرب الذين أنجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما . يقول البلاذري :
ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (رحمه) ولي المغرب اسمعيل بن عبد الله
ابن أبي المهاجر مولى بنى مخزوم . فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام
وكتب إليهم عمر كتباً يدعوهم بعد إلى ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم في النواحي
فقلب الإسلام على المغرب . ويذكر المؤرخ اليوناني تيوفان أن عمر كتب
أيضا إلى الإمبراطور البيزنطي يدعوهم إلى الإسلام .

وكان عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديث التي

تقرض على الدولة الإشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها . فقام
 بأمر تعليم الناس كما يؤخذ من قوله في رواية ابن عبد الحكم إن للإسلام حدود
 وشرائع وسننا فإن أعش أعلكموها وأحملكم عليها ، بل لقد أخذ في
 ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن محمد الأشعري إلى
 البادية يفتحا الناس وأجرى عليهم ما رزقا . ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث
 رسول الله وتدوينها . نقل السيوطي ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر
 محمد بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكثبه ، فأنى
 خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر
 ابن عبد العزيز أنه كتب إلى الأفاق أن انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ
 فاجمعوه ، وقال في فتح الباري : يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي .

وبعد ، فإذا كان أثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدت إلى الغاية التي كان يرى
 إليها عمر . فقد طاف بالامة الإسلامية إذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين
 اقتداء بخليفها ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما . يروى الطبري ، وكان
 الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان الناس يلتفون في زمانه ، فأما
 يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب تكاح وطعام
 فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن
 عبد العزيز كانوا يلتفون فيقول الرجل للرجل ، ما ردك اليلة ؟ ولم تحفظ من
 القرآن ؟ ومتى تحتم ؟ وما تصوم من الشهر ؟ وأصبح الناس وقد شملتهم نعمتا
 الرضا والبسر . قال ، كثير ، يخاطب عمر ويمدحه :

تكلمت بالحق المبين وإنما تين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت موعود الذي قلت بالذي فعلت فأمرى راضياً كل مسلم
وروى ابن عبد الحكم قال : قال يحيى بن سعيد : بعثني عمر بن عبد العزيز
على صدقات إفريقية فأقتضيتها وطلبت قراء نعطيا لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم
نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فأشترت بها رقاباً
فأعتقتهم وولأؤم للسليين .

أجل ، لقد أغنى عمر الناس جميعاً إلا نفسه وأهله . فلم ير ولي قوم أعف
عن ما لهم منه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الحشن والثوب المرقوع
واليت التهدم منه وعن أهل بيته . ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه
بمكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرتة واحترق جسمه . وزادهما
تقدانه في آجال متقاربة . من عهده القصير أحبابه وأعرانه : فقد ابنه عبد الملك ،
وأغاه سهلاً ، ومولاه مزاحماً ، فلم يقر جسمه على احتمال العمل والالام ، فأسلم
الروح بخناصرة في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ولما بيند التاسعة والثلاثين من عمره .
وقد دفن بدير سيمان قريبا من دمشق .

لا ندرى ماذا كان عمر صانعا لو مدله في حياته ؟ أغلب الظن أنه كان يتلافى
موضع الضعف من إصلاحه فيقيم هذا الإصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع
بمجرد دموته . ومهما يكن من شيء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على
السواء فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين ، وقد رضى عنه
العلويون وأهدى إلى روحه في أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضي أياتا من
الشعر حارة جميلة وكان موضع احترام الخوارج وتقديرهم ، ثم إن العباسيين عندما
قامت دولتهم احترمو أقبه فلم ينبشوه كما نبشوا قبور غيره من بني أمية ، على
أن أبلغ من وصفه وأبنة رجل كان بحكم الظروف السياسية خصمه العنيد

بل عدوه الادود ، ذلك ملك الروم أليون الثالث . أخرج ابن الجوزى عن محمد
 ابن عبد قال : « أرسل عمر بن عبد العزيز بأسارى الروم فعادى بهم أسارى مز
 المسلمين . قال فدخلت على ملك الروم يوماً فإذا هو جالس على الأرض مكتئب
 حزينا . فقلت ما شأن الملك ؟ فقال أو ما تدرى ما حدث ؟ قلت ما حدث ؟ قال
 مات الرجل الصالح اقلت من ؟ قال عمر بن عبد العزيز ، ثم قال ملك الروم :
 لأحسب أنه لو كان أحديهمى الموقى بعد عيسى بن مريم لأجسام عمر بن عبد
 العزيز . ثم قال إني لست أعجب من الراهب إن أغلق بابَه ورفض الدنيا
 وترهب وتعب ، ولكنى أعجب من كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب .
 أما نحن فنلحظ فيه خير زعاته وأشرف عواطفه : نلحظ فيه حبه للسلام
 وسعيه في توفيره في العالم ، فهو بحق داعية السلام في القرن الأول الهجرى
 والثامن الميلادى ، وكفى بذلك منفرة في الدنيا ، وقربة في الآخرة .



نساء الخوارج^(١)

ينبغي قبل التكلم على نساء الخوارج أن نلم الامة بسيرة بالخوارج عامة
فبين للقارىء من هم ؟ وما مبادئهم وآدابهم ؟ وما بداية أمرهم ونهايته ؟ فإذا فرغنا
من ذلك انتقلنا إلى الكلام على نسائهم عامة والشبهات منهن خاصة .

فالخوارج فرقة عربية إسلامية قديمة ولعلها أقدم الفرق الإسلامية منشأ
وظهورا . وأصلهم جماعة من جيش الإمام على بن أبى طالب الذى كان يحارب
معاوية بن أبى سفيان في وقعة صفين المشهورة في سنة ٣٧ هـ . فلما اجتمع رأى
الفرقتين المتحاربتين على قبول التحكيم بدل المضى في القتال ، ورجع كل فريق
إلى قاعدته : على إلى الكوفة ، ومعاوية إلى دمشق ، رأت تلك الجماعة أن قبول
التحكيم كان ضلالا من الضلال ، وأن الواجب كان يقضى بأن يمحضوا في القتال
حتى يزل الله حكمه بنصر فريق على فريق ، ومن ثم مقاتلتهم المشهورة . لاحكم
إلا لله . واعتبروا كل من قبل التحكيم مرتدا عن الإسلام ، لا يبرء من رده
إلا بالتوبة ورفض التحكيم واستئناف القتال . وقد بدموا في ذلك بأنفسهم ،
وأرادوا عليا على مثل ذلك ، فأبى أن يتابعهم على رأيهم وأقام الحجة عليهم .
فما كان منهم إلا أن اعتزلوه ، ونزلوا مكانا بظاهر الكوفة يقال له « حروراء » ،
منابذين له مجاهرين بالخلاف عليه . ومن ثم عرفوا بالحرورية ، وبالخوارج
لخروجهم على على ، وبالحكمة لقولهم « لاحكم إلا لله » .

(١) خلاصة عاصرة ألفت بم عهد الملمات بالاسكندرية ٨ مارس سنة ١٩٤٨ .

وتلاحظ قبل كل شيء ، أن الخوارج عرب خلص يرمى أغلبهم إلى قبائل
تيم وحنيقة وريعة الذين كان لهم في الجاهلية عز ومنعة وبأس فلما جاء الإسلام
والتى بجرانه على الجزيرة اعتفوه واعتقدته قلوبهم بعد أن نطقت به ألسنتهم ،
واستسأغوا منه بوجه خاص مبادئ الديمقراطية التي تلائم مزاجهم وتتفق
وقاليدم ، وأزلوها من قلوبهم منزلة مثلهم القليلة التي يفدون عنها الانقضاء
بمنهجهم وأرواحهم . وقد أبلوا في إقامة الدولة العربية ومد فتوحها وفي نشر
الدعوة الإسلامية أعظم البلاء . وكانوا يظنون أنهم سيضيفون بذلك عزا
طريفا إلى عزم التليد ، ويضمون مجدا حديثا إلى مجد القديم ، فإذا بهم أصبحوا
يرون أن قد غلبوا على أمرهم ، وأن العز كله ، وأن المجد كله ، قد أصبح
لأرستقراطية مكة والمدينة ، فأعادوا حركة الردة جذعة ولكن في صورة
إسلامية لا غبار عليها . فلم يكن موقفهم من التحكيم في حقيقة الأمر إلا ظاهرا
يخجى باطنا هو ما ذكرناه .

أصبحت الخوارج في حروراء يرون أنهم وحدهم (ومن انضم إليهم بعد)
الفئة المسلبة المؤمنة حقا ، وأن من سواهم من المسلمين كفار يجب جهادهم
وردهم إلى حظيرة الدين . وقد شدوا حيازيمهم للأمر العظيم ، وشمروا عن
سواعدهم للخطب الجسيم ، وأقبلوا على أمرهم في حماسة دينية متفددة ، وشجاعة
نادرة ، وإخلاص عميق ، وصبر عجيب .

ولكى يميزوا أنفسهم عن سائر المسلمين ، وصلوا إلى تحقيق غرضهم الديني
والدنيوي . صاغوا لأنفسهم مذهباً أو برنامجاً شاملاً متحذاً في أصوله وجوهره
ويختلف في الفروع باختلاف الخوارج أنفسهم من حيث الغلو والاعتدال . فأما

من الناحية السياسية لجميع الخوارج يرون الشورى وأن الخلافة حق لكل من اتصف بصفاتها وحوى ما يؤهلها من تقوى وزهد وشجاعة ، ولا عبرة عندهم بالحب والنسب والعريّة والأعجية . أخذوا ذلك من قوله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، بل لقد ذهب بعض فرقه إلى إمكان الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففى ذلك ما يكفى لردم عن الظلم وصدوم عن الجور وعدم الإنصاف .

ثم إن للخوارج من ناحية العقيدة المحضة آراء فى معنى الإيمان والمعاصى منكفر منها وما لا يكفر ، وفى التقية ، وفى إسرار الإيمان وإظهار الكفر عند الحرج وخوف الفتنة ، هل تجوز أو لا تجوز ، وفى غيرهم من المسلمين هل هم كفار عقيدة أو كفار نعمة ، وفى معاملتهم والنزوح منهم وتزويجهم وموارثتهم ، هل تجوز أو لا تجوز . هذه الآراء مبنية فى أخبارهم مقررة فى توازيحهم ولهم فقهاء مجتهدون يبينون لهم الحلال والحرام ، على حسب اجتهداهم وفقهم ، كما لهم شعراء بلغاء ينشرون مثلهم وعواطفهم فى شعر بليغ سيار .

والخوارج جميعا يتصفون بأخلاق عظيمة وصفات نيرة منها الزهد فى الدنيا والحرص على طلب الشهادة ويرأون من الكذب ، ولهم فى ذلك نواذر طريفة وأخبار عجيبة .

فمن الأمثلة الدالة على شدة زهدهم ، ما يروى من أن زياد بن أبى سفيان بعد أن قتل عمرو بن أدية الخارجى سأل مولاه عن سيرته فقال أطلب أم أختصر ؟ فقال له بل أختصر ! فقال : ما أتيت به بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط ! .

ومن أمثلة شجاعتهم أن منهم من طعن في الحرب فأقنعه الرمح لجلل يسنى
فيه إلى قائله وهو يقول قوله تعالى « وعجلت إليك رب لترضى » . .

ومن أمثلة استمساكم بالصدق ما يروى من أن أحد زعمائهم وهو مرداس
ابن أدية أدخل حبس عبيد الله بن زياد أمير العراق فرأى صاحب السجن شدة
اجتهاده وحلاوة منطقه ، فقال : إنى أرى لك مذمبا حسنا ، وإنى لأحب أن
أوليك معروفًا . فأرأيت إن تركتك تبصرف ليلا إلى بيتك ، أندلج إلى ؟ قال :
نعم ! قال فكان يفعل ذلك . ولج عبيد الله في حبس الخوارج وقتلهم . فلما كان
ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدرى
ما أصنع هؤلاء ، كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم قتلوا قائله . لاقتلن من في حبسى
منهم . وأخرج السجن مرداسا إلى منزله كما كان يفعل . وأتى مرداس الخبر فلما
كان السحر تها للرجوع . فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت
قتلت . فقال إنى ما كنت لآلتى الله غادرا . فرجع إلى السجن . فقال قد علمت
ما عزم عليه صاحبك . فقال السجنان : أعلمت ورجعت ؟ ١٩ .

ولفرط شجاعتهم في الحرب وشدة حملاتهم واستقتالهم كانت أعداد يسيرة
منهم تهزم جماعات كبيرة من جيوش الدولة كما حدث في واقعة آسك إذ هزم
أربعون من الخوارج ألفين من جند الدولة الأموية . وفى ذلك يقول شاعر
الخوارج :

ألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعونا ؟
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

.....

فن أجل الديمقراطية المنطوقة التى كان يقول بها الخوارج فى أمر الخلافة

قد أسخط الخوارج بنى أمية وقرشا وأرستراطة العراق حيث تعددت فرقهم وانتشرت تعاليمهم وعظم قوومهم . ومن أجل تكفيرهم سائر المسلمين واستحلالهم منهم ما يستحلون من الكفار قد أثاروا عليهم سخط العامة جميعا ولقد تجردت الدولة الإسلامية لقتالهم والعمل على استئصالهم وحاربهم حربا طاحنة لا هراة فيها دامت نحو قرن ونصف قرن من الزمان . حاربهم على يوم النهروان وأوقع بهم هزيمة منكرة . وقد جر انتصاره عليهم إلى اغتيالهم إياه على ما هو معروف . وحاربهم زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة . وحاربهم الحجاج بن يوسف بنفسه وبقواد كبار أشهرهم المهلب بن أبي صفرة . وقد خضد الحجاج شوكة الخوارج الغلاة المعروفين بالأزارقة والصفرية وقتل كبار زعمائهم أو خلفائهم أمثال نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وشيب . كما حوربت الخوارج النجدية في شرق بلاد العرب وقتل زعيمهم نجدة وأبو فديك . أما الإباضية وهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا فلم يلبأوا إلى العنف كما فعلت الفرق الخارجية الأخرى . لذلك احتملتهم الدولة الأموية فقتلوا من الإبادة وبقوا حتى يومنا هذا في أنحاء من العالم الإسلامي وخاصة بلاد المغرب وعمان وشرق إفريقيا .

ولما اضطرب أمر الدولة الأموية ظهرت الخوارج مرة أخرى في الحجاز واليمن وشمال إفريقيا ، ثم قامت الدولة العباسية فذهبت ريع الخوارج بذهاب دولة العرب وقيام دولة عصيتها من الأعاجم . واستحال الخوارج قطاع طرق ومتلصصة ، وكانت آخر خروجة مشهورة لهم خروجة الوليد بن طريف الثيباني في الجزيرة وأرمينية وذلك على عهد الرشيد . وبقت بقية منهم إلى زمن المتوكل على الله العباسي . ثم ينتهى أمرهم وتعمد حركتهم فلا نخس لهم صوتا بعد ذلك .

ولعل القارىء يكون قد تبين عما تقدم سبب اقراض الخوارج وذهاب
 ربحهم . إن الخوارج لم يؤثروا من قبل مذهبهم السياسى ، فذلك المذهب ديمقراطى
 اسلامى لا غبار عليه . ولم يؤثروا بالطبع من قبل غيرتهم الدينية وورعهم
 واستقامتهم وأخلاقيهم ، فذلك كان منار إعجاب الرأى العام الإسلامى وخاصة رأى
 المثقفين منهم أمثال الإمام مالك بن أنس وأبى العباس المبرد صاحب كتاب
 الكامل ، وإنما أتى القوم من قبل تنطعمهم فى الدين وعدم سائر المسلمين كفارا
 خارجين من الملة وانعدام الروح السياسى عندهم . فذلك الذى جر عليهم وعلى
 مذهبهم البرار .

ونساء الخوارج يشاركن رجالهم فى كل ما ذكرنا من فضائلهم من تقى وورع
 وشجاعة وأدب واجتهاد .

ولو أن ألد خصوم المرأة وهو أبر العلماء المعرى استحضروا عند نظمهم قصيدته
 التالية الكبرى سير نساء الخوارج ما قال :

وإن تعط الإناث فأى يؤس تبين فى وجوه مقسمات
 يردن بسهولة ويردن حليا ويلقن الخطوب ملومات
 ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متفسمات
 ودفن والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المكرمات
 وقد يفقدن أزواجا كراما فيا للنسوة المتأيمات
 يلدن أعادبا ويصن عارا إذا أمسين فى المنهضات
 ولئن لى نساء الخوارج بذكر طائفة من مشهوراتهن يستبين منها القارىء .
 صدق وصفنا لهن .

(١) فَنَهْن قَطَامُ بِنْتُ عُلْقَمَةَ مِنْ تَيْمِ الرِّبَابِ وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ . وَهِيَ الَّتِي أَرَادَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ قَاتِلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ التَّزْوِجَ مِنْهَا فَقَالَتْ لَهُ : وَلَا أَتَمَّعُ مِنْكَ إِلَّا بِصَدَاقٍ أَسْمِيَهُ لَكَ ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَعَبْدٌ وَأَمَةٌ وَأَنْ تَقْتُلَ عَلِيًّا . فَقَالَ لَهَا : لَكَ مَا سَأَلْتُ ! فَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَتْ تَرُومُ ذَلِكَ غِيْلَةً . فَإِنْ سَأَلْتِ أَرَحْتَ النَّاسَ مِنْ شَرِّ ، وَأَقْتِ مَعَ أَهْلِكَ ، وَإِنْ أَصَبْتَ صَرْتَ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَعِيمٍ لَا يَزُولُ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ مُلْجَمٍ :

ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَعَبْدٌ وَقِيْنَةٌ وَضَرْبٌ عَلَى بِالْحَسَامِ الْمَصْمِ
فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِيٍّ وَإِنْ غَلَا وَلَا فَتْكَ إِلَّا دُونَ فَتْكِ ابْنِ مُلْجَمٍ
وَنَحْنُ نَعْرِفُ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَمْرَ ذَلِكَ الْفَاتِكِ مِنْ قِصَاصٍ عَاجِلٍ عَادِلٍ .

(٢) وَمِنْهُمْ الْبُلْجَاءُ التَّمِيمِيَّةُ وَكَانَتْ كَمَا يَقُولُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرَّدُ مِنْ مَجْتَهِدَاتِ الْخَوَارِجِ : وَكَانَ أَبُو بِلَالٍ مَرْدَاسُ بْنُ أَدِيَةَ قَدْ لَقِيَهِ صَاحِبُ لَهُ فَقَالَ : يَا أَبَا بِلَالٍ ! إِنِّي سَمِعْتُ الْأَمِيرَ الْبَارِحَةَ عِيدَ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ يَذْكُرُ الْبُلْجَاءَ ، وَأَحْسِبُهَا سَتَوْخَذَ . فَنَضَى إِلَيْهَا أَبُو بِلَالٍ ، فَقَالَ لَهَا : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَسَّعَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي النَّفَقَةِ ، فَاسْتَرَى فَإِنْ هَذَا الْمُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ قَدْ ذَكَرَكَ . قَالَتْ : « إِنَّ يَأْخُذَنِي فَبِهِ أَشَقُّ مِنِّي . فَأَمَّا أَنَا فَأَنَا أَحَبُّ أَنْ يَمُتَ إِنْسَانٌ بِسَبِيٍّ . فَوَجَّهَ إِلَيْهَا عِيدَ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَأَتَى بِهَا قَطْعًا فِيهَا وَرَجُلِيهَا وَرَمَى بِهَا فِي السُّوقِ . فَرَجَّهَا أَبُو بِلَالٍ وَالنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : الْبُلْجَاءُ ! فَرَجَّ إِلَيْهَا ، فَظَنَرَ ، ثُمَّ عَضَّ عَلَى لَحْيَتِهِ وَقَالَ لِنَفْسِهِ : « لِهَذِهِ أَطِيبُ نَفْسًا عَنْ بَغْيَةِ الدُّنْيَا مِنْكَ يَا مَرْدَاسُ ! »

(٣) وَمِنْهُمْ أُمُّ كَهْمَسٍ : كَانَتْ عَنْ قَتْلِ ابْنِ زِيَادٍ مِنَ الْخَوَارِجِ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ كَهْمَسُ ، وَكَانَتْ مِنْ أُمِّ النَّاسِ بِأُمِّهِ . فَقَالَ لَهَا يَا أُمَّتَا ! لَوْلَا مَسَاكُنُكَ لَخَرَجْتَ

قالت : يا بني اقد وهبك الله ، فخرج فحارب فقتل مع جماعة من أصحابه ،
قالت فيهم أم الجراح المدوية ، وهي من نساء الخوارج ، ترثيهم وتخطب قائلهم
ابن زياد :

وما بعد مردلس وعروة يتنا وينسك شيء سوى عطر مشم
فلست بنجاح من يد الله بعدما هرقت دماء المسلمين بلا دم
(٤) ومنهن بنت عروة بن أدية ، قالوا لما قتل ابن زياد عروة بن أدية بعث
برأسه إلى ابنته . فجاءت وجهته معاروفة بين يدي ابن زياد ، فقال لها : أنت
على دينه ؟ قالت : وكيف لا أكون على دينه ، وما رأيت قط خيرا منه !
فأمر بها فقتلت مع أبيها .

(٥) ومنهن جذعة ، قالوا خرج رجل وامرأة ومعهما سيفان لحكما في
مسجد البصرة ، (أى قالا لاحكم إلّا لله) ثم أخذت المرأة نحو بني سليم ، وأخذ
الرجل نحو رجة بني تميم ، فرأها قد بعثت منه ، فناداها : يا جذعة اقربي
منى ! قالت : إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقتلها الناس .
(٦) ومنهن المرأة التي أرادت التآمر لقتل نافع بن الأزرق كبير الخوارج
الأزارقة والمقتول في وقعة دولا ب بالأهواز سنة ٦٥ هـ قال سلامة الباهلي :
وقلت ناعما فطالبتى بأمره امرأة كانت تدعوى إلى المبارزة ونحن نقاتل عبيد الله
ابن الماحوز .

(٧) ومنهن أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة على رأى أو بعض من كان
يقاتل معه على رأى آخر . روى الأصمهباني بإسناده قال : إن امرأة من الخوارج
كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم
وجها وأحسنهم بدنيهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك .

فأخبرني من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز
أحمل رأسا قد سئمت حمله وقد ملك دهنه وغسله
ألا قى يحمل عنى قلبه

قال وهم يقدونها بالآباء والأمهات فأرايت قلبها ولا بعدها مثلها، وفي أم
حكيم هذه وفي وقعة دولاب يقول قطري :

لمرك إنى فى الحياة لراهد وفى العيش ما لم ألقى أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها شفاء لذى بث ولا لسقيم
لمرك إنى يوم ألطم وجهها على فائبات الدهر جد لثيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبهرت طعان قى فى الحرب غير فسيم
إلى أن يقول :

فلو شهدتنى يوم ذاك وخيلنا تيسح من الكفار كل حريم
رأت ثنية باعوا الآلهة قوسهم بجنات عدن عنده ونعيم
(٨) ومنهن جبهة أم شيب رأس الخوارج الصفرية ؛ وغزاة زوجته .
قالوا لما اشتدت الحرب بين شيب وبين الحجاج بن يوسف أمير العراق كانت
جبهه أم شيب وغزاة زوجته تقاثلان معه . ونذرت غزاة لله إن هى دخلت
الكوكة عاصمة الحجاج أن تعمد إلى المسجد الجامع فتصلى فيه وتتلو سورتي
البقرة وآل عمران . ودخل شيب الكوكبة وخرج منها الحجاج هاربا ، وقد
وفت غزاة يومذاك بتنذرها . ويشير إلى ذلك شاعر من الخوارج يقال إنه
عمران بن حطان بقوله يعير الحجاج فراره من غزاة :

صدعت غزاة قلبه بفوارس تركت كتابه كأمس الدابر
أسد على وفى الحروب نعامه ربداء تنفر من صفيير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناح طائر
ألقى السلاح وخذ وشاحي معصر واعد لمنزلة الجبان الكافر
ثم إن الحرب استؤنفت بين شبيب والحجاج قتلت جهيزة أم شبيب وكانت
قد قاتلت قتالا شديدا حتى قال الناس :

أم شبيب ولدت شيبا هل تلد الذية إلا ذيبا ١٩
وتملت كذلك زوجته غزالة ، وأحترز رأسها فقال الحجاج عند ذلك : والله
ما قوتل قبل اليوم ولا قبل موت هذه ،

(٩) ومنهن امرأة جىء بها إلى الحجاج وبحضرتها مولاه يزيد بن أبي مسلم
وكان يستسر برأى الخوارج ، فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد :
« الأمير ويملك بكلمك » ، قالت : « بل الويل لك أيها الفاسق الرديء » ، قالوا
والرديء عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكنمه .

(١٠) ومنهن امرأة تسمى مريم كانت تقاتل مع أبي حمزة الخارجي الذى
خرج بالحجاز ، وكانت تقاتل مع زوجها ، فقتل زوجها وقلت وهى ترنجز :
أنا ابنة الشيخ الكبير الأعلم من سال عن اسمي فأسمى مريم
بعت سوارى بسيف مخدّم

(١١) ومنهن الفارعة لى بنت طريف الشيباني . رووا أن الوليد بن طريف
الشيباني خرج فى سنة ١٧٨هـ فى خلافة هارون الرشيد ، بالجزيرة وأرمينية ، وقتل
بسمال الرشيد واستأثار شره فى تلك الجهات استطارة النار فى المشيم
وجبى الأموال ، فسير الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيباني فقاتله فقتله ،
فصبحتهم أخته لى بنت طريف مستعدة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس
ففرقت . فقال يزيد قائد جيش الرشيد : دعوها ، ثم خرج إليها فضرب بالرمح

قطاة فرسها ثم قال : اعزني عزب الله عليك ، فاستجيت وانصرفت . ثم رث
أخاها الوليد بهذه المراثية التي تعد من فاخر الشعر العربي وتا صه :

بطل تباني رسم قبر كأنه على علم فوق الجبال منيف
تضمن جودا حاتميا ونائلا وسورة مقدم وقلب حصيد
ألا قاتل الله الجنى كيف أضمرت قى كان بالمعروف غير عفيف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيارب خيل فضها وصفوف
ألا بالقوى للتواب والردى ودهر ملح بالكرام عفيف
وللبدر مز بين الكواكب قدهوى وللكشم همت بعده بكسوف
فيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
قى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة وكل حسان بالدين عزوف
فلا تحزننا يا ابني طريف فأننى أرى الموت نزالا بكل شريف
قد ناك فقدان الريح فليتنا فدينك من دهمائنا بألوف
واعتمر الرشيد في تلك السنة في شهر رمضان شكرا لله على قتل الوليد
طريف .

...

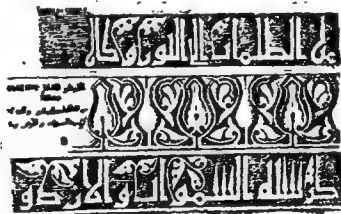
كانت غزاة خاتمة نساء الخوارج اللاقى ظهرا على مسرح الحوادث العامة
ورقت لنا أخبارهن أو أطراف منها . وكل من ذكرنا منهن يتصف بصفات
الشجاعة والجرأة والغيرة الدينية والثبات على المبدأ ، هذا الى ثقافة عالية ملحوظة
تلك غير واحدة منهن في عداد مجتهدى هذه الفرقة وخطبائها وشعرائها .
والمرأة الحارضية إنما تحتفظ في كل ذلك بتقاليد المرأة العربية الصنيعة إن

قبل الإسلام وإن صدر الدولة الإسلامية . فأما قبل الإسلام فتعد بلقيس التي كانت ملكة عظيمة على بلاد اليمن والتي راسلها سليمان ملك بني إسرائيل ، وقد قص القرآن الكريم قصتها في سورة النمل ، فليرجع إليها .

وتعد الزباء ملكة تدمر وقد ساجلت الامبراطور الروماني أوريليان حربا شديدة في القرن الثالث الميلادي . كما تعد سجاح بنت الحرث التميمية التي قادت الجيوش في حرب الردة لقتال الخليفة أبي بكر الصديق . وأما صدر الدولة الإسلامية فنذكر على سبيل المثال نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة الخليفة الثالث عثمان بن عفان وكانت عند زواجها منه جميلة وسيمة وفي هغوان شبابها ، على حين أن زوجها كان شيخا قد جاوز السبعين من عمره ، ومع ذلك فقد كانت وفة له حيا وميتا . فهي التي قامت تذود عنه يوم الدار فنفخ أحد قتلة عثمان يدها بالسيف فأطار أصابع يدها ، فلما قتل عثمان وأراد معاوية خطبتها إعجابا منه بثغرها فيما يقولون عمدت إلى أسنانها فتمتها بخاتم في إصبعها ليذهب جمال ثغرها فيصرف عنها معاوية ، وقد كان ذلك .

ولا ننسى عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوجة الرسول عليه السلام وقد جمعت من الحديث ووعت من الفقه ما جعلها عمدة المحدثين والفقهاء ، ولقد قادت الجيوش في وقعة الجمل واستهدفت للموت حتى ليروون أن الجمل الذي كان عليه هودجها صار مثل القنفذ لكثرة ما وقع فيه من السهام في تلك الوقعة . ثم تبرز المرأة العربية الخارجية فتحفظ بهذه التقاليد طوال مائة وخمسين عاما أو تزيد فلما تحولت الحال في الدولة الإسلامية وغلب رجال العرب على أمرهم على أيدي موالى الفرس ومالك الترك وعادوا إلى بوادهم يعيشون رعاية إبل وغنم أو متلصصة وقطاع طرق . فكذلك كان شأن المرأة العربية ، فقد غلبت

على مكاتها ومزلتها ، غلبها جوارى وسريات الأعاجم من فرس وترك وروم
وصقالة فعاتت إلى الاتزواء والختول بعد نياحة الذكر وعلو القدر .
ومما هو جدير بأن يلحظ في هذا المقام أن مجد المرأة العربية ، قد صاحب مجد
الدولة العربية ، ولا شك أن بين الأمرين اتصالاً وثيقاً . فالمرأة العربية الخارجية التي
وصفناها من نوع المرأة التي أنجبت أولئك القواد العظام والجند البواسل والإداريين
الكبار الذين شادوا الدولة العربية الإسلامية القديمة ورفعوا أعمادها ،
أم شبيب ولدت شيباناً . هل تلد الذبابة إلا ذبابة !
فلما صار الأمر إلى ما صار إليه انحط المستوى الأخلاقي للمرأة المسلمة
بانحطاط المستوى الأخلاقي العام . يروى أن المعز لدين الله الفاطمي لبث
زماً يتبيب الإقسدام على فتح مصر ، فلما قيل له إن نساء قصر الأخشيدي
مستعزات ولا يمان بالفضيلة قال : الآن فتحت مصر ، وسير من فورهِ إلى
مصر جوهرًا بحملته المشهورة ؟



الأدب العربي المصري

تاريخه ، إهمال دراسته

١

تألفت منذ أشهر بمدينة القاهرة جماعة من أخصائى التاريخ وأساتذته ، والغرض من تأليفها دراسة التاريخ المصرى وإذاعته بين جمهور المتعلمين بإلقاء المحاضرات التاريخية أو نشرها فى مجلة خاصة بها . ومن أمانى تلك الجماعة التى ترجو أن تحققها الأيام وضع كتاب كبير فى تاريخ مصر ، يكون مرجعا للقراء وعمدة للباحث فى التاريخ المصرى .

زعة شريفة ، وعمل جليل ، له فى تكوين قوميتنا المصرية وتقويتها أثر غير ضئيل . على أن قومية الأمة إنما تقرب من حد الكمال متى عرفت الأمة تاريخها . تأما غير مبتور . وذلك بأن يدرسه أبناؤها من جميع نواحيه السياسية والمادية والأدبية . فإنا إذا اعتقدنا أن الأمة كائن حى ، واعتقدنا كذلك أن أحسن التواريخ ما صور لنا ماضى الأمة أتم تصوير ، فلا بد أن تنساق مع القياس المنطقى فنقول : إن التاريخ نفسه يجب أن يكون من حيث تصويره الأمة كائنا حيا ذا جسم وروح . وما الجانب الجثمانى للتاريخ إلا ما كان منه متعلقا بالسياسات والماديات . أما الجانب الروحانى فما كان متعلقا بالأدب وما ينسب إليه من العلوم .

(١) مقالة نشرت بمجلة المنور ، عدد ١٧١ : ١٦ سبتمبر ١٩١٨ ، وقد تضمنت فى نشر هذا المقال والنقطة إليه مجرد اثبات تاريخ الفكرة لا أكثر .

وهيات أن يفقه قارى. كنه تاريخ أمة من الأمم إذا اقتصر على الجانب
الجنائى من تاريخها وأغفل الجانب الروحانى . خذ لذلك مثلاً أمة الإغريق
القدماء . لحياة هذه الأمة السياسية ملومة بالعيوب والنقص . ولو أنك أردت
الحكم عليها من تاريخها السياسى لجعلتها فى أخريات الأمم التاريخية . ولكنك
إذا ما قرأت أديبا فبهرك ما ترى من روعة وجمال لم تلبث أن تنسخ حكمك
وترفعها فوق أمم الأرض مكانا عليا .

فلا بد لمن يريد أن يفقه تاريخ أمة من الأمم أن يطالع فى صحيفتها الأدبية
نزوات عواطفها ، وحركات أفكارها ، كما يطالع فى صحيفتها السياسية نظام
حكومتها وتحرك جيوشها وتعاقب أسرها الحاكمة عليها .

من أجل ذلك نرى أن عمل جماعة التاريخ المصرى فى حاجة ماسة إلى عمل
جماعة أخرى ، تتوفر على جمع الأدب العربى المصرى من شعر ونثر ، ثم دراسته ،
ووضع تاريخ له تكون صلته بتاريخ أدب اللغة العربية العام صلة تاريخ الأدب
الأمريكى بتاريخ أدب اللغة الانجليزية العام .

لقد طال العهد على إهمال الأدب المصرى وتاريخه ، حتى أصبح أكثرنا
يعتقد ألا أدب للغة العربية المصرية . ومصدر ذلك الاعتقاد فرأينا أن أغلب
الكتب العربية والأفرنجية التى وضعت فى تاريخ أدب اللغة العربية قد أغفلت
الأدب المصرى . ولا نعلم كتابا عربيا يسلم من ذلك النقد إلا كتاب أدب اللغة
العربية ، لمرجى بك زيدان . على أن مؤلف هذا الكتاب إنما عطف على الأدب
المصرى فى العصور الأخيرة ، لأنه جزء متمم لأدب اللغة العربية لا لأنه
قائم بنفسه .

وسنبين فى مقال تال أسباب ذلك الإهمال إن شاء الله .

الأدب العربي المصري وتاريخه^(١)

أسباب إهمالها

٢

بيننا في مقالنا السابق ضرورة العمل على جمع تراثنا الأدبي ووضع تاريخ له يدرس في المدارس ثانويها وعاليها . ووجدنا أن نين ماصرف أفلام الكتاب الأقدمين والمحدثين عن الأدب المصري . وما نحن أولاء نفي القاري . بما وعدنا .

لقد كان السبب الأساسي لذلك التقصير الأدبي في نظرنا : الاعتقاد القديم العام بأن الأدب المصري أحط منزلة وأقل مقداراً من أخويه العراقي والأندلسي . فليس في مصر إذا عدت الشعراء يوم الفخار من ريسى جرير أو أبانواس والمتنبي وابن هاني ، ولا من الكتاب والفلاسفة من يشق غبار عبد الحميد وابن المقفع وابن سينا وابن رشد . ذلك الاعتقاد إن يكن على وجه الإجمال صحيحاً فإنه لدى التفصيل لا يسلم من مرة الخطأ وركوب الاعتساف . ولو درس الأدب المصري القديم حق دراسته لارتفع أقوام وانخفض آخرون ، ولكان للأدب العربي عامة نظام غير نظامه المهود .

فلعل الحقيقة المرة على علمائنا : لتعتقد مع الأقدمين بأن الأدب المصري أقل منزلة وأقل مقداراً من أخويه العراقي والأندلسي . فامصدر تلك الحطة وهذه القلة ؟ لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن ننظر إلى حال مصر السياسية من

(١) نشرت بالعدد ١٤٢ من مجلة السفوف سنة ١٩١٨ .

لكن الفتح العربي إلى محتم القرن الثامن عشر ، أى إلى مبدأ النهضة الحديثة . وذلك لاستحكام العلة بين فساد تلك الحال سياسياً و نقص الأدب المصرى فى عهدهما . لقد تعاقب على مصر فى تلك المدة حالات سياسية ثلاث : فكانت مصر إما ولاية تابعة لغيرها ، كما كانت زمن الخلفاء الراشدين وبنى أمية و صدر بنى عباس ، وإما مملكة مستقلة تحكمها خلافة شيعية كما كانت زمن الخلافة الفاطمية وإما مملكة تابعة لخليفة أجنبى وخاضعة لحكومة غير مصرية كما كانت زمن الأيوبيين والمماليك وولاء الأتراك العثمانيين .

ذلك الاستخذاء السياسى وهذا الاستقلال المقرون بالخضوع لخلافة شيعية قد أثر فى الأدب المصرى أسوأ التأثير .

ذلك بأن الأدب عامة إنما يركز فى دور العزة وأمكنة السلطان ويزوى فى مواطن الذلة والخضوع . والأدلة على ذلك كثيرة متعددة .

فالأدب الإغريقى علا وامتد نوره زمن حرية الإغريق السياسية ، وخذت جذوته بالفتح المقدونى . والحياة العلمية الزاهية التى كانت بالإسكندرية إبان حكم البطلمة إنما تآدى إليها الاعتلال والموت بالفتح الرومانى . ثم إن الأدب من شأنه أن ينبسط ظله فى أرض ولادة أمورها بحرصون عليه . ولكن ظله يتقبض إذا كان فى أرض حكمها لا يتدقرون للغة أهلها وأدبهم طمعاً ، كما أن الأندلس حين فتح المثلثون الأندلس . وكانوا أقواماً من هج البربر لا يكادون يفقهون من أدب الأندلسيين وحضارتهم شيئاً . وبعد هذا كله فالأدب الإسلامى سقى المذهب ويأبى أن يزهر ويؤتى أكله فى ظل حكومة شيعية العقيدة .

فأنت ترى أن الأدب المصرى قد نكسب فى الزمن الماضى من ناحية

الحال السياسية نكبة شديدة ، نكبة أثرت في قدره ومقداره وصرحت عنه
أقلام المؤرخين إلى الأدب المشرق الفخم والأدلى العذب . وليس ذلك
بعجيب . إنما العجيب أن نمنى نحن المحدثين على سته آباتنا ونعتقد اعتقادهم في
أدبنا القديم . ثم لا نقف عندها هذا الحد ، بل نبسط سلطان اعتقادهم على أدبنا
الحديث مع أنه مما نبأه به غيرنا إن فائقنا المباهاة بأدبنا القديم .
وبعد فإننا بناء قومية والواجب يقضى علينا بأن نجمع شمل أدبنا المشتت وندرسه
فهل يحيب رجال الأدب في مصر دعوة الواجب كما أجابها من قبلهم
رجال التاريخ ؟

” البعث ...

تغبط أشد الاغباط بمظاهر الحياة التي دب دينها وسرى تيارها في العالم في العام المنصرم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فكل قطر إسلامي قد هب بعد طول الرقاد ، وصحا بعد نوم مستغرق عميق ، فأهل أندونيسيا الذين لا تعلم جمهرة المسلمين عنهم الشيء الكثير قد قاموا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها يطلبون حقهم الطبيعي في الوجود وهو الحرية والاستقلال . والهند في قلق واضطراب طال أمدهما . وإيران وتركيا تباينان كلب جار قوى وخصم ألد عنيد . والعالم العربي قد نهض يجمع شتاته ويظلمن بين أجزائه ويسوى صفوفه استعدادا لارتجاع مجد دائر وعز قديم . وفلسطين قد اعتدل فيها ميزان الأمور وأخذت كفة العرب في الرجحان بعد أن مالت بها كفة الصهيونية أو كادت تميل . والمغرب قد أخذ يرسل الصيحة تلو الصيحة مناشدا أعضاء الجامعة العربية ألا يسقطوه من عدادهم وأن يبسطوا عليه جناح محبة وعاطفة حنان . والسودان في حركة تؤذن بانبعث الحياة في جثمانه .

هي حياة إن شئت فقلها بالنار الكامنة في الحجر الصلد ، فلما اقتدحها زناد الأحداث إذ هي قد تطاير شررها وتوشك أن يكون لها هيب وضرام . وإن شئت فقلها بالحياة المستكنة في الحبة أو النواة فما هي إلا أن توافرت لها أسباب النمو فإذا هي شجرة باسقة مورقة فيناتة توشك أن تخرج أنضر الزهر وتحمل

(١) التافة في ١١ ديسمبر ١٩٤٥ .

أطيب الثمار . أو بالبخار المتبث في الهواء لا تحسه الدين ولكنه متى تروأت له أسباب التكاثف والانعدام إذا هو رذاذ متساقط إلى الأرض يوشك أن يكون مطراً هطالاً تسيل منه الأودية والقيعان وتخضر الوهاد والنجاد .

وأى شيء ذلك الذى اقتدح هذه النار الكامنة وامتدت تلك الحبة الهامدة وعقد ذلك البخار الميثوث ؟ إن شئت فقل هو تحكم شرافم من المولنديين في ملايين من الأندونيسيين ، وإصرار الإنجليز على التمسك بالهند وجهرهم بأن الهند الملع درة في تاج دولتهم المترامية الأطراف ، وشدة وطأة الروس على إيران وتركيا في غير تخرج ولا استخياء ، وخطر الصهيونية الذى جعل من فلسطين القطب الذى تدور عليه رضى الجامعة العربية ، وإغراق المستعمرين من الفرنسيين ومن إليهم من الأسبان واليطاليان في إذلال المغاربة وإماتة ما فيهم من شعور بالعزة والكرامة والاستقلال .

على أن ذلك كله ما كان ليؤثر أثره لو لم يكن في المسلمين ذماء من روح وأثارة من يقين وبقية من صدق الإيمان . الحق أن المسلم ، مهما قصت عليه الحوادث وتحيفه صرف الزمان ، قوى الشعور بكرامته ، شديداً لا اعتزاز بعقيدته . ولغته وتراثه وماضيه الضخم ، خلال تنزع إلى أعراق قديمة قدم التاريخ ، بل لعلنا أقدم من التاريخ .

في القرآن الكريم آيات وقصص كثيرة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يحيى الموتى ، فهو جل اسمه حاشر الخلق أجمعين يوم القيامة ومحاسبهم على ما كسبوا وما اكتسبوا ، وعارضهم على الجنة والنار كل بحسب استحقاقه وما قدمت يداه . وهو سبحانه قديميت من عباده من يشاء موتاً مؤقتاً ثم يمته

ليكون نفسه ولغيره من الناس آية وعبرة . من ذلك إمامته عزيراً ثم بعثه لإياه بعد مائة عام . وقد بلغ الله النوم على جماعة بعينها مئين من السنين ثم يعيها لإمامه منه إلى أن لكل رجال زماناً لا ينبغي أن يسبقوه أو يتخلفوا عنه ، وهو يورد مثلاً لذلك قصة أهل الكهف والرقيم . وقد يحيى سبحانه حيواناً بعد إمامته إحياء معجلاً سريعاً ، إشارة منه إلى حكمة بالغة ، من ذلك إحياء الطيور الأربعة التي أمر إبراهيم الخليل أن يذبحها ويقطع أو صالحاً ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعواها ، فلما فعل أتت إليه الطيور سرعاً مشياً وطيراً ، قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، وأعلم أن الله عزيز حكيم ، ويقول المفسرون إن هذه الطيور الأربعة كانت طاروساً وديكاً وغراباً وحمامة . ويقولون إن في القصة إيماء لطيفاً إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يأتي بإمارة الشبوات والخراف التي هي صفة الطاروس ، والصولة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المنتصف بهما الغراب ، وقلة الرغبة في الترفع والمسارة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام .

ترى هل أمان الله الأمام الإسلامية أو التي عليها نوما قليلاً حقبة من ر م . إن عجائباتها عندما غيرت ما بأنفسها من صفات الشر وأنشأت تتحلّى بصفات الخير ؟

أكبر ما نأمل أن يكون الأمر كذلك ، فيكون ما نشاهد في أنحاء العالم الإسلامي من مظاهر الحياة بداية لمستقبل مجيد تنعم به الأمام الإسلامية وتستفيد منه الإنسانية جمعاء .

كشاف

أبرهة الحبشي ٢٠	ابن عبد الحكم ١٦٤، ١٦٦، ١٧٢،
أبراهيم النبي ٥٩، ١٩٥	١٧٣،
أبروز ٨٦	ابن هانئ ١٩٠
الأبلة، انظر البصرة	ابن هشام ١٥، ٤٩
ابن الأثير ٣٤، ٣٦	أبو أحمد ٥٠
ابن إسحق ١٥٩، ١٨٠، ١٩٠، ٤٢٠، ٤٥٠	أبو بكر ١٨، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٦٢، ٧٨، ١٠٩
١٢٣، ٥٥، ٤٩	١١٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥
ابن الأشعث ١٤٦	١٢٦، ١٦١، ١٨٦
ابن الجوزي ١٧٤	أبو بكر ١٣٣
ابن حزم (أبو بكر محمد) ١٧٢، ١٦٦	أبو تمام ١٠١
ابن الدغنة ١٨	أبو جعفر الأصفهاني (الوزير) ٢٥
ابن رشد ١٩٠	أبو جليل بن هشام الخزوي (أبو الحكم)
ابن سعد، محمد - ٣٣، ٧٣، ٧٤	١١٠، ١١٠
١١٥، طبقات - ١١٥	أبو الحسن السعدي ١٠٩
ابن سعيد ٧٦	أبو حمزة الخارجي ١٨٤
ابن السوداء ١١٤	أبو ذر الغفاري ١٠٨، ١١١، ١١٢
ابن سينا ١٩٠	١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦
ابن شهاب الزهري ١٦٤	أبو رافع ٢١
ابن عباس ٥٥، ١٢٥	أبو الزناد ١٦٦

الاصحاني ١٨٢	١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٢
اصطخر ٨٥، ١٣١	١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٧
الاصمى ١٤٣	١١٣٥، ١١٣٩، ١١٤٥، ١١٧١، ١١٧٢
افريقية، المغرب ١٤٥، ١٧١، ١٧٣	١٧٥، ١٧٦ الدعوة الإسلامية
أفلاطون ١٥٥، ٩٤	١١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٨، ٣٣
الأفلاطونية الحديثة ٨٨	٤١، ٤٢، ٤٣، ٥٨، ٦٧، ١٢١، ١٢٥
إلبا ٥٢	الشرق العربي ٦٤ العصر الإسلامي
آل بربون ٥٢	١٢٢ البلاد العربية، الأمة العربية
الإمامة ٢٦	الأمة الإسلامية ٦٤، ١٠٥، ١٠٧
أليون الثالث ١٧٤	١١٥، ١٢١، ١٦٥ الحكومة
أج ٤٧	الإسلامية ٦٦ الشريعة ١١٠، ١٢١
أم الجراح المدوية ١٨٢	١٦١، ١٦٧
أم حكيم ١٨٢، ١٨٣	أسلم (قبيلة) ١٩
امرؤ القيس ١٠١	أسلم مولى عمر ٦٨، ٦٩
أم سلة ٥٥	اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ١٧١
أم شبيب ١٨٣، ١٨٧	آسيا الصغرى ٨٦
أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن	السيد الخيري ١٢٥، ١٢٦
الخطاب ١٥٦	أشتانيون ٨٥
أم كلثوم بنت النجي ٣٢، ٣٣	أشور ١٠٢
أم كمس ١٨١	أشوريون ٨٩
	أهيهان ١٧٢

بابل ١٠٢	انجليز ١٩٤
بابليون ٩٥٠٤	الاندلس ١٦٦٠١٤٦
بتر ٩٧٠٩٥٠٩٤٠٩٣	أندونيسيا ١٩٤٠١٩٣
البحري ١٠١	الانجيل ٢٨
البحر الاحمر ٧٠٠٤٧٠٢٩	أنس بن مالك ١٥٦
بحر الروم ١٠٣٠١٠٢٠١٠١٠٩٩	الانصار ٤٢٠٤٣٠٤٥٠٤٦٠
البحرين ١٤٧	١٢١٠١١٥٠١١١٠٥٧٠٥٥٠٥٣
البخارى ٤٤	الأفوشي ٩٩
البخري بن هشام الأسدي ١٠	أنو شروان ٩١٠٩٠٠٨٨
بد ١٤٩٠١٤٧	أهل ذمة ١٦٩٠١٦٨٠١٦٧
بدر ١١٢٠٥٠٠٤٩٠٤٧٠٢٣٠٦	أهل السنة ١٧٣
بدر بن حارثة ١٤٤٠١٤٣	أهل كتاب ٤٢٠١١٣
البردة ١٠٦	الاهواز (جبل) ١٤٢٠ (ناحية) ١٨٢
برقة ٩٥	أهورا مزدا ٨٩
برهنا باذ ١٥٠٠١٤٧	الآوس ٤٤٠٤٣٠٤٢٠٤١٠٢٠
البرهه (قيلة هندية) ١٤٧	آل زياد ١٣٥
بسر بن أرطاة ١٣٣	آل كاشف الغطاء ١١٧ (محمد
البصرة ١٠٦٠١٠٩٠١٢٧٠١٢٨٠١٢٩	كاشف الغطاء النجفي)
١٣٠٠١٣١٠١٣٣٠١٣٦٠١٣٧٠١٣٨	أورليان ١٨٦
١٣٩٠١٤٠٠١٤١٠١٤٢٠١٤٧٠١٦٦	أيوب النبي ١٤٧
١٦٩	بابك ٨٥

بنو جعش ٤٦، ٤٩	البطالة ١٠٥١
بنو جع بن أمية بن خلف ١٠	بعث ٤٣
بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة	بغداد ١٢١
١٨٠١٥	البيع ٦٢ ٦٩
بنو حارثة ٦٩	بكر بن عبد مناة بن كنانة (بنو)
بنو سلة ٦٩	بكر - ١٩
بنو سهم ١٠	بكر بن وائل ١٣١
بنو عامر ٧	البكرية ١٠٦
بنو العباس ١٤٠ انظر: عباسيون	البلاذري، صاحب فتوح البلدان ٤٨،
بنو عبد الأشهل ٦٩	١٥٦، ١٤١، ١٤٠، ١٢٣، ٧٥، ٥٠
بنو عبد الدار ١٠	١٨١، ١٦٨، ١٦٧، ١٥٠، ١٤٩
بنو عبد شمس ١٠	بلال بن رباح ٤٨، ٢١
بنو عبد مناف ١١	البلجاء التسمية ١٨١
بنو عدى ١٢٥	بلفيس ١٨٦، ٦
بنو عقيل ١٦٥	بنو أسد ١٠
بنو فزارة ٢٠	بنو إسرائيل ٦
بنو قريظة ٤٣، ٦٩	بنو أمية، الدولة الأموية ١٤٠، ١٥٧،
بنو قصي ٩	١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦،
بنو قينقاع ٤٣	١٩١، ١٧٩، ١٧٨، ١٧٣، ١٦٩
بنو مخزوم ٢٣	بنو نعيم ١٣١
بنو المصطلق (عن خرواعة) ١٥،	بنو نعيم ١٢٥
٥٣، ١٩	

بنو المطلب ٢٩٠٣٥	تركيا ١٩٣ ، الترك العثمانيون ٨٩
بنو مظهر ٤٦	التصرف الفارسي ٨٨
بنو المغيرة ٢٠	تل ثباتي ١٨٥
بنو النجار ٤٨	نميم ١٨٢٠١٧٦
بنو نصر ١٦٨	تهامة ١٣
بنو النضير ٤٣ ، ٥٠	التوراة ٢٨
بنو نوفل بن عبد مناف ١٠	توماس مور ١٥٥
بنو هاشم ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ١٢٥٠	ثعلب (جل) ١٩
بهته ٧	ثقيف ٢٠ ، ٤٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥٠
بهرام الأول ٩٠	١٤٥ ، ١٤٧
بهرام جويين ٩١	فور (جبل) ٤٧ (غار) ٥٨
بومباي ١٤٧	تيوفان ١٧١
بيت المقدس ٨٦	جارية بن قدامة السعدي ١٣١
بيت المال ١١٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠٠	جامع عمرو (الجامع العتيق) ٤
بيت مال البصرة ١٣٠	الجامعة العربية ١٩٣ ، ١٩٤
البيعة ٤٢ ، بيعة العقبة ٤١ ، ٤٢	الجاهلية ٦٧ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٣٠ ، العصر
ثانة ١٤٧	الجاهلي ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٥٠
تبوك ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٢	١٤٦ ، ١٤٧
التار ٨٧	الجبانة ٨٠
تدمر ١٨٦	جبير بن مطعم
الترك ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٨٦٠	جدة

الحافظ بن عاكر ١٤٢	الجرع ٨١
حبش ، أحايش ١٣ ، السودان ١٤	جرمين رويارد ٩٦
٢١٠٢٠٠١٩٠١٨٠١٧٠١٦٠١٥	جرير ١٩٠
الحبشة ٢٩٠٢٧٠٢٢٠٢٠٠١٤	جزعة ١٨٢
حبشى (جبل) ١٧٠١٥	جزيرة العرب ، الجزيرة ، بلاد العرب
الحسن البصرى ١٦٦٠١٦٣٠١٦٢	قلب البلاد العربية ٢٦٠٢٤٠٢٠٠١
الحج ٢٤ ٤١ ٤٤ ٦٠ ٦١ ٦٤ ٦٥	٧٧٠٧٥٠٧٤٠٧٣٠٧٢٠٧١٠٦٩٠٦٨
٦٧ ٦٦	١٧٩٠١٤٦٠١٠٨
الحجاز ٢٠ ٢٤ ٢٥ ٢٧ ٢٩ ٥٧	الجزيرة ١٨٤٧٩
١٥٩ ١٥٧ ١٤٥ ٩٧ ٦٣ ٦١	جستيان ٨٨
١٨٤	الجر (وقعه) ٧٩
حجر اسماعيل ٥٩	جلولا ١٢٩٠١٢٧٠٩٢
الحجر الأسود ٥٩ ٦٦	الجل (وقعة) ١٨٦٠١٣٠
حجر بن عدى الكندى ١٣٤ ١٣٨	جميع بن حاضر الناجى ١٦٨
١٤٣ ١٤٠	جميل ١٤٦
الحجون ٤٩٣٥	جهجاه الغفارى ٥٣
الحجاج بن يوسف الثقفى ١٤٥ ١٤٦٠	جيزة ١٨٤٠١٨٣
١٥٣٠ ١٥١٠ ١٥٠٠ ١٤٨٠ ١٤٧	جينة ٧
١٥٤٠ ١٥٩٠ ١٦٠٠ ١٦٥٠	جوة ٩٤
١٨٤٠ ١٨٣٠ ١٧٩٠ ١٦٧	جوهر ١٨٧
الحديدة ١٨٠ ١٩٠ ١٥٤٠ ٥٨٠ ٥٥٠	جيشة ١٧١
الحديث ١٢٣ ١٣٥ ١٥٧ ١٥٩٠	الحارث بن عامر بن نوفل ١٠
حروراء ١٧٦٠ ٧٥	الحارث بن كلدة ١١٧ ١٢٤
الحسن بن على ١١٨ ١٣٢	الحارث بن محمد الأشعرى ١٢٨

خراسان ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤١	حسان بن ثابت ١٦ .
١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨	حفصة بنت عمر ١٢٢ .
خراس بن أمية الخراسي ١٩	الحكم بن أبي عقيل ١٤٥
خزاعة ١٣ ، ١٦ ، ١٩	الحكم بن أبي العاصي ١٤٧ .
الخزرج ٢٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١١١	حكيم بن حزام الأسدي ١٠ ، ٢٨
خزيمة ١٦	حلب ١٥٧
خناصرة ١٥٧ ، ١٧٣	الحلة ١٢
الخندق (المدينة) ٢٣ ، ٦٢ ، ١١٢	الحليس بن ذبيان ١٨
الخندق (العراق) ٨١	حمزة بن عبد المطلب ١٨ ، ٢٤
الخليج الفارسي ١٤٨	حمص ١٦٦
الخوارج ، الحوذية ، الحكة ،	حنيفة ١٧٦
الأزارقة ، الصفرية ، الإباضية	الحيرة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧
النجديّة ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٠	الخابور ١٨٥
١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩	خالد بن الوليد ٢٠ ، ٢٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣	خبیب بن عبد الله بن الزبير ١٥٨ ،
١٨٤ ، ١٨٥	١٥٩ ، ١٦٢
الخوارج ٨١	خديجة بنت خويلد ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
خويلد بن أسد بن عبد العزى ٢٧	٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
خير ٢٠	٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠
خير ٨٦	الخراج ، الجزية ١٣ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٦٠
خيزران ٢٥	١٦٧ ، ١٧٠ ، الأرض الخراجية
دابق ١٦٤	١٦٠ ، ١٦٧ ، الأرض العشرية
دار الإمارة ١٤٢ ، ١٤٣	١٦٠ ، ١٦٧
دار الرزق ١٤١	١٦٠ ، ١٦٧

٦٩ ٦٣ ٦٢ ٦١ ٥٨ ٥٧ ٥٦	٤٦ ١٢ ١١ ٩ ٨ ٦
١٢١ ١١٠ ١٠٥ ٩٧ ٧٧ ٧٢	دارون ٩٤
١٢٦ ١٢٥ ١٢٤ ١٢٣ ١٢٢	داهر ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥٢ ١٥٣
١٨٦ ١٦٧ ١٦١ ١٣٥	ديس (نهر) ١٤٠
الرشيذ ١٨٤ ١٨٥	دجلة ١٠٩ ١٥٢
رقية بنت النبي ٢	دمشق ١٢٤ ١٢٨ ١٥٢ ١٧٢
المادة ٦٧ ٦٩ ٧٢ ٧٣ ١٧٦	١٧٥ غوطه - ١٦٨
روح بن الوليد بن عبد الملك ١٦٦ ١٦٧	دولاب ١٨٢ ١٨٣
الروس ١٩٤	الديل ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩
الروم ٧٢ ٧٩ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩	دير سمعان ١٧٣
٩٢ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ١١٢	رأس التين ١٠٠
١٥١ ١٧٤ ١٨٧	راور ١٤٧ ١٥٠ ١٥١
روما ٦١	الربطة ١١٤
الرومان د ١٠٢ ١٠٣ ١٢٢	ريعة ١٦٨ ١٧١ ١٧٦
الري ١٤٨	الريع (الوزير) ٢٥
الزبا ١٨٦	رجاء بن حيوة الكندي ١٦٢ ١٦٣
الزبير بن العوام ٢٨ ١٠٩ ١١٠ ١٣٠	١٦٤
الزراشتية ٨٩ ٩٠ ٩١	الردة ٧٨ ١٧٦ ١٨٦
الزط ١٤٧ ١٥٠ ١٥١	رسم ٨١ ٨٢ ٨٤
الزكاة ١١٤ ١٦٧ ١٦٩	الرسول النبي محمد ٣ ٦ ٩ ١٠ ١١
زعزم ٥٩	١٢ ١٦ ١٧ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢
زعة بن الأسود الأسدي ١٠	٢٣ ٢٤ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢
زهرة ٨٢	٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠
الزهرى ٨ ١٢٣	٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧
زهير ١٠	٤٨ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥
زياد بن أبي سفيان ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩	

صوبا ٨٢	شاور بن مجير السعدى ٥
الصليب الاعظم ٨٦	شبيب ١٨٤٠١٧٩
صماء ١١٤	شراف ٨٠
صوب ٤٩٠٢٤	الشرىف الرضى ١٧٣
الصين ١٠٣	الشعب ٤٩٠٢٩٠٣٥٠٢٨
صيرونية ١٩٤٠١٩٣	شعب الحره ١٠٩
ضمرة ١٦٨	الشعي (عامر) ١٦٦٠١٤٣
الطائف ١٥٧٠١٢٧٠٤٠٠٢٣٠٢٠	الشعيبة ٣٩
الطبرى ٨٢٠٨٠٠٤١٠٢١٠١٩٠١٨	شكشير ١٠١
١٧٢٠١٣١٠١٢٣٠٨٣	الشهر ستانى ١٢٦
طرابلس ٩٥	شوذب ١٧٠
طبيعة بن هدى ١٠	شيه بن ريعه ١٠
طلحة بن عبيد الله التيمى ١٢٩٠١١٠	الشيخ الجدى ١١٠١٠٠٩
الطلحان (دار -) ١١٠	شيزاز ١٤٩٠١٤٨٠٨٦
طنجة ١٠٣	الشيعه العلويون ١٤٠٠١٢٦٠١٢٥٠٨٤
عائشه ٢٧٠٤٨٠٤٤٠١٢٢٠١٢٤٠١٢٩٠	١٧٣٠١٧٠٠١٦١
١٨٦	صواب ٢١
العاخذ لدين الله الفاطمى ٥	صاحب الاغانى ١٤٦٠١٢٥٠٢٠
عامر بن الطفيل ٧	صاحب باب النقول ٢١
عامر بن فيرة ٥٨٠٢١	صالح بن عبد الرحمن ١٥٤
عامر بن لوى ٢٧	صالح بن كيسان ١٥٧
العباس بن عبد المطلب بن هاشم ٣٤	الصحابه ٥٦٠٥٣٠٥٢٠٤٧٠٤٦٠٣٩
٧٤٠٧٣	١٥٦٠١٢٣٠١٢٢٠٦٧
العباسيون ١٩١٠١٧٩٠١٧٣	الصفاء ٢٣٠٥٨٠٥٩٠٦٦
عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى ١٦٦	صفين ١٧٥
عبد الرحمن بن أبى بكر ٤٩٠١٥	صفالية ١٨٧
عبد الرحمن بن أبى بكره ١٣٠ و ١٣٣	

عبد الله بن زياد ١٧٨ ١٧٩ ١٨١ ١٨٢	عبد الرحمن بن عبد القاري ٧٠
عبد الله بن الماحوز ١٨٢	عبد الرحمن بن عرف الزهري ١١٠
عبيد بن هلال ١٧٩	عبد الرحمن بن ملجم ١٨١
عتبة بن ربيعة ١٠	عبد الرحمن بن نعيم القشيري ١٦٦
عتبة بن غزوان ١٢٧	عبد القيس ١٤٧
عتيق بن حاتم بن عبد الله بن	عبد المزي بن قصى ٢٧
عزروم ٢٨	عبد الله بن النبي الطاهر الطيب ٣٢
العتيق ٨٢ و ٨١	عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي ٤٤
العجم ٨٢ ١٢٢ ١٦٨ ١٦٩ ١٦٠	٥٤ و ٥٣ و ٤٥
عثمان بن أبي العاص ١٤٨	عبد الله بن أبي ربيعة ٢٠
عثمان بن عفان (ذو النورين) ١٠٥	عبد الله بن جحش ٤٩
و ١٠٦ ١٠٩ ١١٢ ١١٣ ١١٤	عبد الله بن جعفر ١٥٦
١٢٥ ١٢٩ ١٤٠ ١٨٦	عبد الله بن الحضرمي ١٣٠ و ١٣١
عدي بن أرطاة الغزاري ١٦٦	عبد الله بن عباس ١٣٠ ١٣١ ١٣٢
العذيب ٨٢	١٤٠
العراق ٧٠ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨٧	عبد الله بن عمر ٦٨ ٦٩ ٨٢ ١٣٥
١١٠ ١١٧ ١٢٧ ١٢٣ ١٣٩	١٥٦ و ١٦٢
١٤٠ ١٤٣ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٣	عبد الله بن عبد الله بن عتبة ١٦٢
و ١٥٩ ١٧٩ ١٨٣ السواد ٨١	عبد الله بن الزبير ١٤٦
العرب ٥ ٧٩ ٨٣ ٨٧ ٩٢ ٩٤	عبد الله بن عتبة بن مسعود ٧٠ و ١٥٦
٩٥ ٩٦ ٩٩ ١٠٢ ١٠٨ ١١٣ ١٢١	عبد الله بن عامر ١٢٩ و ١٤٠
١٣١ ١٣٤ ١٣٥ ١٤١ ١٤٥	عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ١٦٤
١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٥٣ ١٥٤	١٧٣
١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٩٣ حرب البحرين	عبد الملك بن مروان ١٥٧ ١٦٠ ١٦٨
	١٤٧
	عبد العزيز ١٣٤
	عبد العزيز ١٥٦ و ١٥٧
	عرج ٤٧
	عرقه ٦٣

١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٩	عروة بن أديّة ١٨٢
١٢٨ ١٢٧ ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤	عروة بن مسعود الثقفي ٢٣
١٦١ ١٤٧ ١٤٠ ١٢٩ ١٢٩	عصفان ٤٧
١٦٩ ١٦٧ ١٦٢	المصور الوسطى ١٥٤
المصرية ١٠٦	عضل (بنو الهون بن مدركة) ١٦
عمر بن أبي ربيعة ١٠١ ١٤٦	عفيف ٢٤
عمر بن عبد العزيز أشع بن أمية .	العقبه ٤١ ، - الأولى ٤٢ ، ٤٥ ، -
١٥٩ ١٥٨ ١٥٧ ١٥٦ ١٥٥	الكبرى ٤٥
١٦٥ ١٦٤ ١٦٣ ١٦٢ ١٦١	العقد الفريد ١٦٢
١٧١ ١٧٠ ١٦٩ ١٦٨ ١٦٧	عقيل بن أبي طالب ٤٩
١٧٤ ١٧٣ ١٧٢	عك ١٥٣
عمرو بن أديّة ١٧٧	علي بن أبي حملة ١٦٨
عمرو بن أسد (عم خديجة) ٢٨	علي بن أبي طالب ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٨
عمرو بن الحق ١٣٤	١٢٩ ، ١٢٦ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١٠٦
عمرو بن خنث ٢٧	١٣٨ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠
عمرو بن العاص ٧٠ ٧١ ٧٧ ٩٥	أبو تراب ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨١
١٢٨ ٩٦	عمان ١٤٦ ، ١٤٧
عمرو بن علقمة ٤٩	عمار ٢٤
عمرو بن عرف ٤٧	عماس ٨٣
العواء ٧٤	عمران بن حطان ١٨٢
عياش بن خليفة ٧٦	عمر بن الخطاب (ابن حنمة) ٦ ،
عيسى ٢٤ ١٧٤	٢١ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٧
عيلام ٨٥	٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤
عين شمس ٩٥	٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠
	٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠٦

الفراغة ٥	الفار ٤٧
الفردوس ٩٤	غزاة ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥
الفردق ١٥٨	الفاسنة ٨٧
الفرس ٥ ٦٢ ٧٩ ٨٣ ٨٤ ٨٦ ٨٧	غضى ٨٠
١٨٧ ١٨٦ ١٤٠ ١٣٢ ١٣١ ٩٥	غفار (من كنانة) ١١١ ١١٢ ١١٦
فرنسا ٥٢	الغوى ٥٠
الفسطاط ، مصر القديمة ٤ ، ٥	غوبة (دى -) ٩٧
الفقه ١٣٥	الفارابي ١٥٥
فلسطين ٥ ٨٦ ١٩٣ ١٩٤	فارس ، ايران ٧٧ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٥
فلهاوزن ١٣	٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩١ ٩٢ ١١٤
الغى ١١٠ ١١٢ ١١٣ ١٢٢ ١٦٩	١٢٨ ١٣٠ ١٣١ ١٣٣ ١٤٠
فينقية ١٠٢	١٤٦ ١٥١ ١٥٤ ١٧٠ ١٩٣
القادسية ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٩٢	الفارعة بنت طريف ١٨٤
القاسم بن النبی ٣٢	فاطمة بنت النبی ٣٢ ٣٣
القاهرة ١٨٨	فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنی
قبا. ٤٧ ٤٨	عامر لوی ٢٧
قبرس ١١٢ ١٦٨ ١٦٩	فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ١٥٧
قتيبة بن بنت مسلم ١٤٦ ١٦٨	١٦٤
قتيلة بنت نوفل ٣٨	فتح الباری ١٧٢
قديد ٤٧	الفتة الكبرى ١١٦
قديس ٨٢	فدك ١٧٠
قرآن ٧ ١٢ ٢٣ ٤٦ ٤٧ ٨٧	فدياس ١٠١
١٥٧ ١٢٩ ١٢٤ ١١١ ١٠٧	الفرات ١٠٩ ١١٩
١٩٤ ١٨٦ ١٥٨	

كليب (أخو مهمل) ٨	١٤ ١٣ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٦	قريش
الكناسة ١١٠	٢٤ ٢٢ ٢١ ١٩ ١٨ ١٧ ١٦	
كنانة ١٨٠ ١٩٠	٤٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٥ ٢٨ ٢٧	
كنيسة يوحنا ١٦٨	٥٥ ٥٢ ٤٩ ٤٧ ٤٦ ٤٥ ٤٣	
الكوفة ١٠٦ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢	١١٢ ١١١ ١١٠ ١٠٩ ٥٨	
١١١ ١١٠ ١٠٩ ١٠٦ ١١١ ١١٢		
١٣٤ ١٣٣ ١٢٠ ١١٩ ١١٤	١٤٤ ١٢٨ ١٢٥	
١٤٢ ١٤١ ١٤٠ ١٣٩ ١٣٨	١٧١ ٨٦	قسططينية
١٨١ ١٧٥ ١٦٩ ١٦٧ ١٦٦		قصي بن كلاب ٨
١٨٢		قطام بنت علقمة ١٨١
الكيانيون ٨٥ : ٨٩		قطري بن الفجاءة ١٧٩ ١٨٢ ١٨٣
الكيرج ١٥٠ ١٥٣		قيقعان ٥٩
لجنة التأليف ٩٤		قيس ١٥٣
مادى ٨٥		قيصر ٢٤ ٧٧
ماسرو ٩٦		قيصر روسيا ١٠٧
المؤلفة قطريهم ٥٥		كراتشي ١٤٧
مالك بن أبي السمح ١٥٦		كثير ١٤٦
ماني ٩٠		كربلاء ١١٧ ١١٨
مالك بن أنس ١٨٠		كرمان ١٣١ ١٤٩
ماوراء النهر ١٤٦ ١٧١		كسرى ٢٤ ٧٧ ١١٤ ١٣١ ١٤٩
الماوردي ٢١	الأكرسة	
متحفون ٢٨		١٤٠
المتبي ١٩٠		كسكر ١٥١ ١٥٢
المثوكل ١٧٩		كشف الله ١٠٦
المتي بن حارث ٧٧ ٧٩		كعب بن حامد ١٦٦ ١٦٧
محارب (بنو-) ٦٩	٢٤ ٢٣ ١٨ ٨	الكعبة، بيت الله
محمد بن أبي بكر ١٣٠	٦٦ ٦٥ ٦٣ ٦١ ٦٠ ٥٩ ٥٨	

المسور بن محزمة ٧٠	محمد بن القاسم الثقفي ١٤٥، ١٤٦
المسيحية ٨٨، النصارى ١٥١ ١٦٨	١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢
مسيلة ٩٧	١٥٣، ١٥٤
المشرق ١٣٣	محمد فريد أبو حديد ٩٣ ٩٤
مصر ١ ٦٤ ٧٠ ٧٧ ٧٩ ٨٦ ٩٣	محمد بن معبد، ١٧٤
٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ١٠٢ ١٠٣	المداين ٨٦، ٨٧
١٠٦ ١٠٩ ١٣٠ ١٥٦ ١٦٧	المداين ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
١٨٧ ١٨٨ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢	المدينة، يثرب، ١، ٩، ٢٠
مصعب بن عمير ٢٤ ٤١	٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥
مصبة ١٥٢	٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٣
مضر ٢٧ ١٧١	٥٤، ٦١، ٦٣، ٦٩، ٧٠، ١١٠
المطعم بن عدي ٤١	١١١، ١١٦، ١٢١، ١٢٨، ١٥٦
المظالم ١٦٦	١٥٨، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٦، ١٧٦
معاوية بن أبي سفيان ١٢ ٢٥ ٧٠	مراد الثالث ٢٥
١١٢ ١١٣ ١٣٠ ١٣٢ ١٣٤	مرداس بن أدية ١٧٨ ١٨١ ١٨٢
١٣٥ ١٣٦ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠	للروة ٢٣ ٥٨ ٥٩ ٦٦
١٤٦ ١٧٥ ١٨٦	مروان بن الحكم ١٥٦
معبد ١٥٦	مريم (— بنت عمران) ٣٦ ١٢٥
المعتضد ١٢	مريم الحارثية ١٨٤
المز لدين الله ١٨٧	مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز ١٥٩
معقل (نهر) ١٤٠	١٦٤ ١٦٥ ١٧٣
المغرب ١٤٦	مزدك ٩٠ ٩١ ١١٤
المغيرة بن سعيد العجلي ١٢٦	المسجد النبوي ١٥٨
المغيرة بن شعبة ٨٠ ١٢٨ ١٣٣ ١٣٤	المسعودي ١١٠
١٢٨ ١٤٣ ١٧٩	مسلم بن عبد الملك ١٧١
المغيرة (شعبة غلاة) ١٢٦	

المقداد ١١٠	الميد ١٤٨
المقرق ٩٥ ٩٦	ميسرة غلام خديجة ٣٠
مكتبة الاسكندرية ٩٥ ٩٦	ميشيل أجمل ١٠١
مكران ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩	نائلة بنت الفرافصة ١٠٧ ١٨٦
مسكة ١ ٨ ١٣ ١٥ ١٧ ١٨ ١٩	النايفة ١٠
٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦	نابليون ٥٢
٢٧ ٢٨ ٢٩ ٤٠ ٤١ ٤٢	نافع بن الأزرق ١٧٩ ١٨٢
٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١	نأي ٥٣
٥٨ ٦٠ ١١١ ١٥٧ ١٥٩ ١٧٦	نيه بن الحجاج المخزومي ١٠
مكحول النأي ١٦٤	التجاشي ٣٩
الملل والتحل ١٢٦	نجد ٩٠ ٤٧
الملتان ١٤٧ ١٥٠	نجدة ١٧٩
المنافقون ٥٣	نجرانية الكوفة ١٦٧
منه بن الحجاج المخزومي ١٠	النجف الأشرف ١١٧ ، ١١٨
المصور ٢٥	١١٩
المهاجرون ٢٩ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٣	النسائرة ٨٨
٥٤ ١٢١	النضر بن الحارث ١٠
المهدي ٢٥ ١٢٥	النظام الثلاثي ١٢٢
مهران ١٥٠	نقيسة بنت منه ٣١
المهرجان ١٦٧	النمر ٧٠
المهلب بن أبي صفرة ١٧٩	النمري ١٤٦
مهلب ٨	نماوند ٩٢
مربذان (مراينة) ٩٠	نجم البردة ١٠٦
موسى ٢٤ ١٢٣ ١٢٤	النهران ١٧٩
موسى بن نصير ١٤٦	النزوى ٨٨

الوليد بن طريف ١٧٩ ، ١٨٤ ،	النيروز ١٦٧
١٨٥	النيل ١٠٩
الوليد بن عبد الملك ١٥٠ ١٥٣ ١٥٧	لامانس ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٢
١٦٥ ١٦٠ ١٥٩ ١٥٨	١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦
الوليد بن المغيرة المخزومي ٢٣	هيرة بن وهب المخزومي ١٦
ولبريان ٨٧	الهجرة ٢ ، ٩ ، ٥٧ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٩
الياقوت (جزيرة) ١٤٧ ١٤٨	١١٢ ، ٥١
مربوع ١٤٨	هرقل ٩٥
يحيى بن سعيد ١٧٣	الحرير ٨٣
يزدجرد ٨٢ ٨٣ ٩٢	هشام بن اسماعيل المخزومي ١٥٧
يزيد بن أبي كبشة السكسكي ١٥٣	الهند ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩٣
يزيد بن أبي مالك الدمشقي ١٧٢	١٩٤
يزيد بن أبي مسلم ١٨٤	اللون بن خزيمه بن مدركة ١٥
يزيد بن عبد الملك ١٦٠ ١٦٤ ١٦٥	هوازن ٨٠ ، ٥٥
١٧٠	هولدة ١٩٤
يزيد بن مزيد الثيباني ١٨٤ ١٨٥	المياطله ٨٧
يزيد بن المهلب ١٥٣	واترلو ٥٢
اليماقة ٩٧	واسط ١٥١ ١٥٤
يعلى بن معاوية ١١٠	وادي العقيق ٤٧
الجماعة ٩٧	الوافدي ٢٣ ، ٧٣
اليمين ٧ ١١٤ ١٥٣ ١٦٧ ١٧١ ١٨٦	وثينة ٢٨ ، ٨٨ ، ١٥١ أصحاب أوثان،
اليهود ٢٠ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٦٢ ١٥١	أهل شرك ٤٢
اليهودية ٤٢	وحسى (قاتل حمزة) ٢١
يوحنا القيوسي ٩٦ ١٦٨	ورقة بن نوفل ٢٨ ، ٢٤
يوليوس قيصر ١٠٧	الرجلة ٨١
يوم الدار ١٠٥	
اليونان ، الاغريق ١٠١ ١٠٢ ١٨٩	

القسم الأول
عصر الدولة العباسية

أبو العباس «السفاح»

هل تلقب بالسفاح وهل كان سفاحاً للدناءة حقاً ؟

كان أبو العباس لللقب بالسفاح أول خلفاء بني العباس ؛ ولّى الخلافة عام ١٣٢ ، وتوفى عام ١٣٦ ، وكان شاباً لم تزد سنة وقت أن توفى على ست وثلاثين سنة على أكثر تقدير . جميل الخلقة ، وسيم البنية ؛ يقول فيه الطبري إنه « كان ذا شرة جعدة ، طويلاً أبيض ، أقى الأنف ، حسن الوجه والحية » . ويروي ابن الأثير أنه « نظر يوماً في المرآة ، وكان من أجل الناس وجهاً ، فقال : اللهم إني لا أقول كما قال سليمان ابن عبد الملك : أنا لللك الشاب ، ولكني أقول : اللهم عرني طويلاً في طاعتك عتماً بالمعانيه ١ »

وكان أبو العباس متصوناً خفيفاً ، حسن للماشرة لأهل بيته . روى السعدي أنه كان قبل الخلافة قديراً معلقاً ، وافق أن رآه أم سلفه الخزومية ، أرملة سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فأعجبت به ، ورامت الزوج منه ، فاعتذر بضيق ذات يده ، فأرسلت إليه من الليل ما وفي بحق الصداق والمدينة . وقد حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يقسرى . فلما صارت إليه بالخلافة ، وسقت إليه الدنيا ، وفي لها كأشد ما يكون الرقاء ، والبر بالبعد .

وكان أبو العباس مقتصداً في معيشته ، لم يخرج له أبية الملك وعظمة السلطان من حد البساطة في مأكله ومشربه وملبسه ؛ وقد أحصوا ما خلف من الثياب ، فإذا هي تسع جباب ، وأربعة ألقعة ، وخمسة سراويلات ، وأربعة طيالبية ، وثلاثة معارف خبز . تلك ثياب رجل ملك يشارك الأرض ومنازلها نحو خمس سنوات ١١

١ - الخزانة : عدد ٧ سنة ١٢٢٦ أثر بهذا القول جدلاً وحقاً في الموضوع وقد سجل كل ذلك في مجلتي الخزانة والرسالة في السنة المذكورة .

وكان أبو العباس كريماً عطاشاً ، يقول فيه للسعدي : « وكان إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً » ، ويقول فيه : « وكان لا ينصرف عنه أحد من خدمته ولا مطربه إلا بصلة من مال أو كسوة » ، ويقول لا يكون سرورنا معجلاً ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً .

وكان طروباً « يطرب من وراء الستر ويصيح بالطرب له من اللتين : أحسن والله ! فأعد هذا الصوت ا » . (للسعدي)

وكان أشد الخلقاء حياءً لمسامة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما العجب من يترك أن يزداد عدواً ، ويختار أن يزداد جهلاً » ، قال له أبو بكر المظلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك بحالة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسع سخفاً ويروي قهقراً . (للسعدي في مروج الذهب) .

• • •

فهل صحيح أن هذا الخليفة الشاب الجميل العفيف ، الرقي ، الكريم ، الطروب ، للفتنة الحريص على مسامرة الرجال ، كان قتيلاً للناس سفاكاً لدماء البشر ؟ وهل صحيح أنه إنما قلب بالسفاح لكثرة ما سفع من دماء وأزق من أرواح ؟ وهل صحيح أن الطبيعة البشرية تسع لتناقض والتباين إلى هذا الحد ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة بالإيجاب يثير الدهش ويستند العجب ؛ ومع ذلك فهذا ما أجابت به روايات تاريخية كثيرة متأخرة وحديثة . وقبل أن نعرض لتلك الروايات التي تصور أول خلفاء بني العباس في تلك الصورة البشعة ، نبين للمنى الاصطلاحي والنقوي لفظ « السفاح » ، ثم نعرض للروايات القديمة والمعاصرة لأبي العباس ، لنرى كيف تصور شخصية هذا الخليفة .

إن لفظ « السفاح » وصف عربي قديم جرى مجرى القلم ؛ فم السفاح التخلي الذي كانت رئيس تغلب في يوم الكلاب الأول . ويقول فيه ابن دريد في كتاب الاشتقاق : « وإنما سمي السفاح لأنه يفتح للزاد أي صباح يوم كاذبة ، وقال لأصحابه : فأتلوا فإنكم إن هزتم مسم عطشاً . قال الشاعر :

وأخوها الفلاح ظناً خيلاً
 وهناك الفلاح بن عبد مناة الشاعر
 فقال من سبغت للاء سفعاً إذا صبيته
 حل بمن يصفك الدماء كما يقبدر إلى القعر ، وإنما لحظت في إطلاقه معنى آخر
 منصوصاً عليه

وأما لغة فهذا الوصف يقع على جهة معان ، منها الفلك لدماء ، ومنها المطاء ، ومنها
 الفصيح القادر على الكلام . (اللسان مادة سفع) . فل أي هذه المعاني نحمل لقب أبي
 العباس ؟ إن الرواية التاريخية وحدها ، هي التي تعين هذا المعنى . فهم يقولون إن أبا العباس
 لقب بالفلاح أخذاً من قوله في خطبته للشهيرة التي خطبها أهل الكوفة غداة
 جويج بالغلاة

« يا أهل الكوفة ! أتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أتم الذين لم تشيروا عن ذلك ،
 ولم يشك عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وآتاكم الله بدولتنا ،
 فأنتم أسد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستبدوا فانا
 بالفلاح للشيخ والثائر للير ! » فنلاحظ من هذه العبارة أنه يخاطب أهل الكوفة الذين أفاض
 عليهم من الأوصاف الكريمة ما أفاض ، وأنه قد زاد في أعطياتهم ؛ فهل يتأني له أن يقول
 لم يصب ذلك إنه فلك لدماء ؟ هذا بعيد ، والأقرب إلى البيان والبلاغة أنه إنما أراد أن
 يقول لم إنه لأوليائه كريم مطاء ولأعدائه ثامر مريد . والعارف بأساليب العرب الخطابية يعلم
 أنهم في مثل هذا اللقاع ، مقام الترغيب والترهيب ، كثيراً ما يرددون للمعاني المتقابلة ؛ وهذا
 من قبيل قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذاباً لشديد » أضف
 إلى ذلك أنه لا يحمل بخلية إسلامي يقول إنه تحدر من أكرم أرومة ، واشتق من أشرف
 نعمة ، أنت يصور هذه تصريراً جاهلياً مفرأ دون محاشاة ولا تحفظ
 الخلفاء الإسلاميين كلما أنها ألقاب جنية وأسماء حسنة توحى بمعاني الإيمان واليمن والمداية
 والرشاد

ولكن هذا الدليل اليباني لا يكون شيئاً إذا كانت الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة

تسند إلى أبي العباس من الحوادث القظيمة ما يمتنع أن يوصف بالسفاح على معنى السفاح
القديماء . والواقع أن الرواية التاريخية القديمة والماصرة لا تكاد تفعل شيئاً من ذلك . بل
هي لا تذكر لفظ السفاح مطلقاً عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين ؛ ومن شاء أن يتحقق
ذلك فليرجع إلى كتاب « الأخبار الطوال » لأبي حنيفة الديلموري المتوفى عام ٢٨٢ هـ ،
وتاريخ الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ ، فيجد أن كلا للزورخين لا يزيد عند الإشارة إلى
أبي العباس على قوله : « أمير المؤمنين أبو العباس » وأكثر من ذلك أن رواية هذين
للزورخين ، وكلاهما من حيث الاستناد تكاد تصعد إلى عصر أبي العباس نفسه ، لا تصيف
إليه من حوادث القتل ولثة التي نمت في عهده شيئاً . والراد بمحوادث القتل ولثة التي حفل
بها ذلك العصر قتل العباسيين الأوائل بنى أمية غدرًا وصبراً . بل تولى كثير ذلك رجال غير
أبي العباس . فيقول الطبري : « وفيها (أى سنة ١٣٢) قتل عبد الله بن علي من قتل بنهر
أبي فطرس من بنى أمية ، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً » وعبد الله بن علي هدام للخليفة ،
وكان على الشام ، ونهر أبي فطرس بفسطاطين . ويقول الطبري كذلك : « وفيها (أى
سنة ١٣٣) قتل دود بن علي من كان أخذ من بنى أمية بمكة والديعة » ودود هدام آخر
لأبي العباس ، وكان على الحجاز واليمن . فأنت ترى أن الرواية التاريخية القديمة تصعب
بكل بساطة جرائم قبل الأمويين برجلين اثنين هما عبد الله بن علي ودود بن علي . فإذا
رجعنا إلى الرواية للماصرة لأبي العباس نفسه وجدناها مزينة للرواية التاريخية . وهذه
الرواية للماصرة هي تلك القصيدة للزورة البليغة التي رثى بها ابن أبي شبة القتيبي مواليه من
بنى أمية ، والتي يقول في مطلعها :

تقول أمامة لما رأيت نشوزي عن الضمير الأفس
وقلة نوى على مضجعي لدى همة الأعين النمس
أيا ماعراك؟ قلت للموم عروءن أبك فلا تبلى

ويقول فيها صديقاً للواضع التي قتل فيها بنو أمية :

أغض للداس قتل كذا وقتل بكثرة لم ترس
وأقتل "يجمع" وبالأبنة من من يثوب خير ما أفس

وبالزائين غوس فوت وأخري بنهر أبي غلرس

أولك قوي أناخت بهم فواب من زين ميس

وكذا وكثوة ووج واللذان أسكنة بالحجاز ، وهى التى قتل عندها داود بن على من قتل من بنى أمية . والزايان موضع واقعة الزاب التى قاتل الجيش العباسى فيها عبد الله بن على ونهر أبى غلرس بفلسطين وهو الذى قتل عنده عبد الله بن على الأمويين غلداً وصبراً كما ذكرنا . ولا يذكر الشاعر وهو يمدد مصارع قومه الحيرة ولا الكوفة ولا الأنبار وهى للواقع التى نزلها أبو العباس فى خلافته ؛ فالرواية للباصرة والرواية القديمة تنطقان ببرادة أبي العباس من دماء الأمويين وتملآن غيره وزرها .

• • •

ولنعرض الآن بالأعجاز الروايات المتأخرة والحديثة . وتزيد بها الروايات التى ظهرت منذ القرن الرابع إلى أيامنا . فنلاحظ قبل كل شيء أن تلك الروايات على وجه العموم تلقب بأبا العباس بالسفاح ، مخالفة فى ذلك الرواية القديمة . وهى تمت ذلك الخليفة بالسفاح على أنه سفاح قال ، فصاحب كتاب الأغاني الذى ينسب إلى بنى أمية وللثوفى عام ٣٥٦ يمتنون فصلا فى كتابه (ج ٤ ص ٩٢ - ٩٦) بقوله : ذكر من قتل أبو العباس السفاح من بنى أمية ، ويذكر أبو الفرج قصه هذا على قصة سديف الشاعر ، فيزعم أنه دخل على أبي العباس بالحيرة وعنده جو هاتم وجو أمية فأشبهه قسيده :

أصبح لك ثابت الأساس بالباليل من نبي العباس

ويقول فيها عرضاً الخليفة على الأمويين :

لا تخيلن عهد شمس عتاراً وقطين كل رقعة وغراس

خوفهم أظفر السودد منهم وبهم منكم تحجز للوأس

قال خنيزكون أبو العباس ، وأسر بمن فى مجلس من الأمويين فأمهدوا ، وتزيد رواية إلى الفرج أن الخليفة أسر يسيط فبسط على جوم الأمويين وجلس فوقه يأكل ، فثار رجز من الأكل أسر بهم فالتوا فى الطريق ، فكانت الكلاب تحرم بأرجلهم ، إلى آخره بأدبى وجهه الله . ويورد ابن الأثير للثوفى سنة ١٢٠ هـ حين الشعر والحديث ، ولكنه يضيف

الشعر إلى شاعر آخر هو ذيل بن عبد الله والحادثة إلى عبد الله بن علي ، إلا أنه يعقب على ذلك بقوله : « وقيل إن سدياً أشد هذا للشعر لسفاح اسمه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم » .

فأنت ترى أن ما نصت عليه الرواية القديمة بكل وضوح وجلاء ، وعرّضته إلى عبد الله بن علي في يوم نهر أبي فطرس قد عزاه أبو الفرج إلى أبي العباس ، وتروّده في ابن الأثير بين النفي والإثبات . على هذا الخلط والاضطراب تقوم الرواية المتأخرة التي تصور أبا العباس شخصية قتلة بشمة تذكرونا بشخصيات تينكز خان وهولاكو ويصور لك .. وقد اتهم للمؤرخون المحدثون هاتين الروايتين ؛ فمنهم من أخذ برواية أبي الفرج مثل قابل الألماني في كتابه « تاريخ الخلفاء » ، وميور الإنكليزي في كتابه « تاريخ الخلافة » ، والرحوم الخطري بك في تاريخ الدولة العباسية ؛ ومنهم من أخذ برواية ابن الأثير مثل المرحوم جورج زيدان بك في الجزء الرابع من تاريخ المتمدن الإسلامي .



أما بعد ، فإننا لم قصد إلى الدفاع عن أبي العباس دفاعاً مطلقاً ، ولكننا أردنا إنصافه من طريق البحث العلمي . وعندنا أنه إذا كانت يده قد برئت من دماء المؤمنين فلنألم توباً من دم ابن هيرة الذي استتره أخوه أبو جعفر من محقه بواسط على الأمان . فإن أبا العباس لم يُعز أمان أبي جعفر ، وقتل ابن هيرة خذراً ، فاسياً قول صاحب الشريعة الحمدية : إن ذمة للمؤمنين واحدة يحبر عليهم أديانهم . ولم يكن أبو جعفر في الحق أدنى للمؤمنين ، بل من أعلام وأشرعهم . والرواية القديمة تنزوي إلى أبي العباس هذا الحادث دون أية مواربة ، ولكن ذلك لسرى لا يسوغ أن يوصف بأنه سفاح للدماء . وهو ما نصبتنا أخيراً لنفيه عنه .

بقى أن يقال إن أبا العباس كان الظليفة وهو المشول الأول من جرائم عمه . ولكن يرد على ذلك بأن النصركان عصر زعازع وهزلعز ، وأن أبا العباس كان مطلوباً على أمره لعه عبد الله بن علي بالترقب ، ولأبي مسلم بالشرق ، ولم تصفُ الخلافة والسلطان لأخيه

أبي جعفر من جده إلا بعد أن تخلص من هذين الجبارين وقد انضم الله منهما على يديه
أشد الاعتقاد.

• • •

ترى هل ثبت أبو الباس على هذا التحيص ؟ وهل خرج منه كما دخله ، فكان أولا
وآخرًا ذلك الخليفة الشاب الوسيم النفيع ، الوفي الكريم الطروب المتعمد الحريص على
معادة الرجال قوى القول ؟
أكبر الظن أن قد فعل ؟

هارون الرشيد^(١)

بين التاريخ والقصة

هارون الرشيد شخصية من أشهر شخصيات التاريخ الإسلامي ، وأكثرها تداولاً على الألسنة ، وأشدها شيوعاً في الأدب العام . ومع أنه شخصية تاريخية بحتة قد أسبغ عليه القصاص ثوباً خافياً من زخرفته ورواقه ، وتناوره الوضع والأحداث من نواح عدة ؛ فالتبس وجه الحق فيه على جمهور المتأدين ؛ ولم يسل من الرمم في أمره غير واحد من الخفاصة أنفسهم وزيد في هذا البحث أن نعرض لتلك الشخصية بقدر ما يسع المقام كما يصورها التاريخ الثابت أولاً ، ثم كما يصورها القصاص ثانياً ، وأن نبين بعد ذلك مدى الاتصال بين التصويرين .

- ١ -

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ينتمي نسه من ناحية أبيه إلى العباس بن عبد المطلب م النبي صلى الله عليه وسلم . أما أمه فأم ولد اسمها الخيزران . وكما كان أبوه وجده من أقوى الرجال إرادة وأندم شكية ، قد كانت أمه جرح النفس وكانت إلى ذلك موفورة الحظ من السلم ؛ أخذته كما يروى الطبرى عن الأوزاعي إمام أهل الشام . ولد هارون بالري سنة ١٤٨ هـ وذلك أيام كان أبوه والياً على خراسان من قبل المنصور . فلما جاوز عبد العزوة دفع به أبوه إلى يحيى بن خالد البرمكي ليتولى الإشراف على تعليمه وتثقيفه فأنشأه يحيى على آداب ملوك الفرس من بني ساسان ؛ فكان هارون يحب الصيد والقنص ؛ ويلبب بالبروس والصربان والشرنج ، ويشهد سباق الخيل في ميادين السباق . أما تعليمه فقلل وصيته هو إلى الأحمر للنحوى مزودب وله الأمين تزيينا كيف علم ؛ وكيف كان يعلم ولاية العهد في ذلك الزمان ، فهو يقول فيها : يا أحرار ! إن أمير المؤمنين

قد وضع إليك مربية فسه ونعمة قلبه . فضير بك عليه ببسولة ، وطاعتك عليه واجبة .
تذكرن له بحوث وضحك أمير المؤمنين ؛ أقره القرآن ؛ وعرفه الآثر ؛ وروى الأشعار ، وخطه
الخط ، وبيضه مواقع الكلام وبدنه ، واسمه الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتسليم
مشايخ بني حاتم إذا دخلوا إليه ، وورع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك
ساعة إلا وأنت مقنن فيها قائدة صيده بإيها ، من غير أن تحرق به ضيبت ذهنه ، ولا تمن
في مناسحته فيسحل الفراغ وبألفه . وعرفه ما استطعت بالتقرب والللاينة ، فإن أياها فليكن
بالشدة والنظافة .

فلما زرع واشتد ساعده أخذ أبوه يدربه على فنون الإدارة والحرب ، فأغراه الروم
مستين في سنتي ١٦٣ هـ ، ١٦٥ هـ وفي سنة ١٦٣ هـ ولاه على اللرب كله وجعل على رسائه
يحيى بن خالد . وفي سنة ١٦٦ هـ أخذ له البيعة بولاية الهند بعد أخيه موسى المادى ولقبه
(الرشيد) ثم لم بأن يقدمه على المادى في الخلافة لما رأى من غايل كفايته ومقدرته ؛
ولكن موته فجأة في عام ١٦٩ هـ فانه عن إنفاذ ما أراد .

فلما تولى المادى حاول أن يخلع هارون ويبيع لابن له صغير ، ولكن هارون أبى
أن ينزل عن حقه ، وشد أزرد في ذلك مربية وكتابه يحيى بن خالد . فغرضها المادى
لأنه من الاعطال ؛ حتى طالب هارون هماً بالخلع وأخيراً لم ينج يحيى من المللك ، وحق
هارون من الضياع ، إلا موت المادى غيلة في الحرم من عام ١٨٠ هـ وبذلك أصبح هارون
خليفة على الدولة السانية .

- ٢ -

كان الرشيد عندما آلت إليه الخلافة شاباً في مقتبل العمر ، موفور الثغانة ، تام الفروسية
جم الحياء ، رقيق العاطفة . هذا إلى تلاحة وصف بها ، فقد كان أبيض طويلاً وسياً
صينياً ، فهو بذلك قابل لصل مغير إذا وجد ما يرضيه إليه ، وقصل الشر إذا صلافة ما يصرفه
إلى الشر ، والتمنحية أن يكون في مثل جاله إنما يصندر عن نظام الحكم الذي تكون الدولة
مناخنة له وبهكمومة بموجبه . ذلك بأن لأظمة الحكم تأثيراً في أخلاق الناس حكماً كانوا
لو محكومين . وقد خلط هذه الحقيقة كل من كتب في السياسة والأخلاق من لدن الإغريق

القدماء حتى وقتنا الحاضر . فما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . خلافة العباسيين تختلف عن خلافة أبى بكر ومروكا يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم ولكن يمتطوا هذه النظرية للصفة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الليراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها . وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذلك بكان لبني البنا وراثة الأعمام ؟

ويقول أول خلقناهم فى خطبة التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة « وأعلموا أن هذا الأمر فىنا ، وليس بخارج منا حتى نلذه إلى عيسى بن مريم عليه السلام » ويقول للنصور من خطبة له « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده . وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه يادته ؛ قد جعلنى الله عليه قلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقتلنى عليها أقتلنى ... » ولكن نذكر على التخيير الذى أصاب الخلافة على عهد العباسيين نكتفى بأن نورد بعض خطبة أبى بكر التى خطبها على إرمينته ، قد قال « أيها الناس ! قد وليت أسركم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت قومونى ... أطيعونى ما أطمت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... » كما نورد الشعر الذى خاطب به الحطيفة عمر بن الخطاب بعد أن بويع ، قال :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه أتى إليك مآل يد النعى البشر

لم يؤثرك بها إذ قدموك لها لكن لأخسهم كانت بك الأثر

وكا وراث الرشيد الحكم بموجب النظرية للذكورة ، فقد وراث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط وهو شئ أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجين عن الرعية فى بلاطهم ، يحف بهم جم فقير من الحاشية والحجاب والحراس والفنان والنساء والجواري . وكثيرا ما كان

بلاط فارس بهذا الغلط بحث الدساس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ التأخرين من السياسيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيء في الشؤون العامة لأول ظهوره ، فقد ذهب للهدى والمهادى ضحية مكاييد وبرت لم في نفس بلاطهم . حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط يحكم تكوينه ذو جو صالح للدساس والمكاييد . ذلك هو النظام السياسي الذي أصبح الرشيد خليفة يفتتضه وفي حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذي يحكم في ظله قويا كان من أقوى أسباب الاستبداد والظلم . وإذا كان ضعيفا كان من أقوى بواعث الفتن والاضطراب .

وهذا بالذات ما يثبت تاريخ الدولة العباسية ، فالتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالنصور والهدى والرشيد والتوكل كانوا جبابرة طغاة . أما للتأخرون الذي يوصفون بالضعف فقد كانوا الأعيب في أيدي أهل البلاط ونساء القصر ، يصرفونهم كيف شاموا وشادت أهواؤهم .

- ٣ -

على أن الرشيد لم يقبل دفعة واحدة أثر هذا النظام ، فصر منه وحدانية عهده بالحكم يحولان بطبيعة الحال دون هذا التقبل السريع . فلذلك نجده كالمتروك بأنه لم يبلغ بعد أن يضطلع بشئون تلك الدولة العظيمة ، يفوض الأمر كله إلى أستاذه ووزيره يحيى بن خالد البرمكي ، وقد بلغ من تحفه به وإعظامه له أنه كان لا يتأديه إلا « يا أبت ا » .

ويحيى هذا هو يحيى بن خالد بن برمك . وكان برمك في مبدأ أمره سادن معبد بوذي قديم بمدينة بلخ يقال له (التوبهار) ثم اعتنق الإسلام في أواسط الدولة الأموية واتصل بسيد الملك بن مروان وابنه هشام ، ويقال إنه شفى هشاماً من مرض كان به . وقد اشترك ابنه خالد في أمر الدعوة العباسية وأبلى فيها ثم استوزره للنصور لأصالة رأيه وكفايته وإن كان ذا ميول أمجية لم تحف على النصور . وقد ورث ابنه يحيى فضائله وكان لذلك أثراً لدى للهدى . فلما تولى الرشيد أطلق يده في شئون الدولة فاستعان يحيى في إدارتها بأولاده الأربعة الفضل وجعفر وموسى وعبد وكلهم كاف قدير . وقسم أمور الدولة بينهم وصار يمول عليهم في معالجة الحوادث الخطيرة . فالفضل هو الذي استصلح يحيى بن عبد الله العلوي الذي تار

جلبهم من ههنا وإلي موسى وجعفر يرجع الفضل في القضاء على فتنة العرب بالشام .
والخلاصة أن البراسكة غلبوا على كل شيء في الدولة وأداروها إدارة حسنة ، ولكنهم
إلى جانب ذلك قد شلوا سلطان الرشيد حتى كانت شخصيته تنفى فيهم .
وبسبب البراسكة وم أسرة فارسية كما تقدم القول ، علا شأن الضمير الفارسي عامة ،
وتحقق ما كانت موالى القوم ترى إليه من إسقاط الدولة الأموية العربية ، وإقامة الدولة
العباسية التي كانوا عنتها وعجل عصيتها .

وقد أدرك العرب بوادر هذا الانقلاب منذ قامت الدولة العباسية فكانوا يجهرون عن
منازحتهم لها وسخطهم عليها بالثورة حيث يكثر عددهم وخاصة بالجزيرة والشام ومصر .
فكان الخلفاء العباسيون الأوائل يلقون ثورتهم بالنف وتزريق الكلمة جيد استطاعتهم
لأنهم أن العرب أنصار الدولة الأموية الذاهبة . لذلك نجد قادة العرب يبدلون عن الثورة
إلى الدهاء واستطاع الحذر .

كان بنو هاشم على رأس الحزب العربي ببغداد ، وكان يمثل هذا الحزب ببلاد الخليفة
بمختصان الفضل بن الربيع والسيدة زبيدة .

أما الفضل فكان رجلاً واسع الطامع ، جم الدهاء ، قادراً على الدس والوقيعة ، حافذاً
على البراسكة ، والذي يقرأ مدائح أبي نواس فيه يرى أنه كان يستعين بالشراء على قوت نظر
الرشيد إليه .

من ذلك قول أبي نواس مخاطباً الرشيد :

قولا لمـلـارون إمام المـدى عند احتفال المجلس الخائـد
أنت على ما بك من قدرة قلبت مثل الفضل بالواجـد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع المـالـم في واحد

وكان من وراء ذلك أن استجبه الرشيد في عام ١٧٩ م كان محمد بن يحيى البرمكي ،
أما الزعيم العربي الثاني إذا صح هذا الوصف فلم يكن غير السيدة زبيدة خديجة أبي
جعفر للنصور وزوج الرشيد وأم ولده محمد الأمين .

وهي امرأة حليمة للرأغب موفورة الثقافة شديدة اللهاة نفسها المشاي وكان الرشيد رجهلها وينرف لها مكانتها للفتاة . وكانت هي أيضاً مباحدة للولسكة متفردة على يحيى وكان إليه أسر النضر فكان بذلك يضيّق عليها ويتصد عدم إغلاذ أسرها حتى أنها شكته إلى الرشيد فلم يزد الرشيد على أن عتب على يحيى في ذلك .

ومها يمكن من شيء قد تركت للخاصة بين العرب والعجم إذ ذاك في أمر ولاية الهند فأما العرب فكانوا يحرسون أشد الحرس على أن يعقد الرشيد البيعة بولاية العهد لحمد الأمين العربي الأبورى ، في حين أن الفرس كانوا يحرسون على أن يكون الذي على الرشيد في الخلافة عبد الله للأمنون الفارسي الأم .

وقد حار الرشيد في الأمر حيرة شديدة . وأخيراً غلب عليه النفوذ العربي فقد البيعة بولاية العهد لحمد في سنة ١٧٥ وكتبه « الأمين » فكان ذلك سبباً في أن جد الفرس في الأمر حتى اضطر إلى أن يبايع بولاية العهد لابنه عبد الله في سنة ١٨٣ على أن يلى بد الأمين وكتبه « للأمنون » ثم أوعز إلى الشراء وإلى عمه عبد الملك بن صالح أن يطلبوا إليه البيعة بولاية العهد لابنه القاسم فعملوا ففقداه في سنة ١٨٦ على أن يلى بد الأمين والأمنون وكتبه « للزمن » . قالوا ولم يمنعه من البيعة لابنه للمتصم إلا كونه أمياً وغير متعلم بخلاف آخرته للذكورين .

ثم بدا له تفوق الأمنون على الأمين فوهم بأن يقدمه عليه في ولاية العهد ، ولكنه لم يفعل وكل الذي صنع أن قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة للذكورين ، فجعل للأمنون الأقاليم الشرقية التي ينسب عليها النضر الفارسي وللأمين الأقاليم الغربية التي ينسب عليها النضر العربي . وجعل الجزيرة والقفور لابنه للزمن .

ثم لحظ الخطر الذي يهدد الأقاليم الشرقية فأوصى للأمنون بقال وسلاح كبير تقوية له وجعل إليه أسر الزمن إذا آلت إليه الخلافة ، إن شاء أمضى ضد بيعته وإن شاء قضه . وجعل الخلافة بعده لمن شاء . ولكن يترك هذا النظام حج في سنة ١٨٦ واستصحب أبنيه « الأمين » و« الأمنون » . خلا كان بمكة كتبهم حولاً ثلاثة لسلط فيها الميثاق لئلي أبنيه أن يجرى بكل منهما من أمشي عليه ، كما أخذ العهد على رجال الدولة أن يكونوا على من بدل ويغير في

بمحمده . ثم أمر فلق الهدان الأولان في جوف الكعبة توكيداً لها وتنظيماً لثأبها .
لاشك في أن ذلك النظام الذي وضعه الرشيد لأمر الخلافة من بعده لا يشرف مقدرة
السياسة كثيراً فهو متعنى خطئ الرأي وفساد التدبير . وإن الفتنة التي وقعت بعد بين
الأمين والأمن ، والتي صدعت وحدة الدولة العباسية حيناً من الزمن لتقع تبعتها على طاق
الرشيد نفسه . لقد حرص الرشيد في وضع النظام المذكور على إرضاء الأهواء المختلفة بدلاً
من أن يصطنع الحزم ويتوخى مصلحة الجماعة . وقد لحظ ذلك معاصرو الرشيد نفسه .
قال شاعر من شعراء ذلك العصر :

رأى للكب للهذب شر رأى بقسمته الخـلافة والبلاوا
رأى ما لو تعقبه جـلم لشيب من مفارقة السواد
أراد به ليقطع عن بنيه خلاصهم ويسدوا الوداد
قد غرس المداوة غير آل وأورث شمل ألقبهم بدوا
فويل للرجة عن قليل قد أهدى لها الكرب الشداد
متجري من دمائهم بحسور زواجر لا يرون لها فساد
فوزر بلائهم أبداً عليه أغيا كان ذلك أم رشادا

وعلى أثر انصراف الرشيد من حبه للذكور راع العالم الإسلامي مجاذات لا تزال
أسبابها على الرغم من كثرة ما كتب وقيل فيها مبهمة غامضة ، ذلك لإقناعه بالبرامكة في
عام ١٨٧ . لقد تعددت الروايات الواردة في تحليل هذا الحادث الحزين ولكننا كلها لا ننفي
دخلة الباحث . فالرشيد لم يصرح لمرط دهائه بسبب نكته للبرامكة ، وترك الأمر ينحدر
إلى الأجيال من بعده لتقرأ غامضاً . ومن جهة أخرى فإن البرامكة لم يرتكبوا جرماً وانحازوا
دفاعاً عليهم يمكن أن يمتدح السبب للبائس في نكبتهم . قالوا إن السبب في الفتك بالبرامكة
والمستشارم بالأموال واحتيازهم الضياع العامة ، وهو سبب غير وحيه لأن من يقدر على انتزاع
رطلينج والأرواح أقدر من باب أولى على انتزاع الأموال . وقالوا إنه الزندقة وعدم التصح

للإسلام ، وهو أمر لو صح لأهلكه الرشيد إنامة الحجة على البرامكة واستشارة الرأي العام الإسلامي عليهم . وقالوا إن السبب تشييعهم للمومنين وسحبهم في ظل الدولة إليهم وإعانتهم يحيى ابن عبد الله العلوي على الثورة بالرشيد . وهو سبب غير وجيه لأن البرامكة إنما عجزوا بالدولة الساسانية وبنوا قدوة الجدة في ظلها فإذا يحملهم على التضحية بذلك والمغامرة في أمر قد يتحقق وقد لا يتحقق ، ثم هو على فرض تحققه لن يفيلهم شيئا غير حاصل في أيديهم بالقتل . وقالوا إن زواج جعفر بن يحيى من السباة أخت الرشيد واتصاله بها سرا برغم حظر الرشيد ذلك عليهما ، وهذا السبب عندنا خرافة شعوية زيفها ابن خلدون في مقدمته . وسنعرض لما في موضع آخر من هذا البحث .

إن الذي نرجحه ، ولا سبيل في هذا للوضوح سوى الترجيح ، ونرى أنه السبب الجوهري في إقصاء الرشيد بالبرامكة إنما هو استئثارهم بالسلطان حتى كادوا يخلعون الرشيد . وقد قدمنا أن حكومة الرشيد حكومة استبدادية مدعومة بكثرة قهية اجتلبها الساسيون اجتلابا ليتمكنوا لأغصانهم . وللتبديد لا يطقن أن يشاركه إنسان في السلطان الذي يراه حقه للشروع . ولا سيما إذا كان في مثل دهاء الرشيد وشدة اعتداده بنفسه ، ولم يصبر الرشيد في مبدأ الأمر على نفوذ البرامكة إلا لصبره وقلة تجاربه . فلما صلب عوده واتمت خبره وشعر بحجته لم يعد للصبر عنده موضع ولا صانع .

وقد وجد خصوم البرامكة من العرب وعلى رأسهم الفضل بن ربيع وكاتب البرامكة إسماعيل بن صبيح ، مجال الحماية واسعا ، فقبلوا يخبون فيه ويضعون فأوهوا الرشيد بما يصح أن ننتبه السبب المباشر في إقصاءهم ، أو هو أن البرامكة على اتصال بخراسان التي انبثت منها الثورة بالأمويين ، وأن الجيش الضخم الذي حشد الفضل بن يحيى هناك لتأمين الحدود الشرقية في الظاهر إنما هو في الواقع لأمر أجيل وغرض أعظم . وأن موسى بن يحيى على اتصال بخراسان وأنه يكاتب أهلها ليسير إليهم ويخرجهم عن طاعة الخليفة . وصارت الكتب ترد على الرشيد غلا من توقيع أصحابها كالسهم السامة يرمى بها في الظلام ، وكلها تعذر الرشيد من البرامكة وتريه أنهم على وشك أن يدفعوا به في حاوية بعيدة القرار . كل ذلك آثار هواجس الرشيد ، وجده يعتقد أن الأمر يتبين وبين البرامكة هو عين

بالجدة ، وأنه أمر حياة لو موت . وإذا بلغت الحال تلك لدى قارول بكل . الويل لأولئك
والذين جزوه إسادة بإحسان وغدراً بوفاء . لقد نبهوا عنه من لا ينم ولا يرمم .

لا شيء أدل على أن الرشيد قد استكمل المعاهد والحرم والتحصين وأن نظام الحكم الذي
موصفناه قد عمل فيه عمله فصاعاً منه جباراً عنيفاً ، من سبه في استرداد سلطته والتكامل
بالبرامكة . فقد سار في الأمر بحذر شديد فالتصل بالجمهور مباشرة وجعل يعنى بما يعجبه ، من
إصلاح النظام للمال . استعان فيه بقاضية أبي يوسف ، وتوفى على الخزنة والحج في اللواكب
والفاخرة راكياً وشاعياً ، واستطاع الطبقة للفكرة من قهواء وعلاء وشراء ، وإغداق الأموال
على الناس وبخاصة في حجة التي حبها عام ١٨٦ ، وبالأخذ الشديد لنفسه مقتدياً في ذلك
بمحمد النصور . وقد تم له ما أراد فقلت مكاته في النفوس ولشدت هيبة الناس له . عند
ذلك تذكر البرامكة . ولكن في حيلة ولعتراس ، فلما عاد من الحج وكان يمكن يقال له
(المر) قريب من الأنبار أخذ أوامره في ليلة واحدة يقتل جعفر بن يحيى واحتفالاً بمنابر
البرامكة واستصفاء أموالهم . ثم إنه أمر بتفطيط جثة جعفر ونصبها على جسور بغداد الثلاث ،
ويوسط المذاب على يحيى والفضل حتى ماتا في السجن ، ونهى الشراء عن أن يرتوا البرامكة
بأويذ كروم في شجرهم ، وتوعد من يفعل منهم ذلك . وتقول للصادر القرطبية إن الرشيد
قتل البرامكة نحو ١٢٠٠ نفس ، ولكن للصادر القرطبية . وهي الأوثق لا يؤخذ منها ذلك
والمحقق أن البرامكة إنما نسكبوا في خلطانهم وأموالهم بدليل أن ذريتهم بقيت بعد هذه
الكارثة أجيالاً طويلاً .

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه إلى
بغراسان عام ١٩٣ فأمر بإزالتها وإسراقها . يقول صاحب المعرى في كتابة رواية عن بعض
مصاصري الرشيد « دخلت الديوان فخطرت في بعض تذكر البواب ، فرايت فيها أرومات
سألف دينار (١) فمن خلعة يجرى بن يحيى الخزير ، ثم دخلت بعد أيام فرايت تحت ذلك
عشرة قراريط بمن نطق وبواري لإحراق جثة جعفر ويحيى فصجبت من ذلك » .

قد شفى الرشيد نفسه بتكبة البرامكة ولكنه اشترى ذلك بالثمن العالي ، فإف
بملاضطراب الذي أحباب ديوان الإدارة العامة وعدم كفاية آل الربيع الذين ينفقوا البرامكة

كل ذلك اضطر الرشيد إلى دوام الحركة غربا وشرقا لإخلاء الثورات التي كان يبعد من قبل ياطفاه. فآثرتها إلى البراسكة ، وقد أدرك الرشيد خطأ ، ولكن بعد أن سبق السيف العذل فاشتبك به الندم وتوبخ الضير وأخذت سمته تضعضل ، وسلط عليه الأرق ؛ فإذا نام فقوم مضروب بالأحلام للفرقة . وغدا محتاجا إلى من يسانده في جوف الليل ليفتي عنه الوحشة كما أصبح محتاجا إلى من يدخل السرور على قلبه الوجل : فآخذ مضحكا اسمه ابن أبي مريم اللدني ، وصار يرتاح إلى الوعد والتزهد في الدنيا ، فإذا وعظه ابن السك أو أنشده أبو التتاية خشم قلبه وفانست دموعه . عل أن شر ما ابتلى به الرشيد بعد ذهاب البراسكة فتور العلاقة بينه وبين رعيته ، قد أصبح غروفا مرهوبا بعد أن كان مهييا محبوبا . وصاروا يشبهونه بالدمر في قلبه وغزونه . قال أبو نواس وقد سر بعد ذهاب البراسكة بدور آل الربيع :

مارعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إن دهر الم ربع هذا ليحيى غير راع فقام آل الربيع

حتى أبغضوه ، فاتهم أصبحوا يستطيلون حياته ويستبنون زوالها . قالوا إنه لما سر سنة ١٩٢ إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الصغار وسأله الصباح الطبري قال له يا صباح أما أظنك ترى أبدا أفدعاه . قال ما أظنك تدري ما أجد ، قال الصباح : لا والله . فعدل عن الطريق ، واستظل بشجرة ، وأسر خواصه بالبد فكشف عن جلته فإذا عليه عصاة حرير ، فقال هذه علة أكنها الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدي على رقيب ، فسرور رقيب للأمن ، وجبرائيل بن يحيى رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا ويحمي أغاسي ويستطيل دهرى . وإن أردت أن تعلم ذلك فالساعة أذكر بداية فيأتوني ببردقون أجبف طوف يزيد علقى . فأكرم على ذلك . فدعا له بالبقاء . ثم طلب الرشيد دابة فجاءوا بها على ما وصف ، فنظر إلى الصباح وركبها .

ولم تغل حياة الرشيد ، قد اشتدت به العلة في خرجته هذه وساء خلقه حتى إنه لما حى بأخي رافع بن الليث قتله شر قتلة وهم بأن يفعل مثل ذلك بطييه جبرائيل بن يحيى شوع لأنه أخطأ في علاجه لولا أن للوت عاجله بمدينة طرس فدفن بها ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هـ .

- ٤ -

إذا كان الرشيد لم يوفق بوجه عام في مجال السياسة الداخلية ، فإنه كان على عكس ذلك في ميدان السياسة الخارجية ، فقد أظهر فيه نشاطا ومرونة وكياسة تشهد له بالبراعة الدبلوماسية . كما يؤخذ من المصادر العربية التي تعرضت لعلاقته بالدولة البيزنطية ومن المصادر الأوربية التي تعرضت لعلاقته بشرلمان ملك الدولة الفرنجية . فقد كان في العالم الإسلامي والعالم المسيحي إذ ذاك أربع دول كبيرة : اثنتان إسلاميتان متعادلتان هما الدولة العباسية والدولة الأموية بالأندلس واثنتان مسيحيتان متعادلتان كذلك هما الدولة البيزنطية والدولة الفرنجية وكانت الحرب متصلة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ؛ من أجل ذلك نجد الرشيد يحسن التنوير الشامية والجزيرة ويتولى بضغ غزو الروم ويفرض الجزية على ملكتهم لإرضى وملكهم فتور الذي جاء بعدهما . وكذلك كانت العلاقة مقطوعة في القرب بين شرلمان وأموي الأندلس . وقد أسفرت هذه الحال عن تقارب بين بيزنطة والأندلس وتعارب مثله بين الدولة العباسية والدولة الفرنجية . ولكن لم يتم اتفاق بين بيزنطة والأندلس ، في حين أن الرشيد وشرلمان تبادلوا السفارة والمدية ، وأبرم بينهما اتفاق لا ندرى مضمونه بالذقة . غير أن قرآن الأحوال يدل على أن الرشيد تمهد بحماية حجاج أورد بالبرية من عدوان البيزنطيين عليهم بيت للقدس ، وكانوا يخالفون في مذهبهم الديني أهل أورد بالبرية ، كما عهد شرلمان لألمين بيزنطة على الرشيد ، وأن ينهر على الأندلس ، لما غلب عليه منها نوى حبه باسم الرشيد . قالوا : ومن أجل ذلك بحث إليه الرشيد بخطة رسمية وعلم عباسي .

وقد اتفق الرشيد وشرلمان كلاهما بهذا الاتفاق ، فأوغل الرشيد في أرض الروم ، كما أوغل شرلمان في شمال الأندلس وشرقا مع إقراره المال للسلين على ما غلب عليه . ويذهب للزوخ الإنجليزي بكل إلى أن الرشيد أصبح يتغلب على فتور البيزنطي بالحرب ، ويتغلب على شرلمان بالسياسة قد حاز من سعة لذلك ما غرق ملك الإسكندر المقدوني .

ومع ذلك لم تكن السياسة بمنأى عن المزاوج الجال التي ظهرت فيه براعة الرشيد ومقدرة الإنشائية . إنما سطعت الفرواح النيرة من نفس الرشيد في مجال العلم والتميز ، وهو في ذلك يشارك غير واحد من عظام السبقين للفتن بن أمثال الإسكندر وفردريك الأكبر وبابلون ولويس الرابع عشر وكبار سلاطين آل عثمان . وكان الرشيد نفسه من أوجده رجال عصره علماء وفقهاء وأدباء . كان لا ينفى في تحصيل العلم حتى بعد أن استخلف . يقول السيوطي : إن للأمين أخذ الحديث عن أبيه ، ويقول رواية عن القاضي الفاضل : « ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا الرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والأمنون لسماع اللوطا على مالك رحمه الله . قال وكان أصل اللوطا بسماع الرشيد في خزانة للصيرين ، قال ثم رحل بسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا أعلم ثالث لهذا » . والرشيد شعر رقيق وصل إلينا بعضه . فمن ذلك قوله يرثي جارية له اسمها هيلانة :

فارت عيشي حين فارتها فبا أهلى كيفما كانا
كانت هي الدنيا فلما نوت في قبرها فارت دنيانا
قد كثر الناس ولكنى لست أرى بسلك إنسانا

على أن غير الرشيد في هذا المجال ليس بآثاره الشخصية ، ولكن بإقباله على العلماء والفتهاء والشعراء والموسيقين واجتذابه إليهم بما كان يرفدهم به من الطائيا الجسام ليكنونوا حالة هو بدرها ، وعقدًا هو واسطته . وقد خلت بغداد في عهد بأقطاب العلم والأدب والفن ، حتى كان الرشيد لا يعدم على يابه واحداً أوجهة منهم ليلا ونهاراً . من هؤلاء المسمى وأبو عبيدة الرازيان للفتويان ، والكسائي، النحوي ، والواقدي المؤرخ ، وأبو يوسف الفقيه وسروان بن أبي حفصة ، ومسلم بن الوليد ، وأبو المتغية وأبو فراس والعباس بن الأحنف وكلهم من غفول الشعراء . وقد تانت النساء الرجال في ذلك الميدان فكثرت الجوارى الأديبات وكان السيدة زبيدة مائة جارية كلهن مجتهدات حفظ القرآن :

وكان الرشيد يتقصد لكل طبقة من هؤلاء مجلساً خاصاً ، فقلما جلس يجسط معهم فيه ولا يأنف أن يتلم فيه منهم ، ولشراء مجلس يسمع فيه أشعارهم ويتقدها ويجيزم عليها بالمواثيق النية . وللفننين مجلس يسمع فيه الرشيد فتادهم من وراء حجاب ، فإذا سرَّ بما يسمع وطرب أمر فرفت الستارة المضروبة بينه وبينهم واستأنس به أهل المجلس : ومن كبر مفتي ذلك العصر إبراهيم وإسحق الموصليان وابن جامع .

وكان فبرامكة ولألا، الربيع مجالس من هذا القبيل . قال للسعدي : كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل . فقال لم يحيى وقد اجتمعوا عنده « قد أكرمتم الكلام في الكون والظهور ، والقدم والحديث ، والإثبات والنفي ، والحركة والسكون ، واللماة واللبيانة ، والوجود والعدم ، والجر والطرفة ، والأجسام والأعراض ، والتبديل والتحرير ، والسكية والسكينية ، والصفات والإمامة أنص هي أم اختيار ، وسائر ما يورد من الكلام في الأصول والقروع ؛ قدولوا الآن في المشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سئح له فيه وخطرياله . » قال :
كان لهذه المجالس العلمية أثر بعيد في تكوين اللغة العربية وتهذيبها وبث النهضة العلمية الإسلامية ، وقد اتقنى للأمنون بالرشيد في عهدها . ثم سرت عادة عهدها إلى الأندلس فكانت من دواعي رقة الأدب الأندلسي وعذوبته .

- ٦ -

تلك شخصية الرشيد كما يعرفها التاريخ أركا تصوروا لنا الصفحات الكثيرة التي أفردها لتاريخه وأخباره كبار للزوخين وأصحاب التراجم كالطبرى والسعدي وأبى الفرج الأصفهاني . ففى في جلالتها شخصية حاكم مستبد مستنير ، فيه ضعف الاستبداد وقوة الإنسانية . فهو حريص على الأبهة والنظمة ، قليل الاتزان في تصرفاته ، إن رضى بلغ غاية رضا وإن سخط كان طائش السيف ، مفرط العقوبة ، لا يعرف الضو عند القدرة ؛ حقود ، غير قادر على الحب الصحيح والولاء الصادق ، ولكنه مع ذلك سياسى ماهر قد ترك دولته وحى أقوى وأغنى ذول الأرض ؛ ثم هو فوق ذلك كله من أكثر ملوك الأرض حبا للعلم والفن والأدب وأشدهم تشجيعاً لعلماء والأدباء والفنانين .

فك هو الرشيد في التاريخ ، أما الرشيد في القصص فإتسان آخر ، هناك طائفة من اللوح والنوادر والقصص منشورة في بعض كتب التاريخ والأدب ، وفي كتاب « أعلام الناس » للأندلسي وفي كتاب (ألف ليلة وليلة) وهي في جللتها تصور لنا الرشيد رجلا صاحب رقة وتهاون ؛ ضيف النخوة والفيرة على عرضه ، يشتهي مجارمه وبغية قاضيه أبو يوسف فيما يقبله بيته ؛ قد اصططح أبوا ناس ، وصبر على عبته وجؤنه وأذن له في أن يدخل على حرمة وشنف بجعفر البرمكي حتى أصبح لا يطيق فراقه وحتى كان يجلس معه في قباء يضمها مناه ، وحتى عقد له على أخته العباسية التي كان لا يطيق فراقها حتى أيضا جد أن يحظر عليهما أن يتناسا ! الحق أن هذه الأخبار كلها مفتقة موضوعة وأنها أثر من آثار الشعبية التي سادت لسط من قدر الخليفة الذي أوقع بالبرامكة ومن أقدار رجاله النابيين ؛ وإلا فالأبال ديوان أبي نواس نفسه وما بال كتاب الأغاني لا يكادان يشتملان على خبر واحد يفيد انقطاع أبي نواس إلى الرشيد وجراجه عليه بمثل ماترويه للوح والنوادر الآفة الذكر ؟ يقول ابن منظور صاحب لسان العرب في كتابه « أخبار أبي نواس » وقال بعض للزجيين من يحيط علما بأحوال أبي نواس : إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ؛ وأن أبان نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين « ولا شك أن في هذه الرواية مبالغة كما يرى من يتصفح شعر أبي نواس . قد مدح أبو نواس الرشيد واعتز به ، ورثاه .

وهناك حكايات أخرى ولودة في (ألف ليلة وليلة) تصور لنا الرشيد في صورة ثالثة . تصوره أبا لرعيته رجلا محبا لفنون والآداب ، يستدعي الرواة والشراء فيقصون عليه طرائف الأخبار وينشدونه روائع الأشعار فيجيزم بالجوائز السنية ؛ كما تصوره حاكما عادلا قويا مبسوطا السلطان على الإنس والجن ، ساهما على مصلحة رعيته يتخفى هو وجعفر البرمكي ومسروور السيف في زى تجار غرباء وينزلون إلى شوارع بغداد وأحيائها يتعرفون أحوال الناس وعمال الحكومة ، فيطلبون على أمور مجيبة وشئون غريبة ، فإذا كان اللند واستوى الخليفة في مجله أرسل في طلب من يكون قد أثار في الليلة للامنية عجة أو غضبه فيعاقب اللند ويثيب المحسن ، ويزوج اللعاشقين ، ويصلح بين الخصامين .

هذه الحكايات كتب أغلبها في بغداد ومصر في المصور الإسلامية للآخرة من عصر الرشيد أى إبان اضطراب الدولة الإسلامية وانحطاطها . فكان من القصاص أن يشيدوا بالنصر للإسلامي القوي عصر النبوة النبوية الأول . فصوروه عصر حكومة أبوية قوية عادلة ، وعصر سخرية شخصية يمد فيه كل من الصالح والطالح حاجته وأربه . وقد اختاروا الرشيد دعامة تقصصهم دون غيره من الخلفاء لأن الرشيد قد أصبح بمجده وسأوته أشهر الخلفاء على الإطلاق . فتنسب له هنا شخصية عصر أكرمها هي شخصية إنسان .

وما ندرج إليه نفس للزخ في هذا المقام أن شخصية الرشيد الذى تصور الحكايات للذكورة ، لا تتعارض في جوهرها مع الناحية الطيبة من حياة الرشيد التاريخي ، ناحية الجود والكرم وحب العلم والتميز . هنا فقط نلتقي شخصية الرشيد التاريخية بشخصية القصصية فنخلع الثانية على الأولى مقداراً غير قليل مما كتب لها من الرواء والروعة والخلود .

أم المحسنين

السيدة زينة *

هي زينة بنت جعفر بن أبي جعفر للنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . وإسمها في الأصل « أمة العزيز » ، وكثيراً ما تكتفى بأم جعفر ، وإنما كتبت بزينة لأن جدّها للنصور كان يرقصها وهي صغيرة ويقول : يا زينة يا زينة ! وذلك لسنّها وبشاشتها ، فلزمها هذا القلق وغلب عليها .

ولدت سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت في مدينة النصور نشأة الأميرات العباسيات في ذلك العصر ، فتتقت أحسن ثقافة ، وأدبت أكل تأديب ؛ هذا إلى عقل راجح ، ودكاء متوقد ، وإرادة قوية ؛ ومن أجل هذه الظلال كلها اختارها الخليفة المهدي زوجاً لابنه هارون ، فأعرس بها في عام ١٦٥ هـ . ومن ذلك الوقت إلى أن توفيت في سنة ٢١٦ هـ ، كانت السيدة زينة ألمع شخصية نسوية في العالم الإسلامي كله ؛ ولعلها من حيث الشهرة والسكينة التاريخية لا تقل عن زوجها الرشيد . وما أمر سخرية الأنصار بهذا المعامل الجبار الذي قارع القيامة ، وأذل الجبابرة ، عند ما تضع يداها في النفوذ والبطان والشهرة في الحياة وبعد الموت امرأة هي زوجة السيدة زينة . وقد شهدت زينة في مدى خمسين عاماً من الأحداث الجسام ما شهدت ، وذوقت من إقبال البسود وإهانة ما ذاقته ؛ ومع ذلك بقيت هي هي ، سيدة جليلة ، وملكة عظيمة .

لعل أول مشكلة واجهتها زينة بعد زواجها من الرشيد ، هي نفس المشكلة التي تواجهها كل امرأة تكون في مثل حالها ، وعند مثل زوجها . لقد كانت تصور بغداد عامة

والرشيد خاصة عامرة بالجمال الأشوى الجلوب من كافة أقطار العالم الإسلامى للنوع الأجناس
والأنثوان واللغات ؛ فقيها ما شأيت الدين من نساء جميلات لاحصر لهن ، من بين عربيات ،
وقارسيات ، وروميات ، ومنريات ، وصقلييات ، حبش من كلهن ملك يمين الخليفة نفسه ،
وهو بعد شاب فى مية العبا وعشوان الشباب ، فوق ما كان فيه من تجر وزوع إلى
الاستبداد بكل شيء فى سلطانه ؛ فكانت زيدة تحشى بطيبة الحال أن تغلبها على قلب
الرشيد من عسلها تكون من هؤلاء النساء أربع منها جالا ، وأكثرا خلابة ، وأشد ذكاء ؛
اولسكنها مع ذلك عرفت كيف تروض زوجها الشاب المرح البوروب ، وكيف تحمل نفسها
من قلبه بالحل الأول . كل ذلك فى رفق ، ولطف ، وكيلة ، وحسن تأت للأمر ، وبصر
تام بمدخلها ، ومخارجها . روى صاحب « الأغاني » أنه كانت ليحيى بن خالد البرمكى
جارية فائقة الحسن بارعة الأدب والفناء تسمى ذنانير ، وكان الرشيد يكثر من السير إلى دار
يحيى ليسمعا ، حتى أنها واشتد إعجابها بها . وعلت زيدة بالتغير فشكت إلى عمومتها ،
فصاروا جميعا إليه فتابوه ؛ فقال : ما لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أرى
فى فتاتها ، لاسمها فان استحققت أن يؤلف غناؤها ، وإلا فقولوا ما شئتم ؛ وعلمهم إلى دار
يحيى حتى سمعوا عنده ، فصدروه وعادوا إلى السيدة زيدة فأشاروا عليها ألا تلج فى الأمر ،
فقبلت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جوار منهن أمهات أولاده المأمون وللمعصم وصالح .
ومن هذا القبيل ما يروى من أن الرشيد غضب عليها يوما ، ثم رضاعها ، فأبى أن
يرضى عنه ، فأارق ليته ؛ ثم قال : انرشوا لى على دجة اقصاوا ، فقد ينظر إلى الماء وقد
لزالى فيه زيادة عجبية ، ففسح من بيد مننيا يفتى بهذه الأبيات :

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له من مقلق غروب
وما ذاك إلا حين خسرت أنه يمر بواد أنت منبته قريب
يكون أجابا ماؤه فإذا اتبعى إليكم تلقى طيكم فيطيب
فيا ساكنى شرق دجة كلبيكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

فأل الرشيد عن الناحية التى فيها الفناء ، فقيل دار ابن المنيب ، فبحث إليه :
أن ابنت بالنقى ، فإذا هو الزبير بن دحمان ، فسأله عن الشعر ، فقال : هو للمباني بن

الأحنف ، فأحضر واستفشد فأنشدناه . ونجل الزبير يتيه ، والبلى يشده حتى أصبح الصباح ؛ وقام فدخل إلى السيدة زينة ، فسألت عن سبب دخوله فرفقه ، فوجهت إلى الشاعر بألف دينار ، وإلى اللقي بمثلها . ولا شك أن الأمر كله كان مدبراً ، وأن زينة كانت صاحبة هذا التدبير اللطيف .



بهذه اللهارة وتلك الباقية عرفت زينة كيف تروض ملكها الشاب وتعلمه من جاحه وكيف تضمن ولاء لها وإخلاصه لجنبها . ولو أنها تملكها الفيرة الطائفة وساورها الجزع بمن كن يغالها على قلب الرشيد ، فأكبر الظن أنها كانت هي التي تخرج من اللبدان مهزومة مغلوبة على أمرها . على أن زينة لم نشأ أن تكون منزلتها من قلب زوجها مؤسفة على ما أوتيت من جمال وحسب ونسب محب ، بل أحبت أن تكون عديته في الثقافة والفن والأدب ؛ فإذا كان الرشيد تحببه بلاغة العبارة فليكن بليغة قادرة على أن تذلل الكتب التي ترفع إليها توقيعات حسان . روى الجاحظ قال : « خبرني جعفر بن سديد قال : ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى ، فقال قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع المعاني ، وناهيك بجعفر بن يحيى وعمرو بن مسعدة ، فالأول ممن يضرب بهم القتل في البلاغة والثاني من أبلغ كتاب للأمن . وإذا كان الرشيد شاعراً بطبعه ، أو على أقل تقدير عالماً بالشعر عارفاً بحمده وردئه ، فليكن هي كذالك ، ولتأذن لكبار شعراء العصر أمثال أبي التمايمية ونصيب وسلم الخراس وأشجع السلي بالإنشاد في حضرتها ، ولتتقد شعراً ندي خبير عارف بالشعر . ولتجز الحسن منهم ، ولتدل للقصر على موضع تقصيره . وفي كتاب « الأغاني » أخبار كثيرة تدل على قبول هؤلاء الشعراء لتقدعها وتروم على حكمها .

وإذا كان الرشيد مولماً بجماع اللوسيق والفناء ، شديد الإقبال على كبار اللشغلين بهذين الفنَّين الجليلين فليقتد به زينة في ذلك . والمحق أنها بلغ من عنايتها بالموسيق والفناء أن أنشأت في قصورها ما يشبه أن يكون مهلاً موسيقياً ؛ فكان عندها مئات الجوارى يأخذن الصنعة عن أكبر شيوخها أمثال إسحق اللوصلي ، وعلوية ، ومخارق ، وأضرابهم . وكانت

لذا بلغة أن متياً مشهوراً وضع لنا جديداً أمرت جزايرها فأخذته عنه . وقد دفت ذلك سريرة ثلاثمائة ألف درهم ثمكاً ليد أسود يجيد القضاء . وكثيراً ما كانت تعرض بصاعتها في هذا المجال على زوجها في مخلات مجيدة ترتبها وتسيقها فيستجب بها أياً إيجاب .



وإذا قد أصبحت السيدة زبيدة ملكة على الرشيد مالكة لزمانه ، تصرفه كيفما تشاءت فيقتادها كل اغياد . قد غزت قلبه من جميع أطواره ، والويل لرجل على مصالح أمة إذا غزت المرأة قلبه وسلكت عليه زمام أمره . إنها لا تثبت أن تجده مطيعاً إلى السيطرة على مصالح الأمة نفسها ، توجهها على حسب أهوائها ووفق أغراضها ، لا على وفق ما تقتضيه المصلحة العامة نفسها . والسياسة من الأمور التي تستهوي أفئدة النساء الجيلات للوعود والظهورات ، ومن لا ينجس من التورط في مآزها إذا ما وجدن السبيل إلى ذلك سعة ميسرة . وسهاوين في مجال السياسة ، كسهاوين في مجال الحب ، مضنيات فائلات ... وقد درأى فراس حيث يقول :

ولا تملك الحسنة قلبي كله وإن ملكها روفة وشباب

وقد وجدت زبيدة سبيل الفرض لسياسة الدولة بمهدة ميسرة ، فركبتها غير هتابة ولا مترددة ، وقد تعرضت لأدق أمور هذه السياسة وأشدّها عتقراً ؛ وشئى بذلك ولاية العهد أولاً والأخذ بتأصر الحزب العربي ثانياً .

قد رزقت زبيدة من زوجها ولدها محمداً الأمين ، ومع أنه لم يكن أكبر أبناء الرشيد ولا أعجبهم ، فإن أمه كانت خريصة على أن يكون الخليفة بدلاً به . وقد أخذت تسعى إلى ذلك سعيًا حثيثاً ؛ فعلى أنها تدفع الشعراء إلى مدح عمده والإشادة بذكره ؛ وأتت تستغل ساعاتها على الرشيد لمصلحة ولدها . وما زالت كذلك لا تفر لها مهة ، حتى نزل الرشيد على مشيئتها وعقد البيعة ولاية العهد لمحمد ، على أن تكرر الخلافة لأخيه عبد الله للأمن من بعده . وقسم الدولة بينهما ، وكتب بذلك وثائق أودعها جوف الكعبة نوكتاً لما فيها من عهد أخذت على الآخرين وعلى رجال الدولة أجمعين .

على أن الأمين هاشمي الأيوبي ، وهو بذلك يمثل الحزب العربي في الدولة العباسية

قلت العهد . أما أخوه للأمنون هارسي الأم ، وهو بذلك يمثل خروجه من قعرس الذين أقاموا الدولة الباسية ، وكانوا للمرغين الحقيقيين لأمرها . فبينى أن يجد من مؤذم ، وأن يرغم من شأن الحرب ، ليكون خليفة للمستقبل ضحية حرية قوية يستند إليها ويشيد بها أزره . وهنا نجد زينة تصل على تنمية المنصر القارسى عن إدارة الدولة العليا ، بادة في ذلك بالبرامكة بطيعة الحال . ويظهر أنها كانت لا تريد أكثر من ذلك ، ولكن الرشيد بالغ في فهم ما أوحى به إليه ، وذهب في الأمر إلى أبعد من الغاية التي كانت تري إليها زينة وبنو هاشم ، فكتب للبرامكة كتبهم للشهيرة في عام ١٨٧ . والنتيجة في ذلك واقعة لا على السيدة زينة ، ولكن على الرشيد ، فهو الذي لم يحسن تقدير الأمور ، ولا وضعها في مواضعها .



بلست السيدة زينة ذروة مجدها في أخريات عهد الرشيد . فلما توفي سنة ١٩٣ بكىه أمر بقاء ، فلقد كان زوجها ومصدر عزها وسلطانها ، ولكن عزها عن قنده أن أصبح ولدها الأمين الخليفة من بعده ، فاجتدت أسباب سلطانها أياما آخر ، كانت قصارا لسوء حظها .

قد ذب ديب الخلاف بين الأمين وأخيه الأمنون ، وثقام الشر بينهما . وقد حرصت زينة على أن يصنو الجوين الآخرين ، ولكن للقادر جرت نبير ذلك ، فانتصر للأمنون ، وقتل الأمين على شر حال ، فكان رزه زينة قادما وخطبها جليلا ، إلا أنها تملست وتجلدت وجعلت تروض نفسها على أن تنتظر إلى الأمور نظرا هادئا ، فهل للأمنون إلا امتثالها ، إن طامه أن يكون ابنها حقا ، فلتنزله من نفسها هذه اللزقة ، ولتسامله على هذا الاعتبار . ويتقبل للأمنون من خراسان إلى بغداد ، ويرف لها حقها أول الأمر ، ويضهدا بيرد وصلته ، ثم لا تلبث أن تترف في وجهه الجفوة والنفور منها . فتلطفت للأسر على عاداتها القديمة في معالجة الخلاف الذي كان ينشأ بينها وبين الرشيد ، فطلب إلى أبي التماجية الشاعر أن يقول شعرا على لسانها فيه عتاب للأمنون على جفائه لها ، ويضع الشاعر هذه الأبيات للملومة تجمعا وتوجها :

الإن ريب الدهر يدنى ويبعد : ويؤنس بالآلاف طورا ، ويبعد
أصابت لريب الدهر مقيدي يدي فقلت للأفسار والله أحد
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يد : قد بقيت والحمد لله على يد
إذا بقي للآمون لي فرسيد لي ولي جنير لم يفتقد وعبد

تم أمرت بخارقا للفق أن يبقى للآمون بهذه الآيات ، فقال للآمون عن الخير فخره ،
بفكي ورق لها ، وقام من وقته ودخل إليها ، فأكب عليها يقبل يديها ، وقال لها : يا أمه !
ما جفوتك تصدا ، ولكن شئت منك بما لا يمكن إفضاله . هالك : يا أمير المؤمنين إذا
حسن رأيك ، لم يوحى شئك . وأنتم يومه عندها .

ومها يكن من تطف للآمون لها ، قد أدركت زينة أن قد انقضت زمانها ، ودالت
دولتها ، ولم تعد تشكر إلا في كيف تخرج من الحياة العامة سالمة موفورة الكرامة . وسرعان
ما صنعت لها فرصة ذلك . فندما بنى للآمون بيوران بنت الحسن بن سهل ترى السيدة
زينة تشترك في العرس ، وتفق في ذلك أموالا ضخمة ، ولكنها في الوقت نفسه نوعا إلى
العرس أن تآذن لها للآمون في الخروج للحج ، فلم يتردد للآمون في إجابة هذا الطلب .



من الناس من إذا تشكر لم الزمان خضعوا واستكانوا وعبرهم اليأس من كل شيء في
الدنيا ، فيصبحون أمواتا وهم أحياء ؛ ومنهم من يحاول أن يثار لنفسه من جده المارقيش
لنفسه ونفسه فقط ، فيصبح بذلك أنانيا أنرا مستهلكا غير منتج . أما النفوس القوية الكبيرة
فعلى التي ترى فرص العمل الصالح غير محدودة ؛ فهم أشبه بالسيل الدافع إذا اعترضته عقبة
استدار حولها ومضى في طريقه . من هذه النفوس الكبيرة نفس السيدة زينة ، فإنها لما
أدركت أن حياة الملك والسلطان قد آذنت بالزوال أو زالت بالصل ، توجهت نحو عمل الخير
فانفتحت أمامها آفاق لسل الخير لا حد لها . ولقد اندفعت في اتجاهها الجديد بنفس
الحمية التي كانت تندفع بها في صدر حياتها نحو أبهة الملك ومجد الدنيا ؛ فهجرت السياسة
جائنا ، وكذلك تركت حياة الفن والأدب الذين لم تعد ظروفها الجديدة مواتية لها ، واستبدلت
بكل ذلك صنع البر والبرور ، وقد تصدت أن تكون في برها ملكة مسلمة حقا . هؤلاء

الجوارى للفتيات أصبحن يرتدن القرآن آفاه الليل وأطراف النهار ، حتى قد كان يسمع من قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن . وهذا على حدود الدولة الإسلامية غزاة مرابطون قد دفاع عن الدولة بمجهم وأرواحهم ، فلفظه عنهم ولتنتشى . لم الربط والحصون يقيمون فيها . من ذلك رباط بدخشان ، أنشأه على حدود بلاد الترك في آسيا الوسطى ، وأنشأت عنده حصناً محيياً ، يقول ياقوت : إن الناس لم يروا مثله . ثم هاجم أولاً حجاج بيت الله الحرام يقعون أعظم للشاق في اجتيازهم بلاد العرب ، فلتنتشى . على حافى هذا الطريق الآبار المطوية والبرك المطوية التي تخزن فيها المياه ليستقى منها الحجاج . وقد حجت السيدة زبيدة وشهدت موقع مكة بين جبال سود عاليات غاريات من اللآء والشب ، وعانيت مايلقاه الحجاج من العنت في الحصول على اللآء ، حتى إن الراوية لتباع في موسم الحج بدينار ذهباً ، فرأت السيدة أن من أقرب القرب إلى الله أن تبسر وصول لآء من الحل إلى الحرم ، وعلت أن بأرض الحل حيناً تنبع من جبل شافى يقال له طاد يبعد عن مكة بنحو ثلاثين ميلاً . فأمرت السيدة للهندسين بقب الجبال وإيصال مياه هذه العين إلى مكة ، فتم ذلك ؛ وأنفقت على عمل هذه العين مايزيد على سبعة آلاف دينار ذهباً ، وهو عمل هندسى عظيم هائل كما يصفه للزورخون . ومن طريق ما يتصل بذلك من الأخبار أنه لما تم عمل العين اجتمع المبشرون والعمال لديها ، وأخرجوا دقارهم لإخراج حساب ما صرفوه ، وكانت في قصر عال مشرف على دجلة ، فأخذت الدقار منهم وورثتها في النهر وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب . فمن بقى عنده شيء من اللآء فهو له ، ومن بقى له شيء عندنا أعطيناه ، وألبسهم الخلع والتشريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين .

هذه العين هي عين زبيدة التي لا تزال تعرف بهذا الاسم ، والتي تستقى منها جوع الحجاج حتى يومنا هذا . لقد ذهب ملك السيدة زبيدة ، وذهب حبسها ونسبها وجمالها ومجدها الذي يرى . أما مبرتها العظمى فباقية على وجه الدهر يذكرها بها الذاكرون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

بين هرون الرشيد وشارلمان *

رجلا العالم في آخرات القرن الثامن والقرن التاسع — كيف حدثت السفارة بينهما — اختلاف اللوزخين في ملات الرشيد وشارلمان — الاعتبار للمعنى الإسلامي لهذه العلاقات .

ليس من شك في أن هرون الرشيد وشارل الكبير هما رجلا العالم في آخرات القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع . الرشيد يمثل الشرق بعديته للزدهرة أيامه وعظمت التي بلغت أوجها ، وشارل الكبير ، أو شارلمان كما دوج للزوخون على تسميته ، يمثل الغرب الآخذ إذ ذاك في الاستقرار على أثر تزوج القبائل الجرمانية من مجالنها في أوروبا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية النثرية ، والآخذ بتلك الأسباب التي جعلت منه في النهاية باعث دول أوروبا الوسطى والنثرية الحديثة بأوضاعها للسياسة والاجتماعية والثقافية للمروقة .

وليس من شك في أن كلا من الماهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير . قد كانت بغداد متجعج السباح والتجار الوافدين إليها من مختلف الأقطار ، وكان لا يخلو الأمر من أن يمر على لسان هؤلاء الوافدين في أسواقها وأنديتها وبلادها ذكر العامل الفترنجي الكبير . وكانت مدينة آخن هي كذلك مقصد السباح والتجار واللاجئين السياسيين الواردين من الشرق ومن قسطنطينية ورومية والأندلس فكان لا يخلو الأمر من أن يتحدث هؤلاء وهم باصمة الدولة الفترنجية عن الحروب الناشئة بين يزنطة والباسيين وعن أخبار الأمويين للثقلين على الجزيرة الإسبانية ، وعن النصر للزور الذي أحرزه الرشيد على الجيوش البيزنطية في هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك كان من شأنه أن ينقل إلى كل من الماهلين عن الآخر صورة مبهمه غامضة ،

ولكن ترى هل كان الأمر مقصوراً على مجرد السماع أم هل تعدله إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما كما ينتظر أن تكون الحال بين روجلين توزعا بينهما أسراً للشرق والترب ليهوداً ؟

أما المصادر البرية فتسكت عن ذكر أية علاقة بين الرشيد وشرلمان سكوتاً مطلقاً . في حين أن المصادر الفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما وتبدي القول في ذلك وتعيد ، فنارجح للملكة الفرنجية *Annales Regni Francorum* وصيرة الإمبراطور شرلمان *Vita Caroli Magni Imperatoris* وللنظومة للمروفة *Poeta Saxo* كلها تروى نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلمان والرشيد ، وكان شرلمان هو البلدي . في كل منها بالاستفسار ، ولم يزد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلاً .

• • •

وكانت السفارات طوية الأمد لبد ما بين للشرق والترب وصعوبة الاشتغال بينهما في ذلك الزمان ؛ فالسفارة الأولى استغرقت ما بين عامي ٧٩٧ و ٨٠١ ، وذلك أن شرلمان يبعث في أواخر عام ٧٩٧ وفداً مؤلفاً من سفيرين فرنجيين يقال لأحدهما سيجستد وللآخر لئيفرود ومعباً ترجان يهودي يجيد العربية اسمه إسحق ، وبعث شرلمان إلى الرشيد على لسان الوفد يلتبس أمورا يتطلب على الظن أنها ثلاثة :

(١) أن يعيد الرشيد إلى شرلمان بالقيام على الصالح العباسية فيما يتطلب عليه شرلمان من أرض الأندلس ، وأن يشد شرلمان أزر الحروب القائمة بالدعوة العباسية في تلك البلاد التي اقتطعها بنو أمية عن ملك بني العباس .

(٢) أن ينقذ بين المعادين حلف وتعاون من شأنه أن يطلق يد شرلمان في ملك بني أمية بالأندلس ويعطى يد الرشيد في ملك الدولة البيزنطية بالشرق .

(٣) أن يسهل الرشيد لزوار بيت القدس وحجابه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحجه ، وأن يفيهم من القيود والتكاليف التي وضعها الرشيد

إذا ذلك على أهل القبة ، وأن يحى أولئك الزوار والحجاج من عنوان الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

وتقول المصادر القبرجية المتقدمة الذكر : إن الوفد عاد من بتداد يحمل موافقة الرشيد على ما طلب شرلمان ، وأن سبستد وتشفرد توفيا أثناء العودة ، فعاد اليهودى وحده . على أن الرشيد لم يكتف بصرف وفد شرلمان مكرما بل رد على السفارة بسفارة مثلها ، فأوفد إلى شرلمان سفيرين أحدهما إبراهيم بن الأغلب الذى صار إليه أمر إفريقية . وبث معها إلى شرلمان هدية تليق بمقام المهدي والمهدي إليه . فيها عطور ونحف شرقية نفيسة وفيها ساعة مائية دقيقة وفيل عظيم الخلق يكنى بأبى العباس . وتقول المصادر القبرجية إن بطرك بيت المقدس أوفد فى نفس الوقت إلى شرلمان راجعا يحمل إليه علما ومفتاح القبر المقدس ومفاتيح مدينة أورشليم نفسها ، واعتبرت المصادر ذلك بمنزلة نقل السلطة على بيت المقدس وحمايته إلى الحاكم القبرجي .

أما السفارة الثانية فابتدأت عقب انتهاء السفارة الأولى ، فقد أوفد شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٢ (١٨٦ هـ) وفداً كان من بين أعضائه رجل اسمه راد برت ، ولا نعلم بالذقة الفرض من إغاث هذا الوفد ، ولكننا نعلم أن راد برت المذكور توفى أثناء عردة الوفد إلى مدينة آخن ، وأن الوفد بلغ هذه المصحة عام ٨٠٦ هـ ، وأن الرشيد قابل هذه السفارة بسفارة مثلها بأن أوفد رسولا تسميه المصادر عبد الله ووجه معه إلى شرلمان بخمسة نفيسة من التصب وبخيمة فاخرة الصنع . ويقال إن الخليفة المذكورة هى التى أدرج فيها بعد جثمان القديس كوثبرت للدفون فى كاتدرائية دونهم ، وأنها لا تزال موجودة ، وأنها قد طرزت عليها صور سمك شرقية كما طرزت على حاشيتها بالخط السكوفى الجميل عبارة « لا إله إلا الله » .

وتذكر المصادر القبرجية سفارة ثالثة بث بها شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٧ ، ولكن الرشيد لم يبعش حتى يرد عليها بسفارة من قبله فقد توفى بعد ذلك بسنتين ، فتولى الرد عليها ابنه المأمون عندما استتب له أمر الخلافة وذلك حوالى عام ٨١٢ .

وتقد أحصى المؤرخ الروسى يارتولد ما تبق حتى يومنا من التحف والمدايا التى وجه بها الرشيد إلى صديقه شرلمان فإذا هى تشتمل على الأشياء الآتية : بوق من العاج محفوظ

في مدينة آخن ، وسيف محفوظ بمدينة وانه ، وصينية من الذهب بحلة بقطع الزجاج المختلفة الألوان وعليها صورة بلسرو الأول مصنوعة من البلور . وهذه الصينية محفوظة في دير هنت دينس ، وقطع من قطع شطرنج شرق محفوظة في الدير المذكور ، وأبريق من الذهب محفوظ في دير ككتون فليس ، وثمان شوكلات من الناج الشوكي الذي يقال إنهم ألبسوه رأس السيد المسيح عند صلبه .

هذه خلاصة ما تزعمه المصادر الترمجية عن العلاقات السياسية والوردية بين الرشيد وشيرمان . وقد اختلف للترخون الأوربيون المحدثون من أوائل القرن التاسع عشر حتى وقتنا هذا في شأن هذه الرواية اختلافا شديداً ، فمن مصدق لها ومكذب . فيوكيل وبارتولد أميل إلى تكذيبها إلا في القليل مما أنت به . وريبنو وبرهيه وبكر يصدقونها وإن اختلفوا في تأويلها . ولكل من الفريقين حجج يذلل بها في الدفاع عن رأيه . وأم ما يحتاج به الفريق الأول سكوت المصادر العربية للطلق من ذكر أي شيء يحصل بهذه العلاقات . ويقع هذا الفريق إلى أن للدنيا التي يقال إن الرشيد بعث بها إلى شيرمان إنما انضمتها لليهودي إسحق ، وإن من السهل أن ينزل الرشيد عن شيء من حقوقه السياسية لشيرمان . وأم ما يحتاج به الفريق الثاني أنجلم الرواية المذكورة مع الأحوال الدولية العامة في ختام القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع . ويلاحظ بعضهم في هذه العلاقة النهاية التاريخية للعلاقة فرنسا بالشرق الأدنى ، تلك العلاقة التي تمت وتطورت حتى انتهت بالاحتلال الفرنسي على سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وعن على وجه القسوم نرى رأى الفريق الثاني الذي يستند بالرواية الترمجية ، وزعمها تزويج علاقة سياسية نشأت فعلا بين الدولتين السياسية والتاريخية . ولا عبرة بسكوت المصادر العربية ، فالمصادر العربية تكاد تهمل ذكر علاقات الدولة الإسلامية الخارجية إجمالا تاما . وليس يصح في مقام التبدليل التاريخي أن يرفض دليل إيجابي ممكن وقبول عقلا من أجل دليل سلبي أو غثي . ثم إن سياق الحوادث العامة في أواخر القرن الثامن يؤيد الرواية الترمجية إلى حد بعيد ويظهر الرواية العربية في مظهر التفسير . فالمعرض لحوادث الشرق

والقرب تلك العهد والتتابع للاقعة دولها بعضها ببعض يرى أن الدولتين الإسلاميتين
 العباسية والأموية الأندلسية كانتا أبداً في مكابدة وخصام مكنم ، ولكن نحل عليه أداة
 كثيرة لا يتسع للتمام لسردها ؛ كما يلاحظ أن الدولتين النصرانيتين الكبيرتين البيزنطية
 والفرنجية ، كانتا تقفان بعضهما من بعض نفس الموقف الذي كانت تقفه الدولتان الإسلاميتان
 بعضهما من بعض . وكانت البابوية منحايزة إلى جانب الدولة الفرنجية ، وذلك بسبب
 اختلاف اللذهي بين كنيسة القسطنطينية ورومية ، وبسبب الثورة التي جتها الباطرة بيزنطة
 على عبادة الصور ، وسخط البابوات على هذه الثورة . ثم إن الحروب التي كانت تقع بين
 الدولتين العباسية والبيزنطية في الشرق كان يقع ما يشبهها ويشاكلها في الغرب بين الدولتين
 الأموية والفرنجية . فطبيعى والحالة هذه أن يتم نوع من التضام على أقل تقدير بين أموري
 الأندلس والباطرة بيزنطة ، وهو ما تصرح بمصوره للصادر العربية الأندلسية وبخاصة كتاب
 « فتح الطيب » للقرطبي . وطبيعى كذلك أن يمت هذا التضام تضاماً مثله على أقل تقدير
 بين ملوك الدولة الفرنجية وخلفاء الدولة العباسية ، وهو ما تصرح به للصادر الفرنجية التي
 خفي ذكرها . قد ظهر إذن أن سكوت للصادر العربية عن أمر العلاقة بين شرلمان
 والرشد لا ينهض دليلاً على انقضاء هذه العلاقة .

ثم إن الأحداث الدولية التي وقعت في الشرق والغرب في ختام القرن الثامن وبداية
 التاسع مما يؤيد الرواية الفرنجية . قد حمل شرلمان من حيث هو « حليف » الرشد على
 شمال شرق الأندلس ، وأنشأ التتر الأسباني على الحد الجنوبي الغربي لقرنا ، واستبق
 عليه عماله من المسلمين ، واستولى على برشلونة عام ٨٠٧ ، وأنشأ علاقات سياسية بينه وبين
 محال التتر الأسبانية مثل صرقطة وغيرها . كل ذلك في نفس الوقت الذي شذ فيه الرشد
 الرواة على ملك الدولة البيزنطية برأ ومجرأ ، وحمل فتور على طلب الصلح والرضا بأداء
 الجزية وذلك عام ٨٠٤ .

يقى أن نوضح لقارئ الاحبار الشرعى أو « الحكيم القانونى » « العلاقة بين الرشيد وشرلمان ، وهو الأمر الذى أشكل على بعض المؤرخين الحديثين مثل برهية ، فقام من نصوص الرواية الفرنجية أن الرشيد قد نزل لشرلمان عن حقوقه على الأندلس وبيت المقدس ، غير أن الكاتب الإنجليزى بككر قد وفق إلى فهم الأمر على حقيقته ، قد أدرك أن الخلافة هى الولاية الكبرى فى الدولة الإسلامية ، وأن ماسواها من الولايات منفرج عنها وتاج لها ، فمن حيث الولايات الأندلسية لم يزد الرشيد على أن جعل شرلمان « والياً » عليها من قبله . ولا يترضى على ذلك بنصرانية شرلمان ، قد جوز الفقهاء (كالماوردى فى الأحكام السلطانية) للخليفة إقراره أمانة النصب والاستيلاء ولو كان الناصب غير مسلم نزولاً على حكم الضرورة وبشرط أن يرعى الناصب مصلحة من فى إسمه من المسلمين . وأمانة شرلمان على الولايات الأندلسية هى فى واقع الأمر من قبيل إمارة النصب والاستيلاء للذكورة . أما ساق بيت المقدس فالباحث الخبير بأنظمة الدولة الإسلامية لا يرى فيها أكثر من أن الرشيد عهد إلى شرلمان فى رعاية الشؤون الدينية لهذا البلد بدلاً من ولاية الأمر البيزنطيين ، وهو أمر يفتق وما جرى عليه المسلمون منذ قامت الدولة الإسلامية حتى وقتنا هذا ، قد جروا على أن يستندوا لإدارة شؤون أهل القمة الدينية إلى رجال من أهل القمة أنفسهم . وإذن فلم يكن ثم شل لسلطان الرشيد على بيت المقدس إلى شرلمان ولا إنشاء لحماية فرنجية على ذلك البلد قلدها شرلمان . بل إن حقيقة الأمر أن شرلمان قد وضع نفسه فى الحالين موضع تابع من أتباع الرشيد وعامل من عماله . وربما كانت الخلطة الغامضة التى بث بها الرشيد إليه هى الرسة للمادى لتلك السيادة وذلك الخضوع .



فلذا عرفنا أن العلاقة السياسية التى وصفناها قد استمرت حوالى عام ٨٠٠ ، وأن البابا قد توج فى العام المذكور شرلمان امبراطوراً على الدولة الرومانية الغربية — على أن يستند منه اللون للمادى — وأن الإمبراطور هينريش البيزنطى قد رضى فى عام ٨٠٤ بحمل الجزية

إلى الرشيد ، استبان لنا أن الرشيد لم يبد في عام ٨٠٤ (١٨٨٨) خليفة للسليمان نجيب ، بل لقد أصبح من الوجهة النظرية على أقل تقدير السيد الأعلى للعالم المسمى ، وتلك لسير الحق منزلة لم ينلها ملك قبله ولا بعده على الإطلاق .

وقد يكون طريقاً أن نلاحظ أن العلاقة بين الرشيد وشرلمان قد نمت وازدهرت واتعمرت في أواخر القرن الثامن الميلادي ، ففي ذلك تتضمن رداً يلجأ صانداً من أمجاد الزمن على دعوى المدعين بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . لقد انشأ وتصاغ منذ أكثر من ألف عام على نحو قد يجب له أربع مائة القرن العشرين .

الرشيد وأبو نواس

شخصيتان معروفتان مألوفتان عند العامة والعالم ، ومسودتان من وجوه كثيرة أجهى شخصيات العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري : الأولى شخصية شاعر عربي أجهى الأصل تناعت فيه فلسفة الأعاجم الإياحية القائمة على الاستهزاء بالمواضعات والعقائد ، وعلى الاستمتاع بالذلة ، مشروعا وغير مشروعا ، مقبولا ومردوفا ، ثم راح يصوغ هذه الفلسفة البائرة للبيئة في شعر سهل يليق لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . فندا بحق إمام شعراء مذهب الذلة في الحرية وحاول لوائهم على الإطلاق . أما الشخصية الثانية فشخصية ملك عربي تناعت فيه فلسفة سياسة ذلك الزمان القائمة على الاستبداد ، والجهوت والمصيبة ، والعقيدة الجامدة ، مع ما يمتاز به العربي للترف عادة من رقى الفنون ، ودقة الإحساس ، ولطف المزاج .

وإذا كانت فلسفة أبي نواس قد عادت عليه بتخرف الخلق ، وشذوذ الشهوة ، فقد عادت على الرشيد فلسفته بصلابة الرأي وجود العقيدة والتهالك على كل ما يمسك عليه ملطانه خيرا كان أو شرا . من أجل ذلك نستحيز أن نعتبر تلميذا فرنسيا شاع في أوروبا في أواخر القرن للناضي Fin. Cesiécle وأعماله الكتاب الألماني الأشهر ما بكس نوردو طابعا حليا خاصا^(١) فنسى أبا نواس « شاعر آخر الزمان » والرشيد « ملك آخر الزمان » كذلك . ولأمر ما شامت الأقدار أن يفارق كل منهما هذه الدنيا في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري .

جئت بين هاتين الشخصيتين المحييتين جوامع الزمان واللكان واثنين ، ولكن باعلت بينهما مقتضيات فلسفة كل منهما . فتزدت الصلة بينهما بين السلب والإيجاب ، والوجود والعدم ، وهذا هو للتؤلف مع فلسفة الرجلين والتفق مع الثابت للقيتين من

(١) مجلة الهلال أغسطس ١٩٣٦ .

(١) في كتابه « الأعمال » Degeneration : القلب الأول ومؤاده التحلل من قيود العرف

والأخلاق .

أخبارهما . بيد أن أخباراً محرفة منحرفة تؤكد توثق الصلة بينهما إلى اللدى الذى يكون عادة بين الأوداء والخطاء ، غير مبالية ما بين الرجلين من تفاوت فى فلسفة الحياة واختلاف فى الزواج . كما أن طائفة عظيمة أخرى من الحكايات أبدعوا خيال القصص فى شق المصور الإسلامية قد ذهبت فى تصوير الصلة بين أبى نواس والرشد كل مذهب مطرحة كل اعتبار ، اللهم إلا اعتبار الرقة فى تنكحة القارىء وإتباعه والآن فلننرض لكل ذلك بشيء من التفصيل .

ولد أبو نواس بالأهواز حوالى عام ١٤٠ ونشأ وتلم بالصرة . ثم ارتحل إلى البادية فى طلب الله وقصاحة الشأن . ثم انتقل إلى الكوفة للأخذ عن علمائها . فلما اكتملت نواحيه ونضج شعره ارتحل إلى بغداد ببلد العلم والأدب والسياسة العليا فى ذلك الزمان كما كانت بلد الحياة الملائمة الغليظة التى يؤثرها من كان مثل أبى نواس . فانغمضها الشاعر مهاجراً وكرسها حتى آخر حياته إذا استتبنا رحلته القصيرة إلى مصر . والظاهر أن هجرته إلى بغداد كانت حوالى عام ١٧٩^(١) على أكثر تقدير ، أى فى الوقت الذى كان البرامكة فيه قابعين على زمام الأمر فى الدولة الإسلامية ، فكان طبيعياً أن يتوجه إليهم أبو نواس بشعره وقد مدحهم ونال جوائزهم السنية . وكان آخر شعر مدحهم به قصيدته للشهيرة التى مطلعها :

أرجع البلى إن الخشوع لباد عليك ، وإنى لم أخنك ودادى

قالوا ولما سمعوا الفضل بن يحيى تعليقاً عليها شديداً . ولم يمض أسبوع على سماعه لها حتى نكب ونكب معه قومه . ونحن نعرف أن تنكحة البرامكة كانت عام ١٨٧ ، وإذاً يمكن القول أن أبو نواس منذ دخوله بغداد عام ١٧٩ إلى عام ١٨٧ كان يخص البرامكة من بين رجال الدولة بشعره ، وأنه لم يتوجه إلى الرشد بمدة فى تلك السنوات الثمان . والحق أن لا نجد فى ديوانه شعراً قاله فى الرشد ويمكن رده إلى تلك الفترة ، ولا عبرة بتلك الأبيات التى قالها أبو نواس فى عام ١٧٩ يحث الرشد على استعجاب الفضل بن الربيع^(٢) :

قولا لهاروت إمام اللدى عند احتفال المجلس الحاشد

(١) وذلك مستفاد من قوله يخلب جعفر بن الربيع :

ولا تجهلوا بى ود عشرون حبة ولا تضلوا ما كان منكم من الفضل

(٢) ذكر الطبرى أن الهيد عزل فى عام ١٧٩ عند بن عبد برك من الحبة وولاهما الفضل بن الربيع .

أنت على ما بك من قدرة . ظلت مثل الفضل بالواجد
ليس على الله . بمستكر . أن يجمع العالم في واحد
نظمي في الواقع مدح في الفضل بن الربيع ، وقد أوردها جامع ديوان أبي نواس على
أنها كذلك .

فلما دالت دولة البراسكة وقامت دولة آل الربيع واستبد الرشيد بالأسر دار أبو نواس
مع تلك الدوار وأقبل بمدح رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الخليفة نفسه ، وكان ذلك بدء
اتصال الأدبي بالرشيد . ومن أوائل ما مدحه به قوله من قصيدة :

إني حلفت عليك جهد أية قسا بكل مقصر . ومخلق
قد اتيت الله حق قاته . وجهدت نفسك فوق جهد للفق
وأخفت أهل الشرك حتى إنه . لتخافك النطف التي لم تخلق
وصناعة الشراء إن أفتقها . نفقت وإن أكنتها لم تنفق
وقوله من قصيدة أخرى :

حبارك من ساس الأمور بطله . وفضل هارونا على الخلق
نعيش بخير ما انظرينا على التقى . وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إمام يخاف الله حتى كأنما . يؤمل رؤياه صبح مساء
وقوله من قصيدة ثالثة :

هارون أفتنا إقلاف مودة . ماتت لما الأحقاد والأضخان
في كل عام غزوة ووفادة . تبث بين نواحي الأكران
حج وغزوات بينهما الكبرى . بالهملات شعارها الوثخان

وهذا الشعر كله يدل على أن أبا نواس إنما مدح به الرشيد عند ما ظهر الرشيد بمظهر
البأس والجبروت ، وعند ما غدا مخوفاً مهروباً لا تؤمن بواقعه ، وعند ما جد في جهد
الروم وأذل ما لهم ، وعند ما أصبحت بضاعة الشراء رهن مشيئته ، إن شاء حققت وإن شاء
كدت . والرشيد إنما ظهر بكل ذلك بسبب إقصاءه بالبراسكة . بل إن المصادر التاريخية
نفسها تبيننا على تاريخ المعاهد الثلاث للذكورة . فالراجح أن القصيدة الأولى مدح بها

أبو نواس الرشيد عام ١٨٧. عند ما اجتمع الرشيد على قصور اليزيد على استصاره للشهور^(١)
أما القصيدة الثانية فثبت أن الشاعر نظمها عام ١٨٩ عند ما أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد
لإبنة القاسم وقبـه بالمؤن^(٢)، وأما القصيدة الثالثة فبطلنا عام ١٩٠ عند ما أخذ الرشيد
قلنسة مكنوياً عليها « غار حاج »^(٣).

على أن هذه للدأخ وغيرها من شعر أبي نواس في الرشيد لم تعد أن تكون من قبيل
الشعر الرسمى الذى يقال فى الظروف وللناسبت النظامية . وليس فيها ولا فى عامة شعر
أبي نواس ما يفيد أن أبا نواس تجاوز فى علاقته بالرشيد هذه الحالة إلى أن يكون من شعراء
البلاد فضلا عن أن يكون من جلساء الرشيد وتلمذاته . بل ليس فى شعر أبي نواس ولا فى
الكتب من أخباره ما يفيد أنه كان يشهد الرشيد شعره إنشاداً على نحو ما كان يفعل بعض
معاصريه أمثال أبي الغنـاية ومردوان بن أبي حنيفة مثلاً^(٤) . لقد كان ثم أمور تحول بين
أبي نواس وبين هذه النهاية . فقد كان أبو نواس قبيح الصورة ، عاجزاً ، سكيراً منهاجاً فى نفسه
مقياً بمخاضات السكر وخمره وشرب الخمر ويصحب بالظلم ، وكان يصرح بكل ذلك فى
شعره وخاصة خمراته حتى شاع أمره فى بغداد . ثم إنه قد خاض فى أمر الصبيحية المريبة
وقلب فيها قلباً منكراً ، فادعى أول الأمر نسب للزارية وهما المين ثم عاد قادمى نسب
المين وهما للزارية بقصيدة قوية أولها :

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من فطرها وحاصيها

ثم صار شموياً وبرىء من القرب فاطبة وهجاء وادعى الأبحية^(٥) . وسبب ثالث قد
به عن الاتصال بالرشيد ، هو فساد عقيدته وزندقته وعجاسه فى شعره بآراء التنوية . فذه
الأمر كلها لم تكن لتجعل الرشيد يقبل على أبي نواس ويأخذ له فى غشيان حضرته وإنشاده ،
وهو بعد الخريص على مظهره الإسلامى ، للزمت فى أمر الفرض والشرف ، القصور بنفسه
المرى الزارى القرشى . والحق أن الرشيد من حيث هو خليفة للسلمين وحارس الدين
والآداب ، لم يتردد فى الضرب على يد أبي نواس ، وفى أن يبعه من حين لآخر يعض

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ - ٩٣ . (٢) ج ١٠ ص ٩٦ . (٣) الطبرى ج ١٠ ص ٩٦ .

(٤) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ - ٩٣ .

(٥) أخبار أبي نواس المروعة ٨٥ من النسخة الخلية المصنوعة بدار الكتب للسرية .

الغالب ؟ قد روي أنه جبه في شرب الخمر^(١) وأنه جبه بلويلا بسبب قصيدته التي هاجبها
الزارية ، وأنه جبه كذلك من أجل جبهه بالزندقة وعقائد التنوية ، وكان حسانه وأعدائه
من جلساء الرشيد يقعون فيه عند الخليفة من هذه الناحية الدقيقة الحساسة . روي^(٢) أن
الرشيد جلس مجلسا وأفاض من حضرة في الطبعين من شعراء المحدثين ، إلى أن اتصل
الذكر بالحسن بن هاني ففسر عليه سليمان بن جعفر ، فقال : يا أمير المؤمنين اكفر بالله .
لا يرهوى عن منكرو ولا يأف من فاحشة . وقد نعى إلى أمير المؤمنين خبره . فقال :
يا أبا عمر ! هل تروى عنه من ذلك شيئا ؟ قال : نعم أقوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظرا في الدين ما الأمر لا قدر صصح ولا جبر
ما صح عندي من جميع القى يذكر إلا للوت والقبير
ثم أنشد قوله أيضا :

باح لبسائي بمضمر السر وذلك لى أقول بالدمر
وليس بمبدلات مرجع وإنما للوت بضعة القفر

استشاط الرشيد غضبا . وقال : على باب القاعة . يا فضل ! لا يفوتك التذيق !
وعنى إلى أبي نواس لتغير فسلخ في الأرض ، فلم يقدر عليه أحد . قال رجل من جلساء
الرشيد : إن أذن أمير المؤمنين أنشد من قول هذا القاص ما هو أشنع مما سمع . قال :
هلت ! قال : قوله في غلام نصراني :

نمر فاستحيك أن أتكلما ويشيك زهو الحسن عن أن نلما
ويتهز في نويك كل عشية قضيب من الريمان شب منما
بحبك أن الجسم قد شفه الغضى وأن جفوى فيك قد خرفت دما
أليس غلبا عند كل موحد غزال صبحى يصذب سلا
ظولا ودخل النار بعد مصيره هببت مكان الله عيسى بن سريما

(١) أخبار أبي نواس ص ١٠٩ من الجزء الأول للطبع .
(٢) أخبار أبي نواس الورقة ١٠١ من نسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية .

له فازداد حق الرشيد عليه . قال : يا أمير المؤمنين ! أشتع من فلك ، قال : هل أنت ؟
فأشده قوله في غلام نصراني :

وملحة بالمدل ذات نصيحة ترجو إجابة ذى بحور ماري
بكركت تبصرنى الرشاد وحقى غير الرشاد ومنهوى وخلائق
فأجبتها كفى ملامك إبنى بخلاف دين أفة وجشاق
والله نولا أنى متخوف أن أبطل
وقطع الإنشاد ، قال له الرشيد : بماذا ، وبلك ! فاستغف ، قال : وبلك !

بماذا ؟ قال :

..... يلام جور فاسق
قال ففزع المجلس بأهله . وأنكر الرشيد نفسه . ثم قال : امض ! فقال :

لتبسته في دينه ودنياه يصيرة متى دخول الواقع
إنى لأعلم أن ربي لم يكن ليخسهم إلا بدين صادق

قال الرشيد للفضل بن يزيد بن النصور : إن لم يبت هذا الكلب في اللطيق لتفكرن
قولا وقولا . فوجه الفضل (في طلبه) من ساعته ، فأخذ وأودع اللطيق ثم أعانه الفضل بن
الربيع إلى أن أطلق ، قال في فلك :

الله فرج لى برأى لا فضل من خلق الكبول
وأقالى هنت النسا ر نودأيت من للقليل

والظاهر أن أبا نواس قال في ورطته هذه يستحلف الرشيد قصيده التي يقول فيها :

بفسوك لا يمودك عذت لا بل بفضلك يا أمير المؤمنين

فلا يتمذون على عفو وسعت به جميع المالينا

على أن الرشيد لم يكن بالرجل الذي يحق عليه مكان أبي نواس من الأدب والشعر
خاصة . فقد كان الرشيد نفسه ذا جبر بالشعر عليا بمراتب الشراء شديد البطف عليهم
والرعاية لهم . وكان في قرارة نفسه عظيم الإعجاب ببن أبي نواس مؤمنا بأنه أمام شراء زمانه

غير مدافع . قال إسماعيل بن صبيح^(١) قال لى الرشيد : يا إسماعيل ! ابنى وصيفة مليحة
فطنة شكلة حلوة متكللة طريفة غالة تقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها . قال : قلت
يا سيدى ! على الجهد . قال : اجمل قول هذا العيار أمامك — يريد أبا نواس — وامثل
فيها ما حدى من مثلها . قلت يا سيدى ! وما قوله ؟ قال :

من كف ساقية ناهيك ساقية فى حسن قد وفى ظرف وفى أدب
كانت لرب قيان ذى مماننة بالكشع محترف بالكشع مكتسب
حقى إذا ما غلى ماء الشباب بها وأفسدت فى تمام الجسم والعصب
وجشت بخفى للحظ فأجمشت وجرت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم ير إنسان لها شهما فيمن برا الله من عجم ومن حرب
تلك التى لو خلت من عين قيسها لم أقض منها ولا من خبها أربى

من أجل هذا التقدير القى المحض كان الرشيد لا يبلغ من عقوبة أبى نواس البالغ الذى
يقتضيه نص الشرع . فكان يجازيه على مجرمه ، واستهتاره ، ومجاصمته بالعاصى فى شره ،
بمجرد الحبس . ومع ذلك كان إذا كتب إليه أبو نواس من السجن يستنطقه ، أو شفع عنده
شفيماً ذا خطر ، أقال عزمه وقبل شفاعته فيه وأسر بتخلية سيده . بل لقد بلغ الأمر بالرشيد
أن انزعج عندما أرفف أهل بغداد بأن أبا نواس قد قتل . قال يوسف بن الداية^(٢) : غاب
أبو نواس عنا وعن إخوانه غيبة طويلة ، فلم نعلم له خيراً وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له
أولاً . حتى مضت له سنة فظنوا أنه قتل ، ويبلغ ذلك الرشيد فقال : والله إن صح أنه قتل
لاحتلن قاتله ولو كان محمداً (يريد ابنه الأمين) انظروا كل من جاء من الناس فأكتبوا
اسمه وارفعوه إلى ؟ فارتجت بذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول إذا نحن به قد وافى .
فقلنا له : يا أبا على ! قد غبت هذه النية عنا فتمستنا وظننا بك الظنون . قال : كنت فى
بيتى . قلنا : ألم نسع بضناك وقول الرشيد فيك ؟ فلم يبق أحد من إخوانه إلا عدله ،
وقالوا : إن فى هذا ترميضاً لنفسك للآفات ، فأنشأ يقول :

(١) أخبار أبى نواس الورقة ٦٩ من النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية .
(٢) أخبار أبى نواس : الورقة ٩٨ من النسخة الخلية المخطوطة بدار الكتب المصرية .

في بيان أبي شبل عن الماتية بالروح والريحان والياسمين

إلى آخر القصيدة :

• • •

وجهة القول أن أبا نواس كان يحرص على أن يخلد بعض شعره بنظمه في تلك الشخصية الساطعة الثلاثة ، شخصية الخليفة هارون الرشيد . ولكنه كان يعلم الأسيل له إلى الاتصال بتلك الشخصية فوق هذا القدر . فكان يمدح الرشيد ويستنطقه ولكن « من بعيد » . أما الرشيد فكان يقدر عن أبي نواس ويستجيب به أشد الإعجاب ، ولكنه للأسباب التي سبق ذكرها كان لا يستطيع ألا يريد الذهاب إلى أبعد من حد التصدير والإعجاب ، فكان يسم شعره وينقده ^(١) ويستجيب به ، ولكن « من بعيد » كذلك . تلك حقيقة الصلة بين أبي نواس والرشيد وذلك مقدار مداها .

• • •

على أن هناك طائفة من الأخبار تزم أن أبا نواس كان وثيق الصلة بالرشيد ، وأنه كان يدخل عليه ويحاله ويتأدبه وأنه كان ملازماً لقصره وأن له وقته وتوادد مع حرم الرشيد وتجاربه . وعندى أن بعض هذه الأخبار يصح إذا وضنا مكان « الرشيد » فقط « الأمين » فلا شك أن أبا نواس كان ملازماً لقصر الأمين يتأدبه ويحاله ويشار به ، إلى حد أن استغل للأمن تلك الصلة في التشجيع على الأمين بخراسان ^(٢) عند ما استحكمت النفرة بين الآخرين . وقد دعا ذلك الأمين آخر الأمر إلى التشديد على أبي نواس في ترك الخمر وإلى خبئه عند ما كان يسمي أسره . وقد أشار أبو نواس إلى ذلك في شعره . وقد يكون بعض هذه الأخبار صحيحاً كذلك إذا وضنا مكان اسم أبي نواس اسم « ابن أبي سريم اللدني » ^(٣) وكان رجلاً مضطرباً فكهما منقطعاً إلى الرشيد في أواخر حياته يبله ويفرج همومه بذكائه وطريف أحاديثه .

(١) ديوان أبي نواس : هامش ص ٧٣ (طبع الطبعة العمومية) .

(٢) أخبار أبي نواس : الروقة ١٢ (من النسخة المطبوعة) .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ١١٤ .

وهناك مجموعة أخرى من الحكايات وال نوادر تدور حول العلاقة بين أبي نواس والرشيد وقد أبدعها الخيال في المصور الإسلامية المختلفة. هذه الحكايات لا نجد لها أثراً ما في كتب الأدب والتاريخ للشعقة كالأغاني والقند التريد ، ولكنها حفلت بها كتب القصص وخاصة كتابي « ألف ليلة وليلة » و « أعلام الناس » وهي تصور أبا نواس في صورة رجل مضحك يفكه الخليفة بأشماره الطلية للترجمة ويضحكه بنوادره للسملة . ولولا أجاد واضمو هذه الحكايات السبك لتسيوها إلى ابن أبي سريم اللذي للذكر ، ولكنهم نسبوها خطأ إلى أبي نواس . قال ابن منظور صاحب « لسان العرب » ومؤلف كتاب « أخبار أبي نواس »^(١) : وقال بعض المترجمين عن محيط علما بأحوال أبي نواس « إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وإنما دخل على عهد الأمين » .

وإذا كان ابن منظور قد بالغ على ما يظهر في نفيه عن أبي نواس رؤية الرشيد فلا شك أن عباراته فيما دون ذلك صادقة الصديق كله .

مع أبي نواس الزاهد*

شعرت من أيام بضيق في الصدر ، وخرج في النفس ، وما أكثر ما يضيق صدر
الإنسان وتخرج منه في هذه الأيام التي لا تنفك تقلبنا وتراوحنا بأبناء حروب تكرار ،
وغارات شعواء ! فتأملت ديوان الحسن بن هاني* الشهير بأبي نواس ، لئلي أجد في دعاباته
ونظراته المازجة المازجة بهوم الحياة فرجاً عما دهمني ، ومخرجاً عما تزل بي .

وأقبلت أنظر في غمرة لا تخبرني بها أفروءه أو أقرأ فيه ، فرائته يشتمل على أحد عشر
باباً ، في تناقضه مع الشراء ، واللذع ، والرائي ، والعتاب ، والمجاء ، والزهد ، والطرده ،
والخريجات ، والمجون ، وغزل اللوث ، وغزل الذكر . وما أسرع ما استوقف نظري أن
يكون الزهد من بين أبواب الشعر التي طرقها أبو نواس ! وقلت في نفسي : يا عجبا !
أبو نواس للاجن المجاء ، والكثير المريد ، يكون ناسكاً وزاهداً ! هذه ظاهرة نفسية
طريفة ، وناحية من حياة ذلك الشاعر خطيرة ، لم ألق لها بالاً من قبل ، ولعل غيري لم
يلق لها بالاً كذلك . فالتعارف للشهور عن الحسن بن هاني* أنه مستهتر يسرف على نفسه ،
قد ضجت من استهتاره حانات الكرخ ، وديارات العراق .



وضحت باب الزهد وأخذت أقرأ فيه وأقرأ ، حتى أتيت عليه قراءة ، فإذا هو يقع في
بضع عشرة صفحة كبيرة ، وإذا موضوعاته هي نفس الموضوعات التي يقول فيها الزهاد
عادة : من أسف على تضيق ما يجب على العبد نحو خلقه ، وترك الانزجار بالشيب والامتناع
بالموت ، والتزهد في الدنيا ، والتحذير منها ، والتذكير باليأس بعد الموت ، والتخويف من
يوم الحساب . ولقد وقع في نفسي أن هذا الباب ربما كان موضوعاً على أبي نواس ، وأن
الشاعر قد نخله كما نخل كثيراً غيره من الشعر . فأعدت قراءة تلبس في ضوء ما أعلم من

صناعة أبي نواس ، فحرفت فيه الصناعة النواسية نظماً ومقياً وروحاً . ثم وسعت أفق اطلاعى
على للراجع التى عيت بقرعة أبي نواس وذكر أخباره ، فوجدت غير واحد من أئمة النقد
للجاسرين لأن نواس يشون التناء الجلم على بعض زهدياته . فهذا الجاسط يقول : لا أعرف
من كلام الشعراء كلاماً هو أوقع ولا أجسن من قول أبي نواس :

أية نار قدح القادح وأى جد بلغ للزح
فددر الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح
يا أبى التقي إلا اتباع الموى ومنهج الحق له واضع

وهذا أبو المعاهية أكثر الشعراء قولاً فى الزهد يقول : قد قلت عشرين ألف بيت فى
الزهد ، ووددت أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها أبو نواس وهى :

يا نواسى توقر وتمز وتصر
إن يكن سالك دهر إن ماسرك أكثر
يا كبير الذنب غولك من غورك أكبر

وهذا الخليفة للأمون يقول : لو سئلت الدنيا عن نفسها فقطعت لما وصفت نفسها إلا
كما وصفها أبو نواس فى قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن غدو فى ثياب صديق

وإذا فرغديات أبي نواس هى زهدياته حقاً . فوالذى حدث يا ترى حتى تحول هذا
الأيقورى القهاب فى مذهب اللذة إلى أقصى حدوده ، حتى استحال زاهداً ناسكاً ، وحتى
أصبح يصرف القول فى أمور الزهد والتجوى ، وللول والبث ، والثواب والعقاب ، بعد
أن لبث دهرأ طويلاً يسخر شاعريته فى قمت الكاس والطاس ، والفلمان والجوارى ، وهو
الفس والتهم على مواضع الضعف منهم .

الآن أيا نواس قد مل ارتكاب اللامى ومقارفة الذنوب ، وكل شيء طال فهو لا محالة
محلل ؟ قد يكون ذلك ، فهو الذى يقول :

وقد تهرت مع القنوة بدوهم وأسمت مريح للهم حيث أساموا
وفقت ما يبلغ امرؤ بشبابه . فإذا حضارة كل ذلك أنام

وذلكم أن تقدم السن ونذر للشيب وتهدم للجسم على سر هذا التحول ؟ أوجها كان الأمر كذلك ، فليس من شك في أن أبا نواس تفر على قول الشعر في الزهد بعد أن جاوز الحنين من عمره . ولعمري إن حسين سنة من عمر أبي نواس لتدل سبعين أو ثمانين من عمر رجل ولدع الحياة هادئها ، ثم هو بعد النى يقول :

قد فر الشيب من واضط وتاضح لو حذر الناصح

أم أن أحداث الزمن وعبر الدهر ، وما شهد أبو نواس في آخريات حياته من نكبة الهراكية ، وموت الرشيد ، ووقوع السلاوة بين الأمين والمأمون ، ومقتل الأمين على شر حال ، حتى السب الأثوى في اعتقاده أن الدنيا خداعة خرابرة ، لا يأمن مكرها قوى ولا ضيف ، ولا ينجو من غدرها حتى ولا هدير ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فهو الذى يقول :

يا رب وجه في التراب حقيق ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب حرم في التراب ومجدة ويا رب رأى في التراب وثيق
الأكمل حتى هلك وابن هلك وذو نسب في المالكين عريق
قل قريب القار إنك راحل إلى منزل تأتى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا ليب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

•••

ومها يكن من شيء ، هذه الأمور كلها متفرقة أو مجتمعة ، لا تكني وحدها في تحليل زهد أبي نواس وتنسكه . وأرى بأنها كانت تقع على غير موقع إذا لم تصادف من غصه ؟ أأثر بها ، هذا الاستعداد هو ضالة الباحث في هذا التحول في حياة شاعرنا بسدير ، وممر الأمر الذى أحب أن أنه عليه وأقت النظر إليه .

قد كان أبو نواس على الرغم من إسرافه واستهتاره مؤثماً في قرارة نفسه ، وللصحة لا تنافي الإيمان - في شرعة العقل على أقل تقدير .

ولإيمان أبي نواس حصدين اثنين : الاعتقاد القلبي ، والنظر العقلي . لما الاعتقاد القلبي فأبو نواس فنان عبقري من غير نزاع ، وعبقرة الفنانين لا يجأتى لم الإبداع والإلهام

ألا يفرح من الإعلان نرفه في ذلك الإشراف وتلك الرضاه التي طالما نيا يفتخرون من
شعر وثروتم ورسم وغير ذلك من ضروب الفن الجميل .

أما المصدر الثاني وهو النظر العقلي ، فذلك أن أبو نواس لم يكن قنانياً حقيقياً غسبياً ،
بل كان فوق ذلك عالماً متسكفاً من علوم زمانه ، من لغة وأخبار وحديث وقصة وفلسفة ؟
وقد ورد في شعره ذكر الجبر والقدر والتماسي والتجدد ، والجزء الذي لا يتجزأ ، وطائفة من
أخبار القدماء وصدر الإسلام وعلماء المسلمين . وقد بلغ من شأنه في ذلك أن ود بعض
العلماء للمعاصرين له الأخذ به ، لولا ما عرف به من مجون وانحراف عن الجادة ، ولا يعلم
من يقرأ أخباره وخبرياته ومجربياته أن يجد في مواضع كثيرة منها تصريحه بأنه يؤمن بالله
واحد قهور وحيم ، من ذلك قوله وهو في مقبل حمرة وجدة أسره :

تكثرت ما استطلعت من الخطايا فإني بالنع رباً غفيسورا
متبصر إن وردت عليه ضرراً وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تمض ندامة كفيك عما تركت غفلة النار السوراً

وينظر القارئ كيف يحتم قصيدة له ضمنها ما شاء من ذكر مناسباته واستناده ، فهو
يقول في ختامها :

حتى إذا الشيب تأبى بطلمته أقيح بطلمة شيب غير سمخوت
قد ندمت على ما كان من خطل ومن إضاعة مكتوب للواقبت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف عني يا ذا العلا عن صاحب الخوت

ويروى الخطيب في تاريخ بغداد أن أبا نواس خرج في أصحاب له إلى مكان طيب
نزه ، فجعل أصحابه يصفون الجنة ونعيمها ، وللمامى التي تحول دونها ، كل ذلك وأبو نواس
صاكت ، ثم قال :

يا ناظرأ في الدين ما الأسر ؟ لا قدر صح ولا جبر
ما صح هندي من جميع الهوى تذكر إلا للوث والقبر

قال فامتعت الجماعة من قوله ، وأطالت ترميغه . قال أبو نواس : ويلكم ! إلى
والله لأعلم ما تقولون ، ولكن المجنون يفرط على ، وأرجو أن أتوب ويرحمني الله .

رب الخواارج أن أبا نواس كان دائم الاستصحاب لقوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يخفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . كما أنه اختار من بين المذاهب الكلامية التي ظهرت إذ ذاك مذهباً يلائم حاله ومزاجه . فقد كان الخواارج يكفرون صاحب الكيكة . وكان للمترقة يرويه عنزة بين الكفر والإيمان . وكان أهل السنة والجماعة يعتبرونه مؤمناً فسقاً بارتكاب الماضي . أما للرجثة فكانوا يقولون إنه لا تضرع الإيمان مصيبة ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وكانوا يؤمنون بحول الله لكل مؤمن محاسن . ومن ثم اختار أبو نواس عقيدة للرجثة ، وعبر عن عقيدته هذه في مواضع من شعره :

قل لمن يدعى في العلم فلسفة . حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تعظم العفو وإن كنت اسراً خرباً . فإن حظرك في الدين لزواء
غير أني على الإساءة والنفس رطب . راجح لحسن عفو الله

•••

وإذا فالعوامل التي ذكرناها من سآمة الماضي وتقدم السن وتنازع الأحداث وتهديم القوى ، قد وقعت من نفس أبي نواس موقفه ، وصادفت من نفسه استغداداً . غير أن الفضل في هذا الموقف وفي توجيهه أبي نواس وجهة الصلاح وإخراج إيمانه من القول إلى الفعل يرجع إلى رجل كان بينه وبين أبي نواس صلة صداقة وإعجاباً معاً ، ذلك هو الفضل ابن الربيع وزير الرشيد ثم الأمين ، قد نبهه أبو نواس الرشيد على كفاية الفضل بن الربيع بقطوعة من شعره مذكورة في ديوانه ، فعرف له الفضل تلك اليد ، فلما ولي الأمين الخلافة أدخل إليه أبا نواس ، فلما وقعت الفقرة بين الأمين ولأأمون ، وتد للأأمون في خطبه بالصلة التي بين الأمين وأبي نواس ، اشتد ذلك على الأمين ، حتى قدم بقتل أبي نواس ، ثم بدا له فأمر به إلى السجن ، وشد عليه في ترك الخمر ، ثم خلعه من السجن الفضل بن الربيع بعد أن استنابه . وقد أشاد أبو نواس بهذه اليد التي أولاه إياد الفضل في شعره أيما إشادة :

أبا العباس ما غلني بشكرى . إذا ما كنت تحفوا بالديم
وإني والنبي حاولت مني لصوح . دفت إلى مقيم

وكنت أيا سوى أن لم تلتقي رجلاً أو أبر من البرم
وقال - ولا يخلو قوله من تصور فكاهي لشخصه في طوره الجديد :
أنت يا ابن الربيع الزماني لقد بك وعودتني والغدير عاده
فأرعى باطل وأقصر جبل وتبدلت عسفة وزجاده
لو تراني ذكرت لحن البصري في حسن سمته أو قجاده
المسيح في ذراعي والصمد في لبي مكان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفة تعجب منها مليحة مستفاده
فادع بي لا عدمت تقويم مني وتغن لموضع السجاده
ترأراً من الصلاة برجي توقن النفس أسها من عباده
لو رأها بعض للرأين يوماً لأشترها بمدى لشهاده
ولقد طال ما شئت ولكن أدركتني على يديك السجاده

أما وقد تاب أبو نواس توبة نصوحاً ، وأرعى باطله ، واستقامت طريقته ، فقد أحب
أن يتزوج حياته بحبة إلى بيت الله الحرام ، بمحورها خطاياها ، وينتفع بها حقيقة من حياته
حقية يضاء ، أمل ألا يكب فيها إلا كل ما هو خير له . واتهم فرصة خروج حاييه
ورأيه الفضل بن الربيع للحج ، فخرج في صحبته . وقد حج أبو نواس في صباه أيام كان
فقير من فتيان البصرة ، ولكن شتان بين المحبتين . فقد حج بالأس لا رغبة في مؤنة ،
ولكن من أجل جارية بصرية اسمها (جنان) أحبها وتيسه حبها ، فلما علم بمحبها فخرج في
أمرها ، وأما هذه المرة فحج نائب منيب إلى الله . والرواة يفعلون حجه الأولى تلبية
نظمها أبو نواس ولبي بها من سمها من الحبيب . ولكن لا شك أن ذلك غلط من الرواة ،
وأن تلك التلبية الحارة إنما نظمها أبو نواس في حبه الثانية . وهذا هو دى تلك التلبية الجملة
التي يصح أن تكون نشيداً للحج لمن أراد الحج نشيداً . قال أبو نواس :

إني أنا ما أعدك ا مليك كل من ملك
لييك قد ليت لك ليك إن الحمد لك
واللك لا شريك لك

ما خاب حسنه أمك أنت له حيث مسك
ولاك يا رب مسك ليك إن المسك لك
وللك لا شريك لك

كل بي مسك وكل من أصلك
صحيح أو فني ظك ليك إن المسك لك
وللك لا شريك لك

والليل لما أن حك والباحات في القسك
على جملوى للنك ليك إن الحد لك
وللك لا شريك لك

يا خاطئاً ما أمك عجل وادر أمك
واتم بحير على ليك إن الحد لك
وللك لا شريك لك

ويورد أبو نواس من حبه فلا طول حياته ، بل يشتمل عليه مرضه الذي مات فيه
سنة ١٩٨ هـ على أرجح الروايات عندنا . وكانت حلة على ما يؤخذ من وصفه لحامه الليل :

وب في القناه سلا وعلا وأراني أموت عضواً فضوا
ليس من ساعة مضت لي إلا تقطعت بمسرها في جزوا
دعيت جدي طاعة ضي وتذكرت طاعة الله نضوا
بلغت ضي على لمسمال وأيا م تلتين لمسها وطوا
لله أسانا كل الإمارة قال هم صفحا غسبا وقرأ وضوا

وما نسمع أعيان بغداد باشتداد حله حتى توافوا إلى مله يعرفونه ، وكان من بينهم
الإمام الشافعي الذي كان إذ ذلك بغداد . ويروي الخطيب البغدادي أن صديقاً لأبي نواس
اسمه محمد بن نافع قال : كان أبو نواس لي صديقاً فوقت بيني وبينه جيرة في آخر عمره ،
ثم بلتني وفاته فضايف على الحزن ؛ فيها أنا بين النائم واليقظان ، إذا أنا به ، قلت :

أبا نواس قال لات حين كنية اقلت : الحسن بن هاني قال نعم اقلت : ما ضل الله بك ؟ قال : فخر لي بأبيات فتنها تحت ثوب الرسادة ، فأنبت أهله ، فلما أحسوا بي أجهشوا بالبكاء ، وقلت لهم : هل قال أخى شراً قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم ، إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندرى ما هو . قلت : أتأذنون لي فأدخل ؟ قال فدخلت إلى سريره فإذا ثيابه لم تحرك بعد ، فرففت وسادة فلم أر شيئاً ، فرففت أخرى فإذا برقعة فيها مكتوب :

يا رب ! إن عطلت ذنوبي بكثرة فقد هلت بأن عذوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا بحسن فمن الذي يدعو ويرجو المجرم ؟
أدعوك رب ؟ كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم ؟
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عذوك ، ثم أنى مسلم
وقد أدركنا نحن في طغورتنا للؤذنين يهتفون بهذا التوسل على اللآلئ في الأسفار .
فسلام على أبي نواس مفتتاً مبدعاً ، وسلام عليه في الناسكين الزاهدين .

كتاب الوزراء والكتاب

للجهشياري

أهدى إلى زميلي وصديقي الأستاذ مصطفى السقا من أشهر مضت ، نسخة من كتاب
« الوزراء والكتاب » لابن عبدوس الجهشياري المتوفى عام ٨٣١ هـ . وقد أخرجته للناس
هو وزميله الأستاذان إبراهيم الأياري وعبد الحفيظ شلي في حلة عربية قشبية ، ومطبوعا
لأول مرة بحلotype الحروف .

ولم تمكني كثرة العمل في العام الدراسي للتصميم من أن أفرغ قراءة هذا السفر
النفيس ، وإن كنت قد رجعت غير مرة إلى نسخته الأوربية للطبعة بالترتيب ، وكنت
هائلا بفناسة قدر الكتاب وعلاقته العلمية .

وقد استرحت في هذه الأيام من عناء العمل الرسمي ، وأصبحت حراً أفرا ما أشاء متى
أشاء . وقد رأيت أن أفرا الكتب التي وردت إلى ، والتي اهتمتها ، على ترتيب ورودها إلى
واقتراني لها ، فكان كتاب الوزراء والكتاب أحقها بالتقديم على كل حال .



والكتاب يتناول الكلام على خلق الكتابة والوزارة في الدولة الإسلامية منذ
قيامها إلى زمن الخليفة المأمون العباسي ، وما من أم خطط الدولة الإسلامية لذلك العهد .
ومع أن المؤلف قد أدار كتابه على هذين النظامين فهو من حين لآخر يفصل كلامه بإشارات
وتنكات واستطرادات لها قيمة علمية عظيمة عند من يمانى الأدب العربي والتاريخ الإسلامي
في صدر الإسلام ، هذا إلى أنها سهلت تناول الكتاب وخلعت عليه رواء القصة وجاذبيتها .
وقد وفق الأساتذة الناشرون للكتاب في نشره على الناس إلى حد بعيد ، فوضوؤه
مقدمة تترقى القارىء بالمؤلف وبأصل الكتاب ، وضبطوا لأن جهد استطاعتهم ، وحققوا

وشرحوا ما يحتاج منه إلى تحقيق أو شرح ، ثم ذيلوا الكتاب بنهاية استوعبت
الأعلام الواردة في الكتب وموضوعاته ، وردته إلى جنبه ردأ فيه دقة وفيه استقصاء .

ومن عادي عند ما أقرأ كتاباً طويلاً أن أتناول قلم الرصاص فأفيد بهامشه ما بين
لي من فائدة علمية ، وما عسى أن أستدركه على المؤلف أو الناشر إن كان ثم موضع للاستدراك .
وقد جريت على عادي هذا عند ما شرعت في قراءة « كذاب الوزراء والكتاب » فها
فرغت منه قراءةً وجدتني قديت بهامشه جملة تعديلات وملحوظات واستدراكات ، منها
ما أحفظ به نفسي وأعتد له رسائل ، ومنها ما هو في حقيقة الأمر نقد ثلثين في بعض
مواضعه أو استدراك على تحقيقات الأستاذ الواردة به . وقد لا يغفل هذا الصنف من
التعديلات من الفائدة لتعري من قراء الكتاب ، فأنا أنشئه على هذا الاعتبار وحده .

بهاء في متن الكتاب في ص ٩٩ ما مؤداه أن زاذان فروخ كان كاتب عبد الله بن زياد ،
وقد علق الأستاذ على ذلك بقوله : « لله عبيد الله بن زياد » والصحيح التبت أنه
عبيد الله بن زياد لا لعبد الله (الطبري : المجموعة الثانية ص ٤٤٨ من الطبعة الأوربية) .
و جاء في ص ١٦٨ : « وهو إذ ذاك بالرد والدار » يريد المؤلف تشبيه للكان الذي
مات به الخليفة المهدي العباسي . وقد علق الأستاذ على هذا الاسم بقوله إنه محرف ، وإتهم
لم يروا في أسماء الأماكن ما يقرب منه إلا ما ذكره للسعودي في أول ترجمة للمهدي من أنه
خرج إلى موضع يسمى « أرزن والران » فله عرف عنه . وأقول إن اللفظ محرف ،
لا شك في ذلك ، إلا أن الطبري وياقوت يسميان للموضع الذي مات فيه المهدي « بالرد
بماسيدان » فإن لم يكن الاسم حرفاً عن هذين اللفظين معاً ، فلا أقل من أن يكون قد
خلص لنا من كلام الطبري وياقوت اسم القرية التي هلك بها هذا الخليفة وهي « الرزد »
القريبة بالقرب من ماسيدان . وجاء في المتن في ص ١٩٣ : « ولوزير العروض شعر بهجوه »
عبد بن الأشعث « بكلم القتب » الخراساني وهو :

نهنم علينا بأن القتب كلكم . هذا لعمرى أبوكم الحكيم الدنيا

فكيف لم يحكم لثيث المصور إذا تركتم الناس ما كولا ومشروبا
هذا المروى ما يسرى إناوته يكلم القيل تصديدا ونصوبا

ويروى : « هذا السنيدي » فصر به محمد بن الأشعث ثمانية سوط .

وقد خلق الأساذة على هذا الخبر يقول مريد تهنيتي تحقير لسيده بالكسر بمعنى الذنب .
وقد أوردوا في آخر الكتاب رواية كتاب الورقة لهذا الشعر وهي تقول (هذا السنيدي)
وعندي أن رواية كتاب الورقة هي الرواية الصحيحة وتؤيدها رواية الأغاني « ج ١٨ ص ٢٣٨ »
كما يؤيدها معنى الشعر نفسه ، فإن السنيدي تصوير سدي والسدي هو الرجل المنسوب إلى
السدد وكانت القبة تجلب في ذلك الزمان إلى العراق من الهند .

على أن في الخبر المذكور آخا أغلافا أخرى منشؤها تحريف النسخ من غير شك ،
فقرره « وزير الروض » خطأ وصوابه « رزين الروض » وهو عامر كان معاصرا وصديقا
لدعلج وكان معروفا بزيادة أوزان شعره . وقد ذكره بهذا الضبط صاحب الأغاني في موضعين
من كتابه ، واعتد به عليه هذا المبتدع في القرن الأول من هذا العصر صاحب الأغاني ، كما
ذكره بهذا الضبط أيضا كما يقول الأساذة الناشر صاحب كتاب الورقة ولطفا الأديب .
والجسيم أن يقول الأساذة مما جاء في هذه البراسم ويأخذوا بما جاء في الأصل الذي نقلوا
هذه الكتب ، « بما جاء في فهرست ابن النديم وهو كتاب يحشو بالتحريف والتدوير »
ومحمد بن الأشعث المارد في الخبر المذكور صحت « جعفر بن محمد بن الأشعث » ، ولما
رجع القاري إلى سيقال لأن لوجه يدور على جعفر هذا الذي ولي خراسان الرشيد .

ويؤيده من موضع « مكرم الذنب » من الجلة أنها صفة لابن الأشعث ، مع أنها لقب
جند لابن الأشعث ، وكان رجلا من خزاعة على عهد النبي (ص) . ولم في تكليم الذنب
هذا قصبة أورد صاحب الأغاني (ج ١٨ ص ٣٧) ، وإذ فبارة النص ينهي لم تكون
هكذا : ولزبن الروض شعريه به جعفر بن محمد بن الأشعث . من بقى مكرم الذنب
الظاهر الخ .

وجاء في المتن من ٢٥٦ : « وكان يكتب النصيب أبو عبد الجليل بن داود البلاذري
لؤلؤة لكتاب البلدان وغيره من الكتب » وقد خلق الأساذة على قوله يقول :

« البلاذرى هو أبو بكر ، وقيل أبو جعفر ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان » .

والحقيقة أن البلاذرى صاحب كتاب البلدان لم يكن وقد بدأ وقت أن كان الخليفة بمصر ، أى حوالى سنة ١٨٧ هـ .

وأبو عبد الحميد بن داود اللذكوري في الخبر ، إنما هو جده كما يؤخذ من نسب البلاذرى الواردة في ترجمة البلاذرى منسوبة للقرطبي وولادة في مقدمة كتاب فتوح البلدان . قال : « هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود الهندى الكاتب ، ويعرف بالبلاذرى » ، وإذا فسرنا هذا الخبر لا بد أن تكون هكذا : « وكان يكتب للخليفة أبو عبد الحميد بن داود (جده) البلاذرى مؤلف كتاب فتوح البلدان » الخ .

وقال المؤلف في ص ٢٧٩ : « وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم في هدم إربل كسرى » ، والمظاهر أن هذا وم من المؤلف ، فالمعروف بالقرار أن قصة الشروع في هدم إربل كسرى إنما تضاف إلى المنصور وخالد بن برمك ، لا إلى الرشيد ويحيى . (الطبرى المجموعه الثالثة ص ٢٢٠ ، والمختصر ص ٢١٧) .

• • •

وعلى الأساندة على قول المؤلف في ص ٢٧ : « يأمر المؤمنين ، إنك لو بنت الوليد بحسم الأموال بين الناس ما رضوا عنه ، فكيف تبته جايماً ... ولكن والله للماون والصوائف يكن ذلك له شرفاً وذكرًا » . قالوا : « للماون الجنائيات والنظام ، والله يريد بالماون والصوائف ولاية القضاء والنزول » . وتفسير « الماون » بهذا المعنى إنما يصدق في المنصور الإسلامية المتأخرة . فأما في صدر الإسلام فالماون كانت عبارة عن الأموال التي كان يسطرها أصحاب السطاء الرسمى فوق عطايتهم ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : « ألا وإن قريشاً يريدون أن يخذلوا مال الله معونات دون عباد الله ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! » . (الطبرى ، المجموعه الأولى ص ٢٠٢٦) .

ومنه قول القتاتل :

نمن ضربا الأزدر بالعراق والحق من ربيعة للراق

وابن سهيل قائد النفاق . بلا معونات ولا أرواق

(الكامل للبرد ص ٧٦ طبع أوروبا) .

ولا شك أن إعطاء المال على هذا النحو مما يكسب مثل الوليد بن عبد الملك شرقاً
وذكراً كما يقول النص . وانظر أيضاً في هذا الصدد : كتاب فروع البلدان صحيفة ١٨٧ من
الطبعة الأوربية .

وجاء في ص ٥٧ : « فلما تولى سليمان كتب عمر وهو على قبره بمنزل أسامة بن زيد
وبنزل يزيد بن أبي مسلم . » وقال الناشرون استدرأ كما هل هذا : « وظاهر أنه يريد
يزيد بن الهلب . » والواقع أن المؤلف يريد ما يقول نوالصواب في جانبه ، ولكن الأستاذة
أخذوا برواية افرد بها ابن عدي ربه في كتاب العقيد ، ومؤداها أن سليمان بن عبد الملك
حينئذ يزيد بن أبي مسلم ، فبقى في جنبه مدة خلافته وخلافة عمر ، مع أنه لم يقل واحد
من أئمة مؤرخي المشرق بهذا المجلس الطويل : لا الطبري ولا ابن الأثير ولا ابن خلكان
الذي خص ابن أبي مسلم بترجمة وافية . بل يقول ابن خلكان ما يمتدح ابن سليمان أن يزيد
في جامعة خاوره فوجده قوى المعارضة ، وكشف عن ذمته فلم يتناقض عليه بشيء ، فاستحال
سخطه عليه إلى شبه إيجاب به ، حتى قدّم بما تحاذره كاتباؤه لولا أن ثبته من ذلك بعض
حاضري مجلسه . ثم إن يزيد بن أبي مسلم عزى نفسه بعد المنزل بالاشتراك في النزول ،
فلما ولي عمر بن عبد العزيز وعلم بذلك أمر برده من النزول ، وهو ما يقوله الجشتياري في ص
٥٥ . فالأخذ برواية صاحب النقد يوم أن المؤلف قد تناقض في أخباره وهو غير صحيح .

وجاء في ص ٨١ من مقطوعة لبند الحميد الكاتب هذان البيتان :

فليست تقتر من عيرة لها في الضمير ومن هامل

تقتض غرايات سكر الصبا ورد التقي عن الباطل

فنبط انشراح تقتر بالقاف الثلاثة من فوق ، وعندى أن الصواب والأبلغ أن قرأ
تقتر) باقاة للوحدة ، من قدر السحاب إذا مطر وفرغ ماؤه . وضبطوا عَنْ بضم أوله
وثانيه على أنه جمع عنان ، وأرى الأفضل أن قرأ (عَنْ) فتح أوله وثانيه ، بمعنى اعتراض ،
ولا سيما أن سيوريه ينكر أن يكسر عنان على غير أحته ، (اللسان مادة : عن) .

وأورد للزلف في ص ١٢٥ مقطوعة من الشعر لنبيد بن الجحاح مضمومة الروي ،
وأولها :

أمن سمية دمع العين مذروف . لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
ومنها هذا البيت :

لا تبك عينك إن الدهر ذو غير فيه ترقى ذى ألف ومألف
وقد ضبط الأستاذة قوله (مألف) بالكسر وقالوا إن في البيت إقواء ، ثم قالوا :
ولظاهره أنه دخيل على هذه الأبيات لأنه غير وارد في التصنيعة للنسوبة إلى عنزة (في
ديوانه وق كتاب الأغاني) . أما أن يحتج على كتاب الجهمياري بكتاب الأغاني وبالديوان
للمنسوب إلى عنزة فهذا ما لا يجوز ؛ فكتاب الجهمياري أقدم وأوثق من كتاب الأغاني
فضلا من الديوان للنسب إلى عنزة ، وهو يورد لنا للمقطوعة المذكورة في صورة من أقدم
صورها ويمزوها إلى قائلها الحقيقي ، وهو بذلك يصحح خطأ وقع فيه صاحب الأغاني وجامع
الديوان للمنسوب إلى عنزة . وأما أن في البيت إقواء فهو ما لا لزوم له ، بل إن ضم (مألف)
هو للتعين والواجب إذا راعينا قول الشاعر في صدر البيت (إن الدهر ذو غير) ، فيكون
معنى الكلام إن الدهر ذو أحوال . طورا يفرق الآلاف ، وطورا يجمعهم . ويكون
(مألف) مقطوعا على قوله (ترقى) ويكون بمعنى الإلف مثل مجهود ومعتول بمعنى المجهد
والعتل . وإذا استبعد الأستاذة ذلك أفلا يمكن أن يقال إنه محرف عن (تأليف) ؟ وأما
ما كانت الحال فإني أرى البيت منسجما مع سائر أبيات للمقطوعة معنى ووزنا وقافية .

وهلق الأستاذة على لفظ (النوبهار) الوارد في ص ١٩١ يتراد كلام لياقوت بين
فيه أنه كان بيتا للبرامكة في بلغ يعظمونه ، وأنهم كانوا يضاھون به بيت الله الحرام ، وأن
معنى النوبهار البهار الجديد ، إذ كانت سنتهم إذا بنوا بناء جديدا أو شريفا كلوه بالبهار
وهو الریحان . ولكن البحث العلمي الحديث الذي قام به بارتولد (دائرة المعارف الإسلامية
مادة برامكة) ووفات (رسالته عن البرامكة ص ٢٨) يدل على أن النوبهار كان معبدا
برفيا ، وأن لفظ (نوبهار) سنكريقي الأصل مؤلف من (نوا) بمعنى جديد و (فيهارا)
بمعنى بيت أو معبد ، وقد كانت الهند فيهارات كثيرة . فإن كان لا بد من إيراد ما قاله

كتاب العرب من هذا البيت ، فبحسن أن يروف ذلك بما يراه البحث العلمى الحديث
إتماماً لقائده .

وجاء فى متن الكتاب فى ص ٩٩ : « وما يشبه خبر عبد الله بن سوار هذا » وعلق
الأساتذة على ذلك بقولهم [فى الأصل : « وما يشبه خبر هذا عبد الله » الخ . والساقى يقتضى
تأخير « هذا »] . ولست أرى مع الأساتذة ذلك فتقديم اسم الإشارة على التعم للشار إليه
وارد فى الكتب القديمة ، فصاحب القهرى يقول : « وهذا خاله هو جد البراسكة »
(ص ٢١٠ من الطبعة الأردنية) ويقول : « وكان هذا سفلة رجلا بحرسيا » (ص ٢٣٢)
وأظن أن قوله رجلا من البرية وإذا فلا داعى إلى تغيير عبارة النص بالتقديم والتأخير .



ذلك ما قبله على هذا الكتاب النفيس ، وإن أرجو أن أكون قد قضيت بذلك
بعض مؤلفه وحق تأسريه وحق قرأته . وأقول فى ختام بحثى إن ما أخذه على الكتاب
بمواه أكان من ناحية للن أم من ناحية تحقيق الأساتذة ، لا يكاد يذكر بجانب ما فى
الكتاب من جليل الفائدة ، وما فى تحقيقات الأساتذة من عظم الإفادة والإحسان .

أبو العلاء السياسي

ولد أبو العلاء للرعى سنة ٣٦٣ هـ وتوفي في سنة ٤٤٩ هـ. محمد ولد، وفشا، وشب، و
واكنهل، وشاب، ومات، في زمن كان فيه العالم الإسلامي كله حائلاً بأفوار الاضطراب
السياسي، مليئاً بالآفات الاجتماعية والأخلاقية. في أقصى الغرب كانت الأندلس قد تقلص
عنها ظل الدولة الأموية ووقت في النوضى التي سبقت تكاليف الأسبان عليها وعلمهم على
انتفاص أطرافها. وشمال أفريقيا أصبح بعد زوال أموي الأندلس وانتقال القواطم إلى
مصر نهبا مقسما بين دويلات عربية وأخرى بربرية كانت لا تخرج متداخرة متناحرة.
ومصر والشام كائناً خاصتين للدولة الفاطمية وهي دولة على عظم شأنها، كانت تستند إلى
دعابة باطنية سرية، ظهرت آثارها في أيام الحاكم والمستنصر. على أن الدولة للذكورة أخذ
شأنها بدلالة الرابة يصف وخصاصة في الشام، مما جعل ذلك القصر نهبا لأعراب
البدو القرية منها ولعلوات الروم من جهة الشمال. وجزيرة العرب كانت قد حملت فيها
تعاليم الزنج والقرطبة قلب على أهلها التلصص وقطع الطريق والسطو على قوافل الحجاج.
وفي العراق وفارس كان سلطان الخليفة العباسي قد استحال اسمياً لا معنى له وكان الأمر كله
بأيدي بني بويه للخلفين على الخليفة وعلى البلاد. وكان حكم هؤلاء ملوثة التعسف
والاستبداد والظلم، وهذا إلى إضمار بعضهم على بعض، ووقوع الفتن في بغداد بين
عصبيتهم من العرب وبين الجند الأتراك. إلا أن الحال في أقصى الشرق كانت خيراً منها
في سائر الأقطار الإسلامية، فقد قامت به دولة فنية قوية حملت على الفتح والتوسع ونشر
الإسلام في الهند، تلك هي الدولة الفرتوية المشهورة. على أنها كانت دولة قامت وأنست
محمد اتسيف، فكان لاؤها مستعداً في أغلب الأمر من قصدة السلاح وبريق السيوف،
والخلاصة أن العالم الإسلامي في مصر للذكور كان قد أحل نظامه واندم منه الوازع
السياسي والديني أو كاد، فانتشر الفقر واليأس، وعم الظلم والفساد، وأكل القوى الضعيف.

* * *

عاش أبو العلاء في ذلك العصر وتأثرت فيه الحساسة بما آلت إليه أحوال الناس وخاصة منذ عاد من بغداد سنة ٤٠٠ هـ ولزم داره بالمرّة يصف ويُدرس لتلاميذه الذين كانوا يفلدون عليه من مختلف الأقطار للأخذ عنه . وقد صور في نثره وتروميّاته تلك الحال تصويراً وجيزاً ولكنه يليق . فانظر كيف يصف تطاول أعراب الجزيرة والشام إلى اقتسام البلاد بعد أن ضمّ أمر السعديين وما شمل الشام أيامئذ من الإحن بسبب عدولهم ، فيقول :

أرى حلباً حازها صلح وجال سنان على أنبأ
وحسان في سلقى حلبي يصرف من عنده أبناً
فلما رأت خيلهم بالنهار ثامناً على جيوشهم هلقاً
ومت جامع الرمة للقتل م فأصبح بالدم قد خلقاً
وما ضح الكعاب السبأ ه هام على غضب نقلاً
وطال تقبيل غم يذكر وغل أسير فما أطلقاً
وكم تركت أهلاً ووحده نوكم غادرت سدياً معلقاً
يسأل في الحى عن ماله وما تقول في طائر علقاً ؟

ويقول أيضاً في هذا المعنى

ألقنا بلاد الشام إلف ولادة تلاق بها سود الخطوب وخمرها
فطوراً نندأ من سبيمة لبها نوحياً نصادى من ربيعة غمرها
وددت بأنى في عناية قار تماشرفى الأروى فأكره قرها
فإنى أرى الآفاق دانت لظالم يتر بناياها ويشرب خمرها

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء رسالة ينهيه فيها عن الخروج للحج في عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، وأن الجهاد في تلك الحال خير من الحج ، فما كتب به إليه : « وسفر سولاي إلى الحج في هذا العام حرام بطل ، كما حرم صوم عبد النضر ، وحظر على الحرم تضمخ بعلر ... وهو — أدام الله تمكيته — أمين من أمناه المسلمين ، يرهف الشوك ، ويستعيد الأمانة ، ويحمن ما وهى من سور أو شرفات ... ومن لحياطة الرعية بمداميك المرد ... وإجراء السعد

لحفظها والتدبر ؟ - وحلب - حرسها الله - قد صار فيها دباط يفتن ، وجواز يرغب فيه ويتنافس ، ولا يلبث أن يزول بانتقاد المدة ، وعودة الجامع كله الروم إلى كرسيه من بزنطية .

ويقول في قتال الأكر بالحجاز والشام والعراق :

أما الحجاز فما يرجى للقيام به لأنه بالحرار الخس محترج
والشام فيه وقود الحرب مشتمل - يشبه القوم شدت منهم الحزن
وبالعراق وبيض يستهل دما وعارض بقتل الشر يرتجز
ويشير إلى حقيقة أسر صاحب الزنج بالبصرة والقرامطة بالبحرين فيقول :

إنما هذه للأذهاب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

غرض القوم متعة لا يرقون لدمع الشام والخسبا

كأنني قام بجمع الزنج بالبعدرة والقرمطي بالأحساء

وهو لا يهبره بريق الدولة الفزوية ولا الأوهام يقول في ملكها الشهيرين محمود ومحمود :

محمودنا الله والمحمود خاتمه فقد عن ذكر محمود ومحمود

ملكنا لو أني خيوت ملكها وعود حلب ، أشار العزل بالعود

وكا تشير هذه الأبيات إلى علم أبي العلاء بأحوال الشرق الإسلامي فإن رسالته إلى

ابن حزم الأندلسي وداعى الدعوة القاطني وكلامه على ابن حزم الأندلسي في رسالة التنفران ،

كل ذلك يشير إلى اتصال أبي العلاء بالشرق الإسلامي اتصاله بـ مشرقه . وأبو العلاء يحمل

حكمه على للشرق وللغرب بالتقوى السياسية والفساد والبعد عن الإصلاح في قوله :

وأجبت الناس في عجز ومزج تحولة بين حـمـلـة وتزل ومزج

فشان ملوكهم عزف وتزف وأحباب الأمور جباه خرج

وتم زعيمهم إنهم مل حرام النهب أو إحلال فرج

وأبو العلاء يصرح بأن القلة القريبة في هذه القوضى وذلك الفساد إنما هي نظام لللك

للسبب الشوم القائم على التفر والتغلب والوقعة والدهاء :

ونس النفس بالهواء فما يدفك جيل يفتاد طوع وهما
 قالوا قلان جيد لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيد
 فأمرهم نال الأمانة بالخفا وحقهم بصلاته مصيد
 وهو يرأ بنفسه أن يكون حاكما من هذا القليل :

لا كانت الدنيا قلبس يسرى أنى خليقم ـــــــ ولا عمودها
 ما سرى أنى إمام زمانه تلقى إلى من الأمور مقاد
 أسر إن كنت محمداً على خلق ولا أسر باني لك محمود
 ما يصنع الرأس بالتيجان يفتدها وإنما هو يد للوت جلود
 وما اختار أنى لك يجي إلى لال من مكس وخرج

وهو يسلك إلى إصلاح الطغاة للستدين طرقاً شتى من الترفيق والترهب . فارة
 يجب إليهم التقوى والصلاح :

والراج تقوى الله لا ما دعووا ليكون زيناً للأمير القانع
 يا مشرع الرمح في تثبيت مملكة خير من للارن الخلقى مسلح
 وتارة يخوضهم عواقب الظلم ورواقه :

خفف دعوة للظلم فعى سرية طلفت لجات بالاذاب النازل
 عزل الأمير عن البلاد وماله إلا دعاء ضيفها من عازل
 والظلم يحمل بعض من يسى له وحمل قنمه بنفس الظالم

وتارة يحذرم تصرف الأقدار وتقلبها بالناس رقما وخفضا :

أيا وإلى للمصر لا تظلمسبن فكم جاء متلك ثم انصرف
 لا يفتح لللك الجبار من قدر ينير الخلال ما أجدى وما جاسا
 ولو غدا الكوكب للريح في يده كالمهم واتخذ للوريس برجاسا

وتارة يسلك طريقته السنية فيذكرهم للوت الذي يأتي على جميع الناس فلا يبق
منهم إلا سيروم وذكر مات أعلم :

حوادث الدهر ما تنفك غادية على الأنام ، بالباس وتليس
الوت بكسرى ولم تترك مرزبه وبالسافر أودت والقوايس
أودت حينئذ وحسب باردى حسنا . وواجهت آل عباس بتميس
على أن أبا البلاد ينهب إلى أيدى ما ذهب في تلليل القومى والفساد ، فيبين أن البقة
للهمدة والسبب الجوهري في ذلك أن للوك والتلطين لم يدركوا أنهم في حقيقة الأمر هم
الرمية وأجراؤها وخدائها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستنده :

مثل للقمام فكم أعاثر أمة أوت : ينير صلاحها أمرؤها
ظلموا الرمية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أبرارها

إذا ما تبينا الأمور تحكشت لنا وأمير القوم - القوم خادم
وهو ذلك بمنزلة الطاعة غضب الأم وثورة الشعوب :

أعاذل أن ظلمنا للوك فمن على ضمنا أظلم
تساعت قرش إلى ما خطت واستأثر للترك والديلم
وهل ينكر العقل أن تدب باللك غانية غلم
وما ظفر لللك في جيشه سوى ظفر باردى يغلم

لو بحث للصور نادى أبا مدينة التسليم لا تسلى
قد سكن القفر بنو هائم واعتزل لللك إلى الديلم
لو كنت أدري أن عقيم ذلك لم أقتل أبا سلم
قد خدم الدولة مستقصا فألبسته شعبة الظلم
ما دام غير الله من دائم فأغضب على الأندلس أوسلم

فأبو البلاد بقرر للبدان السليبين الأساسين : سلطة الامة ، وانتخاب ولاة الأمور ،

وهو من أجل ذلك يفتي على الشيعة بمذهبهم السياسي في القول بأن الخلافة نص وتوقيف
وليت بشورى ، ويندد برأيهم في الإمام المنتظر :

«هنا سيميلكتنا إمام عادل يرى ألعوفيا بهم صارو

والأرض موطن شره وضلالتهم ما أصبحت بحرور يوم قارو

على أن ويمقرطية أبي البلاد فصل اتصالا وليقا بأعظاده في الاعتراف كية الإسلامية
فواء أكانت وجبة لله وذلك من حيث الزكاة . أم إسلامية تاريخية . وذلك من
حيث حبس الأرض وتوزيع ثمنها على المستحقين فيها لله هو يقول في أسر الزكاة :

وأحب الناس لو أطوا زكاتهم . لما رأيت في الإطام شاكيا

ياخوت ما أنت بقوت ولا ذهب فكيف تصبر أقواما معاكيا ؟

لأن تمس قهر ليا كين قد تمكروا والضاكين فخرط المهمل بأكيما

لا يترك قلبه لغيره من نال في الأرض تأييدا وتمكينا

ويقول في أسر الأرض :

للك في من ينظر ينيل مني يردده قبرا وتضمن فيه الدركا

لو كان لي أو لغيري قيد أمة فوق التراب خللت الأمر مشتركا

الأرض لله ما استجبا الخلل بها أن يدعوها دم في الدار أضياف

تنازعوا في عواري قيتهم قبل حكام وأرماع وأسياف

إن خالفوك ولم يجر خلاصهم شرأ فلا بأس أن الناس أنياف

واليت الأخير يشير إلى أن أبا البلاد لا يرى بأما بقاء القديم على قدمه إذا كان

تغييره يجر إلى شر .

ولأبي البلاد رأى في كيف تصطنق (اليوتويا) أو الجماعة السياسية الثالية . وهو

يضمن رأيه هذا قوله :

أن أكلهم فضلا واعتبروا لافلا يدخان وال عليكم

لا تقولوا أموركم أيدي الناس إذا دوت الأمور إليكم

وهذان اللحيان ينتظرا إلى ما قال به التجذات من انطوارج لجل أبي العلاء ،
قد أجمروا على أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناقصوا فيما بينهم ،
فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحلهم عليه فأقاموه جاز .

• • •

ثمأبدا ، فسك ود الحسكاه من قديم لوروى التلافة شئون الناس ، ومن حسن الحظ
أن في سيرة أبي العلاء أحواراً ترجح أنه ولي شئون اللرة فعلا . فلهوى أنه عندما بصت
للرة على صالح بن مرداس أمير حلب ، سار إليها صالح وحاصرها وأرهب أهلها بالحصار ،
فسال الناس أبا العلاء أن يخرج إلى صالح ويكلمه في رفع الحصار ، فخرج أبو العلاء إلى
ظاهر اللرة ولقي صالحا وكلام رقيق أثر في نفس صالح فأمر بالكف عن القتال وقال
لأبي العلاء : « قد وهبتك » . وظاهر هذه العبارة يحتمل أن صالحا قد غنا عن اللرة من أجل
شفاعة أبي العلاء كما يحتمل أنه قد وهبها لأبي العلاء فعلا وأنه أفضله إياها على نحو ما كان
مألوف في الدولة الإسلامية في ذلك الزمان . على أن الذي يرجح الاحتمال الثاني نص صريح
وارد في رحلة الرحالة الفارسي نصر خسرو ، قد زار للرة في عام ٤٣٨ هـ ووصف في رحلته
ماشاهده فيها فقال ما ترجمه (وكان بها رجل ضرير يدعى أبا العلاء ، وكان أمير البلدة ،
وله من النعمة والمييد والغنى ما يستكثر . وكان جل أهلها كالعييد له ؛ إلا أنه سلك طريق
النسك وتردى ببرجد في بيت ، وكان يأكل كل يوم نصف من من خبز الشعير لا غير .
وبلغنى أنه فصح بابه ، ويتولى عنه نوابه وعمله أمور البلدة إلا فيما يهم فيرجعون إليه . وهو
لا يمنع أحدا مما آتاه الله ، ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه بشيء من أمور
الدنيا وقيل له : إن الله خورك ما ترى من المال والنعمة ، فلماذا تعطي الناس وتبذلهم
ولا تمتنع أنت بنفسك ؟ قال : ليس لي منه إلا ما أتبلغ به من القوت لحسب . ولما وصلتها
كان حيا يرزق^(١)) ولقد ضمن أبو العلاء بعض لزومياته الاعتراض الوارد في النص المذكور
وجوابه عنه قال :

(١) انظر كتاب « أبو العلاء وما إليه » للأستاذ الشيخ ص ٧٨ .

سوت لي قضى أموراً وهيها ت لقد خاب فلك التسويل
وإنهاى بالمال كف أن يطا ب متى ما يقتضى التويل
ويقول التواء خوك ه كذبتهم لتورى التويل
إن جاك القدير كالتيل تورا فليفضض العطاء والتويل
لا تمول على اختزان فالب هـ الصفر إر ميت عويل

فإذا ضحت هذه الأخبار ، ولا غاملاً إلا صحيحة ، يكون أبو العلاء قد ظفر بحقيق آرائه
السياسية التي ضرورتها آتيا ، ويكون الحظ قد اصطفاه من بين الفلاسفة جميعا ، لحقق على
يديه لمدة قصيرة من الزمن ، خيالا من أروع أخيلتهم ، وحلا من أقد أحلامهم .

ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء المعري

يقول أبو العلاء في بعض تروميّاته :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وهنّدى من أخبارهم طرف

فهو يدعى أنه ما من أمة وجدت في هذه الدنيا إلا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف شيئاً من تعاريف أحوالها . والحق أن أبا العلاء لم يصطنع اللبّانة ، ولم يركب متن الشطط . عندما ادعى هذه الدهرى . قد أدرك من أول أمره أن اللعانة الجبّانية التي لحقت منذ طفولته لا شك ما فتته من معرفة الطبيعة الإنسانية من طريق البيان والشهادة ، غير أنه فطن إلى أن في وسعه أن يتدارك ما فوته عليه هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على حاض الإنسانية للطور في تاريخها ، والطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بعد بهم العهد أم قرب . ذلك أصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم نجد يزداد به ولعاً عند رجوعه من بغداد إلى بلده ، واعتزله لزوم ثأني محبيه وهو يثبته . فإن أبا العلاء لم يرد بالبرقة أن يضرب يده وبين الناس حجاباً كشفاً بحيث لا يرام ولا يروى ، وإنما أراد بالبرقة أن يكون بنجوة من غلظتهم وملايئمتهم ، وأن تحتاج له حرية درس أحوالهم ونظمهم ومصابير أمورهم دون أن تمتد إليه أيديهم ، ودون أن يمرضوا له بما يوجب له شغل انظارهم وطم القلب وقتنة النفس . فكأنه أراد أن يقطع صلة بالناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى ، ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والتاريخين ، أى من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه إذا كانت الضرورة هي التي قضت على أبي العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حجب هذا العلم إلى عقل شاعرنا الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون آلة العلوم وأشدها امتناعاً حتى ورد الإنسان ساحته وقلب صحافه بفهم ذلك وقلب سليم . هو موكب الأمم ومعرض الحياة الإنسانية ، فيه تبين مواطن للضعف والقوة من تلك الحياة ، وفيه تظهر أسباب عظلة

الشعوب وأسرار انمحلها، في حكمة الحياة وانحة لا ليس فيها ولا إيهام . فإذا كان أبو العلاء قد أمهل على التاريخ يقلو صحافته ويستخرج هبة فإن ذلك إنما كان عن ضرورة أول الأمر ثم عن حب له وشفق به أخيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ما وصلت إليه في أيامه أي من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس الهجري . فإذا كانت حدود هذه الرواية ؟

تستبعد إعدادات الرواية التاريخية العربية في القرن الأول الهجري ثم نمت نحواً مطرداً وتوسعت تنوعاً يبيناً في القرون الثلاثة التالية . فتدونت أخبار العرب قبل الإسلام وأخبار الأمم التي كان العرب اتصل بها كالفرس ، والروم ، والهنود ، والصينيين ، والأحباش وكل ذلك كالدخل إلى التاريخ الإسلامي ، ثم دونت سيرة الرسول عليه السلام وأخبار للنازي والفتوح وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وما تفرع عن الأخيرة من دولات عدة بعضها في الشرق كالطاهرية والساسانية والنزوية والبويهية والمجديانية وبعضها في الغرب كالطولونية ، والأخشيدية ، والإدرسية ، والفاطمية . وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر أكثرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذي عقده للإخباريين خاصة . وقد علم لنا من هذه المؤلفات شيء غير قليل ذكر منه كتاب السيرة لابن إسحق تهذيب ابن هشام ، ومغازي الواقدي ، وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة ، والدينوري ، والبلاذري ، واليعقوبي ، وتواريخ الطبري ، والصول ، والسمودي ، وأبى الفرج الأصفهاني ومسكويه . لا شك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب إن لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المدرسة والادبية وحلب ودار العلم ببغداد . ولا أدل على صحة اطلاع التاريخ العام وأخبار العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامي من كثرة استشهاده في نثره وشرحه بالحوادث التاريخية كثرة راحة ، ففي الرسالة التي يرمي فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة عن أخيه ، نجده يسرد أسماء الأنبياء من لدن آدم إلى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وفسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل السيرة والوعظة ويبان أن كلا منهم قد صار بسد المز وعلو الشأن إلى الموت والقتال . ونجده في « رسالة الفئران » يخبر في القصيدة السينية التي قالها على لسان الجني « أبي هنرش » كيف

استنوى هذا الجهد في جعله كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة إلى أن بعث الله
 نبيه محمداً (ص) فأمن به وصدق واشترك معه هو وقومه من الجن في غزوات بدر، وأحد،
 والخندق، كما اشترك بعد في وقائع اليرموك والجل وصفين والنهروان. وكثيراً ما يورد
 أبو العلاء في «رسالة النفران» تعليمات وإشارات إلى الفرق والنحل الإسلامية من سنة
 وشيعة ومعتزلة ومرجئة كما ذكر الزيج والقرامطة والخيارين أبي حنيفة والنصوريين والملاحج
 ومن الطريف أنه ساق في آخر رسالة النفران كلاماً على الدنانير والعملة الإسلامية، فيه
 تفصيلات لا نجدناها في كتب التاريخ التي بأيدينا. وتفيض «الزرويات» بذكر كثير من
 ملوك الفرس والروم والمند والمين وحوادث الدولة الإسلامية وتلكها من نحو محمود ومسعود
 والنزوين والإخيد وأبيه طنج وجد جف كما تذكر خاقان وخان وآل (ع) أيلك).

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي مادة انتفع بها إلى أبعد مدى
 في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه للنشور والنظوم، فقد وجد في حوادث عصره مادة
 غزيرة أكتبت شعره ونثره حيوية هجينة، وأسد بما أعانه على تكوين رأيه في السياسة
 ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام. ونستطيع أن نقول إن شعر عبادة وصدر كهولته الزارة في
 ديوانه «سقط الزند» يتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره، بل هو صدى لحوادث ذلك
 العصر. وفي وسع من يقرأ «سقط الزند» و«الزرويات» أن يقين بصورة واضحة لحوادث
 الشام خاصة في زمن أبي العلاء.

كانت مرة الثمان ممدودة من الإقليم المعروف «بالعوامس» والواقع على تخوم الدولة
 الإسلامية مما يلي مملكة الروم. وقد أصبحت حلب إذ ذاك قاعدة ذلك الإقليم، وكانت
 محتازة بين متأخري أمراء الدولة الحدانية وبين الدولة القاطمية للصرية فينلب بنو حمدان
 على أسرهم ويستولون قضاة على حلب، ولكن سرعان ما ابرزت قضاة أسرة هرية
 بدوية هي الأسرة الرديسية، فاستولوا على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة هالغ بن
 مرداس الكلابي. وقد نبت للمرة حلباً فيما اختلف عليها من الأحوال، فلك نجد
 أبا العلاء يمدح أمراء حلب على اختلافهم من حدانية وقاطمية، فيمدح الأمير سعيد الدولة
 الحداني بالقصائد الأولى من «سقط الزند» كالتصيدة اللامية الأولى التي مطلعها:

أمن وغد القلاص كشفت حالا : ومن هذ الظلام طلبت مالا
 كما يمدح ولاد القاطنين على حلب في قصائد أخرى منها السينة التي مطلها :
 لملا نحية بعض الأرج الدرس ما هاب حد لاني حادث الحبس
 ثم إن أهل للمرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب الرأه التي أهانتها خمار نصراني ،
 فذهب إلى للسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالوا قاروا بالحجار وأتهبوا حاتوه
 وهدموا ، وإلى هذا الحادث يشير أبو العلاء بقوله في التروميات :

أنت جامع يوم القروية جامعاً تقص على الشهاد بالمر أسرها
 فلم يقوموا ناصرين لصوتها غلقت سماء الله تطر جرها
 فهدوا بناء كان يأوى فنازه فواجير أقت للقواش خرها
 واضطل الخطب عند ما أشار على صالح وزيره النصراني « تادرس » وكان
 حقيقاً على أهل للمرة باعتقال سبعين رجلاً منهم ، وسار صالح إلى للمرة فأخرج إليه أهل
 للمرة أبا العلاء شفيهاً فشفه صالح وأطلق له الأسارى السبعين سنة ٤١٨ ، وإلى ذلك يشير
 أبو العلاء بقوله في التروميات :

تخيت في منزل برهة ستر الميروب قيد الحد
 فلما مضى السر إلا الأقل وهم لوى فرق الحد
 بنت شفيهاً إلى صالح وذلك من النوم رأى فند
 فبسع من سبع الحمام وأسمع منه زفير الأسد
 فلا يجيني هذا التفات فكيف فقت عنة ما كد

وبالمحلال فوذ القواطم في الشام أصبحت الشام نها قبائل العرب للتبدي من
 لبن الجزيرة إلى حدود مصر ، وخاصة قبائل كلاب وطى وعامر ، وإلى ذلك الحادث
 يشير أبو العلاء في آياته الثانية التي أولها :

أرى حلباً حازها صالح وجال سنان على جلقاً^(١)

- وإذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، فإنها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية أبي العلاء ، ناحية حبه لوطنه ، وحرته لما يصيب هذا الوطن ، واستمداده لأن يخدمه بتقوده الأدبي عند الاقتضاء ، ونوى أشعار تألفت وشعره القدي قاله وهو في بغداد يتشوق بلده للمرة .

على أن لوطية أبي العلاء مظهر آخر ، لقد كان للشام في زمانه عدو أجني يحسن القرمز للاقتضاض عليه . ذلك العدو هو الروم ، وكان الروم بعد زمان سيف الدولة والعتبات الأكر بالشام قد استولوا على أنطاكية سنة ٣٥٠ ، واستولوا بعد على اللاذقية ، وذلك في أيام أمير الروم فتقود فوطس ، ثم أخذوا يمدون أمهين إلى حلب . وكان سيد الدولة الحمداني وولاء القاطنين يداومونهم جيد طاقهم . وهنا نجد أبا العلاء يسخر فنه لا غلطة لوطنه غيب ولكن غلطة العالم الإسلامي كله ، فهو في مدائح لهال حلب يشيد دائماً بخاتمهم الروم ، فيخاطب الأمير سعيدا الحمداني (٣٨١ - ٣٩٢) بقوله :

حفظت للبلدين وقد نالت - سحاب تحمل القلوب الثقلا -
وقيت عيالم إذ كل عين - تعد سواد ظاهرها عمالا -
وقت لا يطيق لايث فيه - مسورة ولا السيد اختالا -

وبقوله :

إلى حارم قاد القلق سواها - لما من نشاط بالكافة زوال -
بني القندر هل أتيتم الحرب مرة - وهل كف طمن عنكم ونضال -
وهل أظلت سم الليالي عليكم - وما حان من شمس النهار زوال -
وهل طلعت شمس التوامس عواليا - وهل تراهي خلقهم رعال -
فإن تسلبوا من سورة الحرب مرة - وتصمكم شم الأتوف طوال -
ففي كل يوم غارة مشعلة - وفي كل عام غزوة وزال -
إلى أن يقول في الخليل :

يرون دماء الروم وهي غريضة - ويتركن ورد اللاء وهو زلال -
وقد علم الروي أنك حقه - على أن بعض اللوقين بخال -

وكان الشيخ أبو الحسن بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إلى
أبو البلاد ينهأ عن الحج في علمه ويريه أن الروم طلب والمرصاد ، فمن ذلك قوله : « وسفر
مولاي إلى الحج في هذا العام حرام بئس كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على الحرم تضييق
بسطر ... وهو أدام الله تمكينه ... آمين من أمانه للمسلمين يرفع الشوكة ويستعيد الأمانة
ويحمي ما هم من سور أو شرطت ... ومن لحاظه الرحمة بعبادك للدر ... وإجراء السعد
لحفظها والتقدير ، وحلب جرسها الله قد صار فيها رباط ينتمى ، وجاز يرغب فيه ويتنافس ،
ولا يلبث أن يزول بانقضاء المدة ، وعودة الجامع كله الروم إلى كرسبه من بزخية » .

فقصائد أبي البلاد الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بدمج أسرار حلب للناظرين للروم
تجري بحرى قصائد الخبي للروقة بالسيفيات والقصائد الروميت لأبي فراس الحمداني وهي
سلسلة من من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية على أن أبا البلاد كما يميل إلينا كان
يلحظ فيها بيه وبين نفسه أن روح الجهاد قد فتر عند المسلمين وعند قومه خاصة وأنهم أمام
استيلاء الروم وكليهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم . وقد أحسب أن يمرر عن
هذا الاعتقاد الذي استقر في نفسه من طريق الكناية والرمز فنظم تلك المجموعة التريية من
القصائد للروقة « بالمدحيات » والواردة في آخر « سقط الزند » فالبرج أداة وقاية لاسلح
هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا في تحليل إنشائه هذه القصائد فإن يكن ظننا صادقا
فقد أبدع أبو البلاد الرمز وأجاد الإشارة .

ويستعرض أبو البلاد جملة أحوال العالم الإسلامي لهده ، فيرى حالا لا تسره من ظلم ،
واضطراب ، وقر ، وطنيان . ويحتج أن يطلب تلك الحال فيذهب إلى أن اللوك والتخليين
لم يتركوا أنهم في حقيقة الأمر خدام رعايهم وأجراؤها ، وأن الشعوب مستقر السلطان
ومستبد :

مل للقام فكم أعانر أمة أسرت بغير صلاحها أسراؤها
ظلموا ازرية واستجازوا كيدها وعدلوا مصالحها وهم أجراؤها
ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس بأداء الزكاة للفروضة عليهم شرعا :
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما أيت في الإعدام شاكينا

فأقوت ما أنت فأقوت ولا ذهب فكيف تعجز أفراما ما كنا
ويرى أن الأرض قد لا يبعث تملكها :

الأرض قد ما استعيا الحلول بها أن يدعوها ويم في الدار أضياف
تسخرها في هوارى فيهنهم قبل حطام وأرماع وأضياف
ويرى أن في إسكان الناس أن يصلوا إلى « المدينة الخاصة » أو « البيوتها » أو الجماعة
السياسية للتألية إذا سلوكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :

إن أكلتم فضلا وأغقم فض . لآ فلا يدخلن وال عليكم
لا قولوا أموركم أيدي النساء إذا ودت الأمور إليكم

• • •

وكا وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه وللأمر له مادة غدت فيه الأدبي وأعابته على
صوبغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وقد وجد فيه كذلك مادة لأرائه الفلسفية
الخاصة به . لقد عرض توارخ الأفراد وللوك والأهم وما يختلف على الناس من أحوال فوجد
كل ذلك لا محالة متشعبا إلى العدم والفناء ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بسلية حياوية
مركبة تقيحها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم يرق سوى الناس سوى جهود عقيمة :

حودث لدمر ما تنفك عادية على الأنام بالباس وتلبس
أوت بكسرى ولم تترك سرازيه . وللمنابر أودت والقوايس
زارت حيا وحسنت باردى حسنا . وواجهت آل عيسى عيسى

والليل والنهار عند شقامقراض يأتين على كل شيء :

الصبح أصبح والظلام كما تراه أمم حاك
ينهار بان ويسلكا . إن إلى الردى ضيق للمالك
أسدان يقتربان من سرا به قابله ذلك
حلا للمالك عن ردى فاض إلى خان وآك

والشر ، لا الخير ، هو الغالب على الناس .

والأرض موطن شره وضئان ما أصبحت بهرور يوم فارد

هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتسميه إياه .. هو تغيير رجل منشأه لا يرى في
العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستجمل القناء والدم ويبتغ من الزواج
الذى هو وسيلة النسل وبقاء النوع .

تواصل جبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلوى بلاء
وهو سعى الظن بالناس زاهد فيهم :

وزهدنى في الناس سرفقت بهم . وعلى يأتى المالمين هباء

نحيك من خلاط الناس فاحذر أقاربك الأدنى واحذر

وإن أنا قلت لا تحمل جرأاً فخر أخا الفاسق واضربنى

إلى أى شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل إن مزاج أبي العلاء للتأثر بحياة الفنى أخذ نفسه بها بعد هودته من
بنداد هوالة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لآلة تلك الحال . فهو
إنما أخذ نفسه بحياة الزهد والتقصف البالغ بعد أن بلغ الأربعين وبعد أن استكمل خبرته
بالناس . إذا فخيرته بالناس وفي القديم وفي زمنه هي علة تشاؤمه . هي علة التأرجح كما وصل
إليه وكما عرفه .

قد كان علم قدماء للزورخين من الإغريق والرومان بالإنسان وحياة فاضراً قصوراً بيناً
قد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الأسرة أو القبيلة أو للدينة أو طبقة بينها ، ومن
شأن التاريخ إذا بنى على هذا الأسس أن يكون قائم اللون مليئاً بأخبار الفتن والثورات وظلم
الإنسان للإنسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض . فلما اطلع فلاسفة الإغريق والرومان على هذا
التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في
ذلك نظريات أفلاطون والرواقيين والأبيقوريين وصنيق ومارك أوريل . ففهم من رأى أن
العالم ينتقل في أدوار زمنية يفتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لا يزال يتدلى ويضعف حتى
يختم بحال فوضى واضمحلال ، ثم يفتح دور آخر وهم جرا . ومنهم من رأى الإنسان محدود
القدرة مضروباً بينه وبين قوى لا أحد لقدرتها هي الآلهة يطلق لا سلطان له عليه . ففضة

فلاسفة الإغريق والرومان قصة حزن وبأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام ، ثم جاءت
المصور الوسطى الأوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يؤمنون أن هذه الدنيا دار
بلاغ وأن الآخرة هي دار القرار وأن السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وأن الحياة الآخرة
هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فآزاد الناس ضيقاً بالحياة وأصبح شعارهم الزهد فيها
وتعنى الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لا تختلف في اختصاصها العامة عن الرواية
الغربية . والمجتمع الشرق القديم لم يختلف اختلافاً جوهرياً عن المجتمع الإغريقي الروماني
القديم ، ومن ثم كانت نظرة حكماء الشرق نظرة بأس وحزن وتشاؤم . بفكرة الأدوار
التي تحدثنا عنها عند مفكرى الإغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تتفتح
بمجيئ نبي أو رسول وتنمى بقيام آخر الإيمان بحياة مستقبلية يتم فيها للؤمن ويخلص
خير ما يتمزى به للؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا .

لم يلحظ القدماء على السوم أن الإنسان ابتداءً ضعيفاً ثم صار بقله واجتهاده وقوة
برادته يرق شيئاً فشيئاً ، ولكنهم خصروا بنيانهم ضعفه أمام عوامل لا سلطان له عليها مثل
التقضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى .

وبعد : فأبو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج للمفكرين القدماء من للشارقة وللغاربة
على السواء لأن الملة واحدة في الماثلين . على أن تشاؤمه وبأسه ينطويان على حب حقيق
للإنسان والإنسانية . وإذا كان أبو العلاء شديد الرق بالحيران فلا شك أنه كان في أعماق
نفسه أشد رقة بالإنسان .

السلطان يعين الدولة

محمود الغزنوي

٣٨٧ - ٤٢٢ هـ

علم من أكبر أعلام الشرق ، رفع معار الإسلام عاليًا وعاد في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس دولة غنية انتظمت الركن الشمال الغربي من الهند ، وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس ، ونشر لواء العدل في تلك الدولة للقرابية الأطراف وناصر فوق ذلك العلوم والفنون والآداب مناصرة قلما نجد لها مثيلا في التاريخ .

• • •

والسلطان محمود من أميل تركي ، وقد ظهر الجنس الترك على مسرح التاريخ الإسلامي في أوائل القرن الثالث الهجري عندما انتضت سياسة الخلفاء العباسيين الاستظهار بالترك على الفرس الذين كانت لهم مطاعم قومية قوية ، وعلى العرب الذين صيرتهم عصيتهم القبلية أداة لا يستند عليها في سياسة الدولة وتدير أمورها . ولترك في تاريخ الدولة الإسلامية صفتان متباينتان كل التباين ! صفحة مظلمة حالكة الإظلام تضيئها في استبداد الخند التركي بالخلفاء العباسيين في القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع ، وإذلالهم أيام أيما إذلال ، عزلا وتولية وسجناء ومثمة وتمذبا . أما الصفحة الأخرى فشرقة رائحة الإشراق ، تضيئها في قوة اعتقادهم للإسلام وشدة إخلاصهم له ، وفي انتصارهم للذهب السني بعد أن استلمت عليه للذهاب الأخرى من تشيع وباطنية واعتزال حتى كادت تنقضي عليه وتذهب به كل ذهب ، كما تضيئها في شدة دأبهم على نشر الإسلام في الأقطار الوثنية ، ومكافحتهم أعداء الدولة الإسلامية من الروم والصليبيين والتتار ، فالغزنويون وأقباؤهم نشروا الإسلام دينًا ودولة في الهند ، والسلاجقة ردوا إلى للذهب

(*) ولد في سنة ٣٦١ هـ وتولى الحكم بجزرة سنة ٣٨٧ هـ وتوفي في سنة ٤٢١ هـ . والغزنوي نسبة إلى مدينة « غزنة » عاصمة أفغانستان الإسلامية القديمة ، وفتح جنوبي مدينة كابل الحديثة .

للسنن طوبه واعتباره ، وصدوا الروم ، وتنازلت أنانيكهم الصليبيين في الشام وكسروا شوكتهم وقضى عليك مصر على بقايا الصليبيين بالشام وصدوا الغزاة عن مصر وللغرب فأسدوا بذلك حدة مذكورة مشكورة إلى للدولة الإسلامية والدنية الأوروبية على السواء .

من هؤلاء الأتراك ملوك مصر الدولة سبكتكين ، كان عاملاً على أفغانستان الدولة السامانية القارسية القائمة بما وراء النهر . وكان سبكتكين رجلاً عاماً شجاعاً ، وسع حدود ولايته من ناحية الغرب بأن حصل على إمرة غراسان من مولاه الساماني ، ومن ناحية الشرق بأن غزا إقليم البنجاب وهزم ملكه الهندى جيبال ، وأقام فيه حكومة إسلامية في مدينة يشاور ، فلما توفى في سنة ٣٨٧ هـ خلقه ابنه محمود الذى تكلم عليه .

ورث محمود عن أبيه نشاطه الجلم ، وعبرته العسكرية ، هذا إلى طموح عظيم وغيرة ذميمة لا سعة فيها ولا رياء .

ويجد محمود نفسه عند توليه ملك غزنة في محيط سياسى مفكك الأوصال ، مدعى الفخوان ، ولقد كانت الدولة السامانية عاجزاً عن كرات اللوت تحت ضربات الترك الأيلكغانية ، وكانت الدولة البويهية جارس تعالى أربع مائة دولة من جراء اختلاف الحكمة وتفرق الأهواء . لم يتردد محمود في أن يخلع طاعته للدولة السامانية المنهضة ، ويدعو لمختلفة العباسى القادر بالله ، ويوسع رقعة ملكه على حلب السامانيين والبويهيين جميعاً ، حتى آل به الأمر إلى أن أصبح وارث الدولتين مدعى وجه القريب .

ولقد عرف له الخليفة العباسى القادر بأن فضلته وغيرته وجد همت فتح عليه لقب السلطان يمين الدولة وولى أمير المؤمنين ، فأصبح يلقب بذلك القلق واشتهر به في التاريخ . ويقول ابن الأثير إنه أول من لقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله ^(١) .

على أن السلطان محموداً كان أكبر من أن يفتح بولاية غزنة وماضيه إليها من فتوح

(١) يقول المستشرق الإنجليزي لينول إن لقب « سلطان » لم يظهر على عملة محمود الترنوى ، وإن أول من لقب بهذا القلق من الأسرة الغزنوية هو إبراهيم طبريدى (٤٥٩ - ٤٩٢ هـ) متنبياً في ذلك بالسلاجقة الذين كانوا السابقين إلى القلق بلقب سلطان كما يؤخذ من دراسة العملة الإسلامية (كتاب الأسر الإسلامية ص ٢٨٦) .

حتى في واقع الأمر فوج بلاد إسلامية . . . لقد حفزته حبه الدينية واعتراف الخليفة العباسي بإسارته إلى أن يوجه قواه وجهوده إلى أنظار وثنية تتأخم ملكه هي بلاد الهند .

وكانت الهند إذ ذاك عالماً قائماً بذاته يكاد يكون في عزلة عن سائر العالم بشعوبه ووثنائه وعقائده وعاداته . نعم إن العرب حاولوا إبان فتوحهم الكبرى الأولى فتح بابها ففروها من ناحية مصب نهر السند على يد قائدهم الشاب العربي محمد بن القاسم الثقفي ، فبلغ في غزواته للثان . ولكن هذه الغزوة على أهميتها من الناحية التاريخية لم تتبعها محاولات أخرى لتتوسع في الهند إلا في بقية العصر الأموي ولا طوال العصر العباسي الأول .

وكان الأندلس ادخرت شرف استئناف هذا المشروع الخطير والسير به أمداً بعيداً ، للعنصر التركي والسلطان محمود الترمذى بالذات . فلقد نذر أنه أن يكفر عن محاربه إخوانه في الإسلام من سامانيين وبويهيين بأن يغزو الهند كل سنة ويشن في أرضها حتى يصل فيها كلمة الإسلام أو يبلى عذراً .

.. ولقد كان السلطان يجهد أن يفي ببنذره كما ساعدته الظروف ووائته الأحوال . فقبلاً بين سنتي ٣٩٢ و ٤١٦ هـ غزاه ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة . فكان ينصب من جبال أفغانستان على سهل الهندستان في جنوده الأتراك الأشداء ، بجيوش الفارعة وأسلحتهم البلوفورة ، ونظامهم الحربي البديع ، انصباب السيل الدافع فيبحر الأنهار الصلاب ، ويسلك القنار للدوية ، ويفتح للدن الحصنة ، ويغرب للمابد الوثنية ، ويكسر الأصنام الهندية ، لا يبالي تباً ولا نصيباً . ثم يكر راجعاً إلى غزوة ممثلة اليدين من السبي الرافع ، والغنائم المائلة ، مما حوته معابد المنود من كنوز الذهب والفضة وذاخر الجواهر وغانس الأعلاق . وقد أنجلى هذا التزو للثنايح عن امتلاك السلطان عمود إقليم البنجاب وقشير ، وسيطرته على مملكة كجرات الواقعة على المحيط الهندي .

ودخل المنود في دين الله أفواجا ، وترك فيهم السلطان النافع من يعلمهم أصول الدين الإسلامي وبلقنهم مبادئه ، فرسخ الإسلام من ذلك الوقت في بلاد الهند ، وأصبح ديانة قومية ، ثابتة الدائم ، قوية الأساس ، على نحو ما نشاهده الآن في دولة باكستان الحديثة .

أثبت السلطان محمود أنه ذلك التأمع الكبير والقائد للنظر العظيم . نهد أنه في مجال
الحمل السلي لا يقل روعة وإتساراً عنه في مجال الحرب والجهاد ، بل لعل جانب العمل
السلي من سيرته وما يشتغل عليه من تشييد البناء ، وتنظيم الإدارة ، ومناصرة العلوم
والفنون والآداب ، أجل شأنًا من جانب المزاولة العسكرية وأبعد أثرًا .

جدد عمارة للشهد بطوس وهو القدي فيه قبر علي بن موسى الرضا وقبر الخليفة هارون
الرشيد ، وأحسن عمارته كما يقول ابن الأثير . سوي في غزنة مسجدها العظيم ، بناه بالرخام
وحجر الصوان ، وأضاءه بمصابيح الذهب والفضة ، وفرش أرضه باليسط الفاخرة . ونسج
جلب للاء إلى عاصمته بقناطر خاصة ، وجعلها بكل ما تجمل به للذن من مختلف اللراق ،
واقبدي به في ذلك رجال دولته ، فانتقلت غزنة في عهده من حال مدينة خاملة إلى حال
عاصمة من أعظم عواصم العالم الإسلامي .

ولكن أسرى رضا السلطان محمود إلى أملا منعة يطمح إليها أسلافه من مؤسسي الدول
أولها أنه كانت شديد العناية بمصالح رعيته ، حريصاً على نشر لواء العدالة بينهم . وقوى
الاعتقاد بأن العدل أساس الملك ، وقد وصفه بهذه القضية الكبرى ابن الأثير في تاريخه ،
والوزير السلجوقي نظام الملك في « سلسلته » ، والأسر الثاني وله العظيم العلوم والفنون
والآداب ، أسس في غزنة جامعة كريمة ، وتب لأساتفتها الرواتب ، وأجرى على طلابها
المراتب ، وأمدّها بمكتبة حوت من ثايب الكتب الثمينة الكثير . ولقد كان ذا حزم من
عجيب على أن يجتذب إلى بلاطه وعاصمته أعظم العلماء والعلماء ، والشراء والكتاب
واللوزخين ، مسخرأ في سبيل ذلك جاعه وماله مآ . وقد اتفق في عهده سقوط الدولة
السامانية ، واضطراب أمر فارس وال عراق وصيرورة كثير من رجال العلم والفلسفة
والأدب ، شبه مشردن لا يجدون ملجأ ولا نصيراً . فاستجاب كثير منهم لرغبة السلطان
الفرزوى العظيم . واجتمع منهم ببلاطه عدد عظيم ، منهم أبو الريحان البيروني صاحب
التصانيف التي لم يؤلف مثلاً في تاريخ الهند وبيان عقائد أهلها وعاداتهم والتي
لثورخ الذي وضع « الكتاب الميخي » في سيرة السلطان محمود . وأبو الفتح البقي الشاعر
للشهور ، والإمام أبو منصور التالمي صاحب « بنية الدهر » وكان السلطان حريصاً

هل اجتذاب الرئيس أبي علي بن سينا ، ولكن ابن سينا كان يخشى بواحد السلطان وحدة
مواجهه فلم يحب طلبه وبالحق في التفتي عن عبود الرجال الذين يتهم السلطان للبحث عنه
واشخاصه إليه .

وكا أخذ السلطان بناصر علماء العرب وشعرائهم ومؤرخيهم وكتابهم ، فقد ناصر
كذلك شعراء النهضة الأدبية الفارسية الإسلامية فكان يزين بلاطه منهم المنصري والقرصى
والمسجدى والأسدى والنضارى وخاصة أبا القاسم الفردوسى صاحب إيران الأكبر .
والفردوسى مع السلطان محمود قصة تروى خلفا في مقام آخر^(١) .

تلك سيرة السلطان محمود التمزى بالإيجاز الشديد ، ومنها يتبين أنه يند بحق من أعظم
أعلام التاريخ الإسلامى . وقد توفى في غزوة سنة ٤٢١ وورد ابن الأثير بعض سيرته فيقول
« كان بين الدولة محمود بن سبكتكين عاقلا ، دينيا ، خيرا عنه علم ومعرفة ، وصنف له
كثير من الكتب في فنون العلوم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل
عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم » وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم كثير
الفرزات ملازما للجهاد إلى أن يقول « ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ
الأموال بكل طريق » .

ثم يقول في حليته « وكان رجلة مليح اللون حسن الوجه ، صغير العينين ،
داخر الشعر » .

ولا شك أن السلطان محمودا كان حريصا على جمع لئال ولكن جما يهون من قد ابن
الأثير له من هذه الناحية أنه لم يكن يتفق لئال الذى يحسنه على نفسه وملائته ، بل كان يقفه
فى إعداد الجيوش الجبرارة وتشيد البانى النافذة ونشر لواء العدل ، وخدمة العلم والملاء .

١ - الفردوسى

(٣٢٥ - ١٩١١ م)

احتفلت الأمة الإيرانية في أكتوبر الماضى بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبى القاسم الفردوسى ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن المفارقة بذلك الذكرى مقصورة على الإيرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم للتحضر شرقه وغربه ، فأوفدت بجائى عشرة دولة كبيرة إلى إيران من بينها فى الاحتفال بذكرى الفردوسى ، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للإيرانيين والتبويه بشاعرهم فاحتفى بذلك الذكرى احتفاء خاصاً فى عروصهم . فكل الألمان فى برلين ، والإنجليز فى لندن ، والفرنسيون فى باريس ، والإيطاليون فى رومية . وما قريب نغذوم مصر حذوم قهب ذكرى الفردوسى أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نهر من فضائلها عن حياة الفردوسى وشعره ، وعن أثر قومه فى عالم الفن والأدب . وأريد بهذه المناسبة أن أعرض فى هذا اللقاء وفى مقال آخر آت لسبب جفاوة القرس وغير القرس بذكرى الفردوسى . وسنرى أن البحث يكشف لنا عن شخصية فذة محببة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنفذ قومية ولغة كان يتنازعها البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بتعصيب موقفه فى ميراث العالم الأدبى الباقى على مر الزمان .

هو أبو القاسم الحسن بن على الفردوسى ، وكلمة (الفردوسى) لقبه الشعرى ، قد جرت عادة القرس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالأدبى ، وملك الشعراء ، ومجسم الشعراء وهكذا (١) . وله على رأى بعض النقاد حوالي عام ٣٢٥ هـ قرية من قرى مدينة

(١) أنصح مضمون هذا اللقاء من مجلة الإذاعة للصرة فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ . هذا ولم قصد فى بحثنا تاريخ الشاعر من الناحية الفنية وليس ذلك من شأننا ، إنا قصدنا إلى التحدث عنه من حيث لحن حياته تلقى ضوءاً على الحال السياسية فى آسيا الوسطى الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ومن زبدية الشاعر ضد فلبطسها فى مثاليها وخطة الشاعر ، ومقدمة (مولد) ترجمتها الفرنسية وكتب بولوك منها ، ومقدمة الدكتور عبد الرزاق عزلم لترجمة التندارى العربية للشاعر .

(٢) وقيل فى محله غير ذلك (انظر للدكتور لى الشاعر له الدكتور عزلم .

طوس بخراسان يقال لها (باز) ، وورث من أبيه ضياءاً كانت تنل عليه في صدر حياته كفايته من اللال . وتعلم في حداته ما كان يحمله أمثاله من أبناء الدهاقين في ذلك الزمان ، فغنى التهلولة والبرية . وشغف في صباه بقرص الشعر الفارسي والتوفر على مطالعة القصص الفارسي القديم . فأنشأ كل ذلك عنده اعتداداً بقومه واعتقاداً لمذهبهم الشيئي . وشدا شيئاً من آراء التبعكلمين من السمرقنة ، فنشأ فارسي الموى ، شيئي للذهب ، معترئي الرأي .

كان أمر خراسان في ذلك الوقت إلى الدولة السلمانية ، وهي دولة فارسية من الدول التي قسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية في بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجري . وقد جهد السامانيون في بث الروح القوي الفارسي مستعينين على ذلك بما تبارج والأدب من القوة في إلكاء الروح القوي عامة . فقتل وزيرهم البليسي برسم الأمير منصور الساماني تاريخ العبرى إلى الفارسية ، وتقدم عاملهم على طوس أبو منصور بن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور الفسري في جمع أخبار الفرس القدماء في شكل تاريخ شعبي فارسي من أقدم عصورها إلى الفتح الإسلامي ، فهد الفسري بالأمر إلى أربعة من الفرس أنروا ذنبتين فجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المخطوطة في قلاع فارس ، وفي خزائن اللوامة والدهالين . ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه « شاهنامه » أي « كتاب الملوك » ، وكان ذلك حوالي عام ٣٤٧ هـ ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وعداوه ، فهد الأمير روح بن منصور الساماني بطله شعراً إلى فني فارسي شاعر يعرف بالدهقي . فأخذ الدهقي في ذلك فخطم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالي عام ٣٦٦ هـ .

اطلع الفردوسي على شاهنامه للشور وعلى ما نظم الدهقي منه من نسخة أعاره إلها صديق له يقال له (كرى) . وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الدهقي ، وضادف ذلك موى في نفسه ، فأمثل الإشارة وعكف على نظم شاهنامه من حيث انتهى صاحبه ، قضى في ذلك ثلاثاً وعشرين سنة أتم فيها نسخة شاهنامه الأولى (٣٨٨ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبار الفرس الظاهريين بأرض أسيهان يقول له أحمد الخالنجاني ، فأجازها عليها بمائة يسيرة .

في تلك السنين الطوال ، تبدلت الحال في خرابان لاضطراب أمر الدولة السلجوقية القومية المسيرة ، وعمرها ما يمرر الولاد عامة عند التأذي بذهاب دولة وقيام أخرى . فأعلنت للراق الدامة وخاصة مرافق الري ، والبلاذ بعد بلاد زراعية ، قشع الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، وثابت ملاك الأراضي شدة تملذ عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسي بطبيعة الحال من ضحايا تلك الصاغة الاقتصادية ، وزاد ضجعا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب الخفض ، واضطراره إلى أن يستكني غيره النظر في شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً في ترويده في شعره الشكوى من الفاقة وتبكر الزمان . وقد اضطر آخره الأمر إلى سائة أصدقائه ، فأعانه منهم بغير كرام النفوس أوفياء القلوب ، كذاهم عن صنيعهم بأن يوه بذكرهم في الشاهنامه . والحق أن الفردوسي ، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافروه على جهوده الأدبية بجمال تزوج منه ابنته الوحيدة ، وينفق منه على نفسه في شيخوخته . وطلق لذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدي إليه الشاهنامه فيبيحه بجائزة تحقق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملك الجليل في شخص السلطان محمود التتوي .

والسلطان محمود التتوي أوحده ملوك الإسلام في تلك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الإسلامي على الإطلاق . قد شاد بزمه وحمته ملكاً عربياً واسع مهمل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وعبستان ، وفارس . وأصبحت قاعدته (غزنة) بمساجدها ومدارسها وخرزائن كتبها وعضائها الأعلام من أمهات المدن الإسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط في مدينة أسبوية في وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بغزنة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفاً بالعلم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الإسلامية ليقبضهم بمحضرة ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التي طبقت الآفاق . ومن العلماء الذين حذت بهم غزنة على عهد ، البيروني والنبي الموزخاني ، والفارابي الفيلسوف . وأبو الفتح البستي الشاعر العربي ، والسجدي والمصري والفرنجي ، وكلهم من سبق شراء أنفسهم في الإسلام . وكان الرئيس أبو علي بن حينا قد قصد حضرة السلطان ثم بدا له فعدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كما فرغ من حربه وأقام بهائمته مجروداً ، جلس إلى

فلو أنك الطاء يمدنهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو في تصيده الطاء ومباغاته بهم يذكرنا
يسيف الدولة الحمداني ، والحكم للفتنصر الأندلسي ، وفردريك الأكبر ملك بروسيا ،
جوليس الرابع عشر ملك فرنسا .

١٠ رحك هو الملك الجليل الذي رآه الفردوسي مهوى قزاده وعط آماله . فأخذ بعد العدة
للاحتجاج حضرة والاغتراف من فيض جوده . فخل راجع الشاهنامه ، مطامنا بين أجزائه ،
مكلاً ما قص منه ، مستدركاً ما فات في نسخته الأولى وعلمياً فصوله يتدح منية يطوق
بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى في ذلك إحدى عشرة سنة ، وقد فرغ من إعداد
النسخة الثانية للشاهنامه عام ٤٠٠ هـ وبلغت عدة آياتها ستين ألفاً .



١١ توجه الفردوسي إلى غزنة ومعه راويته ونسخة الشاهنامه ، فلقى وزير السلطان الرئيس
الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان معنياً بنشر القارسية ، فأبلغه حضرة السلطان .
وأطلع السلطان على الشاهنامه ، ولا ريب أنه أدرك أنه ثمرة مجهود عقل جبار ، ولكنه مع
ذلك لم يقبله بقبول حسن . والروايات القديمة حجة على أن الرواية والكيد قد حملا عليها
في إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معاً . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم ،
فليس من شك في أن ذلك السلطان التركي للعلم الذي أغرق من الجهد في إعلاء كلمة الإسلام في
المند ما أغرق ، والذي كان نصيراً لله ، وخصماً للباطنية والمرتدة ، هذا السلطان لم يعجبه
أن يشيد الفردوسي بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم ، كما لم يعجبه أن يفتخ في بوق المعصية
الفارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التي وقعت في القديم بين إيران وطوران ، كما
لم يعجبه تشييعه وجهره بأرائه الدالة على اعتزاله . كل ذلك قد بالسلطان عن أن يميز الشاعر
بالجائزة التي كان يتوقها ، والتي كان يعلق عليها آمالاً كبيراً . فيقال إنه بحث إليه بشرين
ألف درهم فقط مكافأة له على مجهود خمس وثلاثين سنة فبأية ل .

١٢ لكن الفردوسي لم يكن بالرجل الذي يحتمل هذا التقصير في حقه . فقد جرى السلطان
شر جزاء . فيقال إنه دخل حماماً فلما خرج منه شرب قهقراً ، ثم قسم عطية السلطان بين
الحامي والفقاعي . وبلغ ذلك السلطان فجاج غضبه ، وهم بأن يعطش بالشاعر ، فلأذ الفردوسي

بالقرار من غزنة ، وظل مخبئاً بمدينة حمراء مدة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر بها فيها
السلطان جاء لاذعاً موجعاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها
الأصبهيد شهر يار فأكرم مثوله وطيب خاطره ، واعتذر إليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض
عليه كما ينبغي ، واشترى منه هو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم بما ذلك المبعوث من الشاهنشاه
محمداً . بيد أن الفردوسي رأى أنه غير آمن على نفسه في طبرستان لأنها داخلة في حكم
السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق العربي ونزل على أميره سلطان الدولة البويهى .

ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهي من قصص القرآن الكريم . والفردوسي
يصرح في صدر هذه القصة بأنه نظمها تكديراً عن إخافته حمراء في نظم الشاهنشاه ، للى
بأساطير الفرس الأولين ، ولكن يظهر أنه إنما أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بينه وبين
البيئة العربية التي أدى به تطوافه إليها .

ومها يمكن من شىء ، فلا شك أن الفردوسي رأى فيه غريباً بالعراق ، وأن سراج
حياته يوشك أن ينطفئ ، وأحب أن يوانيه أحله في سقط رأسه ، قريباً بين ابنته بين أهله
ومبشره ، وموطنه انطلق عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان
قد نسى أو تنسى ييلاط غزنة . فخرج من العراق شائعاً نحو طوس ، فليتها شيخاً فانياً
مهدود القوى قد جاوز الثمانين .

وتذكره السلطان محمود في ذلك الوقت ، وذلك أنه كان راجعاً من الهند إلى عاصمة
ملكه ، ففرض له ثمر في قلعة حصينة ، فأرسل السلطان إلى التاجر سولاً أن « إيت غذا ،
وقدم الطاعة ، واخدم حضرتنا ، والبس الشريف ، وارجع » فلما كان القدر ركب السلطان
وإلى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الليندى . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلاً قال للوزير
« ترى ماذا يحمل من الجواب ؟ » فتأمل الوزير بيت من الشاهنشاه معناه « إذا لم يكن
الجواب كما أريد ، فأنا والجزز واليدان والفراسياب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذى تنبئ
الشجاعة منه ؟ » قال « للسكن أبى القسم الفردوسي الذى اجتمعت النساء حفاً وعشرين
سنة وساجنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسن بما ذكرتى ، إني ليحزننى أن يحرم عطاشى
هذا الرجل الجرم ، ذكرنى في غزنة لأرسل إليه شيئاً » فلما قدم لمؤيد غزنة ذكر السلطان ،

يقال للسلطان « من لآبي التباس بستين ألف دينار مغطاها نخباً » ، ويحصل على الإبل السلطانية ، ويستدر إليه .

غير أن القدر السافر ثناء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ما وصلت الإبل التي تصل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الروح (٤١١ هـ) ، وأنه بينما كانت الإبل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر .

ولرأى رسل السلطان أن يذهبوا الهدية إلى ابنة الفردوسي ، ولكنهم اعتذرت من عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان بأن يفتق اللؤلؤ في بعض وجوه الخمر ، فحسروا به رهاطاً للبهائم على حدود إقليم طوس ، وكذلك نفى للسلطان عن نفسه آخره الأمر تهمة التفضير في حق الشاعر الكبير . لأن ادعى مدح أنه ظلم في الأول فقد أنصه في الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم .

ذلك بالإختصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي . وهي سيرة فصحها أوتيه ذلك الشاعر من قوة تمثل في صدق غريته ، وقسط همه ، وعظم غايته ، وليت مقصده . كأنها تفصح عن صفته الذي يبدو في حلة مزاجه ، وكثرة شكواه من الفاقة ، وتبرمه بالناس والزمان ، ثم في نده في مطلع قصته الثانية على ما أنفق من جهده وأضاع من عمره في نظم ملحنته الأولى . حتى أن ذلك كله ليس مقام تعظيم قومه لذكره ، إنما غلط ذلك هو التصنيع الجليل الذي أسنده إلى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة .

ولبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن إلى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وما هي إلا سنوات معدودات ، حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان ، وصيروا فارس إقليماً من أقاليم الخلافة العربية . وانتشر الإسلام بحسب ذلك في فارس حتى كاد يفتق على الدين الزرادشتي ، كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أغفلت الهوية وكانت تمحوها .

فقبل الفرس للإسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر . أما القومية فقد نهضوا من أجل الاحتفاظ بها مبداءً عقلياً . وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالمعروف العامة قام

بها للرواى زمن الدولة الأموية ، إلى مؤازرة الثاقبين عليها من الجولانج والشيعة ، إلى غزوة طامة أنجلت عن سقوط الدولة الأموية العربية ، وقيام الدولة الباسية التي كانت فارسية في أكثر أوضاعها العامة ، إلى استقلال سياسي يصره ضيف السلطة للركزية بخداد ، إلى هوى حيث في أن يكون فارس وجود قوى صحيح .

إلى هذا المجهود الضخم الوجه إلى الاحتفاظ بالقومية ، قام الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنقاذ لغتهم وتسميم مستعالمها في بلادهم .

لقد طغت العربية على القهلوية في العصر العربي الأول طغيانا . كانت من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة في حدود إقليمية ضيقة في فارس وخراسان وطبرستان ، ولم تلم القهلوية في معاقها هذه من التأثير العربية ، قد أصبحت تكتب بالخط العربي ودخلتها ألفاظ وتمايز عربية أحوالها إلى طور جديد من تاريخها ، عرفت فيه بالفارسية الحديثة . ويتبين الشعور القوي عم استعمال اللغة للذكورة في تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تسمى من بعضها ، كما يؤخذ من قول للنبي :

مفاني الشعب طيا في اللغاني بمنزلة الريح من الزمان

ولكن التقى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب حجة لوسار فيها سليمان لار بترجان

وقد عول ساسة الدول الثلاث : الطاهرية والصفارية والساسانية ، على أن يجعلوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فنجسوا الشعراء على النظم بالفارسية ، وأسر السامانيون بتدوين تاريخ قوى للفرس ، ونظم بهذه اللغة كما تقدم القول .

وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزه الفرس في أسر قوميتهم ولغتهم ، فإنهم كانوا في أواخر القرن الرابع بحاجة إلى مدد أدبي ممتاز يبعث في القومية الفارسية روحا قويا ، وبثبت دعائم الفارسية الحديثة وينبضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسي قومه بهذا للد . فالباعثه يبي بأسهل عبارة وأبلغ تصوير تاريخ الفرس القدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . فلك أنسى في حجة فاضله - وهذا أمر منقطع النظر - ملحمة قومية ،

ولم يمض طویل زمن حتى غدا « قرآن القوم » على حد قول صاحب « اللؤلؤ السائر » .

* * *

تقد أدى الفردوسی « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح فضله على قومه ولنته بافياً ما بقى قومه ولنته . وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه في هذه الأيام فأحسوا ذكراه ، وشادوا فوق رفاقه بناءً عالياً ، وهذا جهد مثوبة الحق للبيت . وإن الإنسان ليدكر في هذا المقام دانتی الايطالی ، وكوریاس الیونانی ، فكلاماً أذكری الروح القوی فی بلده ، وجدد بمجهوده الخاص دارس لنته ، هذا بنثره ، وذلك بشعره .

٢ - الفردوسى

تمة^(١)

ينبت في مقال السابق الذى من أجله يكتب الفردوسى ويدونه شاعرهم القومى
قلت إن الفردوسى بنظرة « كقاب للوك » الذى يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين
وأساطيرهم وآدابهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، بمدد قوى ، رسم
للأولى حدوداً واضحة ، وشرع لثانية منهجاً ظلت تسير فيه حتى يومنا هذا . والفردوسى
بهذا الصنيع الجليل قد هيا السيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة في تاريخ
الشرق الحديث .

ولكن ما السبب في أن شعوباً أخرى غير الفرس تحفل بالفردوسى وعمله ، ولم تتحاش
أن تعلن ذلك بالاحتفال بذكره الألفية ، وجواب هذا السؤال موضوع هذا المقال .

• • •

بعد الفردوسى عند علماء الأدب وتقاده شاعر أقصيا من شعراء الطبقة الأولى ، فهو في
مرتبة هوميروس ودانتي وملتن . والشاعر القصصى العظيم هو الذى ينشئ ملحمة أى منظومة
قصصية طويلة بليغة يعثرها قومه غيرة أدبهم . وحظ هذه المنظومة من الذبوع والانتشار
يقف على نوع موضوعها . فإذا كان الشاعر قد اخترع للوضع اختراعاً وتخيلاً غيلاً
أفرغ عليه بعد ذلك حلة من بلاغته وقوة تصويره ففى ملحمة محدودة الذبوع ، يقبل على
قراءتها خاصة الأدباء والكتّاب وأساتذة الأدب في الجامعات . ومن هذا الصنف
« الكوميديا » لدانتي « والجنة المفقودة » لملتن . أما إذا ألف الشاعر موضوعه من
الحكايات الشائعة في قومه ، وأساطيرهم التى يتصدقونها ، وأغانيهم التى يفتنون فيها بذكر

(١) ضمن هذا المقال البحث الذى ألقته بلجنة البرية في مؤتمر ذكرى الألفية لفردوسى المنعقد في
طهران سنة ١٩٣٤ . وهو البحث الوحيد الذى ألقى في ذلك المؤتمر بلجنة البرية ، وكان عنوان البحث
« الغلظة الأدبية للفاصل » .

ما اختلف عليهم من الأحداث ، ثم عرض ذلك كله عرضاً شريفاً قريباً بلياً ، وكان في ذلك فيلسوف النظرة يتناول العام من ثمايا الخاص فيصير العالم وهو يصور قطعة منه محدودة . ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومعهده ، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه ، إذا فمل الشاهر ذلك فقد كتب للمعته الذيرع والخلود . وسرعان ما يحل الحديث للونق الحكم محل القديم البحر للفرق ، فنسخ للوحة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التي تصور فالحا ، وعلى سر الزمن تنفذ للوحة من حدود المحلية والإقليمية وتنتج في أعماق العالم للتبدين وتسهيل أرواً أدياً عالمياً . وأشهر ملاحم هذا النوع ، الإلياذة والشاهنامه الذي نحن بصدد الكلام عليه .

والشاهنامه يترعى اهتمام غير واحد من خاصة للتأديين ، فالتنوى يطالع فيه صفحة واسعة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعي يجد فيه عوناً على تصور المجتمع الفارسي القديم ، ومعرفة أخلاق القوم وعاداتهم ومواضعاتهم ، ولحقى بالأساطير القديمة ينفع به انشراحاً جافاً في دراسة الليولوجيا الإيرانية والمقارنة ، وحورخ الأديان يستخلص منه صورة مجملة لمفائد الإيرانيين القدماء ، وللورخ السياسي يرجع إليه في دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيه صدى قريباً لمعلاقة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب . والفنان الذي تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعاني وقوة التصوير يرى في الشاهنامه مثلاً علياً لكل ذلك . فالفرودوسي يرجع في سماء البلاغة حتى يسامى النجم ، وهو في الوقت نفسه يخاطب الناس بمألوف حديثهم ومتعارف معانيهم ، ثم هو وصال مبدع ، إذا تصدى لوصف وقعة حرية أراك ميدان القتال ، وجلا على عينك ما يجري فيه من كرفه وهجوم وتحيز ، وأراك السيوف تلعب ، والرماح تنزع ، وأصحك تصاول الحكمة ، وصهيل الخيلول ، وأمين البهرجى ، وصور لك ظفر الطالب وهزيمة للقلوب . فإذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس المدة والأنس مثل لعينيك أسباب السرور ، ودواعيه ، وأدواته ، وقيل إليك ما يشيع في المجلس من صفاء النفوس ، وتجاوب القلوب ، فإذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم ، وعطف الأب ، ووله الماشق ، ووقا الزوجة ، وإخلاص الصديق

قد أدرك الفردوسى قوام الفن وملاكه ، أدرك معنى الجليل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يصور منهما .

على أن الناحية الأخلاقية من الشاعنانه ، هي عندى أهم نواحيها وأبعثها على التقدير العام بها . فالفردوسى لم يقصد إلى أن يكون مؤرخاً ، ولا إلى إظهار بلاغته ، بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب ، نلحظ ذلك فى الجنايب التعليمية من كتابه ، فالفردوسى لا يبرح واعظاً وسرشداً وهادياً ، سالكا خينا طريق الحقيقة وحيثا طريق الجواز ، ونلحظ ذلك القصد أيضاً فى خلو الشاعنانه خلواً مطلقاً من الألفاظ والماتى التى ينبو عنها الأدب والفوق السليم ... بهذه الزية يصح القول بأن « كتاب الملوك » كتاب يتأدب بمطالعة الناس فى كل زمان وكل مكان ، وإذا كانت « الإلياذة » تنمى فىنا عاطفة الحياء والنصب للحق ، وقضية الإثبات والانتصار للصفيت ، وإذا كانت « كوميديا » ذاتى مرفقا بطريقتها الرزوية أى أساليب الحياة يؤدى فى الآخرة إلى القلوب وأيها يؤدى إلى العقاب ، وإذا كانت « الجنة المفقودة » تنمى الروح النبى فى نفس القارئ ، فإن الشاعنانه يرى إلى تهذيب النفس وتكليفها .

وقلصة الشاعنانه الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الإيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد .

والإيمان عند الفردوسى ليس ذلك الشعور الذى يخاطب ضمنا النفوس وخورة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالفردوسى يتمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استكمالهم أسباب العزة والجبروت فى مظهر التقوى والافتقار إلى عون الله ومدده مبالغة منه فى توكيد ضرورة الإيمان فى الحياة ، ورغبة منه فى كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شريرة القلوب البائسة . ولتمثل لذلك من الشاعنانه : فنقد ما خرج لللك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) اهتماماً لقتل ابنه (سياوخش) جيل يدعو الله تعالى أن ينصره على عدوه يقول الشاعنانه^(١) : « وبعد ذلك اقتتل كيخسرو ودخل متعباً لهم ، وجعل طول ليته

يتضرع إلى الله تعالى ويتهل ويترخده بالقرب ويستنصره على أفراسياب ، ويستغين به عليه ، قطع ليلته تلك بالسجود لله تعالى والدعاء ، فلما انتصر على خصمه من وجهه وأعياده طلابه رجع إلى الله يستعينه ويستهديه . يقول الشاهنام : « فاعتزل ذات ليلة وأخذ كتاب الرند وخلا بنفسه في مكان خال ولم يزل طول ليلته ساجداً لله تعالى يبيكي ويتضرع إليه سبحانه ويقول : « إن هذا العبد الضعيف ، للوجع الجسم والروح طاف الدنيا ، فلك رمالها وقفارها ، وقطع جبلاتها وبحارها ، طالباً لأفراسياب الذي أنت تعلم أنه سلك غير طريق البidad ، وسافلك بغير الحق دماء البباد ، وأنت تعلم أني لا أقدر عليه إلا بحقوق وقوتك ، فكفى منه . وإن كنت عنه راضياً ، وأنت تعلم ولا أعلم ، فأصرفني عنه ، وأطنى من قلبي فائرة عداوته وقف بي على سواء الطريق والنهج القويم » . وعند ما غر التلج أسفنديار وأصحابه في طريق « حنيجوار » الزعر الشاق ، ووجد ذلك البطل للنوار نفسه أمام قوة لا قبل له بها ، لم يسمه إلا أن يعلم أمره إلى الله تعالى ، فتقول شاهنام : « فيما هم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الريح ، ونشأت سحابة أبرقت وأرعدت وأطبقت عليهم ثلاثة أيام بلياليها ، تهيل عليهم التلج هيلاً ، حتى امتلأت الأودية ، فصاح أسفنديار ... وقال : قد اشتد علينا الأمر وليس ينفعنا الآن رجوة ولا قوة ، والرأي أن نلجأ إلى من لا ملجأ منه إلا إليه ، فإنه الكاشف للضر والقادر عليه ، فاجتمعوا ورفروا أيديهم وتضرعوا إلى الله تعالى مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين ، فسكت المواء وانجلى السماء » .

* * *

والأصل الثاني من أصول الفلسفة الأدبية « كتاب الملوك » التيام بالواجب ، والشاهنامة يعنى بهذا الأصل التي هو قوام الحياة اليومية أتم عناية . فأعظم ملوك الشاهنامة أنومهم بواجبه ، وواجب للث في رعيته العدل ، والحلم ، والسخاء ، وترك الاستبداد . فإذا ما حاد الملك عن هذا السنن « جفت الألبان في الضروع ، ولم يأرج للث في النوافج ، وشاء أن يربا في الخلق ، وصارت القلوب قاسية كالخجر الصلب ، وعانت الذناب وضربت بالإنس ، وتحوف ذوو العقول من ذوى النواية والجهل » . وبعد كسرى أنوشروان لابنه هرمز حافل بذلك الآداب السلطانية التي تنص صراحة على ما يجب على الملك نحو نفسه ونحو رعيته .

وبطولة أبطال الشاعنة تستند إلى شعورهم القوي بالواجب . انظر كيف لي رستم
 طلب (جيتو) إخاذ ابنة (ييترن) وكان أسيراً مغلولاً في مطبوعة مغللة بأرض طولان .
 وقوله له (لا نتم فاني لا أسط السرج عن الرخص حتى آخذ يد ييترن وأضما في يدك)
 وانظر خطاب جيو للملك كيخسرو (أيها الملك ايز أي ما ولدتي إلا لطانتك ، وتحمل
 للكاره فيما هو سبب راحتك . وهأنذا أشد وسطى في أمثال أسرك ، ولا أسلك إلا سبيل
 خدمتك ولو أمطر الهواء على ناراً ، وتحولت الأشجار في عيني شفاراً) (اكنهنم)
 ليترن وهو محمود بروحه (أيها الحبيب النافع لا تحمل على نفسك كل هذا ، فإنه أشد على ما
 أنا فيه . واستر جراح رأسي بالترك ، واجتهد في حملي إلى حضرة الملك ، فإن قبضاري بنيت ،
 وغاية أمني ، أن أتزود منه بنظرة ، وأفر عيني بطلته ولو لحظة ، وإذا مت بعد ذلك مت
 وليس في قلبي حسرة ، فإن لم أولد إلا لفوت ، ومن أدرك أمه فكأنه لم يمت ، وأيضاً
 تجتهد فلعلك تستطيع أن تحمل هذين المدوين اللذين أهلكما الله على يدي إلى السكر ،
 وإن لم تقدر فأحل ردوسها وعدتها حتى تعرضها على الملك ، ليم أي ما هلكك في
 غير شيء) .

وروعة شخصية المرأة في الشاعنة تقوم على وفور حفظها من الآفة والفناء لزوجها ،
 يدل على ذلك نواح (نهجة) على أنها (سهراب) ووفاء (منيرة) لزوجها (ييترن) في
 محنته مع أن أباهما كان للسلط على عذابه .

وكما تفرض الشاعنة القيام بالواجب من حيث هو فضيلة أساسية للحياة الناضجة فإنها
 تدل بالأمثلة المحسوسة والواقع للادية كيف يؤدي الواجب . فينبغي أن تؤدي الواجب على
 بأحسن آداب السلوك من جد ورقق ، وسهولة خلق وضبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل
 على ذلك من الحوار الذي دار بين جلي الشاعنة (رستم) و (اسفنديار) عندما اشتد بينهما
 الجحاج وحى الخصام ، فهو حوار يتم عن نبل خلق وسراوة نفس . وقد بلغ من دقة حسن
 التردوس ورقة قلبه أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن إلينا ولو كان حيواناً أحم . انظر بأي
 قلب وأية شمائل يخاطب رستم النزالة التي كان طرده لها سبباً في وقوعه على عين ماء روى
 منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو يخاطبها بقوله : (لا زلت يا غزالة الريف ، تهيئني إلى

الظل الوريث ، وتكرمين في الزلال المني ، وتقلين بين الورد والياسمين ، وأيا قوس
براعك أغناحه ، فلا زالت متقطعة أوارده ، فإنك سدت رمق وشفيت غلتي .

والأصل الثالث من أصول طسفة الشاعنة الأدبية طهارة القلب ؛ والتردوسى يحثنا
في غير موضع من كتابه على أن نغنى عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والضغينة . يقول رستم
لاستديار : « ... وطهر قلبك بضغينة الرجوة من «نس الداء الدفين» والتردوسى لا يكتفى
بأن يندب قارئه إلى تطهير قلبه ، بل لقد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً طريقة
المرض المزمن التى تلحظها في أكبر اللامح والقصص . تلحظها في آثار هوميروس ،
وسفوكليس ، واسخيلوس ، وشكسبير ، وملن ، ودستوفسكى . وذلك أن يصد الشاعر
إلى حادث رائع مقطع ، فيعرضه عرضاً فنياً قوياً ، فيبرز بذلك قلب القارئ ويخضعه
فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء للريجصره المريض على مضض ، ولكنه تكون فيه سلامة
حق عنه ؛ وقد بلغ الترودوسى بسوء هذه الطريقة أسى غايات اللعن ، وأتى من رائع القصص
ما يشفق القلب حسنه ، ويسحر البصيرة . انظر كيف يمرض قصة قتل رستم ابنه سهراب
على غير علم منه بأنه ابنه ؟ يقول الشاعنة : « ... ثم تلوثا الحرب ، وتطاعنا حتى انتثرت
ريحوب . زاحما ، فاستل كل واحد منهما سيفه ، وتضاربا ، وكأن النار تقطر من سيوفهما ؛
ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما ، فدا أيديهما إلى عوديهما ، وورقاهما ، وجلا يتضاربان
ويقتارعان حتى تخرقت الأذراع الموضونة على أكتافهما ، وتقطعت التجايف على خيلهما ،
فضعفا ، ووقعت دوابهما ؛ وبقي من العرق غريقين ، ومن العيش محترقين ، فوق الأب
من جانب ، والابن من جانب آخر ، ينظر أحدهما إلى الآخر . فيا عجبا ! كيف انسدت
دونهما أبواب التعارف ، ولم تتحرك بينهما عروق التناسل ؟ والإبل مع غلظ أكبادها ،
تعطف على أولادها ، والطيور في جو السماء ، والحيتان في قعر الماء لا تنكر أولادها
وأفراخها ! والإنسان من فرط حرصه تخفى عليه قلدة كبده ويستنكر قوة عينه ولا ينزع
إلى ولده ! »

ثم يقول رستم : « لم أر قط قتلاً بهذه الصفة ، ولقد انقطع رجائي من رجوتي » فإذا

ما لستأخا القتال ، قال سهراب لرستم وهو يحمل أنه أبوه : « إني أرى أن نخلع الجوشن ،
وعطرح السيف ، ونكف عن القتال ، فإن قلبي يميل كل الليل إليك ، وإن وجعي ليضمه
الحياة منك . ولكن ينجب رجاؤه ، ويعود الأب وابنه إلى اللبازة ، فيطلب الأب
ويصرع ابنه ، ويحتم على صدره ، ثم يذبحه ذبحاً ، ثم يقيين له ، وقد سبق اليك العذل ،
أنه إنما ذبح ابنه ، فيشق جيبه ، ويضرب صدره ، وينتف شعره ، ويندب ولده ،
ويحاول استنقاذه من بران الموت فيسجزه ذلك ؛ ويموت سهراب ، فتتبدد لوعة الحزن في
صدر رستم ، ويصبح من فرط المذاب : « من الذي أصيب بعثلي ما به أسيت ؟ ومن الذي
فجع بعثلي ما به فجعت ؟ قتلت ولدي حين شاب رأسي واغضبي عروى » .

إن القارئ ليتابع مشاهد هذه القصة وقلبه يتوثب في صدره فرقاً وذعراً . فإذا بلغ
الذكارة الأخيرة فقد لا يملك دمه أسى وحزناً . وهذا الذي قصد إليه الشاعر رغبة منه في
أن يمكن فيه لمناطق الحنو والرحمة .

ولا يفت الفردوسي عند هذا الحد من تطهير قلب قارئه ، بل يجتهد في أن يروض من
عنه ويكبح من جماحها بأن يحولها قلب هذه الدنيا ، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد
يسو ضماض النفوس ، ولكنه لا ينال من ذوى النفوس القوية مثلاً ، وهو على عادته يعبد
إلى أفقر شخصياته فيجعلها مناط فلسفته راسماً بذلك إلى أن تأخذ الدنيا كما هي فنفرج بها
إذا أقبلت في غير اغترار بها ، ولا تأسى عليها إذا هي أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية
لترجح فلسفة الرواقين الذين يريدون أن تتجرد من العاطفة جملة ، فلا ترح ولا
تخزن ، ولا تفض ولا تفت . انظر كيف يعصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب
الزمان له ظهر الحزن ، وتعمم له وجه القدر ، قال أسره إلى أن وقع أسيراً في يد رجل عابد
فشد وثاقه واضطره إلى أن يخاطبه بقوله : « أيها العابد ! ما تريد من رجل اختفى في مغارة
خفية ؟ » فلما عهده العابد على ما احتجب من أوزار قال : « بهذا جرت على أفلام قضاء الله
في الأزل ، ومن المصوم في هذه الدنيا التدارة من الزلل ؟ » ثم إن مصير الملك دارا
واغتيال عبيده له قربا بدسه إلى الإسكندر ليجرى مجرى حديث أفراسياب من حيث
الدلالة على قلب الدنيا ، وهي تربنا الفردوسي جيوا يرى أن الإنسان لا يملك لنفسه مع
القدر حقاً ولا ضراً .

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، فليبق بالناسل أن يرغضا ويرزح فيها . والزهد في الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاهنامه الأخلاقية ، والفردوسى لا يألو جهداً في صرف لقلبنا عن أن نتن بالدنيا ولكن في غير إخلال بالواجب الذى يترضة علينا وجودنا فيها . انظر إلى حضوره الخال للتمويه لكك كيف حسرو عندنا اختبضت غشه ؛ وأزمع التخل عن لكك ، والتهاب في الأرض ، قد عهد إلى ابنة ؛ وودع أكابر الدولة « ثم سار ... وصحبه رؤوس الأيرانيين ... إلى أن صعد إلى جبل ؛ فأقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج في أثره نساء الأيرانيين ورجالها زهاء مائة ألف نس ، ييكون ويقبجون حتى ظن بصياحهم وعويلهم السبل والجبل . ثم بعد أسبوع أشار لكك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال : إن أمامنا طرعا لا ماء فيه ولا عشب ، فأنصرف دستان ، وزسم وجوفزد ، ولم ينصرف عنه الباقون ، فسار لكك ، وساروا معه غنى وصلوا إلى ماء ، فزتلوا هناك ، وقال لهم لكك : إذا طلمت الشمس غداً حان وقت للفاقة ، فباتوا ليثهم عند القين . ولما كان الثلث الأخير من الليل ؛ قام لكك ودخل القين ، واغتسل ثم ودعهم وقال : « إن التلج غداً يد عليكم الطريق فلا تهنون إلى الرجوع إلى إيران ، ولما طلمت الشمس ركب لكك ، وغاب عن أعينهم » .

وحديث الإسكندر لكك الشاب القامح الطموح مع أهل مدينة البرامكة للمنطقمين عن الدنيا ، والراضين منها بأيسر أسرها يرى إلى أى حد يذهب الفردوسى في تقرير فلسفته القائمة على المزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت للقارئ السبب في تقدير غير القرس لفردوسى ولشاهنامه ، وأتم هذا البحث بأن أنبه على أن مظهر هذا التقدير قديم ، قد ترجم الفتح بن علي البندارى لشاهنامه إلى العربية القصصى في أوائل القرن السابع الهجرى ^(١) ، وأن لشاهنامه قد نقل إلى أشهر اللغات الأوروبية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم في غاية ابدقة والتمانية والإيقان .

(١) وقد نشر زميل الدكتور عبد الوهاب عزام هذه الترجمة نصراً حفيماً عفاً ومن هذه الترجمة التي تصوم الواردة في هذا الكتاب .

سيرة أحمد بن طولون

لابي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي^(١)

هذا مخزون سفر جليل لمؤرخ مصرى من أهل القرن الرابع المعبرى هو أبو عبد الله ابن محمد المديني البلوي ، وضعه في سيرة رجل من أقوى الشخصيات التاريخية الإسلامية هو الأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية المشهورة . وقد انتقلت مخطوطة هذا الكتاب من مصر إلى الشام على ما يظهر أيام كانت مصر والشام تولقان ملكاً واحداً ووطناً واحداً . ثم استقرت في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، إلى أن قبض الله لها للزورخ البهجة الأستاذ محمد كرد علي بك فنفض عنها غبار الخمول والنسيان ، وأدرك من غوره قيمتها العلمية ، فكف على إعدادها للنشر ، ثم عرضها للناس في معرض على قشيب . فكان ذلك الجهد منه وهو في شيخوخته للبركة خير عدية يقدمها إلى مصر التي رحته زمناً في صباه وصدريه ، كما كان مثلاً جليلاً من أمانة الوفاء وتأدية الأمانات إلى أهلها . وفيه فوق كل ذلك إشارة لطيفة إلى اشتباك العلاقة الثقافية بين مصر والشام من عهد بعيد .

ظهر هذا الكتاب القيم ، والحرب الحاضرة قد بدت أضرارها ، ودوت في الخلقين نفوها ، فلم يحفل الأدباء ، والمؤرخون لظهوره كما كان ينبغي ، وشغلوا عنه بما شغل به الناس عامة من أهوال الحرب وخطورها . فكان ذلك الإهمال الذي لم يمتدوه من بعض ما باتت به الحرب الحاضرة من إثم ، واحتقت من أوزار .

• • •

وتعتبر سيرة أحمد بن طولون للبلوي بحق تصانيف النصوص الأساسية الخاصة بالدولة الطولونية تضم إلى المصادر التقليدية التي وصلتنا في هذا الموضوع الملم ونفى بها سيرة أحمد ابن طولون لابن الداية للتوفى سنة ٣٣٤ ، وقد وصلتنا ملخصة بقلم ابن سعيد القرني ،

(١) نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية في مايو سنة ١٩٤٣ .

وكتاب «الكفاة» لابن الداية كذلك ، وكتاب ولاية مصر وقضاها للكندي للنوف سنة ٣٥٠ ، وأخبار سيبويه للمصرى الحسن بن زولاق للتوف سنة ٣٨٧ ، بل إن سيرة البلوى لتمد بقدمها وتفصيلها الوافي أم مرجع لتاريخ الدولة الطولونية عرف حتى اليوم .

والكتاب كما نشره الأستاذ كرد على بك يشتمل على مدخل بقلم الأستاذ الناشر ضمنه الكلام على المؤلف وتأليفه ، وعلى أصل المخطوط الذي طبع منه الكتاب ، وعلى أحد بن طولون كما صورته البلوى . ثم يلي ذلك متن الكتاب ويقع في ٣٣٠ صفحة متوسطة تناولت سيرة ابن طولون من أول أسرته إلى وفاته . ثم يلي للتن فهرس ضافية ، وجداول تصحيحات لأخطاء وقعت في الكتاب أثناء طبعه .

ومن قراء «سيرة أحمد بن طولون» للبلوى قراءة بحث وتحقيق ، تعرض له أمور هي محل للنظر من غير نزاع . فأولاً من هو البلوى الذي ينسب إليه وضع هذه السيرة ؟ يجهلنا الأستاذ كرد على بك في مقدمته مستنداً إلى ابن النديم والطوسي والذهبي وابن حجر أنه قتيه عربي الأصل يحدث عاش في أواسط القرن الرابع الهجري ، وأنه كان شيعياً إمامياً ، وربما كان إسماعيلياً . وأن مؤرخي رجال الحديث من سنين وشيعة يرمونه بالكذب ووضع الحديث . فإذا صح أنه شيء فما الذي حدا به أيما كان مذهبه إلى أن يؤلف سيرة أمير تركي سني متشدد في شيعته ؟ يذهب الأستاذ كرد على بك إلى أن ابن طولون ربما كان يصر عطفاً على الإسماعيلية سياسة منه واستظهاراً بهم على تشييد دولته ، وأنه كان يكتم هذا المظهر حقبة منه ، فأحب البلوى أن يميزه عطفاً بسطف ، فكاتب سيرته . ونحن نخالف الأستاذ الجليل فيما ذهب إليه ، فليس في سيرة أحمد بن طولون ما يضاد منه من قرب أو بعد أنه كان يميل إلى الشيعة ، وخاصة الإسماعيلية ، ويرغب في اصطناعهم ، بل إن في سيرة البلوى نصوصاً صريحة في شدة ابن طولون على العلويين والعلاليين . من ذلك قوله علوياً اسمه بيا الكبير ثار عليه ^(١) . وتشكيله بابن الصوفي وهو طالي بث عليه ثورة كبيرة بالمسيد ^(٢) . ويروي اليعقوبي أن ابن طولون أخرج العلاليين من مصر إلى اللدنة ، ونكل

بواحد منهم لأنه تخلف عن الخروج^(١) كما يذكر الكندي أنه لما غضب أحد بن طولون على أخيه موسى أمر هذا وكان بطرسوس بلبس البياض إعلاناً منه بجهله إلى الشيعة^(٢).

هذا عن دعوى عطف ابن طولون على الإسماعيلية. أما إسماعيلية البلوى، فالأمر فيها أصبح واضحاً بعد أن بين السيد الزنجاني - وهو الحجة الثابت في تاريخ التشيع - أن الأصول القديمة لم تنسأ إلى دعونه الإسماعيلية، وأن صاحب القهرست قد خلط بين الداعين إلى للذهب الإسماعيلي والداعين إلى غيره من مذاهب الشيعة^(٣). بقي أن يقال أن البلوى كان إمامي للذهب، وهو ما ذهب إليه عالم آخر بتاريخ التشيع هو الأستاذ إيفانوف^(٤). فإذا صح ذلك فلا جرم أن نشيعه لم يبعده كثيراً ولا سيما في ذلك العصر عن هدى السنة والجماعة. ويمكن إذن أن نفهم إقدام البلوى على وضع سيرة أمير تركى سنى.

والحق أن البلوى إنما صنف سيرته لا ليرضى تزعمة مذهبية خاصة، ولكن ليرضى قبل كل شيء ميوله الأدبية، فهو أديب بارع فوق كونه واعظاً وقبياً وعالمياً كما وصفه ابن النديم. رأى في سيرة أحمد بن طولون أوجد رجال العالم الإسلامى في النصف الثانى من القرن الثالث محالاً لقله وبيانه، ورأى مادة البحث متوافرة له وفي متناول يده، ورأى في الوقت نفسه أن السيرة التى حررها ابن الداية معيبة من الوجهة الفنية، فست به همة الأديب للمناز إلى أن يكتب هذه السيرة على نحو أتم وأدق وأجمل مما جاء في سيرة ابن الداية. وقد صرح بفرضه هذا في مقدمة السيرة حيث يقول :

«... وأنت قرأت كتاب أحمد بن يوسف فلم يكن موقفه منك الفرض الذى إليه ذهبت، ولا للذى الذى له نحوت، وأنت تريد ما هو أكبر منه شرحاً وأكمل وصفاً، وأن أحمد بن يوسف كان يمر في شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها وأنه كان يخلط أخباره إلى أن يقول : « وقت ما هكذا أرتخ الناس الأخبار، ولا عليه نظم الآثار. وقد امتثلت أمرك فيما أردت الخ »^(٥).



- | | |
|------------------------|-------------------------------------|
| (١) السيرة حاشى ص ٦٣ . | (٢) الكندي في حاشى ص ٦٣ من السيرة . |
| (٣) السيرة ٣٦٥ - ٣٦٦ . | (٤) السيرة ص ٣٦٥ . |
| (٥) السيرة ص ٣١ - ٣٢ . | |

وتم بسأله أخرى ، وهي مدى العلاقة بين كتاب الهوى الذى نحن بصدده وملخص
سيرة أحمد بن طولون لابن البداية كما هو وارد فى كتاب الغرب لابن سيد وكما نشره
البشتيرقى فولز سنة ١٨٩٤ ، أن التشابه بين البكتابين قوى جداً غير أن كتاب ابن البداية
مؤرخ ، وكتاب الهوى مفصل ويمحوى بعض زيادات لم ترد فى كتاب ابن البداية .

ن يعلل الأستاذ كرد على بك هذا التشابه المحيى بأن الهوى سبطاً على مطول ابن
البداية (المتعود) ونقل فصوله بغير حساب . ويقول إن الطبعة جازته على ذلك بأن قبضت
له مؤلفاً آخر هو تقي الدين القريزى سبطاً على كتابه . ولعمري قد لا يكون محيياً كل
المحجب أن يسطر مؤلف من القرن التاسع على مؤلف من أهل القرن الرابع ، إنما المحجب
حقاً أن يسطر الهوى وهو من أهل القرن الرابع على ابن البداية وهو مسامره ، ولعل
الرجلين تلاقيا وعرف كلاهما الآخر .

أما نحن فنرى لذلك التشابه المحجب سبباً غير الذى يراه الأستاذ كرد على بك ، وذلك
أن كلا المؤرخين فيما نعتقد استمد كتابه من نفس المصدر الذى استمد منه الآخر . ذلك
للمصدر هو ديوان الإنشاء العسرى :

لقد جعل أحمد بن طولون الرسائل ديواناً تحتم فيه البكتب بعد أن يمررها البكتاب
وبعرضها عليه^(١) وأغفلن الفن أن ديوان الإنشاء كانت تحفظ فيه سوى الرسائل الرسمية
محاضر مجالس ابن طولون بعد عرضها عليه كذلك .

يدل على ذلك قوله لكتاب استكتبه : « إني جعلتك صاحب خير على أفاضل فانظر
كل ما يمر به ينى وبين من يخاطبني من كان من الناس من صغير وكبير ، فأكتب خطابه
وجوابي ، وخطابي إياه وجوابه لي ، وأعرضه على بالشئ »^(٢) .

وربما كانت تحفظ فى ديوان الإنشاء رقايع التقارير التى كان يرفها إلى الأمير كتابه
وعلمانه وأصحاب أخباره . من ذلك ما حدث به نسيم الخادم قال : « كان أصحاب الأخبار
يرفون إلى مولاي رقايع أنوام تكون ميبلا لاصطفاهم وقيلهم »^(٣) . ومن ذلك ما حدث

(١) السيرة ص ١١٢ .

(٢) السيرة ص ١٠٠ - ٢٠١ ص ١١١ - ١١٢ .

(٣) ص ٢٢٤ .

هو أحمد بن محمد الكاتب من أن أحمد بن طولون تده مرة بحضور مجلس جماعة من
للحرفين من الأمير وتدون كل ما جرى بينهم ، فعمل ما أميره ، ورفق إليه تويراً بكل
ما حدث^(١) .

والدليل على أن سجلات ديوان الإنشاء المصري هي للنيل الأول الذي نزل منه ابن
الداية في كتابه « سيرة أحمد بن طولون » و « للكتابة » ، ونزل منه إلى الحق في « سيرة
أحمد بن طولون » أن الكتب المذكورة تجوز على نصوص مراسلات رسمية جرت بين
ابن طولون والوفا ، وبينه وبين ابنه المناس الثاني عليه ، وأن تلك الكتب تشابه في
الأخبار المشتركة بينها تشابهاً عالياً في اللفظ والنمى والأسلوب ، وأنها تتقدم فيها نعمة واحدة
هي نعمة الإشادة بمحمد ابن طولون ومناخره ، والمناس للماضي لأفعله التي كانت تصدر
عن حدة مزاج تبلغ أحياناً مبلغ القسوة والوحشية .



نكتفي بهاتين المبتاتين اللتين أثارتهما قراءة مقدمة الكتاب . ثم نفيه بعد ذلك
على هبات وقصص في متن الكتاب وجوانبه ، ولم نجد لها تعديلاً في جداول التصحيحات
المرادة في آخر الكتاب . من ذلك « الطير غم » في ص ٢٣ براء مهلة مكررة : « صوابها
« الطير غم » براء مهلة مكررة^(٢) . وفي ص ٨٩ « محمد بن علي بن قيم الأرض » « صوابه
« بن يحيى الأرمي »^(٣) . وقول المتن في ص ٩٨ « ويبلغ لم كل ما أحسن » « بطلية
فصل باللام . وقد تكررت هذه التلمية في ص ١١٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، والقصص يتقدمه بالباء
كما ورد في ص ٢٧٦ وجاء في المتن في ص ١٤٧ « بتدليل البعل » « وعليه الشرح على
ذلك في هامش الصفحة بقوله « الأقرب بتدليل أنيسر » « والنمير ومع الدم » « عبارة المتن هي
الصحيحة ومعناها للتدليل التي كانت تصدر فيه الأوراق الخاصة بالأموال وجبايتها . وقد
ورد لفظ « الصل » بمعنى « كشف الحياض » في موضع عدة من الكتاب . من ذلك
قوله في ص ١٦٣ « قن : فأجبرنا بها عملاً بغيرنا ... يقال ما عتدي لها عمل بتفصيل ...

(١) السيرة ص ٢٢٤ - ٢٢٩ .

(٢) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ١٤ .

(٣) سيرة ابن الهيثم ص ٢٤ والطير يبلغ أوردوا المجموعة الثالثة ص ١٤١٤ .

وأخرج من خذه عملاً وثاوله الأمير وقال له ... هذه نسخة ما حمل إلى بيت المال من هذه الضياع « ولفظ « التقيصين » و « التقيص » الواردة في متن ص ٢٠٦ وهاشبا بالقاف للثناة صوابه بالفاء للوحدة ، وبنو القيص التتوخيون ورد ذكرهم في شعر للتني وأخبار منبويه للمصري وشعر أبي العلاء للمري^(١) .

١٧٥ « فلما توسلنا الطريق قام إلى أصحاب الأرباع فأرثتهم . كتاب تولو وعرقهم أنى ذاهب إلى الأمير » وفسر لفظ « الأرباع » في الهامش « بالمازل » وهو تفسير لا يناسب السياق . والأرباع هنا أرباع جند الشرطة أو الجيش أى أقسامهم . وقد كان جند السكوة زمن بنى أمية مقسمين أرباعاً وجند البصرة أخماساً^(٢) وأصحاب الأرباع والأخماس رؤساؤها .

وسيرة أحمد بن طولون الجبارى نص تاريخى هام كما قدمنا ، استمد من مصادر قديمة استبداداً مباشراً . فهو من ناحية يتتبع سيرة مؤسس الدولة الطولونية من بدايتها إلى نهايتها . فبرينا ابتداء أمره وتقلده في معارج الرقى إلى أن بلغ غاية قوته ، ثم انحلال أمره وأول نجه . وهو فى خلال ذلك يشير إلى مواطن القوة والضعف من تلك الشخصية الجبارة . فبينما يصور لنا مضاعفة عزيمته وقوة إرادته واستبداده واقتداره العجيب على العمل للتوصل وتهد كل صغير وكبير من شئون دولته ، إذا به يلجأ إلى أن إفراطه فى ذلك كله كان السبب الأول فى فساد أمره وتصعد سلطانه ، ولا يعدم من حين لآخر أن يصور لنا حاجته الإنسانية . فيذكر لنا أنه كان جميل الصوت محباً لسماع النساء ، سم الإحسان والتصدق ، وأنه يرتاح للجواب للفتح والنكتة اللطيفة ، وأنه فى الجملة أحياناً كان ينسلخ من جلد اللار الجبار ويلبس إهاب الإنسان الوديع اللطيف .

والكتاب من ناحية أخرى يلقى ضوءاً على حياة مصر العامة فى آخريات القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع . فيستطيع من يقرؤه أن يقين الشيء الكثير عن نظمها الإدارية

(١) انظر الرائية التى رثى بها للتني محمد بن إسحق التتوخي وأخبار سيده ص ٤٧ وسقط الزند ص ٢٣ - ٢٤ من طبعة بولاق :

(٢) الطبرى طبعة أوروبا : القسم الثانى ص ١٢١ ، ص ٢٤٠ .

من خراج ومارون وقضاء وبريد وجاسوسية . كائنين أحوال الجماهير وأرباب الحرف والصناعات . وأبلغ من ذلك كله أن الكتاب يصور روح الشعب المصري للروح الذي لم يسعجه أن يترجمه متعجب يأخذ بمعتقداته مهما يكن عادلا وخيرا . يصور الكتاب ذلك الروح من طريق كلامه على التوراة التي بثها نفر من كبار المصريين بزعامه العباس بن أحمد بن طولون والتي أبدتها الخلافة العباسية من وراء وراء .

والكتاب من ناحية ثالثة يلقى ضوءا على الدبلوماسية الإسلامية في الحقبة المذكورة، فهو يبين حال الخلافة العباسية قبل الهد واتقسام القوة الإسلامية إلى شرقية وغربية وأثر ذلك ، كما يوضح علاقة أقطار الشرق الأدنى وحملها الأقوياء بالسلطة المركزية في العراق .



والكتاب بعد تحفة أدبية رائعة يجذ فيه مؤرخو النثر القوي ومن يدرسون الألفاظ والأساليب العربية مادة غزيرة جدرة بالبحث والدرس .

من مواقف البطولة الإسلامية

في القتال*

إن من يطلع على تاريخ الحروب التي وقعت بين الفرس والروم في أواخر القرن السادس
لليلاي وأوائل السابع ، يرى إلى أي حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء
الشخصية ، شهوات الأكراسة تارة والقيامة أخرى ، وإلى أي حد كان يحمدوها جب
للغنم واللب والنهب ، وإلى أي حد كان يذكي أولها صاحب القسطنطين والانتقام ، وإلى
أي حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، ونقض العهود والمواثيق . فالشهوة ، والنيمة ،
والانتقام ، والتخريب ، والتدمير ، كن أهداف تلك الحروب التي كادت تنك ربوع للشرق
والغرب خراباً ياباً .

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشهورة استمرت في الغرب الذي يدين بالسبيحة
السبعة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولله لم يخل منها حتى يومنا هذا .
ولننقل لذلك بالحروب الصليبية التي ارتكب فيها الصليبيون في مدن الشام عامة وبيت
القدس خاصة من أفاعيل تقشر لها الأبدان ، وبما صنعه للكان الكاثوليكانيان
الأسبانيان فردنند وإزابيلا ، على غرناطة غداة استيلائهم على عاصمتهم صلحا ، من
نقض العهود للزكاة ، والمواثيق للنفقة . وبحروب اللروقة في التاريخ الأوربي الحديث
في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب الدينية ، وأخيراً بما ارتكب في الحرب
العالية الأخيرة من تخريب وتدمير كان ختامه إلقاء القنابل الذرية على المدن اليابانية ، مما
أودى بالآلاف للؤلثة من اليابانيين ، غدرأ وبنياً وعدواناً .

ولنضرب صفحاً عن وصف الحرب في المصور الوسطى عند القتال الجرمانية التي
قضت على الدولة الرومانية ، وغمرت أوربا في ظلام دامس طول ألف سنة تقريباً ، وعند
النتر الذين قضوا على الدولة الباسبية ودكوا مروح الحضارة الإسلامية في للشرق ، فقد يستفر

من هؤلاء وهؤلاء بأنهم همج ليست لهم حضارة القروس ولا نصرانية الروم ولا مدنية أوربا وأمرهم كما في القرن العشرين .

ولكن كم لجوالات التاريخ وتصاريقها من أسرار جرحى العلماء ولا يزالون يحرسون على اكتنائها والوقوف عليها ! وكما قد من لطف خفي حارت في كنهه الأنعام ! ففي وسط هذه النهايب للدمية والغفلات الحالكة ، تبرز شمس الدعوة الإسلامية ، فإذا الحرب للشريعة هي للزعة عن شهوة السلطان ، وحسب للقيم ، والسمة ، والبرأة من عوامل الفدر والنجاسة والدون ، وإذا بها نظام من نظم الممران ، به يكف الظلم ويقع الظلمانيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبّر شوقي عن كل ذلك في قوله مخاطباً الرسول العربي :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقصات دواء

وإذا بهذه الحرب للشريعة تسمى جهاداً في سبيل الله ، أي كفاحاً لإعلاء كلمته بكل ما تشتمل عليه هذه العبارة من معاني المداة والإصلاح في الأرض وتحقيق النلل العليا . وإذا الجهاد أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبسدر الوالدين ، وإذا المجاهدة إحدى الحسينين إما الظفر وإما الشهادة . « ولا تحبين الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه للبادئ أسساً جوهرية من أسس الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها في حروبهم ، فلا غرو أن خلفت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة في القتال . ونحن نورد فيما يلي ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضاً من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجاعات .

١ - أبطال :

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر فحرض الناس على القتال ، وقال : « والذى نفسى بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال حمير بن حاتم من بني مسيلة ، وفي يده ثمرات يأكلهن : « حج الحج ! ما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء القوم ! » ، ثم قذف بالثمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أحد أخذ سيفاً فحزه وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟
فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه . ثم حزه الثانية وقال :
من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض
عنه ؛ فوجدوا في أنفسهم . ثم عرضته الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه
أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب في العدو حتى ينثني » فآخذه
منه ، وأعلم نفسه بصصابة حراء ومشى إلى الحرب ، وجعل يتبختر بين الصفين ، قال الرسول
« إنها لمشية ينفذها الله إلا في هذا للوطن » ! ودخل أبو دجانة في الحرب مبيدنا بالقتال ،
فأبلى وأنكى .

وبما استدلل به الفقهاء على جواز للبارزة مع التفرير بالنفس ما حدث في حرب الخندق
إذ برز عمرو بن عبدود فارس قرشي وغلها الخنذيذ ، فدعا إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد .
ثم دعا إلى البراز في اليوم الثاني ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز في اليوم الثالث ، وجعل
يعير المسلمين لإحجامهم عن مبارزته . فقام علي بن أبي طالب فاستأذن رسول الله في البارزة ،
فأذن له على ضنه به ، وقال « أخرج يا علي في حفظ الله وعباده ! » . فخرج فجاولا وثارت
هجاجة أخفتمها عن الأبصار ، ثم انجلت عنهما وعلى يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتييل .

٢ - المفور عند المقدرة :

لما تقصت قريش هذنة الحديبية التي كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على
غزوها وفتح مكة ، وذلك في رمضان سنة ٨ هـ فخرج من المدينة في عشرة آلاف وبنت قريشاً
على غير استعداد ، فلم يبع ساداتها وكبرائها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأشهرهم وليلهم ،
وقد أعطاهم الرسول هذا الأمان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقتل إلا من قاتله ،
وقال في تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن
سهم فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ودخل
الرسول وجيشه مكة من أنظارها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قريش إليه عند الكعبة
مطعة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم عليه السلام قال « يا معشر قريش ماذا ترون أني فاعل بكم ؟

قالتوا : « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم » قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » هكذا عامل الرسول هذه القبيحة التي كذبتها ، وأذنته ، وأخرجته وأصحابه ، وناولته أكثر من عشرين سنة ! فاضرب بذلك أروع مثل لعلم والنفوذ عند القدرة .

٣ - طالب الشهادة فلم يعطها

كان زيد أخو عمر بن الخطاب من قبل في وقعة اليمامة ، إحدى وقائع حرب الردة ، وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله ، وكان معهم : « ألا هلكت قبل زيد ؟ » هلكت زيد وأنت حي ! ألا داريت وجهك مني ؟ قال عبد الله : « سألت زيد الله الشهادة فأعطىها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها ! » .

٤ - لا نامت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد في الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . ولقد سماه الرسول سيفاً من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفاً له وتنويهاً بقدره . ظهرت عبقريته في وقائع مؤنة الردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولاته تظهر فوق ذلك في تواضعه ، فبعد ما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة لورثائها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضياً تحت إمرة أبي عبيدة . وهي تتجلى بوجه أخص في العبارة التي استخلصها من تجاربه وعبر عنها في ألقاظ قلائل قالها عند ما حضرته الوفاة ، قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهادها ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وهأنذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء » .

٥ - قائد محير :

كان للثنى بن حارثة الشيباني يقاتل المجر بالعراق على شاطئ الفرات ، فاشتبك مع الفرس في وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ . وكان قد انضم إليه قبيل الرقة جمع من نصارى تغلب حية لصلبة المروية . وإلى الثناري ما نصف به الرواية هذا القائد وجيشه في ذلك اليوم : « وأقبل الفرس يتقدمهم قائدهم مهران في ثلاثة صفوف ومع كل صف

فويل ولم وجل ، فقال للثني المسلمين : « إن الذي تسمعون لثل ، قالوا الصمت ! »
وظنوا للثني على حقوقه يهد إليهم ، وهو على فرسه الشمس وكان لا يركبه إلا قتال ،
فوقف على الرايات يمرضهم ويهزم بأحسن ما فيهم ، ولكلمهم يقول : « إني لأرجو ألا
يؤثر العرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرنى اليوم نفسى شيء إلا وهو يسرنى لامتكم »
فيجيئونه بمثل ذلك . وأنصتهم من نفعه في القول والفعل ، وخلص الناس في الحبوب
والنكرو ، فلم يستطع أحد منهم أن ينسب له قولاً ولا فعلاً . وقال : « إني مكبر ثلاثاً
فميتاً ، ثم أحيوا إلى أرابنة ! » فلما كبر أول تكبيرة أجهلهم فارس وأطوم ، وركدت
فجلبهم وأخربهم فميتاً ورأى للثني عجللاً في صفوفه بى جمل ، فجعل يمد لحيتيه لما يرى منهم ،
وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تخضعوا للثني اليوم ! قالوا :
نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال للثني لأنس بن هلال النخري : « إنك امرؤ عربى ، وإن
لم تكن على ديننا ، فإذا خلعت على مهران فأحل مى ! فأجابه ، فجعل للثني على قلب
الجيش القارى فأزاله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من قتل نصرانى . فلما رأته ذلك
مجنبات للثني حلوا على مجنبات الفرس ، وجعل للثني واللسون في القتل يدهون لم
بالنصر ويرسل إليهم من يذرم ويقول لم : « عاداكم في أمثالكم ! انصروا الله ينصركم ! »
- هزموا الفرس .

ومات أناس من الجرحى ، منهم مسعود أخو للثني فصل عليهم للثني ، وقال : « والله
إنه ليهون وجدى عليهم أن شهدوا البريب وأقدموا وصبروا لم يجرعوا ولم يشكوا » .

٦ - الفرو عند المقدرة أيضاً :

من أطلع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين في البيت للقدس غداة اسقلائهم
غلية في سنة ٤٩٢ هـ . أجمت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء .
فتوزد لقارى بجلا لما حدث عند ما استرد صلاح الدين الأيوبي تلك المدينة من الصليبيين
في سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين في وقعة حطين سار إلى صقلان فانتخبها وأخذ يهاهب لزحف منها إلى بيت المقدس : وكان حريصاً على أن يجتنب تلك المدينة ويلاصق الحرب والمصار ، فاستدعى وقدماً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التي يملكها الصليبيون واللاتون ولكنهم هزحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لم أنه لن يأخذها إلا بالسيف .

وتقدم صلاح الدين إلى المدينة وأخذ في مهاجمتها وأغضب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن فتحها . فلما رأى الصليبيون ذلك أخذوا الأمير بليان لمهاجمة صلاح الدين - فطلب هذا الأمير أن يمنع السلطان بيت المقدس عنوه الذي منحه لهذا صليبي آخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب فتمسكتا بينية التي ألتصها . عند ذلك قال له بليان : إن في المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقطعوا خنادقهم وأطفالهم ويحرقوا كل ما يسعهم تخميره ، ثم يقاتلونه حتى يقطعوا عن آخرهم : ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فأقروه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف في إرراقه ، وأن في وسعه أن يعتبر كل من في المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، أنه أن يعرب عليهم القداء ، وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأي وتم الانتقال على أن يكون القداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل مثل ديناراً واحداً ، وأن تكون للدة التي يؤدي فيها القداء ويتم الجلاء أربعين يوماً . فن وجد في المدينة بعد ما كان ملكاً مستعزاً للسلطان .

وضعت المدينة أبوابها للسلطان وحيشه وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكانت الليلة ليلة المراج الشهيرة ، وهي تضادفة حبيبة ، وأقام صلاح الدين على الأبواب أمثاء يتقاضون مال القداء .

فخرج الأمير بليان وسه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتي البطارك الكبير يجر من أموال الكنائس ونقودها وأجواهرها ما لا يقدر بحال ، فلم يعرض صلاح الدين لشيء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن يتقاضى عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير عشرة المقررة . وانخفض

الأرمن يوما ولا يزال في المدينة ألوف كثيرة من قراء الصليبيين لا يملكون فداء . يقول المؤرخ الصليبي « أرنول » - ولله كان حاضراً ذلك اليوم المشهود - : « فقدم العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : سيدى ! قد أعتك بجد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة وإن استوهدك ألقاً من أولئك الأروءة . فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعقهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطلبيا مثل الذى طلب العادل فوجههم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا في الحال . وأخيراً بلغت صلاح الدين إلى أصحابه ويقول : « قد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقى أن أؤدى أنا صدقتى » . ثم إنه أمر رجالاً من حرسه أن ينطلقوا فينادوا في جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حروجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهراً كاملاً من لندن شروق الشمس إلى أن غيم الظلام » .

ثم يحكى المؤرخ المسيحي المذكور فيقول متحدثاً عن أدب صلاح الدين ونبيله ورقة قلبه : « إن نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلتهن في الحرب ؛ فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند صلاح الدين باقيات ممولات يشكون إليه سوء حالهن ، فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج في حبه زوجها ، وأمر بحال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها ، بما ألمج المستهن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الإنجليزي لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافياً في عله أعظم الفاتحين في عصره فروسية وأكبرهم قلباً ، را لى ك^١ في أى عصر من المصور » .

٧ - والإسلاماء !

اجتاح التتار أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد في سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر . ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك ، وهو آنذاك المظفر قطز ، كتاباً ملأه تهديداً ووعيداً وطلب إليه فيه للمبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه . فارت حمية

السلطان واستنفر الناس لجهاد التتار فشقوا المائت في الأذعان إذ ذلك أن التتار لا يفلتون ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد إلى أي حاله وليصحبه من يشاء . عند ذلك فر معه الأسراء بأجناده ، فصار بالجيش إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس ، وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت ، وذلك في رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

يقول المقرئ في وصف بلاء قلز وبيبرس والجيش للمصرى في ذلك اليوم المصيب :
« قلز كان يوم الجمعة خاس عشر من رمضان التتار الجمعان ، وفي قلوب المصريين وهم عظيم من التتار ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادي وكثر صياح أهل القرى من القلاحين ، وتناجى ضرب كوسات السلطان والأسراء ، فتحيز التتار إلى الجبل ، فعندما اصطدم المتكران اضطرب جناح السلطان وانتفض طرفه ، فألقى الملك للظفر عند ذلك خروجه عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « وإسلاماه » ، وحمل بنفسه وحين معه حملة صادقة ، فأبده الله نصره . وقتل كتيباً مقدم التتار ، وانهزم باقيهم ... وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاء حسناً بين يدي السلطان ، « وسر المتكر في أثر التتار إلى قرب عيسان ، فرجع التتار وصانوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وهدم عنهم ، وكان قد زلزل المسلمون زلزلاً شديداً ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعها معظم المتكرو وهو يقول : « وإسلاماه » ثلاث مرات « يا الله » انصر عليك قلز على التتار ، فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه وصرخ وجهه على الأرض وقبلها ، وضى زكيتين شكرًا لله تعالى ثم ركب ، فأقبل المتكرو وقد امتلأت أيديهم بالناس . تلك وقعة عين جالوت التي صد فيها الجيش للمصرى سيل التتار الذي انقضت الجبال ، واستنقذ بها الشام من أيدي التتار ، ورد عن مصر والغرب الإسلامي كيدهم وجبروتهم ، وفوق ذلك فإنه في ذلك اليوم وعلى غير علم منه وفي أوروبا وحضارتها الناشئة دماراً عظيماً ، وذلك باعتراف مؤرخي أوروبا أنفسهم .

وبعد ، فلعل القارئ يكون قد رأى من جميع النصوص المقدمة أن الإسلام قد خفف من ويلات الحرب جهد الطاقة وأنه شرع لها منها جاحداً ومن آداباً كريمة .

كتب الحسبة

وقائدها في وضع المعجمين الوسيط والكبير (١)

معنى الحسبة والاحتساب في اللغة المد والحساب . ويحس الاحتساب بمعنى الإنكار
لشيء ، ومنه قول الكيت :

بأي كتاب أم بآية سنة ترى جهم عاراً على وتحسب

أما في الشرع فقد عرف الإمام للاردى الحسبة في كتاب « الأحكام السلطانية بقوله
(هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله) » واستدل على وجوبها
بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون » ويورد حجة الإسلام الترمذى في كتاب « الإحياء علوم الدين » أدلة
أخرى على وجوبها مستمدة من القرآن الكريم والآثار والأخبار . وعلى هذا الأساس اعتبر
الفتاوى الحسبية وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على
التأتم بأمر الجماعة الإسلامية بقوله بنصبه أو يندب له من رآه أهلاً له ، وهو ليس بتدبير
المحتسب . ويجوز أن يخلو في مقدمته عمل المحتسب فيقول : « ويتخذ الأعوان على ذلك ،
يبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على الصالح العامة في المدينة ،
مثل اللع من الضائقة في الطرقات ، ومنع الخالين وأهل السفن من الإكثار في الخمر ، والحكم
على أهل الباطن للتداعية لسلطوهم بها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على
أيدي الملعين في الكنايب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للعيان وللعلنين . » ويفرق ابن
خلدون بين اختصاص المحتسب واختصاص القاضي فيقول : « ولا يتوقف حكمه (أى
المحتسب) على تنازع أو استعلاء ، بل له النظر في الحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع
إليه ، وليس له إضفاء الحكم في الدعاوى مطلقاً ، بل فيما يصلح بالنسب والتدليس في المعاش
وغيرها وفي الكنايب والوازين . وله أيضاً حمل للماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس

فيه سماع بينة ولا إغناض حكم . ثم بعض فيقول « وكلها أحكام ينزه القاضي عنها لمسورها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها . فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء . » ويلحظ ابن خلدون التطور الذي طرأ على نظام الحسبة بما اقتضى فصلها عن القضاء فيقول « وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل المبيدين بمصر والقرب ، والأمويين بالأندلس ، داخلية في عموم ولاية القاضي ، يولى فيها باختياره ، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره علما في أمور السياسة ، اندرجت (أى الحسبة) في وظائف الشك وأفردت بالولاية . »

وهذه الإشارة الأخيرة من ابن خلدون طريقة وهامة وتحتاج إلى شيء من البيان والتوضيح . فنذ ظهر منصب « أمير الأسراء » في بغداد في سنة ٢٩٦ على يد مؤسس الخادم أصبح صاحب هذا القب أو ما يتأمله من الألقاب عام النظر في السياسة وشئون الحكم الفعلي ، وبقي الخلفاء الاسم والسلطة الروحية فحسب إذا صح هذا التمييز . وقد صادف هذا الانقسام قيام حال خطيرة في الأسفار الإسلامية الكبرى من أقصى للشرق إلى أقصى للغرب ، مثل غزنة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وقاس ، وسراكن ، ومدن الأندلس إذ غدت هذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة ، حافلة بالأسواق ، وذاكرة بطرائف التجار ، وأهل الحرف والصناعات ، كما غدت يثبات اجتماعية مختلطة تتراحم فيها الأمراء ، والبدع ، والنحل ، واليول السياسية للتمارضة ، وللذاهب الدينية المختلفة .

كأت هذه الحال وحدها تقتضى من ولاية الأمور في الدولة أو الدول الإسلامية سهرا ويقظة حتى لا يضطرب جبل الأمن ويتم النوضى . فكيف وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ذوى ميول سياسية ، وتزعجات مذهبية ، وكان كثير من أهل للذاهب الدينية متمسكين لمذهبهم مستدين في سبيل نصرته لحل السلاح وإراقة الدماء ؟ لقد كانت بغداد ميدانا لفتن دلية متصلة تارة بين الخناينة وخصومهم وأخرى بين الشيعة وأهل السنة . كما كانت الشام مجالا لنشاط الباطنية للعطلة لأحكام الدين الإسلامى . وكانت القاهرة عرضة لمثل تلك الفتن بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية ، وقد كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية القاهية . ومثل ذلك يقال عن مدن القرب والأندلس ، حيث كان كثير من ذوى الحرف والصناعات من أهل القصة ، وكانوا

في كثير من الأحيان ضالعين مع المالك النصرانية التي كانت تناسب للبلدين العدا في
ثيغال إفريقيا والأندلس .

الملك سيواجه ذوو السلطان هذه الحال على قول ابن خلدون حصلوا الحبة عن
القضاء ، وصيروها وظيفة ملكية ، وبطلوا يد المحتسب على كل كآة يحتكر في المعاملات
والصناعات والتجارات ، وكل نزاع إلى الفتنة والفساد في الأرض وإفلاق راحة الناس ،
وبانفصال الحبة عن القضاء وصيرورها أدلة رقابة وضبط وتنفيذ سريع انضحت شخصية
المحتسب . ومحدثنا القرينى عن المحتسب في القاهرة فيقول « ولا يكون إلا من وجوه
البلدين وأعيان المدلين ، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر (القضاة) وجميع أعمال
الدولة كتنواب المحكم وله حق الجلوس بمحامي القاهرة ومصر يوما بعد يوم ويحيط به
على أبواب الحرف والمناش ... وينظرون للسكايل والوزن ، والمحتسب النظر في دار
السيار ، ويمنع عليه ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على النهر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا
وأما ، والولاية تشدسه إذا احتاج إلى ذلك . وجاريه ثلاثون ديناراً في كل شهر » .

ومحدثنا صاحب « فتح الطيب » عن المحتسب بالأندلس فيقول « أما خطة الاحتساب
فإنها عديم موضوع في أهل العلم والعلماني ، وكل صاحبها قاضٍ والعادة فيه أن يمشى بنفسه
وأكبا على الأسواق ، وأعوانه معه ، ويميزاته التي يزن به الخبز يد أحد الأعوان لأن الخبز
عديم معلوم الأوزان ، يرجع من الدم رخيص على وزن معلوم وكذلك الفس ، و ذلك
مصلحة فقد يرسل للبتاع البصير الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتياه به من السوق
مع الحاذق في معرفة الأوزان وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بصره ولا يحصر الجزار أن
يبيع بأكثر أو دون ما حاذق المحتسب في الورقة ولا يكاد يخفى خيائته ، فإن المحتسب يدس
عليه صيباً أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر المحتسب الوزن فإن وجد قصفاً فس على ذلك
جاءه مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى وإن كثر ذلك منه ولم يقب بعد الضرب والتجريس نفي
من البلد » .

• • •

وقد مايرت حركة التأليف والكتابة في الحبة هذا التطور مسيرة تامة . فند ما كابت

الحسبة تابعة لقضاء كان للثقوف من القضاء يكتبون فيها على أنها باب من أبواب الفقه فيذكرون شروطها وأحكامها وآدابها ضمن تأليفهم الفقيه . وأجمع ما وصل إلينا من ذلك الفصل الذي عقده لأحكام الحسبة للوردى للتوفى سنة ٤٥٠ هـ ثم الفصل للطرول الذي كتبه في كتاب الإحياء الإمام التزالي للتوفى سنة ٥٠٥ هـ .

وكلام للوردى في الحسبة كلام فقيه متبحر عليم بمختلف المذاهب الإسلامية لهذه يزيد أن يرسم صورة للحسبة كما ينبغي أن تكون من حيث المطابقة لأحكام الشرع مع الوضوح والدقة والإيجاز . أما كلام الإمام التزالي فكلام عالم متصوف يريد أن يرسم صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه العالم الإسلامي على الإطلاق . وكلامه على الحسبة يجرى هذا الجرى ، فهو غواص على حكمة التشريع ، كثير الاستشهاد بالقرآن والسنة والأخبار وما يقتضيه الذوق السليم ويضرب كل ما يكتب فيض من روحه القوى وإيمانه العميق .

فلما اندرجت الحسبة في الوظائف السلطانية كما يقول ابن خلدون ، وحدث ما أئنا إليه من تمدد الأمور في الأمصار الإسلامية الكبرى ، أتجه التأليف في الحسبة اتجاهًا عمليًا يرمي إلى ضبط الحال بتعريف من يتولى الحسبة أسرار الحرف والصناعات وما قد يأتيه أربابها من أمور النفس والخدعة والتدليس وأكل أموال الناس بالباطل .

وقد وصل إلينا من التأليف الموضوعة في الحسبة والتي نحا أصحابها فيها هذا المنحى الواقعي كتب تزيد على عشرة عدا ، أكثرها من مشرق العالم الإسلامي ومن مصر والشام خاصة وأقلها من المغرب والأندلس . وأهم المجموعة الشرقية كتب أربعة :

١ - « كتاب نهاية لرتبة في طلب الحسبة » لعبد الرحمن بن نصر النيراذي الشيزي للتوفى سنة ٥٨٩ هـ . والراجح أنه وضع هذا الكتاب بطلب من صلاح الدين الأيوبي للاستئانة به في الاحتساب على أرباب المدن والصناعات وأهل القمة الذين كان هوامهم مع الفاطميين كما تقدم القول . والكتاب يقع في أربعين بابًا وقد نشر في مصر حديثًا نشرًا حسنًا . وهذا الكتاب يعتبر في الحقيقة أصلًا للمجموعة الشرقية بنى عليه كل من كتب بعد في الحسبة في الناحية العملية .

٢ - فحمد بن محمد بن أحمد القرشي المصري المعروف بابن الأخوة والتوفى سنة ٧٢٩

قد وضع كتابه « معالم القرية في أحكام الحسية » وهو يضمن كتابه هذا أبواب كتاب الشيرازي مع زيادة ثلاثين باباً وإضافات قديمة وملحوظات شخصية للمؤلف لها طرائقها التاريخية كاسيأتى .

٣ - ثم يأتى محمد بن أحمد بن بشار المصري وهو من أهل القرن الثامن الهجرى فيضع كتاباً في الحسية يسميه كذلك « نهاية الرتبة في طلب الحسية » ويضمنه أبواب الكتاتين الساجين ويزيد عليها ثمانية وأربعين باباً وبذلك تتم عدة أبواب كتابه ثمانية عشر باباً ومائة باب استوفى فيها الحسية على ما يقرب من جميع الحرف والصناعات الموجودة لعهده. ويختلف الطوائف والميئات التى تقضى مصلحة الدولة مراقبتها عن طريق الاحتساب عليها .

٤ - والكتاب الرابع من المجموعة الشرقية هو كتاب « المختار في كشف الأسرار » لكتاب من كتاب الدولة الأرتقية اسمه عبد الرحمن بن أبى بكر الدمشقى ويعرف بالجوهرى وقد وضعه كما يقول فى المقدمة بطلب من السلطان مسعود بناء على ثلاثين فعلاً كلها فى التبريف بطرق النفس والتدليس فى الصناعات المختلفة وما يقع من طوائف معينة من الناس من الشعوذة والاحتيال .

أما المجموعة للثرية فتشتمل على كتابين اثنين :

١ - كتاب آداب الحسية لابن عبد الله محمد بن أبى محمد السعفى اللاتى الأندلسى للتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى وكتابه يشتمل على ثمانية أبواب فى الحسية ضمنها أموراً غائبة بنفسه أثناء ولايته الحسية بمدينة مالقة .

٢ - والكتاب الثانى عبارة عن رسالة وجيزة ل محمد بن أحمد بن همدون النجوى الإشبيلية التوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى ؛ ضمنها ما يراه من وجوه الإصلاح لأحوال مدينة إشبيلية وذلك عن طريق الحسية على موطنى الحكومة وأرباب الحرف والصناعات . وهو فى رسالته هذه يندد بنش الصناع وأهل الحرف وفساد ذم بعض الطوائف وانحلال أخلاقها .

الكتب للذكورة مزبة عظيمة في دراسة المجتمع الإسلامي كما تصوره حياة المدن الإسلامية الكبرى في العصور الإسلامية المتأخرة، أى من قبيل سقوط بغداد إلى انهيار النهضة الحديثة في آخريات القرن الثامن عشر. ففى من الناحية الاجتماعية تصور ما انتاب العالم الإسلامى من أدواء وعال وقر مدقع، مما أدى إلى التضيق فى النفس والتكسب باليمن النفسية والشعورة والاحتيايل حتى صار ذلك صناعة ذات أصول وقواعد وحتى أصبح مبدأ لكثير من الناس قولهم « الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم ». ثم إن هذه الكتب تشتغل على نقد للمجتمع لنزاع مثل قول ابن الأخرىة فى تحليل ترك الناس دراسة الطب وإقبالهم على دراسة الفقه فيقول « والطب من فروض الكفاية ولا قائم به (اليوم) من المسلمين وكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل القمة . ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام (الطب) ولا نرى أحداً يشتغل به . ويتهاقون على علم الفقه ولا سيما الخلافات والمجذليات ، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالتقوى والجواب عن الواقع . قلت شفى كيف يرخس الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإعمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولي القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط على الأعداء ؟ هيئات قد أندرس علم الدين : فآله للسكان ، وإليه اللآذ ، بأن يعيذنا من هذا الضرر الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان » .

ويقول ابن الأخرىة أيضاً فى ذم طائفة للوكيلين بالخصومة أو المحامين من أهل زمانه « وأما الوكلاء . . . فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم فى هذا الزمان فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتمسكون فيه بسبب الشرع فيوقفون القضية فيضيع الحق ويخرج من بين يدي طالبه وصاحبه . فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لمبا وكيل . فكان ترك الوكلاء فى هذا الزمان أولى من نصبهم إلا أن يكون هناك امرأة لم تكن من ذوات الهوى فتوكل ، أو صبي غنيثذ ينصب الحاكم عنه وكلاء . »

ويقول الشيرازى فى أمر التحوط من الباطنية « ويقدم المختب إلى جيران كل مسجد

للمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان لإظهار معالم الدين وإشهار شعار الإسلام ، سبيل إلى هذا الزئان لكثرة البدع واختلاف الأهواء ، وتنوع الباطنية ، وما قد صرحوا به من تعطيل الشريعة وإبطال أحكام الإسلام ، فيجب على كل مسلم إظهار أركان الإسلام وإشهار الشريعة في مقابلة ذلك لتتوى عقائد العامة .

إن للكتب المذكورة تصور لنا في الجملة الحماية البيضية في الدين الإسلامية الكبيرة فيصف الأسواق وحركة التعامل وما قد يقع من منكر يدارع المحتسب إلى إزالته ، كما تصف مختلف الصناعات والحرف وصفاً دقيقاً .



ومنها يمكن لما من قيمة تاريخية ، فإن قيمتها الفورية هي الجديرة بالتنويه في هذا المقام . إن كتب الحسبة العملية التي وصلت إلينا تحوى عشرات بل مئات من الألفاظ والمصطلحات الفنية التي جرى استعمالها منذ أربعمائة عام أو تزيد . ولأورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال : يقول الشيرازي في باب الحسبة على البيمارية « وقد ذكر بعض الحكماء في كتاب البيطرة أن علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة منها الخناق ، والخناق الرطب ، والخناق اليابس ، والجنون ، وفساد الدماع ، والصداع ، والحر ، والنفخة ، والورم ، والبرص المائجة ، والذرية والخلم ، ثم يعض فيمد أكثر من أربعين مصطلحاً لأربعين علة من علل الدواب » .

ويقول في باب الحسبة على الأطباء « وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال ، وهي كليات الأضراس ، ومكازي الطحال ، وكليات الماشي ، وزوائد القولنج ، ومزلم البواسير ، وغرظ المناخير ، ومنجل الأنواصير ، وقالب التشمير ، وحصص التثقيب ومفتاح الرحم ، ووزار النساء ومكدة الحشا ، وقدرخ الشوصة ، وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب غير آلة الكتالين والجراخين بما يآلف في كره في موضعه » .

ومن المصطلحات التي التقطها من كتب الحسبة المذكورة والتي تستعمل نحن بعضنا حتى أتنا الأيرمية : الزنجار بمعنى ضياء النعاس ، والقبان ، لآلة الوزن المرفوعة ، والفرمة التي يقصب عليها اللحم والقطان (بمعنى للنبعد) ودقيق العلامة أو الدمك لدقيق لب الحنطة ، والحموم

الرقعة المزينة ، والسك الثابت ، والسك الطرى ، والبيض اللز والىك اللز بمعنى القاسد ، والقرى بمعنى القليل ، وأرض العيب بمعنى ثا يطرح من الترت يظهر في السلة (وهو من أرض الجراح إلى القته بمعنى ديتها) والطنجور القدر الكبيرة المتخذة من النحاس ، وهى تقابل لفظ (القزان) عندنا .

أما بعد فقد قام المشرق المولدى دوى فى النصف الأخير من القرن الماضى بمجد مشكور ، إذ جمع طائفة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات العربية التى لم ترد فى المعاجم العربية ونشرها ، ولتكن كم ترك الأول للأحرار إن من حق الألفاظ والمصطلحات التى ذكرت وأمثالها على جمعا ، أن تجمع وتفسر ، ثم تقسم المصنفين الكبير والوسيط . بذلك نكون قد وسعنا مساجنا ، وزدنا فى مادة لغتنا ، وزدنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات أحبارها .

ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها^(١)

ألقى حضرة الأستاذ أحمد أمين فى افتتاح مؤتمر هذا العام بحثاً فى موضوعه تضخم اللامع العربية ، وقد عرض حضرته أسباب هذا التضخم سبباً سبباً ، وكان البحث منصفاً على هذه اللامع وما وقع فيه واضعها من أوهام وأغلاط أدت إلى التضخم المذكور . أما البحث الذى أشراف بإلقائه اليوم فنصب على ناحية من نواحي نمو اللغة العربية إبان ازدهار الدول الإسلامية القديمة . والنمو غير التضخم ، فالتضخم علة تلحق الكائن الحى فصبه وتله وقد تودى بحياته . أما النمو فذليل محته ، وقوته ، وحيويته ، وقابليته للبقاء . واللغة لا شك كائن حى ، وإذا كان الواجب يقتضى أن نتعرف علل لنتنا كالتضخم الذى تكلم عليه الأستاذ الجليل ، فما أحرانا أن نتعرف ظواهر فنوتها ونماها وحيويتها فنكون قد جمنا بين الحسنيين : بين التخلص من أسباب الضلل ، والأخذ بأسباب القوة والنمو والحيوية وللغى بالانتفاع بها فى إنهاضها وإقالتها من عثارها .

ولقد نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد للذى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم : أول هذه الحوادث تربيب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٠) والثانى أسر الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١) بتدوين الحديث النبوى ، والثالث أسر الخليفة للأمنون العباسى (١٩٨ - ٢١٨) بنقل كتب الفلاسفة من اليونانية إلى العربية . وسأنكم على هذه الأحداث الثلاثة واحداً واحداً مينا الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختم كلامى بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل من حيث نهضة اللغة العربية فى العصر الحاضر .



(١) ألقى هذا البحث فى المؤتمر السنوى للجمع فؤاد الأول لغة العربية فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

إن نظام الديوان نظام مستحدث في الدولة الإسلامية ، ظهر على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما تولت الفتوح وتدفقت الأموال من الأنهار للفتوح . فاقضت الحال اتخاذ نظام لتسييد أسماء القادة وقبائلهم ومبالغ أعطيتهم ، فاستشار عمر ذوى رأى على عادته في كل أمر حازب وحدث مهم . فأشاروا عليه بوضع الديوان .

ولفظ « الديوان » كما تقول دائرة المعارف الإسلامية قد يكون إراني الأصل وذات صلة بكلمة « دير » الفارسية ومعناها « الكنائس » . ثم أطلق في الفتوح العربية على السجلات التي تقتنى على حساب الأموال ، ثم أطلق في الدولة الساسانية على كل إدارة من إدارات الدولة كديوان الزمام وديوان الخاتم وهلم جرا .

ولقد كَوَّن عمر لجنة لتدوين أسماء الجند وبيان أنسابهم وأعطيتهم على نظام اتفق عليه وبينه للاردى في كتاب « الأحكام السلطانية » . فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع في الدولة الإسلامية ، وكان يمرر بالعربية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان اللال والجباية . وكان مقر دواوين الأموال هذه في عواصم الأنهار للفتوح . وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحتها ومقادير ارتفاعها وتوزيع ذلك على أهلها على هيئة خراج أو جزية ، وكان هذا الديوان يكتب في كل قطر بلغة أهلها ، وكانت في السالب لغة الدولة التي كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامى ، فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يتولى شئون هذه الدواوين رجال من أهل الإقليم ، فكان رجال ديوان العراق من موالى القرس ، ورجال ديوان الشام من الروم ، ورجال ديوان مصر من الروم والقبط .

وقد ظلت دواوين اللال والجباية تكتب في الأنهار للفتوح باللغات الأجنبية للذكورة ويتولاها رجال من موالى القرس والروم والقبط حتى كان زمن عبد الملك بن مروان . وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحذقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية . ثم إن الدولة الأموية قد أصبحت راجعة النفوذ في الميزان الدولى ، هذا إلى عصيتها الشديدة لكل ما هو عربى ، فلم يكن من الطبع أن تظل دواوينها تكتب بلغات غير العربية ، وأنجبت سياسة عبد الملك إلى تمريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فصر بها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذرى بإسناده « إن عبد الملك أول من ضرب القصب بعد عام الجماعة

أما سنة ٧٤ . وضرب الحجاج الديوان آخر سنة ٧٥ ثم أمر بضربها في جميع النواحي سنة ٧٦ . ثم اتجهت عزيمة عبد الملك وعلمه الحجاج إلى تعريب الديوانين .

يزرى البلاذرى ظلاماً عن الحادثين عن أشياءه في بيان السبب الذي من أجله قتل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية ، فلما ولي الحجاج العراق استكتب زاذان فروخ بن ندى ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم يخطب بين يديه بالفارسية والعربية . . . فوصل زاذان فروخ صالحاً بالحجاج ونسف على قلبه ، فقال له ذات يوم : إنك شبيب إلى الأمير وأراه قد استغنى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال لا تظن ذلك ا هو أحوج إلى منة إليك لأنه لا يجد من يكفيه حسابة غيره . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية طوئته ، قال غول منه شطراً حتى أرى ، فقل ، فقال له عارض ا قمارض ، فبث إليه الحجاج طيبه ، فلم يره علة . وبلغ زاذان فروخ ذلك فأمره أن يظهر : ثم أن زاذان فروخ قتل في أيام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي . . . فاستكتب الحجاج صالحاً مكانه فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين زاذان فروخ في قتل الديوان ، فمزم الحجاج على أن يعمل الديوان بالعربية ، وقد ذلك صالحاً . فقال له مراد نشاء بن زاذان فروخ ، كيف تصنع بدهوية وشيشوية ؟ قال أكتب عشرة ونصف عشر . قال كيف تصنع بجريد ؟ قال أكتبه « وأيضاً » والريد النيف والزيادة تزداد . فقال قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ! وبذلك له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان وبمسك عن ذلك ، فأبى وقعه . فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : قد در صالح ! ما أعظم منه على الكتاب . ويقال إن الحجاج أجل صالحاً أجلاً حتى قلب الديوان .

هذا عن قتل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضاً سبب قتله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولي عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ أمر بقتله ، وذلك أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء فيال إلى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بقتل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، فقتل ذلك ، وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من قتله وأتى

به عبد الملك فهدا ببرجوق كانيه ، فرض عليه ذلك ، فتمه ، وخرج من عنده كشيئا ، فلتيه قوم من كتاب الروم ، قتال : فاقبلوا المشقة من غير هذه الصناعة ؛ فقد قطعوا ما في عنكم ا قال : وكانت وظيفة الأردن التي قطعها له مائة ألف وثمانين ألف دينار .

أما ديوان مصر فيقول السكندري في كتاب « البراءة والقضاة » في أمره « وبيع الوليد بن عبد الملك ... فأمر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأمره بالدواوين فقصت بالمرية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقيطية ، وصرف عبد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن رجوع الفزاري من أهل حمص » (١) .

ومهما يكن ما تمويه المصادر من أسباب مباشرة تعريب الدواوين ، فالذي لا شك فيه أن عبد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدي المصيبة لكل ما هو عربي وأن الدولة قد اتجهت إلى تعريب إدارتها كأقدماء ، استكمالاً لمظاهر سيادتها وتوفيرا لكراسها .

ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخي العام عدة أمور خطيرة : -

فالعربية الفصحى أهدت ألفاظاً جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية وويد ، فهي مثال لما حصل فاقبل على نطاق واسع وظهرت في العربية ألفاظ كثيرة إما عربية أو منقولة عن أصولها للأعجمية المستعملة في الحلب والساحة والزراعة والتجارة والصناعة بما لم يكن للحرب عهد به من قبل .

ثم إن الأعاجم ، مسلمين وغير مسلمين ، أقبلوا على تعلم العربية بمائل المصلحة الذاتية ، وذلك للنظام في أعمال الكتابة والخراج وما يتصل بها ، ولسهولة التفاضل في المنازعات التي كان ينظر فيها قضاء من العرب بطبيعة الحال . وبذلك لم يكبد ينصرم القرن الأول الهجري حتى كانت العربية قد عجت أهل فارس والIraq والشام ومصر وغلبت القارصية والرومية والقيطية على أسرها فأجذبت هذه اللغات تتضال وتتضجل في الأنظار للذكورة حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال .

(١) وإعانا لهذا العرض التاريخي أقول إن السيد حسن حنق عبد الرحاب العلامة التونسي وهو ممن مؤيد الأول لغة البرية أجيد أن ديوان للفرع قبل من اللغة اللاتينية إلى العربية في جداول الوقت التي عرفت فيه دواوين للفرع وأنهم عتروا في بني تواسي للفرع على دينار عربي من عهد الأمير موسى ابن نصير .

وبانتشار العربية بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهبها ظهرت في الأنظار للتفتحة لمجات عربية شعية محلية تبين لنا للصربية منها مجموعات البريد التي كشفت في مصر والتي تصاحب تاريخ مصر الإسلامي من أول الفتح العربي إلى القرن السادس .

تشتمل هذه الوثائق النفيسة على رسائل صادرة عن ولاة مصر مثل قرعة بن شريك وغيره وبعض للتقنين من العرب ومكتوبة بلغة عربية صحيحة فصيحة ، كما تشتمل على عدد عظيم من وثائق البايكات والداينات ، عقود الزواج والتخليك والشئون اليومية . وهذه مكتوبة بلغة شعية مياينة لفصحى وفيها كثير من خصائص العامية للصربية الحاضرة ، من ذلك إبدال الضاد من الظاء في « احفض » بدلا من « احفظ » وإسقاط المزة رسما ونطقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « ويفا » بدلا من « وأيضا » و « حدهشر » بدلا من « أحد عشر » وعدم المبالاة بالإعراب فيقال « اثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » ولم جرا . وقد نشر جانبا من هذه البريدات المحفوظة بدار الكتب للصربية الأستاذ للششرق أودولف جروهمان النسوي في ثلاثة أسفار كبار طبعتها دار الكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنبه حديثا كتابا قيا في هذا الموضوع أسماء « من عالم البريد العربية »^(١) . وأهم النتائج التي ترتبت على تريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب وتبادل الآراء والأفكار في العالم الإسلامي الذي كان يمتد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسي .

* * *

هكذا عن تريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار ؛ أما تدوين الحديث النبوي فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . بيد أن هذا التحرج لم يمنع نفرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم لا بقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح . يروي الخطيب البندادي في كتاب « تنقيح العلم » عن ابن

(١) ندرته حديثا « جبة الدراسات التاريخية للصربية » .

شهاب الزهرى أنه قال « ولولا أحاديث تأييدنا من قبل الشرق لتكرها ولا نعرضها ما كتبت حديثنا ، ولا أذنت في كتابته » فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دقترا دقترا فمشت إلى كل أرض له عليها سلطان دقترا » . ثم استفاض تأليف الكتب في الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب السنة المشهورة .

والذى نخصه بالملاحظة من هذه الظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هي طبقة عالية من البلاغة ، فأثارت الفتن من تدوينها غودجا للعبارة البليغة يمكن القصص بعد التزينة التي يلفتها بالقرآن الكريم أى تمكين ؛ وأن حرص المسلمين في كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدسين وبلغ عنايتهم بها أقام النصح على أساس واسع لا يتطرق إليه وعن مادام في الأرض مسلمون وإسلام .

ثم إن السنة المروية عن الرسول الربى تعد المصدر الثانى من مصادر التشريع الأساسى ، ومن ثم وضعت كتب في الحديث مرتبة على أبواب الفقه كوطأ الإمام مالك وصحيح البخارى ، فكان منها مادة عظيمة خذت لغة الفقه الإسلامى وعلم الحديث وابشت فيها تسميات ومصطلحات يعرفها من يطلع على الكتب المولفة في هذين العلمين الجليلين .



ثم انتقل إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا في أمهات مدنها مدارس للسرمان والفرس والقطب يدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان ، وكانت هذه العلوم قد خلت إلى السريانية في الشام والعراق وغبة من السامطرة واليمامة في درسها بلقمتهم ومبالغة منهم في مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنييسة البيزنطية التي اضطلعوا بها من الناحية الدينية ، وكان أكثر ما يدرس في هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة والطب والنجوم والكيمياء . وقد جعلوا كذلك كتباً عدة في الرياضيات وغيرها عن الفارسية والمندية والنبطية .

واسهرت هذه الحال في العصر الأموى وأخذ المسلمون يتصلون شيئاً فشيئاً بهذا الجو

العلمي الذي كان يسود بلاد الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأعماله في مصرية
وخصيين والرها وجنديا بمرء حتى دورا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء
على راحب إسكندري اسمه ماريانوس وأنه ألف في الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن
العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان الخليفة المنصور ولع
خاص بالطب والنجوم فترجمت له كتب في هذين العلمين عن السريانية . وكان طبراسكة
أثير كذلك في تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء للمأمون وكان موليا بطبعه
إلى المبحث الفلسفي وآراء المعتزلة كالقول بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد سلك مثلها
جديدا بالمرء ، إذ أنشأ في بغداد « بيت الحكمة » للدرس والبحث . والظاهر أنه أنشأ بيت
الحكمة هذا على مثال مدارس السريان التي أشرفت إليها ، ثم إنه أحب أن يقتل كتب
الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأسا دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . وهدى
ابن النديم في « الفهرست » السبب الذي بيت المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى في
حدايه أرسطوطاليس وسأله بعض الأئمة ، فلما نهض من نومه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى
حكاه الروم يسأله الإذن في إتيان ما يختار من الكتب القديمة المذخرة ببلد الروم ، فأجابته
إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الجليل بن يونس وابن الهيثم ،
وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حووه إليه أمرهم بنقله
فقتل ، وجعل يعرض الناس على قراءة تلك الكتب ، ويرغبهم في تعلمها كما يذكر ابن
العبري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » .

واتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الرجاء والثروة في بغداد ،
فختلطوا إليها المترجمون من أمم العراق والشام وفارس وفيهم النسطورية واليعاقبة والصابئة
والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والبطيعة
واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيضا إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك
ن أنه لم ينكد ينحى القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أم كتب التقدماء إلى العربية .

وقد كان أثر هذا النقل الواسع الذي عطاها بالإضافة إلى اللغة العربية قد نقل المترجمون
مثلت اللغة الفلسفية والطبية والكيميائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها
إلى ما يقابل في العربية ونقلين بعضها بلفظه مما جعل علماء اللغة على أن يخصوه بتأليف

خاصة مثل كتاب « الحرب والخيال » للجوراني . ومهما يكن من شيء قد أخذت اللغة العربية مادة غزيرة مكنت النحاة والمفسرين والفلاسفة الإسلاميين من أن يتناولوا مسائل علومهم بلغة موثقة ، وأماط دلة على لغائ التي يريدون التعبير عنها .

أما بعد ، فإننا إذا اعتبرنا ما أدله تعريب الدواوين إلى اللغة العربية في مجال المصطلحات الإدارية والمالية ، وتدوين الحديث في مجال السنة والفقه ، ونقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء في ميدان العلوم العقلية والطبيعية ، فإننا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت في القرن الرابع هجرأ زائرا ، مما اقتضى وضع معاجم تجمع مادتها وتبين معاني مفرداتها . وهذا كله بفضل ما أوتيت هذه اللغة نفسها من قوة وجوية هجبية ، ثم بفضل السياسة التي انتهجتها الدولة بإزائها على النحو الذي يتناه .

ثم أختم كلتي فأقول : ما أنشبه اللغة بالبارحة ! فيبدأ أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية إلى شبه الحال التي كانت عليها في أزهي عصور الإسلام . لقد عرّبت الدواوين بعد أن كانت تكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وإنجليزية ، ثم ها هي ذي حركة نقل قوية عن اللغات الأوربية في مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم بمجتها على توفير للمصطلحات العربية اللازمة للإيجاجها . وكما كانت العربية أداة للتفاهم وتبادل الرأى والفكر في الدولة الإسلامية القديمة ، فإنها ببيل أن تصبح كذلك في عالم شرق حديث يمتد من أقاصى أندونيسيا إلى سراكش ، وهو لسنرى عالم أوسع وأشمل من العالم الإسلامى القديم . ولكن معنى هذا كله تزايد السبب الملقى على أبناء العربية وحماة لغة الضاد ، وأخص بالذكر منهم رجال مجتمعا الموقر . إن الآمال الموقودة بهم في جعل العربية تنهض في المستقبل القريب نهضتها في الماضي البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإننا ما تحققت هذه الآمال — وهي متحققة بإذن الله — فيكون العربية شأن أى شأن في نشر الثقافة العليا في القارتين الآسيوية والأفريقية . والله ولي التوفيق .

أثر مصر

في الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر

المباني الأول*

لم تكن مصر في نظر العرب عند ما أقدموا على فتحها في سنة ١٨ هـ كثيرها من الأقطار التي فتحوها في تهتهم العظمى ، بل كان لها في أحيائهم وخوالمهم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام ، ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر في مواضع عدة ذكرها كريماً تارة بالتصريح وأخرى بالإشارة والتلميح ، فمن ذلك قول القرآن مخبراً عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ٢٠ » . وقوله مخبراً عن يوسف عليه السلام « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . وقوله : « ولقد برأنا بني إسرائيل مبوءاً بالصلوة » . وقوله : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » . وقوله : « وجا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا » .

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وراثتها ، فإن السنة ذكرت مصر ونوت بأهلها خاصة لأسباب وردت في قصص الكتب المقدسة . من ذلك ما يروى من أن النبي (ص) قال : « إذا انتخمت مصر فاستوصوا بالقبض خيراً فإن لم نضمة ورحا » وفسروا « رحا » بأن هاجر أم إسماعيل عليها السلام كانت مصرية وأنها جيم ولده إسماعيل الذي هو أصل عرب الحجاز ، فكان القبض أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية .

والعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها

إبراهيم الخليل ، ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد ونشأ موسى عليه السلام ، ومنها خرج بنو إسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم عليهما السلام .

فإذا ما صرنا إلى أخبار حرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجراً لم تعمل إليهم منها فيما يحمل النياب للروقة بالهلى ، جمع قبطية ، وقد ورد ذكر هذا الضرب من النياب في الشعر العربي القديم .

كل هذه الذكريات للتمدن من المصادر التي ذكرنا كانت تجول بخواطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر ، فلما لم فتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعابوا أهلها المعجب ، وتربها الخصب ، وخيراتها الزاهرة ، وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافى القريب ، ودعة أهلها وانصرفهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ؛ كل ذلك جعلهم يرون أن قد صدق الخطيب الخبير . فانطلقت ألسنتهم تشيد بمصر ، وخيرات مصر ، ونيل مصر ، ومجائب مصر ، وجملوها «جنة الدنيا» و«كنانة الله في أرضه» ، وقالوا «من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثله في الدنيا فليتنظر إلى أرض مصر حين تمطر زروعها وتنور ثمارها» . (ابن عبد الحكم ص ٥) .

ومن قبيل ذلك الوصف البديع الذى يقال أن عمرو بن العاص بعث به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصور فيه اختلاف مناظر الأفق للصرى من لحد أن يكون مغسوراً بمياه التيسان ، إلى أن ينحسر عنه الماء ، وتحث الأرض ، وتمطر بالشب والنبات ، وتنضج الزروع ، وتنوع ألوانها ، فيقول : « فيينا مصر يا أمير المؤمنين لو لؤة بيضاء ، إذا هي عترة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء » .

والحق أن من بين الشعوب التي اختلفت حكوماتها على مصر لم يحب مصر ويفتن بها غير للصريين القدماء والعرب ، فقد بلغ من فتنة الأولين بها أن ألما وعبدوا نيلها وأرضها وسماها . أما الآخرون فمنهم دينهم من التورط فى شيء من ذلك ، فراحوا يتفننون بحماستها فى منشورهم ومنظومهم . وكل من هؤلاء وهؤلاء كان أطول أمداً ، وأعظم أثراً فى تاريخ مصر ، ممن دخلها فاتحاً مسيطراً ، أو متجراً مستعمرًا .

من أجل ذلك لم تلبث مصر أن استعالت قطرا عربيا إسلاميا فى زمن أوجزما يجرى

في الحسان عادة . ذلك بأن الصلة الاستغرافية القديمة التي ترمز إليها قصة إبراهيم الخليل
وحاجر للصخرة وولده إسماعيل أبي حرب للشمال ، لما ظل من الحقيقة ، فالصوريون والعرب
هما في الحق أبناء بيثة تكاد تكون واحدة ، والملاذات التاريخية بينهما من فجر التاريخ
بشبكة متصلة ، ثم إن مصر كانت قد تعرضت إلى حد ما قبل الفتح العربي ، لجزيرة سيناء
كانت تعرضها قبائل عربية انضم بعضها إلى جيش عمرو بن العاص في زحفه إلى مصر ، وفي
الجاهلية عبرت إلى مصر واستقرت على سواحل البحر الأحمر في شمال السودان قبائل عربية
ينص ابن خلدون على بعضها كقبيلة الككر مثلا . فبدأ استعراق وادي النيل سابقا
على الفتح العربي . ثم جاء الفتح وحصلت هجرات كبيرة أشهرها هجرتان ، هجرة القبائل الناعمة
مع عمرو بن العاص ، وأكثرها من عرب اليمن ، ثم هجرة قيسية عدنانية كانت في خلافة
هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ ، وقد استقرت في الحوف الشرق ، ويقابل مانسيه الآن
بمديرية الشرقية . ثم يحدث الامتزاج فيستقر العرب في الأرض ، يزرعونها ويسلمون فيها ،
ويقبل القبط على الترحب بشكلم العربية ودخول الجلم التفرير منهم في الإسلام . وبذلك
تصبح مصر قفراً عربياً إسلامياً يتمتع بمخصائص مكنته من أن يشترك في الأحداث
الكبرى التي وقعت في الدولة الإسلامية عامة ، وما نحن أولاء نستقرئ هذه الأحداث
ونبين مدى تأثير مصر فيها منذ الفتح حتى آخر العصر العباسي الأول ، أي إلى قرب منتصف
القرن الثالث الهجري .

ولكني نجمل الحوادث التي شاركت مصر فيها غول إن حوادث الدولة الإسلامية
من قيام الخلافة إلى آخر العصر العباسي الأول تقع في ثلاثة ميادين كبيرة ، ميدان الفتح
الحربية ، وميدان الأحداث السياسية ، وميدان الحركة الفكرية .

الفتح العربي :

كان العداء مستحكما ومتصلا بين الدولة العربية الناعمة والدولة البيزنطية طوال العصر
للكور ، فكان الروم يحاولون ارجاع ما فقدوا من أسلاكهم في آسيا وأفريقية ، وكان
العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان . وقد وقع عبء قتال الروم في ذلك

الهدى على الشام ومصر بمحك وضحا الجفرائى ، واضطلت مصر بتصبها من هذا الصب
بخطلاها رائسا . كما كان لها أثر قوى فى مد نطاق الدولة العربية غربا وجنوبا وشمالا
بمحض جهودها ومولودها . إن مصر كانت فى نظر الخلفاء باب اللرب والوسيلة إليه فمروا
عليها فى فتحة ووسط سلطانهم عليه . لذلك نجد عمرو بن العاص هذه فراغه من أمر مصر
يكبر على برقة فيستولى عليها سنة ٢٢ هـ . ويقع ذلك بالاستيلاء على طرابلس سنة ٢٣ هـ .
ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو إفريقية فلا يأذن له على عادته فى المنكث
والترثيز إزاء للشروعات الخطيرة ، ولكن عثمان بن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله
الجلديد على مصر فيحتاج إفريقية ، ثم يأتى عقبة بن نافع القهرى فيؤسس مدينة القيروان ،
ويكتسح شمال إفريقية ، كل ذلك بجيوش مصر وموارد مصر . ثم إن قائمى اللرب من
بعد عقبة وخاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير قد مكثوا الدولة العربية فى اللرب حتى
سواحل المحيط بجيوش عربية غير مصرية ، ولكن مصر كانت دائما ردا لم تساعدهم
بأسطولها ومالها . وحتى الأندلس الثانية قد اشترك جند مصرى فى تهدة أحوالها ضمن حملة
كاثوم بن عياض القشبرى ، ونزل هذا الجند للمصرى كورة تدمير التي سميت « بمصر » إشارة
إلى أن الجند الذى نزلها أصله من مصر .

هذا فى اللرب أما فى الجنوب فقد غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بلاد الأساود
سنة ٣١ ويريدون بها النوبة ، وكانت الحرب عنيفة استبيل فيها العرب والسودان ،
فنجح ابن أبى سرح إلى السلم ، لما رأى من شجاعة السودان وبراعتهم فى الرماية فى الوقفة
للمروقة بيوم دمقة ، فقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة .

أما فى الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والتضاء على
الدولة البيزنطية . وكان معاوية بن أبى سفيان حريصا على إنكاز هذه الغاية ، وتوسل إلى
ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية فى سواحل الشام والاستعانة بالأسطول للمصرى والاستيلاء
على جزائر البحر الأبيض الشرقية . وانتص معاوية برناعه سنة ٢٨ بالاستيلاء على قبرص
ثم كانت الوقفة البحرية للمروقة بذات الصراوى سنة ٣٤ فى أواخر عهد عثمان . قالوا إن
الأميراطور قسطنطين سار فى أسطول ضخم يريد به ارجاع ما فقد ، إما الشام أو مصر ،

فسارع الأسطولان للشام والمصرى إلى لقاءه . وكانت الرقعة بين الفريقين على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، فانتصر للمصريون انتصارا حاسما ودمر الأسطول البيزنطى وعاد الإمبراطور مغفولا فقتله بعض أتباعه بجزيرة صقلية جزاء له على تلك المزيمة الشنعاء . وفى سنة ٤٤ أغزى معاوية الأسطول الشامى جزيرة رودس ، واشترك فى النزول الأسطول للمصرى بقيادة عقبة بن عامر الجهنى ، ففتح رودس عنوة (البلادى ٢٤٤) وفى سنة ٤٩ كانت الحملة المنظمة التى أعدها معاوية لنزول القسطنطينية ، وغزا فيها ابنه يزيد وعدد من الصحابة فيهم أبو أيوب الأنصارى . وقد اشترك فى هذه الحملة الأسطول المصرى بقيادة عابس بن سعيد للرادى . (الكندى ص ٣٩)

ويدخل فى هذا الصراع على مصر على انتزاع جزيرة إفریطش من أيدي الروم . ولذلك قصة طريفة ، فقد ورد على مصر فى أوائل القرن الثانى جماعة من مهاجرة الأندلس ممن أجلاهم الأمير المحكم لقيامهم بشورة الرضى المشهورة ، فولى بعض هؤلاء المهاجرين وجهه شطر مدينة فاس التى كانت تؤسس فى ذلك الوقت فأترلم إدرىس بن عبد الله بها وانضم بكفائتهم فى الصناعات المختلفة . أما سائر المهاجرين فتابعوا السير شرقا حتى بلغوا مصر فى وقت اضطراب أمورها بالفتنة بين الأمن والأمان . واستطاعوا احتلال الإسكندرية بضع عشرة سنة إلى أن قدم عبد الله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون ، فحاصرم بالإسكندرية حتى نزلوا على حكمه ، ثم إنه أعانهم بسفن ومال وسلاح فساروا إلى إفریطش سنة ٢١٢ هـ فاحتلوها بزعامة أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسى .

المؤتمرات السياسية :

من ذلك نرى إلى أى حد أسهمت مصر فى حركة التنويع الإسلامية الكبرى فقد قامت فيها بدور كان حاسما فى أمر المغرب والسودان ، وخطيرا بالإضافة إلى الحروب البرية البيزنطية . وقد جرت مصر فى ذلك على المألوف من تاريخها قديما وحديثا . ففى وسعها كما تهيأت لها الأسباب أن تصبح قوة من قوى البحر للتوسط بحسبها فى الميزان الدولى كل حساب . ولم يكن ممكنا أن تظل مصر وقد انتضحت مكانتها فى التنويع الكبرى بمنأى عن

يجرى الأحداث السياسية والاغلاقات العامة التي رجت الدولة الإسلامية رجاً عتيفاً ، والحق أننا نلاحظ أثر مصر بارزاً في أشد هذه الحوادث وأخرجها . ولنبداً بالفتنة الكبرى التي كان أفضح أحداثها مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

لا نريد أن نخوض في هذا المقام في أسباب هذه الفتنة فقد اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية بصبغة القبائل العربية على فريش . ولكننا نبادر إلى القول إلى أنه قد يكون عجبا من السبب أن تشرك مصر في هذه الفتنة وأن تبوء هي الجانب الأكبر من إثما ، مع أنها في ذلك الوقت كانت أرغد أقاليم الدولة الإسلامية حالاً وأحسنها إدارة ونظاماً . غطاة صدرت عن السياسة الدنيا هي في نظرنا السبب في انقلاب مصر على عثمان ، تلك عزل عثمان لمصر بن الحارث عن مصر وتوليت مكانه أحد أقربائه وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعمره رجل ضاع ضراره ، يرجى لشركا يرجى للخير . ولم يفتن الخليفة الثالث لذلك عندما عزل عمرأ عن مصر ، كما فطن له من بعد معاوية . أجل لقد أقام عمرو على حدود فلسطين يرقب الأحوال ويؤب على عثمان في الحجاز وفي مصر . ثم يضام الخطب ، وينجم قرن الفتنة في غزوة ذات الصواري نفسها ، وتلى مصر دعوة الداعين إلى الجهاد ، لا فيها وراء الثور ، ولكن في المدينة نفسها ، فخرج من مصر عصابة مؤلفة من ٥٠٠ رجل فيهم عبد الرحمن بن عديس البجلي وكنانة بن بشر النجبي وعبد بن أبي بكر الصديق . ويحاولون إقناع الخليفة باعتزال الأمر فخابي ، فيجرون عليه ويحاصرونه في داره ، ثم يقتحمونها عليه ويقتلون الشيخ المرم والصحابي الجنيل وهو يقرأ في مصحفه (١٨ ذى الحجة سنة ٣٥) . ويمود للمصريون إلى مصر بعد أن ولوا على ابن أبي طالب الخلافة ، عادوا وهم يرتجزون :

خذها إليك واحذرن يا حسن أنا نمر الأمر إمرار الرسن

ونظمن لللك بلين كاشطن بالسيف كي نحمد نيران القدن

ولكن الرواية لم تتم فعولا ، لقد انصدعت بمقتل عثمان وحدة الدولة الإسلامية وانقسمت إلى معسكرين متعاديين ، معسكر على وصحبه ، ومعسكر معاوية وحزبه . ولقد أخذت مصر جانب على بطبيعة الحال في هذا الصراع العنيف ، وجعلت تتقبل حاله راضية ، ولكن معاوية كان أدهى من ألا يفتن إلى أهمية مصر وضرورة حصوله

عليها ، فأخذ يشجع الأقلية المعروفة فيها بالدمانية ، كما جعل يتخلص من عمال عليّ على مصر الواحد تلو الآخر ، بالحيلة تارة وبالاغتيال أخرى ، إلى أن ظهرت نتيجة التحكيم ولم تكن في مصلحة علي ، فأرسل معاوية سنة ٣٨ عمراً إلى مصر على رأس جيش فانتزعا من يد محمد بن أبي بكر عامل عليّ ، وكان ذلك بعد وقعة هائلة تعرف بيوم المسناة ، هدها عمرو أهول وقعة خاض غارها على كثرة ما شهد من الوقائع من قبل . وتظهر فرقة الخوارج ، ويجمع نفر منها على اغتيال الثلاثة الذين كانوا في نظرم سبب كل البلاء وم : عليّ ، ومعاوية ، وعمرو . ويقتل عليّ ، وينجو معاوية وعمرو ويستقر أمر الخلافة لمعاوية في سنة ٤١ هـ .

ولكن مصر تمضى في محاسنة الأمويين ، فعندما اشتد الخلاف بين آل الزبير وبني أمية أخذت مصر جانب عبد الله بن الزبير وبايعته بالخلافة . ولكن ما حى إلا أن انتصر مروان بن الحكم في وقعة المريج للشهيرة سنة ٦٥ حتى أسرع مروان إلى مصر وانتزعا من عامل ابن الزبير .

ودان للصريون للأمويين مكرهين ، فلما ظهرت الدعوة العباسية بث دعائها الدعوة للعباسيين بمصر ، فاستجاب لها للصريون بوجه عام ، ذلك بأن للتأخرين من خلفاء بني أمية جفوا المنصر العربي الغني الذي كان يشد ملكهم ، فأنحرف عنهم الميانيون ، وم جبهة عرب مصر ، وظهر أثر ذلك في وقعة الزلاب التي هزم فيها مروان بن محمد ، وفر عليّ أجزاها إلى مصر وجيوش العباسيين تتعقبه . ولقد أجمع المصريون على منع مروان من دخول مصر فاضطر إلى دخولها عنوة ، ولكنه كان قد تقطعت به الأسباب فأدركه العباسيون في بوسيد من أعمال الأشمونيين وقتلوه . ولو أن المصريين لم ينصرفوا عن الأمويين وقاموا في نصرتهم قياما حسنا لمتيز مجرى الحوادث في أغلب الظن تنهراً كبيراً .

• • •

لم يكد الأمر يستقر لبني العباس حتى دهمتهم ثورة عظيمة قام بها العلويون من بني الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقد رفع لواء الثورة بالحجاز سنة ١٤٤ محمد بن عبد الله الحنفى العلوي الملقب بالنفس الزكية ، وثار أخوه إبراهيم بن عبد الله بالمرقا . وتفاقم الأمر واشتد الخطب على الخليفة المنصور وتجرد له تجرداً تاماً . وبث الدعوة في مصر العلويين

فاستجاب لها المصريون . وخاف التنصير اتصال الحركة العلوية المصرية بالحركة العلوية بالحجاز ، فأمر بطم خليج أمير المؤمنين الموصل بين النيل والبحر الأحمر . ولكن حركة العلويين بالحجاز والوراق بادت بالقتل وغلب الزعميان العلويان على أسرها وقتلا . عند ذلك انتهت الثورة العلوية في مصر . (سنة ١٤٥) .

ولما وقعت الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون انضم المصريون حزينين أحدهما مشايخ للأمين والآخر للمأمون . ووقعت الحرب فعلا بين الحزبين ولم تنطفي جذوتها في مصر إلا عندما بلغ المصريين مقتل الأمين سنة ١٩٨ . ولكن المصريين لم يلبثوا أن تاروا بالمأمون وخلموه عند ما بلغهم نبأ أخذه البيعة بولاية العهد للإمام على الرضا العلوى ، فلما بلغهم موت على الرضا وانحذال إبراهيم بن المهدي الذى ادعى الخلافة فى بغداد أخذوا إلى السكون .

بقى الحدث الأخير والمطير . قد قامت الدولة الباسية على اكتاف الموالى من مجرم فارس وخراسان ، والواقع أن انتصار الباسيين على الأمويين كان انتصاراً للحجم على العرب وإذناً بذهاب نفوذ العرب الباسى ولا شك أن ذلك كان الحافز الأول لثورات العرب طوال العصر الباسى الأول فى العراق والشام ومصر ، وإن اتخذت هذه الثورات صوراً شتى كإربابنا . ثم يأتى الخليفة المنتقم فيكيل لنفوذ العربى الضربة القاضية . وذلك بعد أن تكامل له جيش تركى قوى ، فيسقط العرب من الديوان ، ويأسر بقطع عظامهم . وكتب بذلك إلى عامله على مصر نصر بن عبد الله الملقب بكيدر ، فأخذ كيدر أسر الخليفة . يقول الكندى : « ولما قطع العطاء خرج يحيى ابن الوزير الجروى فى جمع من غم وجذام وقال هذا أسراً لا تقوم فى أفضل منه لأنه منتنا حقنا وقياناً واستمع إليه نحو من خمائة رجل » . ولكن كل هذه الثورات إن كانت قد تمخضت عن شيء فإنما تمخضت عن تحول خطير فى وضع مصر السياسى . قد شمر المصريون بقوتهم وتنبه وعيهم القوى ، فأخذوا يسألون على الاستقلال بشئونهم الداخلية على أقل تقدير ، والدليل على ذلك أن أسرة عمرية مصرية تعرف بآل السرى بن الحسك تولت أمور مصر بإجماع جند مصر اثنتى عشرة سنة (من ٢٠٠ إلى ٢١١) فكان ذلك تمهيداً لاستقلال مصر فعلا عن الدولة الباسية وقيام الدولة الطولونية فى سنة ٢٥٤ هـ .

الحركة الفكرية :

لا شك أن الحركة الفكرية من أجل حوادث القرون الثلاثة الأولى من حياة الدولة الإسلامية ، وإنا نستمتع بالثراء الضخم الذي خلقه لنا ذلك العصر الزاهر في ميدان العلوم والفنون والآداب الإسلامية ، نعم إن الحركة الفكرية ازدهرت في الشام والعراق بحكم أنها كانت مقر الخلافة الأموية والباسية . ولكن ينبغي ألا ننسى مصر نصيبها من هذه الحركة ، فالحق أن القساط غدت بيئة علمية تذكرونا البصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة تدرس بها علما الحديث والفقه كما تدرس الآداب العربية .

أما الحديث فقد هبط مصر عدد كبير من أجلاء الصحابة الذين أدرکوا لرسول (صلى الله عليه وسلم) وشرفوا بصحبته والسامع منه ، فكانوا رواة لعدد كبير من الأحاديث روى عنهم ثم دون بعد ، من هؤلاء عمرو بن العاص وقد روى عنه أكثر من عشرين حديثاً ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، روى عنه أكثر من مائة حديث ، وعبد الله بن عمرو بن الخطاب ورووا عنه ثمانية أحاديث ، وأبو أيوب الأنصاري ولم عنه تسعة أحاديث ، وقيس بن سعد بن عباد ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، ورووا عن كل منهما أحاديث غير معينة العدد ، وقصة ابن عبيد الأنصاري ، ولم عنه نحو عشرين حديثاً ، وعقبة بن عامر الجهني الذي تولى إمارة مصر ولم عنه نحو مائة حديث . ويعني ابن عبد الحكم في تاريخه بالنسبة على ما تفرد هؤلاء بروايته من الأحاديث وما شاركهم فيه غيرهم من محدثي الأقطار الأخرى ، وهو بحث على طريف . وبذلك أسهم المصريون في جمع سنة الرسول (ص) وهي للصدر الثاني لتتشرع الإسلامى بعد القرآن ، فلما ابتداء تدوين الحديث النبوي بأسر الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت الرواية للصيرية ذات محل بارز في كتب الحديث التي ظهرت ابتداء من القرن الثاني الهجري .

والقرآن والحديث هما مادة التفقه الإسلامى الأساسية ، ولا شك أن اشتغال المصريين بهما كان مؤدياً لاهتمامهم إلى اشتغالهم بالفقه ، فإذا تذكرونا أن نظاماً محكماً للقضاء قد قام في مصر الإسلامية من أول الأمر ، وأن القضاء كان لا يتولاها في الصدر الأول إلا أئمة في العلم بالكتاب والسنة والتأديرون على الاجتهاد والاستنباط ، فقد تبين لنا أن وسائل الدراسة الفقهية قد

تكمالت وسائلها في مصر في زمن مبكر لا يكاد يسد أوائل القرن الثاني ، وذلك مستفاد من ظهور طائفة كبيرة من أئمة الفقهاء الذين رغبوا دراسة الفقه مكانا هليا . نخص منهم بالذكر « الإمام الليث بن سعد » للتوفى سنة ١٧٥ ، وكان فقيه مصر وعالمها ، وله بقتلشنه ، وكان له اتصال بالإمام مالك ، يكتبه في مسائل التشريع ويحاجه ، ولقد عرض عليه الخليفة للنصور ولاية مصر فأبها . ثم « أبا محمد عبد الله بن وهب » للتوفى سنة ١٩٧ وقد شهد له الإمام مالك ، وكان يكتب إليه « إلى فقيه مصر ... » ثم « الإمام الشافعي » للتوفى سنة ٢٠٤ وله بفرقة من أرض الشام وتنقل في الأنظار الإسلامية ، ولقي الإمام مالكا ، وأخذ عنه « الموطأ » ورحل إلى العراق غير مرة ، ودون مذهبه هناك ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩ واستقر بها ، وفيها كتبت مواهب النفية ، وأمل على تلاميذه يجمع القساط كتبه الجديدة التي يعبر عنها « بالقول الجديد » ويجمعها « كتاب الأم » ، وهو للذهب الذي أداه إليه اجتهاده في مصر .

ثم « أبا محمد عبد الله بن عبد الحكم » للتوفى سنة ٢١٤ وقد بلغ هو وابناه محمد وعبد الرحمن صاحب « كتاب فتوح مصر » منزلة عالية في العلم والجاه ، وكان صديقا لشافعي وعليه نزل الشافعي حين جاء مصر فأكرم مثواه وبلغ الناية في إكرامه .

ولا يفوتنا في هذا للقام أن نشير إلى أن محمد بن جرير الطبري ، شيخ للتورخين والفسرين وفد على مصر مرتين في سنتي ٢٥٣ و ٢٥٦ وكتب عن علماء القساط ، وجرت له فيها نوادر ذكرها ياقوت في ترجمته .

ولقد كان موقف علماء مصر من مسألة القول بخلق القرآن مشرقا لهم . فقد امتنعوا عن متابعة للأمن وللتعمم والرائق في القول بخلق القرآن ولقوا من جراء ذلك العزل والحبس والتشهير ، ولكنهم احتلوا كل ذلك في مصر وإياه حتى انجابت الفمة بجميع المتوكل وأبطاله امتحان الفقهاء والعلماء في مسألة القول بخلق القرآن .

ذلك مبلغ تقدم العلوم الشرعية في مصر حتى الثلث الأول من القرن الثالث الهجري وهو تقدم لا شك عظيم . ومشاركة من مصر في تحرير علوم الحديث والفقه نذكر لم بمزيد الإعجاب .

أما الحركة الأدبية فلم تبلغ في مصر مبلغ العلوم الشرعية إلا أن مصر أنجبت شعراء

يلقاء لم تصل إلينا دواوينهم كاملة للأسف أمثال مُتلى الطائي ، وسعيد بن جندب ثم أنها اجتذبت إليها طائفة من كبار شعراء العراق أمثال ابن قيس الرقيات وأبي نواس ، ولا غنى أن الشاعر المبدع أبا تمام الطائي نشأ وتأدب في جامعة القسطنطينية .



ذلك مبلغ ما أسهمت به مصر في الأحداث العامة في الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن الثالث ، ومنه ثبين أن مصر شاركت في كل مناحي الحياة العامة من حيث الفتح الحربية والحوادث السياسية ، والحركة الفكرية ، وكان ذلك مما أبرز شخصيتها وكشف عن جلالة قدرها وخطرها وهماً لها السبيل إلى أن تصبح بعد في العصر العباسي الثاني دولة إسلامية قوية أثرت في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ العام أبلغ الآثار . وموعدنا لبنان ذلك بحث آخر ومقام آخر إن شاء الله .

القسم الثاني
المغرب والأندلس

موسى بن نصير

١٩ - ٥٩٨

هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير فاضح اللزب والأندلس ، وناشر الإسلام واللغة العربية فيها وللمهد لقيام الحضارة الإسلامية في هذين القطرين العظيمين .
 وشخصية موسى بن نصير يحفلها النضوض من كثير من نواحيها ، كما أن سيرته تناوفا القصاص فأحالوها قصة الخيال منها حظ غير قليل ، ولكنا نقصر حديثنا على الثابت للستيقن من أخباره .

كان أبوه نصير من قبيلة بكر بن وائل الربيعية الرراقية ، أسره خالد بن الوليد في وقعة عين التمر سنة ١٢ مع فتیان آخرين كانوا في بيعة يتملكون الإنجيل ، والظاهر أن نصيرا أسلم خداة الأسر ، ثم انتقل إلى الحجاز ودخل في قبيلة علم الجينية ، وتزوج منها امرأة رزق منها ابنه موسى في سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب . ثم مجد نصيرا بعد في الشام على خيل معاوية ، فلما هزم معاوية على الخروج لحرب على بن أبي طالب لم يخرج معه نصير محرجا ، وقبل معاوية غزوه ، ولم يكرهه على الخروج معه .

عاصر موسى في صباه أحداثا جساما ، منها مقتل الخليفة عثمان ، والحرب بين على ومعاوية ، وثورة آل الزبير . وكان في موسى طموح وتطلع إلى المجد شديد ، فلم يخرج على سنة أبيه من البعد عن السياسة ومحرجاتها ، بل خاض غمارها ، فأخذ جانب عبد الله بن الزبير ، واشترك في وقعة الراج بالشام سنة ٦٤ ولما انتهت تلك الوقعة الكبيرة بهزيمة أنصار ابن الزبير وانحصار مروان الأموي وحزبه ، كان موسى من بين الذين أورد مروان ضرب أعتاقهم من أنصار ابن الزبير ، ولكن موسى استجار بعبد العزيز بن مروان فشفع فيه لدى أبيه لما رأى من عقل موسى ولبه ، وقبل أبوه شفاعته . وأصبح موسى من ذلك

الوقت حتى آخر حياته من أشد أضرار الأمويين إخلاصاً لهم ولدولتهم .

ويتولى الخلافة بعد مروان ابنه عبد الملك ، فيظهر موسى على مسرح الحوادث مرة أخرى ، ولكن في العراق لافي الشام ، وفي البصرة بالذات . قد تدخل أول الأمر في المناقشات الحزبية الناشئة إذ ذاك بالبصرة ، مما يدل على أنه أصبح شخصية ملحوظة وذات اعتبار خاص ، ثم يولى الخليفة خراج البصرة فيتهم بأنه استعجن مالا من مال الدولة وتشتد عليه وطأة الحجاج أمير العراق بإيمانه من الخليفة ، ولا ندري مبلغ هذه التهمة من الصحة فقللها راجعة إلى الحزازات الحزبية الناشئة إذ ذاك في العراق . ومهما يكن من الأمر فقد فر موسى إلى مصر واحتسب مرة أخرى بيد العزيز بن مروان . ويخف الأمير إلى الخليفة ومعه موسى ، وتسوى المسألة بأن يحمل الأمير عن موسى نصف المال المطلوب ، ثم يعود إلى مصر ومعه صاحبه .

في ذلك الوقت ، أي في أواخر العقد الثامن من القرن الأول الهجري ، اضطربت أحوال المغرب وانتفضت البربر وفسدت أمور ذلك الأقليم ، هذا إلى أن المغرب الأقصى لم يكن قد خضع بعد . فرأى عبد العزيز بن مروان ، وكان إليه أمر المغرب ، أن ليس لإصلاح هذه الحال غير موسى بن نصير فولاه عليه ولاية عامة في سنة ٧٩ هـ على أرجح الأقوال ، وبذلك الولاية شرع موسى يخط صفحة مجده ويخارح الباقي على الزمان .

كان موسى إذ ذاك قد استحكمت سته ، ونضجت مواهبه ، وفتت تجاربه ، فأقبل على عمله الضخم بهمة عظيمة ، وعزيمة متقدة ، مستحيماً في جميع أمره بأبائه التجباء عبد الله وعبد العزيز ومروان ، ويرجال من البربر اصطفاهم واصطنعهم بصلة الولاء أمثال طارق بن زياد وطريف ابن مالك . قمع فتنة البربر في شيء من العنف والثدة ، ثم استألم بعد إلى الإسلام فأسلموا وتكلموا العربية ، ثم حل بهم وبالبربر على المغرب الأقصى فتبعه ونشر فيه الإسلام واللغة العربية ، وغلط البربر بالبربر وعاملهم جميعاً معاملة واحدة ، وهي سيلة حكيمية لم تكن إذ ذاك متبعة في الشرق . وبذلك أصبح تحت يده قوة عظيمة جعلته يمد عينيه إلى

ما وراء خليج الزقاق ، إلى إسبانيا . ولكنه يرى أن الفرصة في أمر إسبانيا لم تسع
بعد ، فيترك أسرها مؤقتاً ويمر إلى مقر إمارته بالقيروان ، تاركاً مولاه طارق بن زياد
في طنجة وسه حامية قوية ليرقب الأحوال وينهى إليه ما عسى أن يكون من
تطور الأمور .

كانت إسبانيا إذ ذاك تحت حكم القوط ، وكانت في حال اضطراب سياسي وانحلال
عام . يتنازع الملك فيها فريقان ، فريق يمثل الأسرة المالكة الشرعية وعلى رأسه رجل
يقال له يليان وفريق آخر يمثل « قديري » الذي اختصب الملك اختصاصاً . فليان يمثل الفريق
الأول إلى طارق يلتصقون منه النصرة ، ويهوون عليه أمر الأندلس ، فأحاط طارق على
مولاة موسى ، فأدرك موسى أن الفرصة في أمر إسبانيا قد أمكنت ، وكتب إلى الخليفة
الفرليد بن عبد الملك يستأذنه في غزو إسبانيا ، فعاده الرد بالإن على أن يلزم الحيلة
والاحتراز الشديد .

وعمل موسى بما أشار به الخليفة ، فاختر السواحل الإسبانية بالسرايا ، سرية لرسرية
لجأت نتيجة اختباره مشجعة له على الشروع في الغزو ، فسير طارقاً على رأس جيش قوي
أكثره من البربر وأقله من العرب ، فزل طارق بالصخرة التي عرفت بعد « جبل طارق »
ثم تقدم غرباً والتقى بقديري في وقعة البحيرة في رمضان سنة ٩٢ ، فهزم قديري وقتل فيها
يقال وينتصر طارق انتصاراً حاسماً ، ثم يزحف طارق من قوره نحو طليطلة عاصمة الدولة
القوطية فيدخلها عنوة .

عند ذلك يرى موسى أن قد آن أن ينهض بنفسه لإتمام ما شرع فيه من الفتح
وليتفادى ما عسى أن يحل بطارق وحيد بعد أن أوغل في أرض العدو . فركب البحر في
سنة ٩٣ في أسطول كان قد أخذ في إعداده عند تسيره طارقاً وسلك طريقاً غير الطريق التي
سلكها طارق ، وفتح مدناً عظيماً ثم التقى بطارق في طليطلة ، ثم سار معه طارق يفتح
الأقاليم الشمالية الشرقية حتى بلغ جبال البرانس المحاذية بين إسبانيا وفرنسا .

الحسب من أمر موسى ، وهو شيخ قد أربى على السنين ، أن يهم بأن يبرح جبال

بهراس ويصير مشرقاً كاتماً كل ما يعرضه حق يستول على القسطنطينية ويأتى دار الخلافة بالشام .

ويبلغ هذا الحلم مسامع الخليفة ، فيرى فيه طبيعة الحال إنشراقاً وتزيراً ، فيستدعى القاهرين موسى وطارقاً من فوره إلى الشام . فلا يسع موسى إلا أن يصدع بالأمر فيخرج سنة ٩٥٠ قاصداً الشام ، وسعه من التناغم واللى والأسرى ما لم يسع بمثله فى تاريخ الفتح

كان من حق هذا الفاتح للظفر والشيخ الكبير أن ينتمى إلى البقية الباقية من عمره بجمعة لمراحة والدعة ، ولكن أبى عليه الأقدار ذلك . قالوا : إنه لما بلغ موسى فى طريق عودته فلسطين كان الخليفة مريضاً مرض منته ، فكتب إليه ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه حكم العجوة فى السير حتى يتوفى الخليفة ، فخصير إليه الأموال التى مع موسى . ولكن موسى أسرع السير وقدم على الخليفة قبل وفاته بثلاثة أيام . فلما تولى سليمان الخلافة أراد الانتقام من خونه لمصائبه أسره ، فأقبل بحلبه حساباً عسيراً وطالبه بأموال جسام فجز موسى عن أدائها فجعل يعضه ، ثم إن موسى استجار يزيد بن المهلب وكان أميراً لدى الخليفة الجديد ، وسوى الأمر بأن يهدى موسى نفسه بحال عظيم يؤديه ما عاش . وظل موسى يعضن قومه من غم وأحياه العرب على أداء ما ألزم به حتى أدركه الموت فى ولى القري سنة ٩٨٠ هـ . ولقد هلت نكبة موسى هذه من سيئات الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكانت فى الحق كثيرة .

هذا هو الجانب الأغم والأشهر من سيرة البطل الفاتح موسى بن نصير . غير أن لهذه السيرة جانباً آخر لا يقل طرافة عما ذكرنا . فالرواية تصف موسى بالقتل والبرع والتقى والشجاعة ، وبأنه لم يهزم له جيش قط ، وتصفه ببلاغة العبارة والقدرة على قول الشعر الحسن . وبالإحاطة بالمداف السلطانية من حرب وإدارة وسياسة ، وتصفه فوق ذلك كله بأنه تابعى جليل روى الحديث عن تميم القارى ورواه عنه هو آخرون . ولكن أسراً واحداً

هو سر نجاحه وعظمته ، ذلك حرصه على القيام بواجبه ، ففي سبيل الواجب قام بما قام به
من القبح العظيم ، وفي سبيل الواجب احتمل ما احتمل من الأذى والضرب .

قالوا : إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن !
في كم كنت تمتد ، أنت وأهل بيتك ، من اللواتي والظلم ؟ أنكرتوني في ألف ؟ » قال :
نعم ! وألف ، ألف ، إلى منقطع النفس ! » قال : « فلم أقيت بنفسك إلى التهاكة ؟
أفلا أقت في قرار عزك ، وموضع سلطانك ؟ » قال : والله ! لو أردت ذلك ، لما نالوا من
أطراف شيئا ! ولكن أترت الله عز وجل ورسوله ، ولم أر الخروج عن الطاعة ! »
أما بعد ، فقد يكون سليمان بن عبد الملك قد نال بطغيانه وجبروته من مال موسى
وبذنه ، أما مجد موسى ، وعظمة موسى ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال منهما مثالا ؟

حديث

الفئة المفررين من أهل لشبونة*

كان جنرافيو الأغريق يعتقدون أن الأرض للمسورة يحيط بها بحر عظيم سموه « أنياروس » ، وقد تابعهم جنرافيو العرب في اعتقادهم هذا ، وأطلقوا على البحر الذي يحيط بالمسورة أسماء مختلفة : منها البحر المحيط ، وبحر الظلمات ، والبحر الأخضر ؛ كما قسموه باعتبار الجهات الأربع إلى محيطات أربعة : شمال وجنوب وشرق وغرب .
والبحر الذي هو الذي نسميه الجغرافيا الحديثة بالبحر الأطلسي أو الأطلنطي .

لم يجرؤ من القدماء على النفوذ إلى المحيط الغربي والإيغال فيه إلا التينيقيون أهل مدينة صور ، وإلا أعقابهم القرطاجيون أهل قرطجة ، فهم الذين نضدوا إليه ، وركبوا ثيجه ، ولبجوا فيه شمالا حتى الجزائر البريطانية ، وجنوبا حتى متصرف خليج غانة العظيم ، ولللاح القرطاجي (هنو) القدر للعل في كثير من هذه الأسفار البحرية العظيمة .

ولكني يحسب التينيقيون هذا البحر ، ويستأثروا بخيرات جزائره وسواحه الأورمية والأفريقية ، ويمنعوا الأغريق من منافستهم فيها ، ملأوا أسباع الناس واسترهبوم بأبطالهم لفقروها عن هذا البحر وأذاهوها ، فقد صوروه بحراً عظيماً الأهوال عانى الرياح ، يركبه ظلام حالك ، وتصبح فيه كائنات مفكرة الأشكال ، وتصر جزائره التنانين والأغوال والسمالي ، وتشترق جوفه براكين تصذف بالنار والحلم والدخان ، وأنه نهاية للمسور ومنقطعه ، وأنه ليس فيه ولا وراه مطع لطامع .

وقد عمل هذا التخريف والإرهاب عمله في ملاحي الأغريق وطلاب الاستعمار منهم ، فحاضوا ركوب هذا البحر المخوف ، وقصروا نشاطهم التجاري والاستعماري على البحر

الأبيض المتوسط . على أن هذه الأراجيف لم تمنع الخيال الإفريق من تناول هذا البحر والذهاب في تصوره كل مذهب . فلقد تنقن هوميروس بتروب الشمس في بلة هذا المحيط ، كما قرر أفلاطون في بعض حوارياته أنه كان في هذا المحيط النرى جزيرة عظيمة تسمى « أطلنطة » ، وأنه كان بها دولة عظيمة غزت أراضى البحر الأبيض المتوسط ، ولم يثبت لها إلا أهل أثينا ، وأن هذه الدولة كانت ذات نظام جمهورى مثالى ، ثم يقول الفيلسوف : إن هذه الجزيرة انقضت أسرها بأن غطى عليها البحر فأغرقها ، ولم يبق منها إلا جزائر صغار ترى فوق سطح المحيط .

والواقع أن المحيط الأطلس ظل لثراً غامضاً يستثير إعجاب الأخبية وأغرب التصورات ، إلى أن تمكن العرب في القرن الثالث الهجرى من أوض الغرب الأقصى والأندلس ، وأصبحوا فضلاً مشرقين على هذا الخضم العظيم ، وأنشأوا فيه الأساطيل الجارية لرد عادية أهل الشمال عن سواحلهم ؛ وعندئذ نجدهم يقطنون على ركوب البحر المحيط في غير ما تخوف ولا وجل ، ويفرقون الشيء الكثير عن سواحل وجزائره ، ويصفون كل ذلك وصفاً لا يأمن به في جلته .

ومن أعجب ما يروى عن حرب الأندلس في هذا الصدد حديث ثنية من مدينة لشبونة ، ومن أهل القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادى ، شاقهم الجهول من أسرار المحيط الغربى ، فأخبروا أن يقنوا على مدها ، ويحلوا النامض من أسرارها ، فقاموا برحلة بحرية وعادوا منها بعد أهوال وأوهام ، وقصوا حديث رحلتهم على أهل بلدهم .

وقد أورد الشريف الإدريسي خلاصة حديثهم في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، قال :

« ومن مدينة لشبونة كان خروج الغربين في ركوب بحر الظلمات ليرفوا ما فيه ، وإلى أين انتهوا . . . ولم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحة درب منسوب إليهم يعرف بدرب الغربين إلى آخر الأبد ، وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم . فأنشأوا مركباً حالاً وأدخلوا فيه من لثاء والزيادة ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس

الريح الشرقية (أي هبوبها) ، فجزوا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غلظ
للريح ككدر الزواجر كبير للفرش (الصخور التي لا يكاد يسقرها الماء) قليل الضوء ، فأيقنوا
بالخلف ، فرددوا قلاعهم في هذه الأخرى ، وجزوا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً ،
فخرجوا إلى جزيرة النتم ، وفيها من النتم ما لا يأخذه حد ولا محصول ، وهي سارسة لا راعي
لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة ، فأنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة
تحن برى ، فأخذوا من تلك النتم ، فحذبحوها ، فوجدوا لحوم امرأة لا يقدر أحد على أكلها ،
فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً ، إلى أن لأست لهم جزيرة ،
فأنزلوا فيها إلى حمارة وحرك ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، لما كان خبر يند حتى أحيط
بهم في زواجر هناك ، فأخذوا وجزوا في مركبهم إلى غديقة على صفة البحر ، فأنزلوا بها في
قار ، نزلوا بها رجالاً غشراً زعموا شعور رؤوسهم ، شعورهم بسيطة ، وهم طوال للقدود ،
ولباسهم جمال عجيب . فاحتفلوا فيها في بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل
يعلم باللسان العربي ، فسأله عن حالهم وقيم جادوا ، وأين بلدكم . فأخبروه بكل خبرهم ،
فوجدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجان للك . فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا
بين يدي للك ، فسأله عما سألهم الترجان منه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجان بالأس من
أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والجنائب ويقفوا على نهايته . فلما علم للك ذلك
فحك وقال للرجان : خير القوم أن أبى أمر قوماً من عبيد ركوب هذا البحر ، وأنهم جروا
في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .
ثم أمر للك الترجان أن يقدم خيراً ، وأن يحسن ظنهم باللك ، ففعل . ثم صرفوا إلى
وضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ؛ فسر بهم زورق وعصبت أعينهم ، وجرى
بهم في البحر برهة من الدهر ، قال القوم قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بليلها حتى جئنا
بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتبنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت
الشمس ، ونحن في ضحك وسوء حال من شدة الكفاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس
فصعنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بذلك الحال السيئة ، فخلونا من وثاقنا وسألونا ،
فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابرة ، قال لنا أحدهم : أتملون كم ينكم بكم ؟ قلنا : لا ،
قال : إن ينكم وبين بكم مسيرة شهرين . قال زعم القوم : وأأسى ! فسى للسكان

إلى اليوم « أسقى » وهو الرمي الذي في أقصى الغرب » .

« ونرى الإردني حديث هؤلاء القنية في موضع آخر من كتابه عند ذكر خزانة الجبل الأطلس فيقول : « وفي هذا البحر أيضاً جزيرة الأخوين السحريين الذين يسمى أحدهما شرام ، والثاني شرام . ويقال لهما كانا بهذه الجزيرة يقطنان على الرأكب التي قربهما بظلمتهما ، ويهلكان جميع أهلها ويأخذان أموالهم ، فتسبح الله بهما بظلمتهما ، ويقبض جزيرين على ضفة البحر قاعين ، ثم حيرت هذه الجزيرة باليابس ، وهي تقابل مرسى أبيي » . وهذه الجزيرة قصة غريبة أخبر عنها المتبرون عن أهل مدينة لشبونة بالأندلس حين أسقطوا إليها بحر كهم » .

ويؤخذ من سياق كلام الإردني أن هؤلاء القنية اكتبت لهم للسياسة ، وادوا إلى يدهم ، وحذروا أهل لشبونة بما رأوا وما سمعوا في رحلتهم ؛ ولكن أهل لشبونة لم يروا في هؤلاء القنية يد كل الذي سمعوه عنهم إلا رجلاً خفياً من جملتهم ، وسجوا القرب الذي فيه دورم يدرب للثورين .

• • •

وهنا يمكن رأى أهل لشبونة في هؤلاء القنية ورحلتهم ، فإن ما قاموا به طريقاً ، ورحلتهم هي الأولى من نوعها بعد رحلات التيفينيين القدماء . وسام قصتهم هيصة صداقة من الوجهة العلمية . فالظاهر أنهم عندما ساروا أول الأمر أحد عشر يوماً متجهين شمالاً إنما أصبحوا في محاذة لإرلندة ، فلما ساروا بعد ذلك نحو الجنوب التي عشر يوماً وبلغوا الجزيرة التي سموها جزيرة النتم ، إنما بلغوا الجزيرة للسا الآن جاذباً . ويذكر السلامة وانفكاك خلا عن العالم الطبيعي برتل أن هذه الجزيرة كثيراً من المعتقدات بنوع من عشب هذه الجزيرة هو السبب في حرارة لموها . أما جزيرة الأخوين السحريين الذين يسكنها جزيرين فهي الجزيرة التي تعرف الآن بجزيرة (تسالوت) ويطلقها السبيل صخرتان متقابلتان على الجانبين تحدث عنها القنية في حديثهم ؛ وهذه الجزيرة هي في أغلب الظن التي جرى القنية مع ملكها الحديث الذي قصة الإردني .

وكما ذابت معلومات التيفينيين والقرطاجين عن البحر المحيط وجزائره في أيام القدماء

من اليونان والرومان ، فكذلك فابت سلومات هذه القصة في أوام أوربي المصور الوسطى ، ويظهر ذلك واضحاً في القرن الحادى عشر خاصة ، ولا أدل على ذلك من قصة رحلة منزهة تضاف إلى راهب إرلندى يرف بالتدريس براندان .

كان هذا الراهب من أهل إرلندا ، وقد عاش في القرن السادس اليلادى ، وينسبون إليه أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جعلها الله عبادة لصالحي القديسين ، والى قوسها جزيرة من جزائر المحيط الأطلسى . فاعد سفينة شحنها بالزاد ، وركب فيها هو وسبعة عشر من أصحابه الرهبان ، ثم ضربوا بها فى عرض البحر ، فبلغوا جزيرة الغنى وجزيرة الطيور (لكثرة ما بها من طير اللاء ، وقد وصفها الإدريسى) ، وعابثوا من المعجائب والثرائب الشئ الكثير : من ذلك جزيرة جرداء طلوا إليها ، فلما أوقدوا بها ناراً للإصلاح طامسهم اغترت بهم ، فأسرعوا إلى الفرار منها ، فإذا هى غوت عظيم راكد على سطح للاء . ومنها أنهم هابتوا طائراً هائلاً يخطف الوحوش الكبار . ثم يعود الراهب وأصحابه من رحلتهم هذه إلى إرلندا ، ويقصون على قومهم ما رأوا وعابثوا

ومع أن الراهب براندان من أهل القرن السادس اليلادى ، فإن قصة رحلته المذكورة لم تظهر إلا في القرن الحادى عشر . وقد أبى من دونوا أخبار القديسين أن يسجلوا هذه القصة ، واعتبروها حديث خرافة ، وأقرع أن قصة الراهب الأيرلندى ليست إلا قصة التنية للفريرين التى ذكرناها مع ما أضيف إليها من أخبار مجيية أخذت من أسفار السندباد البحرى للشهرة في قصص « ألف ليلة وليلة » ، وذلك كحكاية الحوت الذى ظن الراهب جزيرة ، وحكاية الطائر المائل الذى هو (الرخ) في قصص السندباد .



دأب أما بعد ، فقد جرى في أوربا — في القرن للانى — جدل شديد بين اللورخين ، مداره أى الشعوب الثلاثة أسبق إلى ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه : الجنويون أم الفرنسيون ، أم البرتغاليون ؟ ومن السجيب أنه لم يذكر من هؤلاء اللورخين ذا كر أن هذه الشعوب الثلاثة قد سبقت إلى ركوب هذا المحيط لكشف غوامضه بمئات السنين ، وأن السابقين إلى ذلك كانوا أولئك « التنية للفريرين » من أهل لشوية .

زرياب المغنى*

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفنى والاجتماعى ، فلا شك أن أضرب صفحة فى ذلك التاريخ الجيد وإيجها قد تكون صفحة أبى الحسن على بن نافع الفنى للثقب « زرياب » . فهو رجل استطاع وحده أن يتقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة . وذلك بشيئين اثنين : تحييب الموسيقى إليها ، وتنظيم حياتها اليومية .



فتح للمسلمون الأندلس فى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى ، وانتشرت قبائلهم العربية والبربرية فى سهولها وحزونها ، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثانى بدلة جفاة ، كما اجتمعت كلهم لم يلشوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات للنسبة من الصية القبلية . فكانهم لا يزالون ضاربين فى ضباب نجد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية وشابها . ثم أخذت بشؤونهم السياسية تستقر وتنسق بفضل مجهودات للتقدميين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل ، وهشام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه بدارة واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان للشرق الإسلامى فى ذلك الزمان ، عهد استبحر فيه العمران وبلغت للدين الإسلامية فيه غايتها ، وتعلق فيه ذوق الدهرة واليسار بأسباب الكمال من شئون الحياة بعد أن استكفوا الضرورى والحامى منها على حد تصير ابن خلدون . وقد ساهم فى ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً . فأما للمتلون منهم فكأنوا يستندون إلى أن الدين الإسلامى دين يسر محب من الزمن أن يكون هينا ليتأ موفور الحظ من الفظف والكياسة . غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا ناس نصيه من الدنيا . وأما للظرفون فوجدوا فى تقاليد القمرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويمرصون على لغة الحياة الدنيا ومنها ، أما كانت الطرق للرصة إليها .

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة أرسنطالية ، مرعنة الأذواق ، وقيمة الطبايع ، ترى في الموسيقى وبجالس الأنس والطرب أو حفلات البسر خير ما ينقسمون به غلة تلك الأذواق الرهنة والطبايع اللزقة . هذا هو السبب المباشر في ختم صناعة النناء في ذلك الزمان ، وبولجها النابة على ألبني إبراهيم بن المهدي ، وإبراهيم اللوصلي ، وابنه إسحق . وهذا هو السبب كذلك في استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الإسلامي عامة وبشدة خاصة ، وفي بلوغ هذه المجالس درجة من الفائق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء ، والجلساء ، والسهار .

من ذلك أن يكون النناء قوامها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب اللصبة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين ، وألا يحضرها إلا من كان مهذبا بخفيف الطروح ، حاضر البديهة ، قادرا على قول الشعر وأرنجائه ، فضلا عن تدقيقه وروايته عند ما يقتضي اللقام ذلك .

إلى هذا الشرق أتت أسماء بنى أمية الأندلسيون ، وهم أبناء خلافتهم ومولاني ذرعاتها ، يستهزونه فتانين ومعلمين يهذبون ما غفلت من طبايع العرب والبربر واللوهين ، وينظفونها جميعا في خلق واحد . وقد أهدى للشرق إلى للرب غير واحد من المثنيين أمثال هرون ، وزرقون . ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعا وأبدم آثرا .

كان أبو الحسن علي بن نافع مولى الخليفة المهدي العباسي ، ولسمرة لونه ورقة شمائله قهوه زرياب ، تشبها به بطائر أسود محرد يعرف عندهم بهذا الاسم . وقد تكاملت زرياب كل أسباب النبوغ والتفوق موهوبا ومكسوبا ؛ فكان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، غارفا بالنبوغ والأفالم ، شاعرا فصيح الشعر . غير أنه كان إلى النناء أميل وبه أشفق . وقد درسه علما في كتب الأفنديين من حكماء اليونان ، وعلا على أستاذة إسحق اللوصلي زعيم المثنيين في ذلك الوقت ، ولشدة اقتناع زرياب بالموسيقى كان تهكمه فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه ليقيم « النوبة والصوت » وهو قائم فيهب من نومه مسرعا ، ويقيد ما وقع له أو يلقيه على جارتيته غزلان وعنيدة ، ثم يعود إلى مضجعه هجلا ، ومن ثم قيل

انه كان يأخذ ألمانته من الجن كما قيل في إرثهم للوصل منه ، فلما وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها ، ولم يأل زرياب جدا في أن يأخذ منه بالأدب الرقيق واللوذ الثالث المصطلح عليه في البيعة التي كان يبش فيها ينداد ، يشة البلاط وقصور الأشراف ورؤساء الدولة العباسية ،

ويذكرون أن السبب في هجرة زرياب من الشرق إلى الغرب ، أنه غنى بونا في حضرة هارون الرشيد ، فأخذ الظليقة بصناعته وفطنته وطلب إلى إسحق أن ينش به حتى يترغم لسماعه . ولكن إسحق لم يلبث أن تحركت في نفسه عوامل التيرة والحسد والحقد على تلميذه ، فخلا به وغيره بين الموت والحياة ، بين أن يقيم ينداد فيعرض حياته للهلاك ونسجه للفلق ، وبين أن يذهب في أرض الله العريضة فينجو بحياته ، ووعده إذا هو اختار ثاني الأمرين أن يمينه على الرحيل بما شاء من ثلث وغير ثلث ، فأختار زرياب الرحيل عن الشرق بأسره ، ووقع له إسحق بما وعدده به من المونة .

وتذكر الرشيد بعد أن فرغ من شغلته التي كان منهيكا فيه ، وطلب إلى إسحق إحصاءه فقال : « ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذلك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزعم به من فتنائه ، فأبرى في الدنيا من يده ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التضمير به والتهوين لصناعته ، فرحل مضاضا ذاهبا على وجهه مستخفيا غنى ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين ، فإنه كان به لم ينشأ ويفرط خطئه ، فيخرج من دأبه . يقول المقرئ « فسكن الرشيد إلى قول إسحق وقال : على ما كان به لقد باتنا منه سرور كثير . »

خرج زرياب من ينداد يوم الثرب ، فلما كان بأفريقية اتصل بصاحبها زيادة الله للأعلى . ولكنه لم يطلب له القام بها ، فرحل عنها إلى الثرب الأقصى ، وهذا كتب إلى الحكم بن هشام ، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى ، يستأذنه في دخول الأندلس والمعبودة إليه ، فأذن له الأمير في ذلك من فورده . وعبر زرياب البحر إلى عدرة الأندلس

فينا هو صاحب لرحيل إلى قرطبة إذ سمع بوفاء الحكم ، فهم أن يعود أدواجه إلى المغرب
لولا أن كتب إليه الأمير الجديد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويطلبه أن ينييه كل
ما تصير إليه نفسه من مال وجاه ، قدم عليه زرباب . ويروون أن عبد الرحمن احتفل
لتقدمه أعظم احتفال إذ خرج بنفسه من قرطبة لتلقيه . وما هو إلا أن سمع غناءه وحديث حتى
شغف به ، فصره بغضه وإسلامه ، وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق الشيء الكثير ، حتى
كان يركب بين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر اللتين ، وبلغ من شدة شغفه به
أن جعل في قصره باباً خاصاً يستدعيه منه كلما أحب سماع غناؤه الرائع ، وحديثه
الغريب .

وقد لقي زرباب الجليل بالجليل ، وجيزى على اللزوف بالمزوف ، ولكنه قصد إلى ذات
من طريق غير مباشر ، قصد إليه من طريق النصيح والإخلاص للأندلس التي أصبحت
له وطناً ، ولأهل الأندلس الذين أصبحوا قومه ومشرقه . فكشف على رفع مستوى للموسيقى
الأندلسية ، وعلى النهوض بالجميع الأندلسي حتى يداني المجتمع الشرق بينداد . وقد وفق
فما قصد إليه كل التوفيق .



يمكن القول بأن زرباباً نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه ، وذلك
بما أدخله على العود من إصلاح وتعديل ، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء الغناء
وتعليقه . فقد اتخذ لنفسه وهو بالشرق غوداً جله على الثلث من وزن العود القديم ، وصنع
أوتاره من حرير لم يشغل بماء ساخن فأكسبها أوتونة وروخاوة ، واتخذ بمقام ومثلتها من
مضران شيل أسد : « فلها في التزم والعفاء والجمارة والحنة أضفاف ما لتغيرها من مضران
سائر الحيران ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب للناورة بها ما ليس لتغيرها » . فلما
كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة للثلاثة لطباع الأربع وزاد خامساً يقوم مقام النفس
من الجسد ، فأكتسب به عوده الطنف معنى وأكل فائدة كايروي القري . واتخذ مضراب
العود من فولدم التبر بدلا من مرعب الخشب ، « وذلك لطيف قشر الريشة ونقاؤه وخفته
على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه » . أما من حيث إلقاء الغناء ، فقد
رسم زرباب أن يبدأ في الإلقاء بالتشديد بأى شعر كان ، ثم يترقى في أثره باليسيط ، ويحتم

بالحركات والأهراج . أما مذهبه في تعليم الفناء فيقول فيه للقرى : « وكان إذا تناول الإلقاء على تنفيذ يملأه أسره بالتعود على الرصد للدور للروف بالسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينة أسره أن يشد على جلته جملة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسكاً في الجوف عند الخروج على القم ، فإن كان أنس الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، واضه بأن يدخل فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها في فمه ليالي حتى يخرج فكاه . وكان إذا أراد أن يجتهد للطبوع بالصور الراد تعليمه من غير الطبوع أسره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ! أو يصيح آه ! ويعد بها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً ، بندياً ، قوياً ، مؤدياً ، لا تتركه غنة ، ولا حبة ، ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف يتجنب ، وأشار بتعليمه ، وإن وجد خلاف ذلك أبده . » هذه العبارة تشير في صراحة إلى أن زرياباً أنشأ الأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري ما يصح أن نسيه بقلعة الوقت الباضر معهداً لتعليم الموسيقى .

... ولم يكن زرياب أقل ابتكاراً في شئون الحياة اليومية منه في مجال الموسيقى والفن ، وهذا محل العجب من سيرته . قد ابتكر لأهل الأندلس أواني من الطعام استطاعوها ونسبوا بعضها إليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلاً من آنية المعدن . وهو أول من اجتمع لهم البقلة الشبيهة للروقة بالمليون وكانوا لا يعرفونها من قبل ، وعلمهم أن يسطروا سفر الأديم فوق اللوائد الخشبية فذلك أنظف لها وآمن لمنظرها ، وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقل للون شتاء ، ولتتمهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعمرون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم ، تصفيقاً ، وتدويراً ، وإرسالاً .

• • •

لا ندرى بالذقة متى توفي زرياب . والفالب أن وفاته كانت في إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) وكما رزق زرياب المحظرة عند أهل الأندلس في حياته فقد رزقها ذكراه عندم جد عاتته . فذلك بأن مذهبه في الفناء وما رسم لهم من أسلوب للبيئة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم . فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من

تجلى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل إليها وانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرباب وآدابه . يقول ابن خلدون عند ذكره زربابا « فأورث بالأندلس من صناعة التناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطامنها بأشبيلية بحر زائروتنائل منها بعد ذهاب حضارتها إلى بلاد المدونة بإفريقية وللغرب واتسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع بمرانها وتناقص قولها » .

ويقول للقرى « وكان زرباب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتركة في كثير من ضروب الظرف ، ولنفون الآداب ، ولطف اللامسة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب الحادثة ومهارة الخدعة للوكية ما لم يجد أحد من أهل صناعته حتى اتخذ فلك أهل الأندلس وشواصهم قدوة فيها سته لم من آدابه واستحسنه من ألحمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوبا إليه معلوما به » .



أما بعد ، قد كان أهل رومية القديمة على عهد تيرون يلقبون ضريبا من مراتبهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق ، لأنه كان عتدم مقرب للتل في ذلك .
أما أهل الأندلس فقد وصفو زربابا بأنه « معلم الناس للرودة » ولرودة عتدم كل الإنسانية ، وهو لا شك أجل أوصافه ، وأحقها بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به ؟

حكيم الأندلس

عباس بن فرناس (*)

كما يوصف به القائل اليوناني القديم أنه عقل لطيف ، نفاذ ، بحث ، شكاك ، فواصل
على حقائق الأشياء ، حريص على الوصول إلى أسرار هذا الوجود ونوايسه التي يقوم عليها
نظامه ، معنى فهم قوى الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان .

بهذه الخصائص العقلية بلغ الأغريق القدماء ما بلغوا من تقدم في أنواع المعرفة على
اختلافها ، وأصبحوا للتل الأعلى في البحث العلمي الصحيح .

ومن الشخصيات العلمية الإسلامية التي يصح أن توصف بما يوصف به الأقدمون من
علماء الأغريق من حيث التنف بالبحث العلمي ، والمخاطرة في سبيل ذلك إلى أبعد حدود
المخاطرة . رجل أندلسي من أهل القرن الثالث الهجري والثامن الميلادي ، اسمه عباس بن
فرناس ، ويلقب بحكيم الأندلس .

وقد فسر الفثريون الحكمة بأنها عبارة عن صرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وسجوا
من يحسن دقائق الصناعات ويقتنها حكماً ، ولكن الخوارزمي في كتابه « ضائع
العلوم » يقول عند كلامه على الكيمياء : « والمحققون لهذه الصناعة يسمونها الحكمة على
الإطلاق » . ولعل وصف عباس بن فرناس بالحكمة إنما جاء من اشتغاله بالكيمياء كما
سترى ، فلقب بالحكيم كلقب من قبله خالد بن يزيد بن معاوية بحكيم بني أمية ، وذلك
لبصره بالكيمياء خاصة .

• • •

كان أبو القاسم عباس بن فرناس من موالى الأندلس ، أى إسباني الأصل ، وقيل
بل كان من أصل بربري ، أى أفريقي الأصل . وكان من موالى بني أمية ، وكان أهله من

كورة تاكرنا الأندلسية . ثم انتقل إلى قرطبة ، وسكن منها الربض الغربي . والظاهر أن ذلك كان في أوائل القرن الثالث ؛ وقد تأمر ثلاثة من أمراء الأندلس : الحكم الربض ، وابنه عبد الرحمن الأوسط ، وخنيده محمد بن عبد الرحمن (١٨٠ - ٢٧٣ هـ) واتصل بهم جميعاً وحسنت مكاتبه عندهم .

وفي هذا العصر اشتد إقبال اللطين على علوم اليونان إلى درجة لم تعد من قبل ولا من بعد ، فنقلت إلى اللغة العربية أسماء كتب الأغريق والكسندرين في الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعات . وتأمر اغلفاء واللوك وأعيان اللطين هذه الحركة العظيمة أياً من حاضرة ، وكان الخليفة للأمن زعم أنصارها بالشرق ، كما كان الأمير محمد بن عبد الرحمن زعيمهم بالأندلس .

وإذا قد نشأ أبو القاسم عباس بن فرناس في جوشع بالروح الأغريق ، وكان على منظر من صفاء الذهن ، ودقة للملاحظة ، وخب البحث العلمي ، والتوفر عليه دون سواء ، فلم يلبث أن انضم ما وصل إليه من تأليف الأغريق على كثرتهم ، واستطاع في قليل من الزمن أن يرد ما هضم اختراعات وإبداعات تشرف عالم العصر الحديث فضلاً عن العصر الوسيط .

ويعد للزورخون لنباس بن فرناس أموراً في العلم كان أولاً فيها ، وأموراً لم يسبق إليها نبي الأندلس على أقل تقدير . من ذلك أنه أول من فهم كتاب العروض للخليل بن أحمد وحل رموزه ، وعنه أخذته الناس في الأندلس . قالوا : « أدخل بعض التجار كتاب « اللال » في العروض للخليل ، فصار إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ولم يبق عليه إلا أن يقرأه ولا يفهمه ، وصار الكتاب مطروحاً في داخل القصر ينتهي به الجوارى ، حتى إن بعضاً يقول لبعض : صير الله عقلك كعقل هذا الذي ملأ كتابه من مفاهيم ، مفاهيم ؛ وبلغ خبره ابن فرناس ، فكتب إلى الأمير يأمره بإخراج الكتاب إليه ، ففعل . ونظر فيه بحذقه فافتح عليه وأدرك علم العروض منه ، وقال بفضل نظره إن هذا الكتاب يدل على أن ما قبله يفسره . فأرسل الأمير عبد الرحمن إلى للشرق يطلب تمامه ففيه إليه بكتاب « القرش » فاستكمل به عباس نظره وقدمه على الناس ، وكان أول من

أخذ عنه علم العروض في الأندلس . ووصله الأمير عبد الرحمن على ذلك بلاغات
دينار وكساه .

وقالوا إنه أول من فك اللسقى بالأندلس . ولا شك أن الراد بذلك أنه اعتدى إلى
حل رموز كتاب يوناني قديم في اللسقى ، على نحو ما صنع بكتاب العروض الآف المذكور .

• • •

على أن مكانة عباس بن فرناس العلمية إنما تقوم على تمكنه من علوم الحكمة الرياضية
والطبيعية . والحكمة الرياضية تشمل علم العدد ، والمهندسة ، والميثة ؛ ومن أداة براسته
في هذه العلوم أنه صنع في بيته كهيئة الساء ، ركبها على منهاج الحكمة ، ومثل فيها أفلاكها ،
وأقام فيها آلات تخيل إلى الناصر فيها أنها نجوم وغيوم ، وبروق وروعود ، وأراها كثيراً
من عيون الناس مفتخراً عليهم بحمكة ؛ فذاع ذكرها في الناس وكثر حديثهم عنها ، من
بين مطر له من عليه ، أو من در لسه مستهزئ به .

وطلب إليه الأمير عبد الرحمن عمل آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم تسمى عندهم
« ذات الحلق » . ويقول أستاذنا العلامة للرحوم كرولونينو : إن هذه الآلة مذكورة في كتاب
المجسط لبطليموس وفي كتاب آفة برقلوس اليوناني أحد علماء القرن الخامس الميلادي ،
وإنها تشتمل على سبع حلقات معدنية متحركة متداخلة ، ويقاس بها ما يقاس بالأسطرلاب
للسطح ، وأنها تسمى بالفرنسية *sphère armillaire* . وقد عملها عباس بن فرناس ورفضها
للأمير عبد الرحمن ، وبث معها هذه الأيات :

قد تم ما حلفني من آفة أعياء الفلاسفة الجبابذ دوني
لو كان بطليموس ألم منه لم يشغل بمداول القانون
فلذا رآته النسخ في آفها بثت إليه بنورها للوزون
ومنازل القمر التي حجب ما دون السيون بكل طالع حين
يسدون فيه بالنهار ، كما بدت بالليل في ظلماتهن الجوف
وكلنه الأمير محمد عمل آلة لمرة الأوقات ، فصل له آفة تعرف بها الأوقات بالليل
والنهار بغير رسم ولا مثال ، وتسمى « للفتاة » ، ورفضها إليه وقد تش عليها هذه الأيات
على لسان حال تلك الآلة :

ألا إننى للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تبن كواكب ليل حالك الظلمات
يمن إمام للسلطان محمد تجلت بي الأوقات للعالمات

وكما اشتغل عباس بن فرناس بعلوم الحكمة الرياضية فكذلك اشتغل بعلوم الحكمة
الطبيعية . فهو أول من استخرج الزجاج من الحجر بالأندلس . واشتغل بالكيمياء ،
وكان على حد تمييز صاحب « نيرانجيات » . والنيرانجيات لفظ فارسي الأصل ، وفسروها
بأن القرض منها تزيج القوى التي في جواهر العالم الأرضي لتحدث عنها قوة يصدر
عنها فعل غريب .

ولكن لا شك في أن أكبر مظهر لحكمة ابن فرناس وجرأته الطبية أنه حاول تطيير
جناته فكان — إذا صح ذلك — أول طيار خطفه في التاريخ . قالوا إنه كاشفه بريش
قشام النور على سرق الحرير ، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره قشياً له أن
استطاع في الجوف من ناحية الرصافة بقرطبة ، واستقل في الهواء ومكث فيه حتى وقع في مكان
مطارد على مسافة بعيدة . وقد تأذى بذلك مؤخره لأنه لم يحسن الاحتيال لوقوعه ، ولم يقدر
أن الطائر إنما يقع على زمكانه أى ذنبه ، فها من ذلك ولم يخذ لنفسه ذنباً . وقد أفزع
من رأى طياره من أهل الصحراء ، فكثر حديثهم عما عاينوا منه ؛ من ذلك قول مؤمن
ابن سعيد ، وكان منرى بهجو ابن فرناس :

يَظُنُّ عَلَى السَّعَاءِ فِي طَيَّرَاتِهَا إِذَا مَا كَا جَنَاهُ رِيَشَ قَشَمِ

• • •

كبرت أعاجيب ابن فرناس ، وتعددت ابتداعاته جرى له ما يجري لكل مبتدع
يفضأ الناس بما لم يألفوا ، فكان الخاصة يتميزونه ويرمونه بالحق والسخف ؛ من ذلك قول
مؤمن بن سعيد في هيئة السماء التي أحدثها عباس في داره :

قصدت تحت سماء لابن فرناس فقلت أن رحي دارت على رأسي
سماء أتوك يسواها وحققها بحجة ذات أنياب وأضراس
لها نجوم تنهى أن خالقها إذا نظرت إليها أحق الناس

يمسى ويصبح من شغل بصنعتها نجى ثم وشكر ووسواس
كان الجدير بأن يرق إليه بها راق فيدحو بها منه على الراس
وقد كان ابن فرناس كتب إليه مازلا :

دنت لسانى يا خلق خالقها واستشر الخوف من صواعقها
فرد عليه ابن سعيد بأبيات من نفس الوزن والروى أغش فيها .

أما العامة فكان سخطها أشد وأذاها أبلغ . فقد رمته بالزندقة والسحر والكيمياء ، وطعنت
فى دينه ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كتب بعضهم وثيقة بزندقته ورفضها إلى قاضى
الجماعة بقرطبة ، وشهد عليه بعضهم بأنه سمع يقول مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ كما شهد آخر بأنه
رأى الدم يغور من فتاة دارة ليلة كذا ، إلى دعاوى من هذا القبيل . وكان القاضى رجلا
حصيف العقل ، فنظر فيما اتهم به ابن فرناس نظرة تحقيق وتعقل ، واستشار قضاة قرطبة
فى الأمر ، فلم يجد بعد كل ذلك سيلا إلى عقابه ، وأفلت ابن فرناس بحريمة الذقن
كما يقولون .

ولمضى إن العامة لمذورة إذا هي غرت من رجل عجيب جاء قبل أوانه بألف سنة
من الزمان .

قاض فاضل^(٥)

هو أحمد بن يحيى بن محمد قاضى الجماعة بقرطبة على عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). كان أبوه يحيى بن محمد عالماً فاضلاً ورعاً زاهداً . وهو أحد الذين عرض عليهم القضاء فأبوا قبوله تخرجاً ، وذلك أن أمير الأندلس للنضر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥) أراد أن يوليّه القضاء فأبى . فذهب إلى استكرامه فاعتذر اعتذاراً لطيفاً وقبل الأمير عذره وقد نشأ ابنه أحمد نشأة حسنة جميلة ، وعرف منذ حداثة سنه بالفضل ، ووسم بحب الخير . وكان أمير الأندلس عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠) يشارده ، ويأخذ برأيه مع أن سنه إذ ذاك لم تكن تزيد على خمس وعشرين سنة . فلما تولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الخلافة ولاء صلاة الجماعة بقرطبة ، ثم ولاء بد ذلك قضاء الجماعة بها وأقره على الصلاة ، وذلك فى سنة ٣١٤ هـ .

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة أحد المناصب الثلاثة التى تعتبر أركان الحكم فى الأندلس على عهد بنى أمية ، وهى إمارة الثغر الأعلى بسرقةطة وإمارة الأسطول بالمرية وقضاء الجماعة بقرطبة . وربما كان قاضى الجماعة يأبى لمزلقته الدينية ومكانته الاجتماعية بعد الحاجب الذى كان عندهم بمنزلة رئيس الوزراء عندنا ؛ وكثيراً ما كانوا يلتقبون قاضى الجماعة بالوزير القاضى تغنيًا لشأنه وتعليقاً لقدره . وكان اختصاصه عندهم يشمل النظر فى اللواريث والوصايا والتجبير والأحباس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق ، وقد تجمع له فوق ذلك إمارة الصلاة العامة ، وهى صلاة الجمعة واليدين وصلاة الاستسقاء ، كما كان الإشراف على الحسبة داخلًا فى اختصاصه . من أجل ذلك كانوا لا يستندون قضاء الجماعة إلا إلى كل من عرف بنزاهة العلم والبراعة فى الفقه ، ووصف بالفضل والورع وتزاهة الضمير . ولله لم يقول قضاء الجماعة بقرطبة رجل أجمع لتلك الغلصال من أحمد بن يحيى ، حتى ليكن

اعتباره للثمن الصالح للقاضي الشرعي في عصر ازدهار الدولة الإسلامية بالأندلس .

• • •

كان ذا معيشة سهية ساذجة ، « إذا طرقه ضيف ليلاً لم يدع له شيئاً من الطير ، وقال الليل أمان لها ، ويقتصر على العسل والسمن والبيض وما شاكل ذلك فيقره إلى الضيف » . وكان متواضعاً ، سئل مرة عن نسبه وولائه فقال ولاؤنا لامرأة من أهل جيان . وكان ولي عهد الدولة المحكم للمقتصر بموجب من صدقه في ذلك ويقول : لو شاء لادى أشرف الأنساب ثم لا يجد في ذلك مكذباً .

وكان رءوف القلب ، رفيق العقوبة إذا عاقب . جاءته مرة امرأة تخاصم زوجها فجعلت تستطيل على زوجها بلسانها وتؤذيه بصلتها ، فنظر إليها ابن بقي وقال لها : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت المرأة شيئاً ثم عادت الصلف ، فقال لها القاضي مرة أخرى : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت شيئاً ثم عادت الصلف . عند ذلك عطف عليها أحمد بن بقي فجعل يقول لها : أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! ثم قال : ألم أعرفك من قبل هذا ؟ ولم تزد عنوته للمرأة على ذلك .

وكان كثيراً ما يبدأ الحدود الشرعية بالشبهات يتصدها سياسة منه للعامة ورفقاً منه بها . قالوا أناه المحتسب مرة رجل به رائحة الشراب ، فقال القاضي لسكاتبه : استنكه ! فعمل ، فقال : نعم ! عليه رائحة الشراب . فظهر بوجهه الكراهية لذلك ، ثم قال لآخر من كان حاضراً مجله : استنكه أنت ! فعمل ، فقال : أجدر رائحة ولا أدري إن كانت رائحة مسكر أم لا ؟ فتهلل وجه القاضي وأمر بتخلية سبيله .

• • •

ومع أنه كان رءوف القلب رفيق العقوبة يرى الفرق والتجاوز في كثير من اللواطن أبلغ من العنف والمؤاخظة ، فإنه كان في حميم واجبه القضاء مثال الدقة والدأب والاستقصاء . كان لا يوقع شهادته في وثيقة حتى يقرأها من أولها إلى آخرها . من ذلك أن صديقاً له أرسل إليه مرة وثيقة كتبها على رجل بمال ليشهده عليها . وقد ذكر في الوثيقة شيئاً يحلها والعنة . فلما قرأها ابن بقي وتبين له ما فيها من الوهن كره ألا يوقع عليها فيسخط

صديقه ، وكره أن ينفه للشهود عليه إلى وهنها . فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال للشهود عليه : أشهدني على أن لقلان عندك كذا وكذا متعلاً إلى أجل كذا وكذا ؟ قال نعم ! فشهد شهادته على هذا المنظر بعينه لا غير .

وكان جم النية بأسر الوثائق خاصة ، شديد التعقب عليها . وكانت الوثائق يمررها رجل اسمه محمد بن إبراهيم بن الحباب كثير الزهو والاعتداد به ، فضاظه تعقب القاضي عليه وقال : من أين يتصلقي ابن يقي أنه أعلم بالوثائق مني ؟ وبلغ قوله القاضي . فانهز فرصة عرضة عليه وثائق ، واستخرج جهود في التعقب عليها حتى أخذ مواضع أباها له وأسرته بضميرها ، فغيرها وأثامها بها . فاتفق عليه فيها مرة أخرى . فأرسل إليه ابن الحباب يقول : إني أفر لك أنك أعلم بها مني وأشهد بذلك ، فدعني من كثرة هذا البحث والكشف وإلا حلفت ألا أكتب وثيقة ! فتركه ابن يقي بعد ذلك وسامحه .

• • •

وكان من عادة ابن يقي فيما يتخاصم عنده فيه أن ينفذ الظاهر البين ، ويستعمل الأناة والتؤدة فيما التبس عليه منه ، حتى تظهر له الحقيقة أو يصير للتخاصمان إلى التصلح والتراض . وربما جبر ذلك التمسك والتمهل في القضايا للشبهة إلى تأخير الأحكام زماناً طويلاً قد يضجر الخصوم . وقد عيب عليه ذلك في حضرة الخليفة الناصر وبما عرف به من لين الجانب ، فقال : أعوذ بالله من لين يؤدي إلى ضعف ، ومن شدة تبلغ إلى عنف ؛ ثم جعل يذكر فساد الزمان واحتيال الفجار ، وما يحدث من الأمور للشبهة التي لا تتبين له حقيقتها ولا يكشف له وجهها ، ثم قال : قد اشتبه على عمر بن الخطاب رضي الله خصومة قوم طال نظره فيها ، فكره أن يحكم مع الاشتباه فأمرهم بابتداء الخصومة من أولها .

وبما يصدق مذهبه هذا في التوقف عند الشبهات أنه رقت إليه خصومة وقت بين الحاجب محمد بن موسى — والحاجب عندهم كما قدمنا بمنزلة رئيس الوزراء عندنا — وبين رجل اسمه يحيى بن إسحق . وكانت شهادة الشهود في مصلحة الحاجب . ولكن القاضي اصطنع الأناة ولم يسجل الحكم لشبهة وقت في نفسه . فأرسل إليه الحاجب يقول : قد عرفت محبتك لك ، وشعبي بجميع أسبابك ، وقد دار عندك على يحيى بن إسحق

ما قد علت من الحاشية ، وقد شهدت عليه عندك ليلة المدول ، وتأنيت عن الحكم عليه .
قال القاضي لرسول : « تبلغ الحاجب عن السلام وتقول له : إن محبتنا كانت لله ولوجهه ،
ويحيى بن إسحق وغيره في الحق سواء ، وقد دخل على أرتياب ، ولا والله ما أحكم على يحيى
ابن إسحق بشيء حتى يتضح عندي أمره بنور كاضح الشمس في الدنيا ، فإنه لا يجهزني
أحد من يحيى بن إسحق إن جافاني انصومة بين يدي الله . فأدى الرسول هذه القصة
لحاجب وهو ساكت لا يقول شيئاً . وجعل بعض من حضر من الوزراء يقع في القاضي
ويبدى ويميد في ذلك . فتحول الحاجب إليه أخيراً وقال له : « يا أخى ! القاضي والله رجل
صالح ، ولا تزال بخير ما كان هو وشبهه بين أظهرنا .

والله ما زاده فله عندي إلا محبة واعضاداً » .

* * *

قالوا : وكان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصريثق به ويحله ويعرف حقه ولم يرهه من
القتضاء حتى توفي سنة ٣٢٤ عن أربع وستين سنة .

بين خليفة وقاض

أما الخليفة فهو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر بن الله الذي استوى على عرش الأندلس حين سنة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) تمد بحق أزهي عصور الأندلس ، ومن أجد المصور الإسلامية على الإطلاق . تولى والأندلس على أسوأ حال : شمل ممزق ، وفتن ضاربة لأطنابها ، وعدو يتخفى ليتفص عليها من فوقها ومن أسفل منها . فزال بالفتن حتى قطع دابرهما ، وبالأعداء يجاهدكم تارة بنفسه ، وأخرى بأبرع قواده ، حتى خضد شوكتهم ، وكسر شرهم ، وأزلم على حكمه .

ولما رأى النيات أمر الخلافة العباسية بالشرق ، واستضعال أمر المبيدين بالمغرب ، استغرق نفسه أنه أحق بقلب الخلافة من العباسيين والمبيدين جميعاً ، لأنه أجمع منهم بشروطها فأعلن خلافته في سنة ٣١٦ هـ وبأية الشعب بالخلافة طائساً راضياً . ثم إنه رفع العلم والحضارة بالأندلس مثاراً عالياً . وعنى بالبنين والعمارة فشيده مدينة الزهراء التي كانت تضرب بروعتها الأمثال . وطار صيته في الخافقين وازدلفت إليه ملوك أوربا ، وقدمت عليه وفودهم طالبة موادعته وموادته ، فكان بحق أوحد ملوك العالم في عصره .



وأما القاضي ، فهو أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي ، أصله من نخص البلوط في شمال قرطبة ، ولد في العقد الثامن من القرن الثالث المعجري ، ونشأ وتفق بالأندلس على عبيد الله ابن يحيى بن يحيى اللثني وأمثاله ، ثم رحل إلى للشرق حاجاً وطالباً للرواية ، على عادة كثير من علماء الأندلس في ذلك الزمان ، واجتمع في رحلته بمجموعة من علماء للشرق ، وظهر فضله هناك . وعن سمع عليهم بمكة : محمد بن للنذر النيسابوري ، سمع عليه كتابه للؤلؤف في اختلاف العلماء ، اللسي « بالأشراف » ، كما روى بمصر كتاب « العين » للخليل عن أبي العباس بن ولاد ، والنشر القديم عن أبي جعفر بن النحاس . ثم عاد إلى وطنه ، وقد

استحكمت منه وكلت تجاربه وتمت ثقافته ، وأصبح معدوداً في كبار فقهاء الأندلس وقاماتها في العلم ، وقد صنف كتباً في علوم الفقه والكلام والتفسير ، وكان يطلب عليه التفقه بمذهب داود الظاهري ، وبأخذ به نفسه وذويه ، فلما تولى القضاء كاسبجياً ، كان لا يقضى إلا بمذهب مالك ، لأنه للذهب الذي كان عليه السبل بالأندلس ، على أنه كان مع ذلك واسع الأفق في مسائل الفقه ، ميالاً إلى الاجتهاد ، غير ملتزم للتقليد ، يشير إلى ذلك قوله :

عذري من قوم إذا ما سألتهم دليلاً أجابوا : هكذا قال مالك

فإن زدت قالوا : قال سحنون مثله وقد كان لا تمنى عليه للسالك

فإن قلت : قال الله ، ضجروا وأهملوا على وقالوا : أنت خصم بمالك

وكما كان منظره فيها متبحراً في الفقه ، كان خطيباً مفوهاً وواعظاً جدير الصوت بليغ العبارة . قريب الدعة ، حسن الترتيل ، قوى التأثير في سامعيه ، وكان فوق ذلك شاعراً ، وشعره من قبيل شعر العلماء ، وقد أورد للقرى في كتابه نفع الطيب ، مساجلات شرعية جرت بينه وبين أبي علي الغالي وغيره من الأدباء . وكانت فيه مع جده ورعه ، دعابة وبما انزعج بها من لا يعرف بملكه ، فإذا أراد النيل من دينه تكشف له عن أسد ورد لا يرام حماء .

والظاهر أن منذر بن سعيد كان يحيا في قرطبة حتى سنة ٣٣٩ حياة فقيه يدرس العلم ويصنف الكتب ويساجل العلماء والأدباء ، دون أن يلى السلطان حملاً ، مع فضله وتقدمه . فلذلك لم يكن الناصر يعرفه شخصياً على نحو ما يعرف السلطان كبار رجال دولته . اللهم إلا أن يدعى في زمرة الفقهاء إلى المجلات الرسمية ، التي كثيراً ما كانت تتخذ في البلاط على عهد الناصر . ثم عرضت ظروف نبهت الخليفة إلى مكانة منذر وفضله وخطره ، وورفته في طرفه عين إلى مكان الصدارة من رجال الدولة . ففي عام ٣٣٩ قدم قرطبة وقد هاجل القسطنطينية ، يحمل إلى الناصر تحفاً وهدايا ، ويرغب في توثيق أوامر الورد والصداقة بين الناصر والمامل البيزنطي . وقد أراد الخليفة أن يستقبل هذا الورد في بعض مجالس الزمراء ألخم استقبال وأعظمه . وقد أتى للقرى في كتاب « نفع الطيب » على وصف

ذلك الخلف بالتحصيل . قال : « وتقدم الناصر إلى الأمير الحكم ابنه وولى حرمه بإعداد من يقوم من الخطباء ، ويقدمه أمام إنشاد الشراء ، فتقدم الحكم إلى أبي علي القالي البخداى ، ضيف الخليفة وأمر الكلام ، وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحده وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع وبهت ، فبا وصل إلى القطع ، ووقف ساكناً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء ، قام بدرجة من سرقة أبي علي ووصل انتحاه بكلام عجيب ، بهر المنزل جزالة ، وملأ الأسماع جلالة . وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه . وأقبل على ابنه الحكم فأله عنه ، ولم يكن يثبت معرفته ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطى ، فقال والله لقد أحسن ما شاء . وأراد الخليفة مكافأته والانتفاع بمواهبه ، فؤلاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بمدينة الزمراء . ثم حلت بعد قليل من الزمن أن توفى القاضي الجماعة بقرطبة ، فولى الخليفة منذراً قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزمراء .

وهكذا نشأت الصلة بين الخليفة الناصر وبين الله وبين القاضي منذر بن سعيد . نشأت من مناسبة عارضة أوجب فيها الخليفة بالقاضى والقاضى بالخليفة . غير أنه سرعان ما وقعت الوحشة بين الخليفة وقاضيه ، وذلك لاختلاف وجهة نظر كلٍّ إلى الأمور .

أما الخليفة فكان ينظر إليها نظرة ملك عظيم ربما جانبه الصواب في تصرفاته على غير قصد منه ، ولكنه يجب مع ذلك أن يبرف له حقه من التبريل والتكريم ، أما القاضي فكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يجرى في تصرفاته على أساس العدالة للطفقة ، مهما علا إمكان للقاضى إليه ولو كان الخليفة شه .

قالوا إن الناصر احتاج إلى شراء دار في قرطبة لإحدى نساؤه ، فوقع استحسانه على دار واسعة ذات مستللات وافرة ، وكانت لأيتام في حجرة القاضي . فأرسل الخليفة من قومه بقدر ما طابت نفسه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصى الأيتام في بيعها عليهم ، فذكر أنه لا يجوز البيع إلا بأمر القاضي منذر ، فأرسل الخليفة إلى القاضي في بيع هذه الدار فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الرضى الشديد ، ومنها

النبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة بهذه الأيتام إلى البيع ، وأما الرعي فليس فيها ، وأما النبطة فحذاً مكانها . فإن أعطاهم أمير المؤمنين ما نسبين به النبطة أسرت وصيهم بالبيع وإلا فلا . فقتل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً في أن يغير القاضي رأيه . ولكن القاضي لم يغير رأيه ، ثم إنه خاف أن تنبت من الخليفة حزيمة تلتصق بالأيتام ضرراً ، فأمر وصى الأيتام بتفرض الدار وبيع أعضائها ، ففعل ، فكانت قيمة الأعضا أكثر مما قومت به للسلطان . عند ذلك أرسل الخليفة إلى القاضي منذر يسأله عما دعاه إلى نقض الدار ؟ قال أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر » فأردت أن أحييها ، وكان وراهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » فقوموها لم يقوموها إلا بكذا ، وقد قبض في أعضائها أكثر من ذلك . وبقيت الناعة والحمام ، ونظر الله للأيتام ، فلم يسع الخليفة إلا أن يقر القاضي على ما عمله ، وقال : « نحن أولى من اتقاد إلى الحق ، فجزاك الله هنا وعن أمانتك خيراً » .

وهكذا أذن الخليفة للحدث أن يمر بسلام ، وإن كان أبقى في نفسه شيئاً من اللوعة على القاضي الذي تعداه على هذا النحر الذي لم يعود . ثم سرعان ما وقع حادث آخر كان أشد من الحادث الأول وأدنى . لقد كان الناصر بطبعه ميالاً إلى العبارة ، مشفقاً بتشييد البنيان يرى أن ذلك من أبهة للكل والدليل الباقي على خيانة الفتوة ، وينسبون إليه أنه القاتل :

هم للرك إذا أرادوا ذكرها من بدم فبالن البنيان

أو ما ترى المرمين قد بقيا وكم ملك محته حوادث الأزمان

إن البناء إذا تناظم شأنه أنهى يدل على عظيم الشأن

ولقد أتيل على عمارة الزعماء أيما إقبال ، وأغنى من أموال الفتوة في تشييدها وزخرفتها ما أتفق ، وهي لا تدور في حقيقة أمرها أن تكون مجموعة من القصور الفاخرة مخصصة لفره وسكنى خلمه وحشه وحرسه ، وكان ربما أشرف بقضه على شئون البناء والزخرفة حتى شغل ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة ثلاث جمع متواليات . فاشتد ذلك على خطيب المسجد الجامع بالزعماء وإمام الصلاة فيه ، ورأى خروجاً من تبة التضمير فيها أوجب

الله على العلماء من تنبيه النافل وتذكير الناس ، أن يلتزم على الخليفة دوماً قد يكون قتيلا على نفسه ، ولكن فيه شفاء له من علة الإسراف ، ورد إلى طريق الصواب . ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس وقى للسجد الجامع بالزمراء نفسها . وعلم أن الخليفة سيشهد صلاة الجمعة بعد طول انقطاعه عن شهودها ، فأعد خطبة قوية ضمنها كل ما كانت تجيش به نفسه من اللامع . فلما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة اعتلى المنبر ، والخليفة حاضر والسجد غاص بالمصلين ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى « أتيتون بكل ربيع آية تبشرون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » إلى قوله « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » ثم مضى في ذم تشييد البنيان ، والاستغراق في زخرفته ، والإسراف في الإنفاق عليه ، بكل كلام جزل ، وقول فصل ، تلا قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين » وراح يخوف من اللوث ويحذر من فجائه ويدهو إلى الزمرد في هذه الدار القانية ، ويحض على الإعراض عنها ، ونهى النفس عن اتباع الهوى ، فأسهب في ذلك كله وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر من حضر من الناس وخشعوا وركعوا وبكوا ونحبوا ودعوا ... وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على تفريعه .

غير أن الخليفة وجد على منذر لفظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده وولى عهد الحكم بعد انتهاء الصلاة وانصراف الخطيب ، وقال : والله لقد تعددت منذر بخطبته ، وما عني بها غيري فأسرف على ، وأفرط في تربي وتأنبي ولم يحسن السياسة في وعظي ، فزعم قنبي ، وكاد يصاه يقرعني ، ثم استشاط غيظاً عليه ، فأقسم أن لا يصل بخلقه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها خلف صاحب الصلاة بقرطبة ويحاجب الصلاة بالزمراء .

هذه كل القوبة التي نال بها الخليفة الخطيب القنى تجاوز الحد في وعظه وإرشاده . وقد قال له الحكم : فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك واتخاذ غيره مكانه ؟ ولكن الخليفة زجره وقال له « أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ، يعزل لأرضاء نفس ناكبة من الرشد ، سالكة غير المقصد ؟ هذا ما لا يكون ... بل يصل بالناس حياه وحياتنا إن شاء الله ، فأعلننا تخاض منه أبداً » .

ثم إن الجنوة تأكدت واشتدت بين الخليفة والقاضي ، وود ولى العهد لو أزالما أو خفف من حدتها ، قيل إنه اعتذر إلى الخليفة عما قال منذرو قال يا أمير المؤمنين : إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً ، ولو رأى ما أخفت وحسن تلك البنية ، لندرك ، ويريد بالبنية هنا القبة التى بناها الناصر بالزهراء ، واتخذ قرايدها من فضة . وبضها مقش بالذهب ، وجعل سقفا نوعين : صفراء قائمة إلى بيضاء ناصعة ، يستلب الأبصار شعاعها . فلما قال له الحكم ذلك ، أمر قمرشت بفرش الديباج . وجلس فيها لأهل مملكته . ثم قال لقرايته ووزرائه : أرايتم أم سمعتم ملكا كان قبلى صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين ! ، وإنك لأوحد فى شأنك ! فبينا هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سعيد واجاً ناكساً رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرايته ، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحية وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولأن تحمكه من قيادتك هذا التحمك ، مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين ، حتى ينزك منازل الكافرين ! فأعثر الخليفة من قوله ، وقال له انظر ما تقول ! كيف أنزلنى منازلهم ؟ قال : نعم ! أليس الله تعالى يقول « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجلنا من بكرة بالرحن لبيوتهم سقفا من فضة ومما رج عليها يظهرون » : الآيات . فوجم الخليفة ، ونكس رأسه ملياً وجعلت دموعه تنحدر على لحية ، ثم أقبل على منذر وقال له : « جزاك الله عنا ومن الدين خيراً فاذى قلت هو الحق » ثم قام من مجلسه وأمر بتفض سقف القبة وأعاد قرومها تواباً على صفة غيرها .

وهكذا أفر الخليفة لقاضى بأنه على الحق فيما قال . وزال ما كان فى نفسه من للرجدة عليه .

ولكن على أن يرضى القاضي عن الخليفة . ولم يكن ذلك بعيداً . فقد تحطت الأندلس فى آخر مدة الناصر (سنة ١٢٥٠) فأمر منذراً بالخروج للاستعانة ، فخرج ، واجتمع له الناس فى مصلى الرض ، وصعد الخليفة فى أعلى مصانعه المرتفعة ليشترك الناس فى الخروج إلى الله . وأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبطاً ، وقام ليخطب . فلما رأى خشوع الجمع وإخباتهم رقت نفسه وغلبته عيناه ، فبكى حيناً ، ثم

افتتح خطبته فقال : « يا أيها الناس : سلام عليكم ! » ثم سكت ووقف شبه المحضر ، ولم يكن من عاداته ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما همراء ، ثم اندفع في خطبته ، فجز القلوب ، وأبكى العيون ، وكان الخليفة أشد الحضور وجلا وخشوعا ، وأغزرم بكاء وأحرم دعاء ، فلما رأى القاضي منه ذلك تهلل وجهه وقال : « قد أذن الله بالسّيا . إذا خضع جبار الأرض ، فقد رحم جبار السماء » قالوا وكانت كما قال ، فلم يتصرف الناس إلا عن السّيا .

وتوفي الخليفة الناصر في سنة ٣٥٠ أما القاضي منذر فكانت وفاته في سنة ٣٥٥ في خلافة الحكم المستنصر . وقد ظل حتى وفاته على قضاء الجماعة بقرطبة والخطابة والصلاة بجامع الزهراء ، كما رسم الناصر .

وإن الإنسان لا يدري بأي هاتين الشخصيتين هو أشد إيجاباً ؛ أبا الخليفة في نبهه ، وسمة احتماله ، وإذعانه للحق عند وضوحه ، أم بالقاضي في عدالته ، وصراحتة ، وشجاعته وشدة إخلاصه لدينه وواجبه . ألا حيا الله تلك النفوس الكبار فلي مثلها تصالح الدول وتستقيم أمور الناس ؟

١- الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي^(٥)

لقد وجد كثير من كبار الشعراء على مختلف الصور في الحوادث العامة للامارة لم أو السابقة عليهم مادة لقرايحهم ، وسرحاً عليهم ، فآخذوا منها موضوعات بنوا عليها قصائدهم ومسرحياتهم . فلذلك هوميروس في إلياذته ، وشكسبير في مسرحياته ، وللتنبي في سيفياته ، وشوقي في اجتماعياته وسياسياته . فهل للزورخ أن يعد شعر هؤلاء الشعراء مصدراً من مصادر التبريف بهذه الحوادث ؟ وإذا جاز له ذلك ، فإلى أى مدى يكون اعتياده على الشعر في تاريخ الحوادث للذكورة وتصويرها ؟ إن الأمر ليس سهلاً كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، فالشاعر ينظر إلى الأشياء بعين الخيال دائماً ، وهو بحكم فنه الرفيع فاني في تناوله الحوادث ، فهو يزنها ويحكم لها أو عليها تبعاً لما تهبث في نفسه من عاطفة وتثير من إحساس . أما للزورخ فيحكم صناعته واقفى النظر إلى الحوادث ، يصورها كما هي في الواقع ، أو كما يعتقد أنه حالها في الواقع على أقل تقدير ؛ وينبغي أن يضبط عاطفته جهد طاقته ، فلا يجعل لها على قلبه سلطاناً ، وأن يتقيد بالواقع كل التقيد ، ينبسج في محيطه مهما يكن كثيفاً ؛ فإن خلق فوقه فلسكى يتسكن من رؤيته والإحاطة به لا أكثر ولا أقل . وإذا فبين الشاعر للزورخ وللزورخ المختص تباين شديد على ما يظهر . ولكن يظهر أن التباين بينهما ليس تاماً ، فهناك أساس مشترك بينهما ، هو الواقع والحقيقة ؛ كلا الشاعر وللزورخ في سرده أسسه يرجع إلى الواقع ويتقرب من محرم . وليس الاختلاف بينهما إلا اختلافاً بين أسلوبيهما في التعبير عن الحقيقة والواقع . فالزورخ يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، ويسنى بمادتها وجسمها ، إذا صح هذا التعبير ، فهو يوقتها ويطلبها ، ويرد بعضها إلى بعض ، جاعلاً الصدق في كل ذلك شعاره ومبدأه ، متحاشياً الخلط في القياس أو الاستنباط . أما الشاعر فلا يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، وإنما يقتاولها من بعيد جداً ، يتناولها مصلة مقطرة متبلورة ، إن صح هذا التعبير . يتناولها من حيث تأثيرها في نفسه ؛ ومبلغ

تأثر نفس الشاعر بحادث ما واحتياجه له ومن بمقدوره تأثر البيئة التي يعيش فيها بهذا الحادث واحتياجه له . فالشاعر يسجل أثر الحوادث في المحيط الذي يعيش فيه . والشاعر الحق هو الذي يمد ترجماناً صادقاً لإحساسات البيئة التي وجد فيها . ولتأمل تلك بشر أبي الطيب اللثبي فالتنبي يمدح سيف الدولة في قصائده السيوفيات ؛ ولعله في قرارة نفسه يعتقد أن سيف الدولة من حيث رقة ملكه وسعة موارده ، لا يزيد على أن يكون أميراً إقطاعياً من أسراء الدولة الإسلامية للزامية الأطراف ، وقد يكون أقل شأنًا وخطرًا من أسراء بنى بويه شرقاً ، وخلفاء الأندلس غرباً . وهو لا شك يعلم أن في سيف الدولة عيوباً لا تنشق رؤيتها على مثله ؛ ولكنه مع ذلك ينض النظر عن عيوبه ويضيق على سيف الدولة حالاً منشرة من مدائحهم . ذلك بأنه إنما أراد أن يصور رأى الناس لعمده في هذا البطل وفي وقائمه مع الروم دفاعاً عن النور الإسلامية ؛ في حين أن هذا البطل وهذه الوقائع ليست في نظر اللوزخ للدق شيئاً كبيراً باقياً إلى أبطال المسلمين الذين جاهدوا الروم قبل سيف الدولة وبسده ، ولا إلى الوقائع العظيمة التي جرت بينهم وبين قياصرة بيزنطة . وناحية أخرى من شعر اللثبي ، ذلك أنه يمدح الأفراد ويهمل الجماعات أو يهملها أجمع ، يمدح سيف الدولة ويهمل أهل الشام ، ويمدح كافور الإخشيدي ويذم للصريين ، حتى ليكاد يلحقهم بالسوام للهمة . ولقد كنا نقرأ كل ذلك فتهز رموسنا ونقول شاعر يريد الافتنان والإغراب . ولكن الحقيقة أن اللثبي لم يرد افتناناً ولا إغراباً ، وإنما هو من حيث يريد أو لا يريد ، يصور ما خلقه نفوس المسلمين عامة وأهل الشرق الأدنى خاصة من ضعف وفقر ، انتهى بأن طمع فيهم الروم أولاً والصليبيون أخيراً ، فزوم في فقر دارهم ، وتقلبوا على حوزتهم حقبة طويلة من الزمان . فهل يقال بعد ذلك إن شعر اللثبي لا يمدح على اللوزخ لأنه شاعر كثير الذهاب مع الخيال ؟ كلا ثم كلا فاللثبي بأسلوبه الشرى الخالص قد سد قصصاً في كتب التاريخ ، ولا غنى حديث عن ديوانه عند ما يؤرخ الشرق الأدنى في القرن الرابع الهجري .

وما يقال عن اللثبي يمكن أن يقال عن كل شاعر آخر كبير تصدى لتسجيل الحوادث السامة في شعره . على أنه ليس كل شاعر بمستطيع أن يتناول الحوادث على نحو ما تناولها اللثبي أو شكبير ، فالقدرة على تصفية الحوادث وتقطيرها وبلورتها لم توهب إلا لمبارقة الشعراء وغفر لم غيب .

ونحن نعتقد أن من هؤلاء أبا القاسم بن هاني الأندلسي . وقبل أن فصل القول في ذلك نعرف القارئ بهذا الشاعر ترميزاً موجزاً .



هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي ، يقال إنه من ولد للهب بن أبي صفرة القائد الأموي المشهور ، وقب بالأندلس لفترة بينه وبين ابن هاني . الحكي الذي هو أبو نواس . كان أبوه هاني من قرية من قرى للهدية بأفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، ثم انتقل إلى الأندلس ونزل البيرة وقيل قرطبة ، وولد له ابنه محمد صاحب الترجمة بأحد هذين البلدين سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢٦ على خلاف في ذلك ، وإن كان التاريخ الأول هو الأرجح عندنا . ونشأ محمد بقرطبة وتعلم بها وحقق علوم عصره وخاصة الفقه والأدب والفلسفة ، ثم انتقل إلى إشبيلية وتزلفا واتصل بصاحبها واختص به ؛ غير أنه سرعان ما نبت به إشيقية بالأندلس عامة ؛ ذلك بأن ابن هاني عرف بحرية الفكر ، واتهم بمذهب القنطاسة ، ورمى بالتلويح التشيع ، هذا إلى استهتار ، وفساد في السيرة ، وأمرناج في الطريقة . وكانت الأندلس أيامه حديثة عهد بخلافة سنية جديدة ، أعادها الناصر ليحيي بها على الخلافة البشائية للضعفة ، ويتحدى بها الخلافة القاطمية الشيعية التي ظهرت في شمال إفريقية ؛ وكانت الدولة الأندلسية فوق ذلك واقعة تحت عبوديتها للالكية ؛ فكانت الفلسفة والاشغول بها محل مقت الخاصة والعامة على السواء . ولقد بلغ من ذلك أن أحرقت كتب فيلسوف الأندلس ابن مسرة علناً في شوارع قرطبة . من أجل ذلك اعتزم ابن هاني الهجرة إلى عدوة للثرب حيث الدولة القاطمية الجديدة ، وهي دولة قامت على دعابة باطنية واسعة النطاق ، تنسج لكل مفكر أياً كان اعتقاده ونوع تفكيره .

كانت إجازة ابن هاني إلى عدوة للثرب في السنة السابعة والعشرين من حياته ، أي في سنة ٣٤٧ على تقدير من يقول إنه ولد سنة ٣٢٠ ، أو سنة ٣٥٤ على رأى من يجعل مولده سنة ٣٣٦ ، وعلى كلا الأسس نرى ابن هاني جوهراً صقل ، إما في جلته الحربية الأولى على للثرب الأقصى ، أو جلته الثانية إليه بقصد تعذيب أموره قبل أن يسير للثرب إلى مصر لفتحها ؛ وقد منح ابن هاني جوهراً لأول ثقافته به قصيدة لم يجره عليها القائد

الكثير إلا يبلغ زهيد من المال لم يرض الشاعر ؛ وسأل عن رجل بالقرب يكون أكرم منه ، فدل على جعفر بن علي بن حدون صاحب كورة الزوب بأفريقية ، فشد رحاله إليه ونزل عليه وعلى أخيه يحيى بن علي ، ومدحهما بنثر قصائده ، فكانت له على ذلك بالأموال السنية ؛ وعلا صيته ، وأدخل شعراء الغرب لصدده على الإطلاق . ثم غي خبره إلى الخليفة للمزدين الله القاطن ، فاستهداه من جعفر فبصره إليه مع تحف وهدايا كان أبو القاسم أحسنها في نظر الخليفة . وربما كان بدء اتصال ابن هاني بالمز حوالي سنة ٣٥٤ ، واضطلع ابن هاني من ذلك الوقت حتى وقته لمدح للمز وكبار رجال دولته ، وجعل يشيد بمجد الدولة القاطية ويهجو أعداءها . فلما أزمع للمز الانتقال إلى مصر سنة ٣٦١ بعد فتح جوهر لما خرج ابن هاني لتشيبه ، قالوا ثم استأذنه في العودة إلى الغرب ليأخذ عياله ويعلق به ، فأذن له في ذلك . وعاد ابن هاني ونجس ثم تبع الخليفة ، فلما كان ببرقة استضافه رجل من أهلها ، فزعل عليه في رفاق ؛ فيقال لهم عرسلوا عليه في مجلس أنس قتلوه ، وقيل في موته غير ذلك . وسها يكن من شيء قد كانت وقته في سنة ٣٦٢ بالثامن من الشهر اثنين وأربعين سنة أو ثمان وثلاثين سنة تبعاً لسنة ميلاده كما تقدم . وبأبي الدكتور زاهد على المندى الذي نشر ديوان ابن هاني من سنوات إلا أن يجعل لأموالي الأندلس يداً في موته ، مع أن كل الروايات الواردة في موته لا تشير إلى شيء من ذلك ، ويقضي الدكتور فياد سيرة الشاعر التي كانت السبب الأول في موته غير الطبيعي

ولقد أجمع قواد الشعر ورواته على أن ابن هاني أعظم شعراء الغرب على الإطلاق ، وأنه عديم نظير معاصره اللبني عند أهل للشرق . ولما بلغت وقته للمز أسف لذلك كثيراً ، وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن ينافس به شعراء للشرق ، فلم يقدر لنا ذلك .

ومع أن كل الشواهد تدل على أن ابن هاني كان مبكر الشاعرية ، ومن الشعراء للكثيرين ، وأن قريحته كانت وقادة ، وطبته سخياً بالشعر ، فإن ما وصل إلينا من شعره ليس بالشيء الكثير . فلم يصلنا إلا شعر السنوات التسع الأخيرة من حياته ، إذ أخذنا بقول من يحمل حياته سناً وثلاثين سنة فقط ، أو شعر الخمس عشرة سنة الأخيرة ، إذا قلنا

بالرأى الذى يجعلها التتوين وأربعين سنة . وعلى كلا الأمرين لم يصلنا شيء أثبت من شعره الذى قاله وهو فى الأندلس ، مع أن الأندلس وطنه الأول ، فيها ولد ، وفيها نشأ ، وفيها تعلم ، وفيها ترعرع ، وفيها ظهر ذكره . وبأشيلية استمتع بصحبة ملكها وعاملها بنى أمية ؟ فأين غراياته ، ووجدانياته ؟ وإخوانياته ؟ بل أين مدائحه فى صاحب أشيلية الذى رعاه مارعاه ثم هيا له سبيل الهجرة إلى الغرب ؟ لا شيء من ذلك أثبت . ويضرب الدكتور زاهد على الهندى ذلك النقص فى ديوان ابن هانى " تفسيراً عجيباً ، فيحمله على أن الشاعر لم يشتهر فى وطنه ، بل اشتهر فى الغرب ، وأن هذا حال أكثر الفضلاء . « لأن الرجل فى وطنه لا يكون معروفاً ، فإذا اقترب عرف نفسه ، وقد يما قالوا ليس لنبى كرامة فى وطنه » (مقدمة الديوان ص ٢٥) ولكن ابن هانى عرف بالأندلس خلا ، وقال الشعر فى ذلك الطور من حياته ؟ وأكبر الغن أن اصطحب نسخة أشعاره الأندلسية ، فأين ذهب ذلك ؟ ثم إنه لم يصلنا كل شعره الذى قاله بعد هجرته إلى الغرب . ونستشهد على ذلك بمحادث واحد : فى سنة ٣٦٠ خلع جعفر بن على وأخوه يحيى وعشيرتهما ثوب التشيع ونسكنا بيممة للرز ، وخرجنا من الغرب بعد أهوال ، ولحقا بالحكم للتقصر الأموى بالأندلس ، فاعتزت الأندلس لتقدمها وتقبلتها بأعظم القبول . فإذا عرفنا أن هذين الأميرين لما من الأيادى على ابن هانى ما لما فيه يقل أن يمر هذا الحادث دون أن يترك فى نفس ابن هانى أثراً يظهر فى شعره إن قليلاً وإن كثيراً ؟ ومع ذلك فليس فى ديوانه شيء من ذلك الحادث الخطير من الناحية العامة ، ومن ناحية ابن هانى خاصة ! إن السبب الصحيح فى ضياع الجانب الأندلسى من شعر ابن هانى ، والشعر الذى قاله فى حادث ابني على هو أن جامع ديوانه أراد ألا يثبت من شعر الشاعر إلا ما قاله فى الدولة الفاطمية فقط . وإذا فتحنا ديوان شعر شيعى لشاعر شيعى استجمل ألم فيها وصل إلينا من شعره بكثير من حوادث عصره وصورها فى شعره . فننظر إلى ما تناوله من تلك الحوادث ترى كيف ألم به ، وكيف صوروه .

٢- الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي^(٥)

نصور لقاري مصر الذي عاش فيه ابن هاني الأندلسي ، فنقول : وله شاعرنا نحو سنة ٣٢٠ هـ وتوفي سنة ٣٦٧ هـ ؛ فقد عاش إذاً في صميم القرن الرابع الهجري ، وهو عصر حافل بالأحداث الجسام التي وقعت في العالم الإسلامي ، كما كان عصر تبدل واضح في علاقة الشرق الإسلامي بالغرب الأوربي المسيحي . وحسبنا في هذا اللقاف أن نقول في وصف العالم الإسلامي لذلك العهد إنه كانت تنقسم ثلاث دول متقاطعة ، وتوزعه ثلاث خلافتات متنافسة إلى حد بعيد : أولاها الدولة العباسية بالشرق ، وكانت أحوالها قد صارت إلى الضمحلال وفساد لتلبة الترك والديلم على خلقائها واستبدادهم بالأمم دونهم ، مما أضعف السلطة المركزية ببغداد ، وأضعف هيئة الخلافة ، وذهب بروعتها ، وجبر إلى تجزؤ الدولة إلى دويلات عدة كان رأسها بينها شديداً . ثم الدولة الأموية بالأندلس ، وكانت سالماً إذ ذلك على النقيض من حال الدولة العباسية . كانت في عصرها الذهبي ، عصر عاهلها العباسيين : عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم للمعتمد ؛ وقد قامت فيها خلافة سنية اجتمعت لها النصر عند ما رأى ما آلت إليه الخلافة العباسية من الضمحلال والفساد . ثم الدولة الفاطمية التي قامت بأفريقية في آخريات القرن الثالث الهجري ، وسرعان ما عم نفوذها شمال أفريقيا كله تقريباً ، ووقع للهدام بينها وبين الدولة العباسية في مصر والشام والحجاز ، وبينها وبين الدولة الأموية الأندلسية في المغرب الأقصى .

وكلن القرن الرابع الهجري زمن تبدل في العلاقة بين الشرق الإسلامي والمغرب الأوربي المسيحي ، فيه نهت وقويت فكرة الحرب الصليبية في أوروبا عامة وعند أباطرة الروم خاصة . وكان السبب في ذلك ضعف الدولة العباسية ، حتى لقد أقدم الروم على غزو الشام ، وطعموا في استلاكها والزحف منها إلى نفس الحجاز . على أن عدوان الروم في الشرق على البلاد الإسلامية كان يصاحبه عدوان مثله في المغرب من القواطم على بقية ملك الروم في جزيرة صقلية .

عاش ابن هاني في ذلك العصر ، وانتمس في البيئة الفاطمية السياسية كل انتماس ،
وصور في شعره نواحي الحياة السياسية الفاطمية ، وعلاوة الدولة الميمنية بالمهاجرين والأمويين
والزرد ؛ وهو في أثناء ذلك كله يزرد البيت أو البيتين يضمهما شيئاً من تداليم الشيعة
الإسميلية لذلك العهد .

يصور ابن هاني للزرد الفاطمي خليفة مهيباً ، حكماً ، يضع الندى في موضعه ، وال سيف
في موضعه ، نافذ الأسر في أنظار الغرب .

ملك أناخ على الزمان بكل كل فأذل صمياً في القياد ججوحا
يغنى للناس والطايبا وادعاً نصبت له عزمانه وأريجها
قل للجبابرة للوك تغموا سلاً ، كفى الحرب العوان لقجوحا
بيوتكم رهج الجنود قواغلا بالأسس تحتل الدم المنفوحا

وهو يلقى ضوءاً على النظام الذي جرت عليه الدولة الفاطمية في عهدها الأفريقي ، وهو
النظام الإنطاقي الذي عم الشرق والغرب في المصور الوسطى ؛ وذلك واضح في قصائده
التي امتلح بها رجال الدولة الفاطمية ، فيقول في جفرين على صاحب الزلب :

سد الإمام بك للثور وقبيله هزّم للنبي بقومك الأحسرا
أتم ذوو التيجان من يمن إذا عد الشريف أرومة ونصا
إن تحتل منها للوك قصورك قللالا كانوا لها حجبا

ويقول في أخيه يحيى بن علي :

وسيد سادك إذا ما رأته حرفت بمانى القجار متوجا
تأثني في أرضاه وحجوه فلم ترعيني منظرأ كانت أبجبا
نما للغرب أقصى بظرة بأه فنادره رهوا وقد كان صرجا

ويقول في أبي العرج الشيباني ، ذا كراً بلام في التمكن للدولة الفاطمية شرفاً وقرباً :

تشرق للشرق أقصى الملك وما تمكت في الشرق من بأثرة هب
وكم تجلب في أوديس من يهد جلت بذكرك في الإسماع والجب

قد كنت تملؤه خيلاً مضرة يحملن كل عديد البأس والنصب
كن كيف شئت بأرض للشرقين تكن بها الشهاب الذى يلمح على الشهب
فانت من أطلع الأقطاع واسطع الحروف فيها ولم تغلم ولم تغب
ويقول فى نظام الجيش الذى دخل به جوهر مصر :

وقد رتبته فيه للرك مراتباً فمن بين متبوع وآخر يتبع
تسير على أقدارها فى عجاجة ويقدمها منه العزيز للمنع
فهذا وصف حال لم أحاب وأنساب ، وبأس وسطورة ، وليسوا مجرد حال إداريين
بالمعنى للألوف .

ويصف بحرية الدولة الفاطمية ، فيقول فى الأسطول وفى استعماله النار الإغريقية
فى حرب الروم خاصة :

لك البر والبحر العظيم عباة فبين أبحار تخاض ويد
أما والجوارى للنشأت التى سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد
تجارب كما ترجى القباب على الماء ولكن من ضمت عليه أسود
أطاع لما أن اللاتك خلفها كاهت خلف الصفوف ودود
وأن الرياح القاربات كتائب وأن النجوم الطالعات سمود
مواخر فى طائى القباب كأنها لعزمك بأس أولئكك جود
من القادحات النار تضرع لصل فليس لما يوم القضاء سمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج كاسب من نار الجحيم وقود
فأفواههم الحاميات صواعق وأغاسين الزافرات حديد
يشب لآل الجاثليق سفيرها وما هى من آل الطريد بيد
يعنى بآل الطريد بنى أمية الأندلسيين .

ويقول فى ضخامة الجيش الذى فتح به جوهر مصر :

- رأيت بجنى فوق ما كنت أسمع وقد راعى يوم من الحشر أروع
- غداة كان الأفق سد بمنه فادفروا الشمس من حيث تطلع

تسير الجبال الجبلات لسيرو . ونسجد من أدنى الخفيف وتركم

إذا حل في أرض بناها مدائننا وإن سار من أرض نوت وهي بلقم

ويجلولنا ابن هانيء ناحية هامة من تاريخ الغرب لعهده ، فيذكر لنا وجود للذهب
الطارجي في الغرب الأقصى وإفريقية في ذلك الزمن ، وأن الطوارج كانوا يملكون لحساب
الدولة الأموية ، ويبين جد الخليفة للزعماء في قتال هذا للذهب للتناقص للتشيع من جهة
وللتابع لدولة معادية من جهة أخرى ؛ فيقول في أخذ جعفر بن علي قلمة حمينة كانت
بأيدي الطوارج بإقليم الزاب .

حرورية ما كبر الله خالط عليها ولا حيا بها ملكاً وقد

وكانت شجلا للملك ستين حبة وما طيب وصل لم يكن قبله صد

وعادت بهم حرب الأزارق لاحقاً وإن لم يكن فيها للهاب والأزد

ويقول في حرب أبي الفرج الشيباني مع خوارج الغرب الأقصى :

كل السيوف الهوائى جردت كذب وهو المجرى السيف الحقيق

لم يجهلوا ما آلا في التشيع من تحريض شارية أو بأس شارئ

وما يذلل من أهل التناد لم وما يدلر من الدين الأبنسى

من يصطل حر نار أنت موقسدها وهي الحرور على الشعب الحرورى

هذا من حيث أحوال الدولة القاطنية الداخلية ، فأما من حيث علاقتها الخارجية ،

فالتأثير يبدى القول ويمسكه في بيان العداوة بين القواطم والأمويين وهو متأثر في ذلك

بموامل بعضها شخصى كما يؤخذ من قوله يصف فراره من بني أمية إلى إفريقية ؟

ولو علقته من أمية أجل لجب سنام من بني الشر تامل

ولما التفت أسبغها ورماعها شراعاً وقد سدت على للسلط

أجزت عليهم عابراً وتركها كلن للتألم تحت جنبى أرائك

وما قصوا إلا قديم تنجى قضى ليلىا شدة للتدارك

وبعضها عام راجع إلى ما كان بين الأمويين والفاطميين من العداوة فيقول :
 وأمية تحق السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحاً ؟
 يجتثوا فهم يتوهمونك بارزاً والتاج مؤتلف عليك لموحاً
 ليسوا مائينهم ورزء قبيحهم كاللايات على الحداد مسوحاً
 وقد يحمله فرط تنصبه لقوام على أن يصف الأمويين بالبين وعدم البصر بالحرب :
 وما عرفت كرم الجياد أمية ولا حلت بزلقنا وهو شاك
 ولا جردوا نصلاً تخاف شياه ولكن فولاذاً غداً وهو آتاك
 ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإمام الموارك

٣ - الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي (٥)

ومن العجب أن ادعاء ابن هاني "جين أموي الأندلس على بطلانه ، يكرره داعية
فاطمي آخر ، هو الرحلة أبو القاسم بن حوقل للفرج الماصر لابن هاني ؛ فيقول في كتابه
« سورة أقاليم الأرض » . « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هم في يده ،
مع سفر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبهضم من البأس والشجاعة والقروسة
والبساطة وقناء الرجال ، وسرأس الأبحاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحافل نفسها
ومقدار جباياتها ، ومواقع نسيها ولذاتها » . والشاعر والجنرافي كلاهما يرميان إلى غرض
واحد ، هو حمل اللعز على غزو الأندلس ؛ ولكن للمزكان أهد منها نظراً ، فلم يعرود
في حرب جديّة مع الأندلس ، بل صرف قوته إلى الشرق ، على ما هو معروف
ولست حلة الشاعر على الأمويين بأقل من حملته على الباسيين ؛ وهو متأثر في ذلك
بالفكرة السياسية الشيعة القائلة بأن الخلافة حق لأبناء علي بن أبي طالب دون غيرهم
فيقول مخاطباً بني الباس :

أبناء تالة مالكم ولعشر هم دوحه الله التي يختار ؟
ردوا إليهم حقهم وتذكروا وتحملوا قسداً استهم بوار
وليهمو زمر الثاني كلما أناكم للتقى والزمار

ويرض باستخراة الخلفاء الباسيين وغلبة الأمام عليهم .

قد شمت بعض الخطبي من جفونها وكانت يتي تائف سوى الملام تلام
وقد غضبت الذين باسط كفه اليهم في الأفاق كالتللم
والغرب العرياء قات خسروها والسياسة السياء في الزمن السى

ولذلك في بغداد أن رد حكمه إلى عصف في غير كف ومعم
إلى شوميت في ثياب خليفة وبضع لحام في إهاب مور
فإن يكن البسد للثمن نجاره فما هو من أهل العراق بالأم
سوام رناع بين جبل وحيرة وملك مضاع بين ترك ودلم
ولما غلب عامل الروم قنود فوقليس الثاني على الثغور الإسلامية ، وأوغل في الجزيرة
ونازل أنطاكية ، واستولى أسطوله على قبرس ، وعجز سيف الدولة الحمداني عن مدافسته
لاشتغاله بحرب الطامعين في ملكه من جهة مصر والعراق ، كان لذلك أثر هيك في نفوس
السلبيين عامة ، لم يحثف منه إلا خنط جيوش المنز الفاطمي على قوى الروم بصقلية . وفي
سنة ٣٥١ استولت تلك الجيوش على قلعة طبرمين من أيدي الروم ورمطة في سنة ٣٥٣ ؛
وفي عام ٣٥٥ عقد صلح بين اللزوين والأمراء قنود فوقليس ، وقد تجاوزت أقطار العالم
الإسلامي بأصداء هذه المزامم وتلك الانتصارات ؛ وقد سجل ابن عاتق في شعره تلك
الأصداء ، فيقول في وصف إلحاح الروم على مدن الشام ، وعجز للشارقة عن مدافعتهم :

ما رأيت الدين قل نصيره	بالمشرقين وقل حتى حرقا ؟
هم صيروا خدما نوس أمورهم	يا لزمان السوء كيف تصرفا !
عبدان عبدان وتبع تبع	فالقاضل للفضول والوجه القضا
يا ويلكم أنالكم من صارخ	إلا بشر ضاع أو دين عفا ؟
فدبتة من بعد أخرى تنتهي	وطريقة في إثر أخرى تفتني
حتى لقد رجفت ديار ربيعة	وتزلزلت أرض العراق تخوفا
فالتام قد أودى وأودى أهله	إلا قليلا والحجاز على شفا
أيسر قوما أن مكة غودرت	بمجر جيش الروم قاعا صنعفا ؟
أو أن ملحود النبي ورثه	بمدارج الأقدام ينف صنعفا ؟
تقرصوا بالله متجز وعده	قد آن للظلاء أن يحككصفا
هذا للز ابن النبي للصطفى	سيذب عن حرم النبي للصطفى

ويقول في مدح للزروق الفتح الذي تم له حل الروم ، ويصف كيف تلقى للزروا
ذلك الفتح :

يوم عريض في الصغار طويل ما تنفضى غرد له وحجبول
مسحت نضور الشام أدمعها به وقد تبل القرب ومي هول
وجلا ظلام الدين والدنيا به ملك لما قال للكرام فحول
فـه عينا من رأى إخبائه لما أتاه يريد بها الأجنيل
وسجوده حق التقي عثر الذي وجينسه والنظم والأكيل
لو أبصرتك الروم يومئذ درت أن الإله بما نشاء كليل
أنت الذي ترث البلاد لهمهم فالأرض قال والسجود دليل

* * *

وقد يكون أهم من كل ما تقدم ، تلك الناحية من شعر ابن هاني التي تصف عقائد
الشميع الإسماعيلي في العهد الأفريق من حياة الدولة الفاطمية^(١) . وابن هاني شديد الحية
الشميع ، فهو عنده للذهب الحق ، فيقول في مدح أبي الفرج الشيباني :

دسكن لسرك من أركان دولتهم وعمرة من عرى الدين الحنفي
كل السيوف الواني جردت كذب وهو المجرد كيف الحنفي
وعنده أن الأدب الحق والخلق الحق هو الأدب الشيعي والخلق الشيعي :

فـه من علوى رأى منقـب إلى العلى وأتلى الأصل مرئ
شيعي أملاك بكران هو انتسبوا ولست تلقى أدبيا غير شيعي
ويعرض ابن هاني لنظرية الإمامة عند الإسماعيلية . فيقول بضرورةها :

إذا كان أمن يشل الأرض كلها فلا بد فيها من دليل مقدم
إذا كان تحريق الفئات لمة فلا بد فيها من وسيط مقرب
وآية هذا أنت دما لله أرضه ولكها لم ترس من غير علم

(١) راجع مقدمة الدكتور زاهد على ديوان ابن هاني ص ٥٢ - ٥٨ .

وإمامة الإمام لا تثبت بالاجتهاد ، ولكن بالنص عن قبله :

وما ذاك أخذاً بالقراءة وحدها ولا أنه فيها من الظن مضطرب
ولكن موجوداً من الأثر الذي تلقاه عن حبر ضنين به حبر
والإمام مظهر نور الله :

وما كنه هذا النور نور جبينه . ولكن نور الله فيه مشارك
والإمام موئل علم التأويل ، وهو العلم الذي تعرف به معاني القرآن الحقيقية :
قد كاد ينذر بالوعيد لطول ما أحصى إليك ويعلم التأويلا
وعلم التأويل مقصور على الإمام مكتوم عن العامة :
إذا كانت الأبواب يقصر شأوها فظلم لسر الله إن لم يكن
والإمام معصوم من الخطأ :

من كان سياً القديس فوق جبينه فأنا الضمين بأنه لا يجهل
وابن هاني يسير في رأى الدكتور زاهد بل عن معنى التوحيد عند الإجمالية بقوله
عظاماً الخليفة للزم :

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأت الواحد النهار
يقول الدكتور إن الإجمالية تنزه الخلق عن الصفات مطلقاً ، وتوصاهل المبدع الأول
وهو الأمر والكلمة . ولما كان الإمام قائماً مقام الأمر والكلمة في هذا العالم ، فجميع
صفات البارئ واقعة عليه ، فلا يجب أن أطلق الشاعر « الواحد النهار » على المزم . ولكن
يظهر أن قول الشاعر : « ما شئت لا ما شئت الأقدار » يصف هذا التفسير ، لذلك عاد
الدكتور فقب على تفسيره لذلك يقول إن الشراء كثيراً ما يبالغون فيها يقولون ...
وقد قيل : « أحسن الشعر أكذبه » فليكن إذا هذا القول الأخير هو وحده الذي يستند
به عن إسراف الشاعر وقوله .

تبيين من كل ما تقدم أن ابن هانيء عرض في شره لأهم حوادث العالم الإسلامي في عصره : صور النظم الأساسية للدولة الفاطمية ، وبيت من الوجهة الشيعة علاقة هذه الدولة بالدول المعاصرة لها ، ثم ألم بطائفة هامة من عقائد الشيعة الإسميلية . وكأني به ، يقول : إن البر العظيم في قوة الدولة الفاطمية وسرعة تكوينها ، إنما هو في سياستها الحكيمة التي جرت عليها : سياسة العدل والإحسان والنظام في الداخل ، والانتصار لقضية الإسلام العامة بإزاء أعدائه في الخارج ، وإن قواطم إفريقيا كانوا يثأثون ولم يكونوا هدامين كالقرامطة والحشوية والملاحدة الذين يقضون إلى للذهب الإسميلي . وليت شرى هل يستطيع أكثر المؤرخين تصفاً لفهم الحوادث ، أن يصل إلى أعمق وأصدق مما وصل

بنو فراس بن غنم

يروى أنه لما توارت الأخبار على الإمام علي بن أبي طالب باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد بندقمة صفين ، قام على اللبر ضجراً يتناقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي ، فخطب الناس خطبة قوية جاءت فيها هذه العبارة : « أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم » وهذا العدد الذي عمته الإمام علي قليل جداً بالنسبة إلى جيشه الذي بلغ في وقعة صفين خمسين ألف مقاتل على أقل تقدير . فمن بنو فراس هؤلاء الذين يعدل الرجل الواحد منهم خمسين رجلاً من أصحاب الإمام ؟

قال ابن أبي الحديد في شرحه على كتاب « نهج البلاغة » . « قال القطب الراوندي : بنو فراس بن غنم هم الروم » . ويحتمل أن أبي الحديد يحق هذا التفسير ويقول : الصحيح أنهم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حى مشهور بالشجاعة ، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطمان ، ومنهم ربيعة بن مكدّم حامى الظن حياً وميتاً ، ولم يحم الحرم وهو ميت أحد غيره . عرض له فرسان من بني سليم ومعه ظمان من أهله يحميهم وحده ، فطاعهم ، فرماه أحدهم بسهم أصاب قلبه ، فنصب رمحه في الأرض واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل ، وأشار إلى الظمان بالرواح ، فصرن حتى بلغت بيوت الحى ، وبنو سليم قيام إزاده لا يقدمون عليه ويظنون حياً ، حتى قال قاتل منهم إنى لا أراه إلا ميتاً ولو كان حياً لصحرك ؛ إنه والله لمائل راتب على هيئة واحدة لا يرفع يده ولا يحرك رأسه ، فلم يقدم أحد على الدنومه حتى رموا فرسه بسهم فشب من تحته ، فوقع وهو ميت وفاتهم الظمان .

ومما يعزى لجبرى للوازنة بين بني فراس وأشباههم ، ما يروى من أن للنصور بن

عاصم الأندلس كان في غزاة له فوقف على نثر من الأرض فرأى جيوشه قد ملأت
السهل والجبل ، فأعجب ذلك ، وانضت إلى مقدم المسكر ، ويرى ابن المصحف ،
وجرى بينهما هذا الحوار :

للمصور — لا يسعنا أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبأس ؟
ابن المصحف — بطرق ساكناً .

للمصور — وما سكوتك ؟ أليس في هذه الجيوش ألف مقاتل ؟

ابن المصحف — لا !

للمصور (متعجباً) — أليس فيهم خمسمائة رجل من الأبطال المدودين ؟

المصحف — لا !

للمصور (مضطرباً) — أفهم مائة رجل من الأبطال ؟

ابن المصحف — لا !

للمصور — أفهم خمسون من الأبطال ؟

ابن المصحف — لا !

عند ذلك استشاط للمصور غضباً وأمر بتقدم المسكر فأخرج على أفيح صفة .

فلما توسطوا بلاد المدود وتضاف الجمعان ، برز عليج من صفوف الأعداء شاك في سلاحه

يكر ويغر وهو ينادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتعابولا ساعة قتله

العليج . فصاح المشركون وذل للسلون ، وكادت تكون كسرة . فقبل للمصور ، ما لما فبر

ابن المصحف ! فبعت إليه ، فحضر . قال له للمصور : ألا ترى ما يصنع هذا العليج الكلب

منذ اليوم ؟ قال : جئني جميع ما جرى ! قال فما الحيلة فيه ؟ قال وما الذي تريد ؟ قال أن

تكني المسلمين شره ، قل : نعم ، الآن !

ثم قصد ابن المصحف إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل التنور على فرس قد

نشرت أورا كما هزلا ، وهو يحمل قرية ماء بين يديه على الفرس . فقال له ابن المصحف :

ألا ترى ما يصنع هذا العليج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيته ! فإذا ترى فيه ؟ قال : أريد

وأه الآن ! قال نعم !

فعل الرجل القوية إلى رحله ، وليس لأمة حربه ، وبمذا إليه ، فنجاولا ساعة ، فلم
ير الناس إلا للسلم خارجا يركض ولا يدرون ما هناك ، وإذا الرجل يحمل رأس البليج ،
خالفني الرأس بين يدي المنصور .

عند ذلك قال ابن المصحفي للمنصور : أخبرتك أنه ليس في عسكرك من مثله ألف ،
ولا خمسمائة ، ولا خمسون ، ولا عشرون ، ولا عشرة . فرد المنصور إلى منزله وأكرمه .



وبعد ، فيقال إن عدة المسلمين في جميع أنحاء العالم تبلغ اليوم زهاء ثلثمائة مليون من
الأنفس . ترى كم فيهم من يشبه بني فراس ، ويشبه هذا القارس الأندلسي للنوار ؟
لسنا نجيب عن هذا السؤال الدقيق . ولكننا ، ونحن في مستهل عام هجري جديد ، نتهل
إلى الملوك عز وجل أن يكثر فيهم أمثالهم ، أو أن يحلهم جميعاً على شاكلة بني فراس ،
وما ذلك عليه سبحانه بعزيز .

قرطبة الإسلامية

تقع بين الجبل للنسوب إليها وهو جبل قرطبة من ناحية الشمال ، وبين الوادي الكبير من ناحية الجنوب . وتحتل بقعة خصبة غنية بالرمش والكروم وشجر الزيتون وغير ذلك مما محمود في هذه المنطقة من الزروع والثمار .

وهي مدينة عادية قديمة ، لا تدرى أوليتها على التحقيق ، غير أنها ورد ذكرها في الحرب البوية الثانية . وأنه اسمها على عهد الروم والبيزنطيين ، ثم استعمل شأنها زمن الفوط الذين اتخذوا طليطلة قاعدة للكفر .

فقدما عنوة منيف البروي ، أحد رجال طارق بن زياد ، وذلك بقب وقعة البعيرة التي كانت في سنة ٩٢ هـ . واتخذها الخواري العربي السبع بن مالك الخولاني قاعدة لأعماله الأندلس وانتقل إليها من إشبيلية سنة ١٠٠ هـ وما يدل على سوء حال المدينة عند فتح العرب لما ما كتب به السبع إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشيره ويطلبه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يمر عليه نهرها ، ووضعه بحمل وامتناعه من الطواغيت في الشتاء غامرة ، فإن رأى أمير المؤمنين ببيان سوء المدينة فطحت ، فإن قبل فحرة على ذلك من خراجها بعد حطائها الجند وثقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فثبت جسرهم . فيقال إن عمر أمر ببيان القنطرة بصخر السور ، وأن بين السور والين ، إذ لا يجد له صخرأ ، فوضع يداً بين القنطرة في سنة إحدى ومائة (أخبار حميرة ص ٢٤) .

هكذا أجند العهد العربي الإسلامي من حيلة قرطبة وهو أرمي محورها على الإطلاق . بقيت فيه قرطبة من الفخر والأزدهار ما عني على تاريخها القديم والحديث ، فقد جماع أمراء العرب وملوك بني أمية وخلقهم على عمارتها وتوسعتها وتجميلها ، حتى أصبحت في القرن الرابع الهجري أحسن مدن الغرب الإسلامي طابعا ، ومن أهمها اليوم اسم الإسلامية ، وكانت تحتل في اتساعها أحد جانبي بغداد .

أخذها السج بن مالك كاقدمنا قلعة وبني جسر هاروم سورها ، وابتنى عبد الرحمن الداخل قصرها ومسجدها الجامع ، كما ابتنى في شمالها قصر الرصافة ليزنه خاصة وزاد عبد الرحمن الأوسط في مسجدها الجامع ، وجبر إلى قرطبة للاء الذب من الجبل الشمالى في أنابيب الرصاص ، وزاد عبد الرحمن الناصر في المسجد وابتنى الزهراء غربى قرطبة ، وزاد الحكم المستنصر في المسجد الجامع وجهه ونحته ، وأنتم بناء الزهراء ؛ فلما كان زمن للتصور بن أبى حامر زاد في مساحة للمسجد الجامع وبني الزاهرة والناصرية شرقى قرطبة ، كما عقد جسراً آخر على الروادى الكبير . وبذلك بلغت قرطبة في القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى غاية اتساعها وعرها . ويفصل للقرى في كتابه « فتح الطيب » الكلام على هذا السران وذلك الاتساع فيقول « أصبحت دور قرطبة التى بها وأرباضها ، أيام ابن أبى حامر فكانت مائتى ألف وسبعين داراً . وهذه دور الرعية . وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأعيان وخاصة للملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار سوى مزارى (أى غرف) الكراء ، والحمامات ، والحدائق وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون حانوتاً » . ويقط للقرى كذلك « إن عدة مساجد قرطبة عند تطلعها في مدة ابن أبى حامر ألف وستائة مسجد ، والحمامات تسعة حمام » ويقول « إنها تحيط بها البساتين ، والزيتون ، والقرى ، والحصون واليهاء ، والعيون ، من كل جانب ، وبها الحورث العظيم الذى ليس له فى بلاد^(١) الأندلس نظير ، ولا أعظم منه بركة » .

أما الشريف الإدريسى الذى تنف فى قرطبة فى أوائل القرن السادس ، فيقول فى كتابه « ترمه المشتاق فى اختراق الآفاق » « دعى فى ذاتها مدنى خمس بطوبى بعضها بفساً ، بين المدينة والمدينة سور خارج ، وفى كل مدينة ما يكفها من الأسواق والحدائق والحمامات وسائر الصناعات . . . ومدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمسجد المسلمين مثله بنية وتديقاً وطولاً وعرشاً » . ويستفاد من كلام الشريف الإدريسى أن مركز قرطبة « مدينتها الوسطى » هى ما يعرف « بالقصبة » أو « المدينة » وهى التى فيها المسجد الجامع وقصر الأمانة ، ثم امتدت غرباً فبنى الناصر مدينة الزهراء ،

(١) هو محرت السبائية للتد جنوبى قرطبة على الضفة اليسرى للروادى الكبير .

وانصلت الهامة بينها وبين « المدينة » فتشأ ما يعرف بالجانب الغربي ، كما امتدت من ناحية الشرق فبنى ابن عاصر مدينة الزاهرة وانصلت الهامة بين المدينة للتوسعة وبنها وتشأ ما عرف بالجانب للشرق ، فهذه هي المدن الخمس التي كانت تتألف منها قرطبة الإسلامية ، والتي يشير إليها الإدريسي في عبارته المتقدمة .



أقد جمع الشاعر ما لم تزل به قرطبة الإسلامية من المعالم في قوله :
 بأريج فاقت الأمصار قرطبة ومن قنطرة الوادي وجامعا
 هاتان ثنات والزهرات ثالثة . واللم أعظم شيء وهو راسها
 ولم يد هذا الشاعر الحقيقة التاريخية في سرد معالم قرطبة على النحو المذكور فلتنبع هذا الترتيب في الكلام على هذه المعالم .

١ - أما القنطرة قديمة ، بناها الروم على نهر الوادي الكبير ، ثم تهدمت قبيل الفتح العربي للأندلس ، فبناها السج بن مالك كما تقدم القول . ثم تهدمت أجزاء منها بعد ذلك . فرمها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وأغلق في ذلك أموالا عظيمة ، وأشرف على بنائها بنفسه ، وقد شاهدها الشريف الإدريسي في القرن السادس المجري ووصفها في كتابه بالضخامة والمثانة . وبأن أنوارها سبع عشرة وبأن تحتها في قاع النهر أرحاء يدبرها انصباب ماء النهر ، ولا تزال هذه القنطرة قائمة إلى اليوم على الميثة التي وصفها الإدريسي ، وكانت تلك القنطرة واسطة الاتصال بين قرطبة والأرباض الجنوبية ومن ثم غاية ولاية الأمور الأمورين بأسرها .

أما المسجد الجامع فهو أعظم معالم قرطبة وأشهرها « وليس له مثل في مساجد المسلمين بنية وتنسيقاً وطولاً وعرضاً » كما يقول الإدريسي . وكان قبل الفتح العربي للأندلس كنيسة يقال لها كنيسة القديس قسنت . ويحكى مؤرخو العرب في تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد نس القصة التي يحكونها في تحويل كنيسة القديس يوحنا إلى الجامع الأيوبي المشهور بدمشق . فيقولون إن القاهنمين استولوا أول الأمر على نصف الكنيسة وحولوه إلى مسجد جامع لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل ورأى ضيق المسجدين بالمصلين ساءم نصارى قرطبة في النصف الآخر الذي بأيديهم ، واشتره منهم بشئ ارتضوه ، ووفق ذلك أجاز لهم إعادة

الكنائس الأخرى التي هُدمت وقت الفتح . ثم بنى عبد الرحمن الداخل للمسجد من جديد
 لمن أحاس الفتناء ، وذلك سنة ١٧٠ هـ . ولقد تبايع ملوك بني أمية وخلفائهم على المسجد بالزيادة
 في مساحته ، وتشييده وزخرفته فزاد فيه عبد الرحمن الأوسط زيادة كبيرة من الناحية القبليّة
 للواجهة لاهر ، وبنى الأيوبر محمد مقصورته ، وهد الأمير عبد الله بن القصور وبينه سابهاكا
 مسقوفة يمر منه من القصر إلى المسجد . وأبقى الناصر للثنية ذات الدرجين للمروقة
 بالصومعة وبالمئارة . على أن أبدع أجزاء المسجد وأروعها الزيادة التي زادها الخليفة الحكم
 المستنصر في المسجد من الجهة القبليّة ، لاسيما الحراب والمذبح والمقصورة ، وقد استعان الحكم
 في زخرفة هذا الجزء بصانع يوناني فاسر في الزخرفة بالقنصفاء ، أرسله إليه الأمير بطور
 البيزنطي فقفور فوفس مع مقادير ضخمة من القنصفاء ، وكان ذلك بطلب من الحكم
 نفسه أسوة بما صنعه جده الوليد بن عبد الملك عندما أراد تجديد الجامع الأموي بدمشق .
 فلما كان زمن المنصور بن أبي عامر ، ورأى ضيق المسجد بالمصلين لتوافد البربر من المغرب
 زاد في المسجد من الجهة الشرقية زيادة بلغت ثلث مساحة المسجد كله ، وبذلك كل
 للمسجد وأصبح أكبر وألم مساجد العالم الإسلامي ، وكان طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً
 وكان ثلث مساحته محصنة مكتشوفة ، وبقيّة المسجد مسقوفة ويشتمل على أكثر من ألف سارية
 تجعل للمسجد أشبه ببقعة من النخيل . وقد أورد ابن خلدون في تاريخه تفاصيل طريفة
 عن الزيادة التي زادها ابن أبي عامر كما أورد إحصاء لما كان للمسجد يشتمل عليه من عدد
 السواري والأبرياء والمصاييح ، وما كان مرتباً له من مقادير الزيت والشع والبخور ،
 وعدد أئمة ، ومقرنيه ، ومؤذنيه ، وسدته ، وخداه ، وهو شيء كثير (ج ٢ ص ٣٠٨)
 ومع أن المسجد قد حول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسيان على قرطبة ، فإنه برغم ذلك
 وبرغم التقدم ، لا يزال حافظاً لروحه وجلاله القديمين .

والسلام على « الزعماء » يقتضى أولاً التعريف بغير الإمامة بقرطبة .

فقد كان خكام قرطبة من القوط يتركون قسراً يقع طريق كنيسة القديس قنسنت ، ولما
 حازت قرطبة قاعدة إمارة الأندلس تحب الفصح العربي ، لمغذ أسلاف العرب هذا القصر

بمقر ألم ، فلما جاء عيد الرحمن الداخل جند ببناءه في سنة ١٦٨ وانتقل إليه من قصر
إبرصافة ، وأصبح القصر من ذلك الحين مقراً للأسراء بنى أمية يذرون منه شئون الإبدلي
كلها ، كما كان جانب منه مدفناً لمن يتوفى منهم . وقد تأتى الأمويون في بناء مجالس هذا
القصر وتسيق سبانيه ومن هذه المجالس فيما يروى للزورخون « الدكامل » ، والروضة ،
والبديع ، والمشوق ، والتاج . . . الخ . وكان يحيط بكل القصر سور مانع فيه أبواب كبار
منها باب الجامع الذي كان مقابلاً للمسجد الجامع .

فلما كان زمن عيد الرحمن الناصر ورأى أن القصر أصبح واهلاً في مدينة يشكك
سكانها وتزايد مساحتها أحب أن ينتحى لنفسه وحرمة ودراوته وخدمه وحشمه وحرمة ،
مكاناً خارج قرطبة يخطط فيه مدينة خاصة على نحو ما صنع النصور النباني عند ما اختط
للمدينة للدورة ببنداد ، فشرع في سنة ٣٢٥ هـ في بناء مدينة الزمراء ، وقد سماها باسم جارية
كانت حظية له به وقضى صورتها على بابها فيما يروى ، ثم انتقل الناصر إلى مدينته الجديدة
في سنة ٣٤٧ هـ وقد توفى الناصر ولم يكن قد تم بناؤها . فأتمها من بعده ابنه الحكيم للمسنهر
(٣٥٠ - ٣٦٦) فكان بناؤها استغرق نحو أربعين عاماً .

وتقع مدينة الزمراء غربى قرطبة بخمسة كيلومترات في منحدر من الأرض بين جبل
الروس من جهة الشمال والوادي الكبير من جهة الجنوب وكانت على شكل مستطيل عظيم
بطوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متراً ، وقد أقام للزورخون ، لاسيما القرى ، في وصف
مدينة الزمراء وما اشتملت عليه من قصور وروضات وبساتين ، وما كانت تضم من حرم
وخدم وحشم وحرس ، وما أخذ عليها من أموال جسام آثاراً انفلقا اعتراض المتراضين ونقد
الناقدين من علماء قرطبة . ووصفها الشريف الإدريسي ، وقد دأب إليها الخراب فقال
« وحى في ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح التلث الأعلى
يرازى على الجزء الأوسط ، و سطح التلث الأوسط يرازى على التلث الأسفل ، وكل تلث
منها سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط
بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الدار والجامع » ثم يقول « وهى الآن خراب
وفى حال التعلب » .

ويرجع انحلال الزمراء ثم خرابها إلى تشييد إلى هجرة الإدريسي إلى أحرش ،

(١) اتخذ المنصور بن أبي تامر، عند ما استبد بأمر الأندلس، مدينة اخطها شرق قرطبة في بعض ممتلكات الوادي الكبير وجعلها « الزاهرة » فكان ذلك مما أدخل « الزهراء » وأدى إلى اضمحلال أسرها ، (٢) ثم الفتن الكبيرة التي كانت قرطبة مسرحها من مطلع القرن الخامس والتي أطاحت بالدولة الأموية وأدت إلى تخريب الزاهرة والزهراء وضمحلل قرطبة والأندلس بوجه عام .

وقد دلت أعمال الحفر والتنقيب التي أجراها علماء الآثار الإسبان في مطلع القرن الحالي في موقع الزهراء ، على أن ما ذكره مؤرخو العرب عن فخامة الزهراء وروعة بنائها لم يكن مبالغاً فيه .



قد بلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عهدها ، أي في القرن الرابع الهجري ، نحو نصف مليون نسمة على تقدير المسشرق الكبير دوزي وكانوا يتألفون من عناصر شتى من العرب والمولدين والبربر والصقالبة ، وظهر في أيام الفتن التي وقعت في أواخر الدولة الأموية عنصر السودان ، وكان إلى جانب هؤلاء جميعاً جاليان من النصارى واليهود لها شأن في الحياة الاقتصادية والعامة بقرطبة . ولم تكن هذه العناصر مؤتلفة بل كانت مختلفة الأهواء . وأظهر بها كان هذا الاختلاف في الفتن والاضطرابات السياسية . ثم إن أهل قرطبة على وجه العموم كانوا طبعين عامة وخاصة . أما العامة فكانوا السواد الأعظم من السكان وكانوا يتألفون غالباً من أرباب الحرف والصناعات . وكان فيهم نزوع عجيب إلى الشعب ، وسيل شديد إلى الفتنة وبتقل القرى عن ابن سبيد قوله فيهم « إلا أن عانتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدّ تشنيجاً ، ويضرب بهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاء ، وقة الرضا بأمورهم ، حتى أن السيد أبي يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما اضطلعت على ولايتها ، كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال مثل الجمل : إن خفت عنه الجمل صائح ، وإن أضلته به ضاح ، ما ندرى أين رضام فتقصده ، ولا أين سخطهم فتجنبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عانتها شراً من عامة العراق ١١١ » .

وعلى العكس من العامة كانت الطبقة الأرستقراطية من أهل قرطبة ، وكانت تتألف من أعيان الدولة ورجال القصر من عرب وبربر وصقالبة ، يستكنون بيوتات بديعة

تخطيطها المحدثين والبياتين إما في أطراف المدينة أو في أرباضها ، كما عانف من كبار التجار
ذوى الثراء الراسخ والتجبر العريض ، ومن العلماء والعقلاء والأدباء ومن لم ميل إلى الحكم
والعارف ، ويصف الزورخون هذه الطبقة بأجل الصفات ويمتدحهم بأحسن التمدح ،
يوم المنيون بقول الإدرسي « فضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم
أظهر من أن تسر ، وإلهم الانتهاء في السناء والثناء ، بل هم أعلام البلاد ، وأمان البلاد ،
ذكروا بصحة للذهب ، وطيب للكسب ، وحسن لزي في اللابس وللراكب ، وعلم للممة
في المجالس ، والراتب ، وجبل المتخصص في الطعام والشارب ، مع جيل الخلاق ،
وحيد الطرائق »

لا شك أن قرطبة الإسلامية كانت مجالا لحياة عامة قوية نشطة كالتي نجدناها في بغداد
والقاهرة والسفطينية في العصر الوسيط ، ففي مجال التجارة كانت أسواقها حافلة بشق
الروض الصادرة والوارد ، يقوم على تصريفها طائفة من التجار اللياسير الذين لم اتصال
تجارى وثيق بالمالك للطيفة والبحر الأبيض المتوسط . وفي مجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية
كانت قرطبة كثيرًا ما تتبادل السفارات والوفادات مع أكبر الممالك الأوربية ، لاسيا
السفطينية ورومية وجرمانيا ، فضلا عن الممالك الإسبانية المسيحية الشمالية . وكثيرًا
لما كان قدوم وفود هذه الممالك فرصة طيبة لأن تقدم لهم حفلات استقبال فخمة في قصر
قرطبة أو في مدينة الزهراء . وقد ألم القري بوصف بعض هذه الحفلات في غير من التفصيل .
كما أنه قلما كان يمر عام دون أن تشهد قرطبة عرض الجيوش الأندلسية عند تحركها
لغزو ، أو عند عودها منتصرة منصوره .

ومن حيث مظهر الحياة الدينية كان لأهل قرطبة في مستطدم الأعظم منافر فخمة
متنوعة طوال العام ، ففي كل يوم جمعة كان الأمير أو الخليفة في الثياب يودى فيه فرجة
الجمعة ، ويؤديها معه عدا رجال الهدوة وأمان الناس ، ثلاثة آلاف من لابس القلائس ،
وكان هؤلاء المنسجون هم الذين لم حق الثريا في الأحكام والشرائع في الثرى التي تقع خارج
قرطبة ، كل في فرجة . فكانوا يأتون يوم الجمعة إلى قرطبة لمصلاة مع الخليفة ، والتسليم
عليه ، ومطالعته بأحوال بلدهم . ولكن المسجد كان أجمل ما يكون ، وأجمل ما يكون ،

في ليالى شهر رمضان والميلاد ، إذ يفتح بمصاحبه وعماره ، ويقره فيض من متاثراته ،
وشعره ، ومصاحبه ، وتصطر أروهاؤه بشذا ما كان يطلق فيه من البخور والطيب .

يبد أن ناحية هامة من هذه الحيوية السجية ، وذلك النشاط البلم ، تلحظ في بيئة
العلماء ، والفلاسفة ، والأدباء ، بيئة العلم الذي هو أعظم شيء . وهو رابع معالم قرطبة كارتها
الشاعر في بيتيه للذكورين في مطلع هذا المقال : قد استحال المسجد الجامع جامعة تزخر
بطلاب الدين وقضا إليها للأخذ من أئمة الفقه والبيان والفلسفة والأدب . وازدانت قرطبة
بغنى من الطراز الأول من العلماء والفكرين خلاها التاريخ في صحافته ، أمثال ابن عبدربه
وأي على القالي ، وابن زبون ، وابن عزم ، وابن رشد ، وابن ميمون ، وكانت الراهبة
الشاعرة الكسونية « ميوزفيتا » شديدة الإعجاب بقرطبة ، وكانت تسميها « جرمرة
الدنيا » كما ذكر العلامة فوزي .

وكان لأهل قرطبة ولم شديد بالكتب وغرام باقتناء النادر منها حتى عدت قرطبة
أكثر بلدان الأندلس كتباً وحتى كانت الكتب من أروج متاجرها . ولقد سن لم هذه
السعة الحيدة ملوك بني أمية وخلقها لاسيا الحكم المستنصر الذي جمع في مكتبته الآلاف
للؤلؤة من الكتب المصنفة في مختلف العلوم والفنون والآداب . وينقل القرى في كتابه ضيع
الطيب « أنه جرت منافرة بين يدي يعقوب للنصور للوحدي ، وكانت بين الفقيه
أبي الوليد بن رشد والوزير أبي بكر بن زهر ، وكان الأول قرطياً والثاني إشبيلية ، فقال ابن
رشد لابن زهر في تفصيل قرطبة ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية ، فأريد
يجمع كعبه ، حملت إلى قرطبة حتى تراب فيها . وإن مات مطرب بقرطبة ، فأريد بيع آلامه
حملت إلى إشبيلية » . ونقل الراكشي عن ابن فياض أنه « كان بالربض الشرقي من قرطبة
مائة وسبعون امرأة كلهن يكنين للصاحف بالخط الكوفي ، هذا ما في ناحية من نواحيها
فككيف يجمع جثتها » .

ظلت قرطبة عاصمة الأندلس وأم مدائن المغرب الإسلامي ثلاثمائة سنة (١٠٠٠ - ١٤٠٠ هـ)

ثم قصدت زعامتها السياسية بزوال الدولة الأموية في سنة ٤٢٢ هـ . وتتابعت عليها الفتن والحن السياسية في آخريات العهد الأموي وزمن الطوائف والمرابطين والوحدين وإن ظلت متناكسة محتفظة بمكانتها الأدبية ، وإلى تلك الحال يشير الإدريسي بقوله « ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طعنتها رحن الفتنة ، وفهدا حلول للمائب والأحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن إلا الملقب باليسير » .

كان ذلك إيذاناً بالنهاية ، ففي ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ استولى عليها الأسبان وبذلك طرئت صحيفتها من حيث هي مدينة إسلامية جليلة القدر اضطعلت بالزمامة السياسية للغرب الإسلامي أتم اضطلاع ، وأدت رسالتها الثقافية للمشرق والغرب حملة أحسن الأداء .

لفتة نحو الأندلس^(١)

هناك في القسم الجنوبي من إسبانيا ثلاث مدن عظام من « قرطبة » ، « إشبيلية » ، و « غرناطة » . فإذا ما خرجت على جبل طارق سفينة رائعة أو غادية ، وكان يقبها بعد يومين أو ثلاثة سفينة أخرى تتصد قصدها ، فكثيراً ما يتم للتشوقون للطلعون من أهل السفينة الأولى فرصة ما بين اللطائف فيزورون « الثالث » ، وما لثلاث هنا إلا خطوط موهومة ثلاثة تصل بين اللذان الثلاث .

ولقد أسدنى الحظ فزرت ذلك للثلاث منذ عام وبعض عام زؤارة باحث ومتصيد ، لا زهارة راكب مجاز .

وأنا اسرّ عاش بالذاكرة والذكرى والخيال في تلك للذان منذ أعوام طوال ، ولكن لم أظفر بالميش فيها حقاً إلا تلك المرة ، وذلك ما أرجو وآمل أن يكون بداية عهدى بها لا آخره .

طرفت في أعما قرطبة ، وإشبيلية ، و « غرناطة » ، وشهدت معالمها ، وقت في دنيا وآثارها ، واتصلت بأهلها بقدر ما يسمح لخطاير المشغول والوقت المحدود ، فخاصت من كل ذلك إلى أن هذا التالوث لا يزال أبلغ ما يبر عن مقاطع التاريخ الأندلسي الثلاثة : الخلافة ، والطوائف ، و « غرناطة » .

أما قرطبة فإنها بنهرها المتحدر الوئيد ، وجسرها العجيب ، ومسجدها الفخم ، وزهراتها الدارسة ، وأزقتها الصاعدة المايطة الرية الأسماء ، وأهلها الذين يلقب عليهم حسن السمات وتعام الوفاق ، تصور لعين الباحث للتأمل سذاجة عصر الخلافة وقرته ، وفخامته وروعته . كما ترمز باجتماع المسجد والقصر إلى اجتماع الدين والسياسة في النظام السياسي الإسلامي ، وهو اجتماع كان مدار الدولة الإسلامية نشوءاً ، واكتفاءً ، وهرماً ، وزوالاً .

زالت الخلافة ، وانخرط عقد الدولة ، وعاد أسر الأندلس جاهلية كابدأ . سيف
نودج ، وشعر وسجع ، وطلس وكأس ، وجارية وغلام . تلك معالم الحياة العامة على عهد
الطوائف ، عهد ابن جباد ، وابن جهور ، وابن حجاج ، وعهد ابن زيدون ، وابن
عبدون ، وابن عمار ، وعهد سيف ، وولادة ، واعناد ، وقر . فإن شئت أن تتأمل
ذلك العصر ، وتنشق عيره ، وتحس نشوته ، فجل جوة في طرق إشبيلية ، وقف وقفة بفناء
قصرها ، واغش أنديتها في أى وقت شئت من نهار أو ليل ، فتجدها على طول العمر
وتقادم العهد ، لا تزال أسرح البلدان ، وأجلها ، وأطربها ، وأنها . ففى بلد الرياض
الضاحكة ، والقصور الناعمة ، والبيوت الشرقية الوادعة ، وبلد الرقصة الفنكية الرشقة ،
وإصطراح الإنسان والثيران الذى يعجل القلوب فى الصدور ، ثم هى بلد فوات الحسن
والخمر من النساء .



ولكن وأسفاه ! فابرحت لذة هذه الدنيا إلى ألم ، ونسيها إلى بؤس ، وفرحها
إلى حزن . وما برح نمر الخلاف سرأ سريرا ، وعاقبة التفرق وبلا وثبورا . لقد أسلم الإسلام
بالأندلس الروح إلا فناء لمحيته غرناطة إلى أجل مسمى .

فى غرناطة تجمع ما كان متفرقا فى طول الجزيرة وعرضها ، من حرص على الخلاف ،
وتهاقت على الترف .

أما الخلاف فلا يزال أثره ملحوظا فى حى اليازين ، بأزقة الضيقة ، وبيوته العائبة ،
وأهل اللورفين بحدة الطبع وشكاسة الخلق . وأما الترف فحسبك دليلا عليه قصر الحمراء
بأسوارها وأبراجه ، وردده وأبناؤه ، وغرفته ومقاصيره ، وسقته الرفوعة ، وعده النصوبة .
وتراويقه الموزقة ، ونهاريله الرائسة ، ومياهه الجارية ، ورياضه الناضرة . فهو صنع قوم
تبعوا فى الدنيا جنة الآخرة ، فالتوى عليهم القصد ، وانعكس الترف .

خلاف وترف ! ألا تجد حق قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينها
ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

مسجد قرطبة ، وقصر إشبيلية ، وجمراه غرناطة اكتم إليك من عطات ومهر ! ولكن أين
عن يعض ويمتبر ! أيا أنا فأشهد لقد رأيت ، وفكرت ، واحسرت ... ولكن من أنا ؟
فلما قضيت حق القلب والفكر من الدائن الثلاث ، آذنتها بالرحيل ، وأنا على مثل
حال الشريف الرضي حين قال :

ولقد وقتت على ديارم وطولها يسد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من نسب فضوى ولج بعنل الركب
وتلفتت عيني فذ خفيت عن الطلول تلفت القلب
وانطلق القطار بي وبأصحابي نحو مسدريد ، فودعت حر الجنوب واستقبلت
برد الشمال .

دير الاسكوريال ومكتبته

الاسكوريال اسم يطلق على بناء ضمن غم يضم دبرا وكنيسة ، وقصر او مدفا كانا للروك الأسبان . وهو يبعد عن مدريد بنحو أربعين كيلو متراً ، ويقوم على رابية موحشة قاحلة من ربي جبل وادي الرملة ، ويقال إن مساحة الأرض التي يشغلها البناء تبلغ بضعة أقدنة ، وأن البناء خمسة عشر مدخلا وبه سبعة أبراج وما لا يقل عن اثني عشر ألفاً بين نافذة وباب . شيده عامل الأسبان فيليب الثاني وفاء لنذر نذره والحرب قائمة بينه وبين فرنسا ، وقضى في تشييده وإحكامه إحدى وعشرين سنة وأشق في ذلك القضاير المقطرة من الذهب والفضة فجاء من أضخم وأعظم ما بنى الإنسان وهو من قبيل للشكك الشخصية المذلة التي لا يسير القيام بها إلا في أزمان الاستبداد والجبروت فهو يشبه من هذه الناحية هيكل بابل وكثيراً من مباني المصريين القدماء .

زرت الاسكوريال ثمان سنين خلت ، وقضيت أياماً معدودات باحثاً متنبهاً في مكتبته القيمة ، وكانت أقسم الأيام للذكورة قسامين فأجبل للاسكوريال النهار وللمريد الليل ، ذلك بأن نهار الاسكوريال وإن يكن متاعاً لنفس أي متاع ، فإن ليله لا يطلق حشة له وسكوناً ، وروحاً ، وشدة برد وخاصة إذا كان الزمن شتاء .

والكنيسة ألخم أقسام الاسكوريال ، فهي وحدها تسترق أكثر من خمسين الأرض التي تقوم عليها جلة البناء ، وبها الشيء الكثير من روائع الفن على هيئة قباب ، وتماثيل ونصور أبدعتها ريشة أعظم مصوري الأسبان أمثال الجريكو وفلسكورتز . ويقع أسفل الكنيسة على الحراب مدقن الأسرة التي ملكتها الأسبان عصراً طويلاً ، وهو مدقن رخيص مما يط في الأرض ينظم تراويس ضحكاً من تفرص فيها رفات الملوك القباير من سرية ترتب بجيهم إلى هذه الدنيا وخروجهم منها ، وأحدثها وآخرها ثاووس كان أعد الجنان لذلك تسمى خلم منذ سنوات .

١ وفوق الرواق الرئيسى للمكتبة تقع مكتبة الأسكوريال النسيخة ، وهي قسبان ، قسم أودى عام يشتمل على مجموعة الملك الذى أنشأ الأسكوريال وماضم إليها من مكاتب الأدب والكائنات ، ولندن ، والمكاتب الخاصة . وهذا ماقدون بزيارته للأجانب ، وقد زره فى حصة بعض وهران الدبر .

والقسم الآخر عربى مخطوط ولا يؤخذ لأجنبى أن يدخله ، وكل من أراد الاطلاع على بعض كتبه فينبى أن يطلب ما يريد الاطلاع عليه إلى الراسب المختص بذلك القسم فيحضر له ما أراد فى الفترة الخاصة بالمطالعة . وهران الدبر يحفظون عادة بالزوار ولا يقصرون فى إحضار الكتب التى يريدونها .

يحتوى القسم العربى للذكور على نحو ألى كتاب عربى مخطوط بعضها فى غاية النفاة ومعلوم النظم ، أذكر من ذلك على سبيل المثال قطعة من قاموس عربى يونانى ألف فى القرن السابع المجرى ، وكتاب الأنساب لابن الكلبي ، ونسخة من ديوان أبى تمام برواية أبى على القائل ومرتب ترتيبا يختلف عن ترتيب النسخة المطبوعة .

وهذه المجموعة العربية هى البقية الباقية من مجموعة أكبر منها ترجع على أرجح الأقوال إلى أصليين :

(١) بقايا للكتاب الأندلسية القديمة التى سلت عما أصاب آثار مسلمى الأندلس من الضياع والتلف فى حروبهم مع الأسبان . وقد جمع شتات هذه البقايا فيما يقال فيليب الثانى وخلفاؤه من بعده وأودعوها ناحية من الأسكوريال .

(٢) مكتبة الأشراف الحسينيين من سلاطين مراکش (٩٥١ - ١٠٦٩ هـ) وذلك أنه فى أوائل القرن الحادى عشر المجرى وقت فتنة بين مولاي زيدان سلطان مراکش (١٠١٢ - ١٠٣٨) وبين أخيه أبى فارس التائر عليه ، واضطر مولاي زيدان إلى التحول عن مراکش - فابتاع سفينة فرنسية عمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض تمور للتراب الأقصى إلى أكادير ، فلما حصل بأكادير ، وقع خلاف بينه وبين ريان السفينة على مبلغ الأجرة للسفينة ، فسا كان من الريان إلى أن انسل بالكتب تحت جنح الليل يوم مرسيتها .

فما كان يمشى الطريق عرضت له سفينة أسبانية غصبت الكتب وانطلقت بها إلى أسبانيا
وكان خاتمة مطالب تلك الكتب أن أودعت في أيضاً دير الأسكوريال .
كانت مكتبة الأسكوريال أول الأمر من أعظم مكاتب أوروبا كثرة كتب وغاية
قيمة ، ولكن شبت النار في مباني الأسكوريال كلها في عام ١٧٦١ م فاحترق من المكتبة
نحو ثلاثة أرباعها وسلم الرعب فقط ولا تزال آثار الحريق ماثلة فيما سلم حتى اليوم .

وأول من درس محتويات القسم العربي ووضع لها فهرساً باللاتينية راهب ماروني اسمه
ميخائيل التزبيري ، وذلك في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٩ - ١٧٥٣) وقد ظل
ذلك الفهرس الدليل للتبند للمكتبة إلى أن شرع في أواخر القرن التاسع عشر المستشرق
الفرنسي هر تويغ دنيورغ في وضع فهرس جديد بالفرنسية . وقد ظهر الجزء الأول من
الفهرس المذكور في عام ١٨٨٤ وظهر الثاني في عام ١٩٠٥ ثم ترقى هذا المستشرق قبل تمام
عمله . غير أن الجزء الثالث من فهرسه ظهر أخيراً في عام ١٩٣٧ بإشراف مستشرق فرنسي
آخر هو الأستاذ ليبي بروقتال .

وقد أخبرني قيم المكتبة الأب ملخور أنطونا أنه هو وزملاءه يبدون فهرساً علمياً
مطلوباً لقسم العربي من مكتبة الأسكوريال ، ولكن أرجح أنه لم ينشر منه شيء
حتى الآن .

تلك مكتبة الأسكوريال التي يقال إن حكومة مدريد قبلتها من الدير إلى مكان آخر
حرب خوقاً عليها من أخطار الحرب القائمة بينها وبين الخارجين عليها في هذه الأيام .

بلاد عربية تحتضر فيها العروبة^(١)

كست أقمع أيها القارئ الكريم جاك البلاد إلا للغرب الإسلامي الذي يمتد من حدود مصر شرقا إلى أمواه المحيط الأطلسي غربا ، ومن سواحل بحر الرمد شمالا إلى مجاهل السودان جنوبا ، والذي نزلته من لثلاثين من لا يحصيهم سوى خالقهم ورازقهم .

كان للغرب ولا يزال ميدانا عظيما من ميادين الصراع الأولى الأبدى السيف بين الشرق والغرب ، فيه تصالوت وتطاحنت قرحنة للشرقية السامية يهودية التريمية الآرية ، فكنيتهم الفوز لثانية على الأولى - وعبر الغرب قرونا عدة وهو قطر وملك جائل للون لم ترسخ فيه المدنية الرخانية ولا تفررت فيه أصولها . فلما خضع للشرق نهضة السكندرية في ظل الإسلام والعروبة ، وطاسل الفتوح العربية وعب عبايه ، وغلب الغرب بجماله على أمواه ، عاد للغرب لبرضا شرقية ولكن في صورة جديدة قواها العروبة والإسلام ، خير أن النزاع القديم بين الشرق والغرب لم ينقطع ، ففي آخريات المصور الوسطى تهاوت جموع الصليبيين على الغرب فلم تثبت لهم به قدم وبأموا يخسران ميمن . ثم تجدد الصراع في العصر الحديث . فكنيتهم التوزيرة أخرى لغرب على الشرق ، وأصبح الغرب بمجملته مستعمرات أبدية ، ووقف الأمر عند ذلك حتى اليوم .

وفي أثناء تلك المحاولات والمساجلات نبغ بالغرب رجال أصبحوا مضرب الأمثال في البطولة والشجاعة والتضحية ، منهم في الزمن القديم هملكار ، وأسدروبال ، وهنريال ، ومنهم في العصر الوسيط عقبة ، والسكافنة ، وكسيفة ، وحسان ، وموسى بن نصير ، ويوسف ابن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي وسلالة العظيمة من أمراء الموحدين ، ومنهم في العصر الحديث الأمير عبد القادر الجزائري ، والسيد السنوسي الكبير ، والأمير عبد الكريم

(١) مجلة الراجلة العربية ، في ١٤ أبريل سنة ١٩٣٧ والجيوب أن أحدثك الجارة الآن في تونس وصيا كنس تدل على أن مضي ستة عشر عاما لم يغير شيئا من الحال التي يصفها هنا لفلان

الطالبي بطل الريف وقرع أسبانيا وفرنسا ، والذي لا تزال وقامه مع هاتين الدولتين معترداً
تجارها بأرجاء المغرب الأقصى ، وصلها يدوي في الإجماع .

وينبغي أن ننبه إلى أن المغرب أصبح هذه الفتحة العربي أرضاً عربية ، وإن شئت
الحدقة في القول قل إن أسبانيا الشرقية استعالت أرضاً عربية ، في حين أن أسبانيا الغربية
أصبحت وقد استعرت ، وقد يما قسم القدماء عرب الجزيرة نفسها قسمين حاربة ومستعربة
فلم يندح ذلك في عروبة من استعرب ولا وجد فيه غصاة على نفسه .

لقد صار المغرب عربياً بأمرين : بهجرة العرب إليه واستعراة العرب أنفسهم .
أما الهجرة فابتدأت بالمواع التي تدقت على المغرب من الجزيرة في القرنين الأول والثاني
لمجريين وانتهت بهجرة العرب الملالية في القرن الرابع ، وأما الاستعراة فم باعتناق
كثير من الإسلام وتكلمهم العربية وارتباطهم بالقائمين برباط الصهر والزواج بحيث لم
يتبقى في القرن الرابع حتى كانت قد استعرت قبائل العرب الكبرى أمثال كملمة وزناتة
وضناجة ، وأصبح جميع سكان المغرب من عرب وبربر يداً واحدة على كل من دام
يلادهم إبان الحروب الصليبية والزمن الحديث كاسقت الإشارة . وبتمام هذه الوحدة الراسية
أسكن ازدهار المدينة الإسلامية في ربوع المغرب ، وعدت القيروان وتونس وفاس ومراكش
مواطن الثقافة الإسلامية العربية وهذا جامع الزيتونة وجامع القرويين من مدارس الإسلام
الجامعة ، ونبع المغرب من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة عدد عظيم يشار إلى قرضهم
بالبان . وتمدى أثر هذه الثقافة الإسلامية العربية إلى صقلية فكان قاعاً حياً لإيطاليا
لنهضة الأدبية العظيمة التي ظهرت بها في القرن الخامس عشر الميلادي .

ذلك البطر العربي أخذ نجم حياته للبقلة النشطة القوية للثمرة في الأفول منذ وضع
الترك السنيون أيديهم عليه في القرن السادس عشر مع استيلاء المغرب الأقصى . فلما عجز الترك
أنفسهم عن الدفاع عن أطرافهم في القرن التاسع عشر تداعت بل تصارت ذئاب الاستعمار
الأوروبي على المغرب . فانقضت أسبانيا بقيات من المغرب الأقصى ، وعاملت فرنسا على
الجزائر وتونس ومراكش فأزدرقتها ازدهاراً . ثم انقضت إيطاليا على طرابلس بنجا وعدواناً
لستوت عليها بعد أن ألى أهلها عنراً .

ولا يلحق القارى أن الاستعمار الأوربي دخل للفرج وهو يريد أن يسويه على أسس الاحتفاظ بتقاليد وعاداته وإنشاء موارده وترقية مراحته والتهوض به ظهر أمه واكتساب مودتهم ومداخلتهم ثم الجلاء ومن يلازمه فكونه بذلك قد أسدى إلى الإنسانية بدءاً عظيمة فهمة ثانية على الزمن . كلا ثم كلا ! إن خطته التي جرى هي نحو شخصية تلك البلاد فوالله في الدول المستعمرة يهدم مقوماتها الجوهرية من لغة ، ودين ، وعزة قومية . والاستعمار في الوصول إلى تلك الغاية طرق شتى : منها أنه يسدل على منزل للفرج من سائر العالم الغربي بتصويب أبواب الاتصال بين الغرب والأقطار العربية الأخرى ، وتشديد الرقابة على العربي الذي يدخل للفرج فلا يسمح له بالاتصال بالأهلين إلا بقدر معلوم ، وطريقة أخرى أبلغ في الوصول إلى الغرض الاستعماري للتشدد هي القبط بين ساحل للفرج ومابني ، وذلك بإضيق اللغة العربية ونشر لغة المستعمرين ، والحد من الثقافة للإسلامية والفكر من الثقافة الأجنبية ، ومن ثم ذلك التواكب الذي تلحظه على ترجمة الكتب العربية القديمة أنظمة بتاريخ الغرب وأدبه وقصه إلى لغة المستعمرين وخاصة للفرنسية وذلك لقرأ أهل للفرج قار يمدح ومابنيهم باللغة الفرنسية دون العربية . وطريقة ثالثة هي تحييد الجنس الأجنبي إلى نفوس المغاربة وإثارة العداوة الجنسية للبربرية في نفوس البربر ، وما نأ الظهور للفرج يدبر في مراكش بوجوب اتباع الغرب الذي جرى في دور القضاء بيبعد .

أما العمل على إهانة العزة القومية فنجبتنا التذليل عليه بأمرين أو ثلاثة . فند شعوات ست احتفلت فرنسا في نفس للفرج بمرور مائة سنة على فتحها الجزائر وخسين سنة على فتحها تونس ، ومن عهد قريب قلت زيات للفرشاليون قاهر للفرج الأقصى إلى مراكش ودفنت بها باحضان بشهود . هذا ولا تفتأ إيطاليا منذ استولت على طرابلس ثم نوحيها غرباً وشرقاً وتعرض بأنها وارثة الرومان القدماء في البحر الأبيض المتوسط فيبذى أن يؤول إليها ميراث الرومان في هذا البحر كاملاً غير منقوص .

للمر أن العروبة والإسلام متاق الأندلس بالسيف ، أما في للفرج فإنهما يقضيان صبراً ، إلا أن يتوجه أهل للفرج إلى الله بقلوبهم وعرائعهم ، ويفتدركهم الله بنصره ورحمته « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله قوي عزيز » ؟

فهرست الصور

- ٥ زخرفة على الخشب بجامع عمرو بن العاص
١٢ زخرفة على الحجر بإحدى منارتى جامع الحاكم بأمر الله
٥١ مسجد قباء (بالمدينة المنورة)
٦٣ جنة البقيع (بالمدينة المنورة)
٦٦ فسيفساء من المسجد الأموى بدمشق
٧٦ صورة خيالية تمثل دخول الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس
أية قرآنية بالخط الكوفى من مسجد الحاكم بأمر الله (من صورة
الفتح ٠٠٠ ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً) ٨٤
(٩٢) تاج عمود بجامع ابن طولون
٩٨ صورة تمثل فرساناً من العرب
(١٠٤) زخرفة عربية (أريسك)
(١١٦) أحد نوافذ جامع ابن طولون
١٢٠ فسيفساء بقصر هشام بخربة البفجر بفلسطين
(١٤٤) أحد مداخل جامع ابن طولون
١٦٣ جنة المعلى (بالمدينة المنورة)
١٧٤ فسيفساء بالمسجد الأموى بدمشق
١٨٧ كتابة كوفية وزخرفة بالجامع الأزهر من عصر بناؤه

فهرس الموضوعات

١.	الامداء
ب	كلمة الجمعية التاريخية
١	دروس من الصحراء
٤	« مصر القديمة » واثارها
٦	دار الندوة
١٣	احابيش قریش هل كانوا عرباً أو حبشاً
٢٢	دار الأرقم المخزومی
٢٦	أم المؤمنین خدیجة بنت خویلد
٢٧	الهجرة
٥٢	كيف كان الرسول يسوس أصحابه
٥٧	من ذكريات الحج
٦٤	رسالة الحج
٦٧	عمر بن الخطاب في عام الرمادة (١)
٧٢	عمر بن الخطاب في عام الرمادة (٢)
٧٧	عمر الفاتح (الروح الذي وجه المسلمين الى النصر الباهر)
٨٥	دولة الأكاسرة ٢٢٦ - ٦٥١ م
٩٣	فتح العرب لمصر ، تأليف بتلر وتعريب محمد فريد أبو حديد
٩٩	على ساحل بحر الروم
١٠٥	شعراؤنا وسيدنا عثمان
١٠٨	أبو ذر الغفاري
١١٧	العتبات المقدسة
١٢١	الأب لمانسروالحكومة الاسلامية الأولى
١٢٧	زياد بن أبي سفيان (١)
١٣٦	زياد بن أبي سفيان (٢)

١٤٥	محمد بن القاسم الثقفي
١٥٥	عمرو بن عبد العزيز ٦٢ - ١٠١ هـ (١)
١٦٤	عمر بن عبد العزيز (٣)
١٧٥	نساء الخوارج
١٨٨	الأدب العربي المصري (١)
١٩٠	الأدب العربي المصري (٢)
١٩٣	للبحث
١٩٦	كشاف

القسم الأول : عصر الدولة العباسية

٢١٧	أبو العباس « السفاح »
٢٢٤	هارون الرشيد بين التاريخ والقصص
٢٣٩	المحسنين : السيدة زبيدة
٢٤٦	بين هارون الرشيد وشارلمان
٢٥٣	الرشيد وأبو نواس
٢٦٢	مع أبي نواس الزاهد
٢٧٠	كتاب الوزراء والكتاب للجيشياري
٢٧٧	أبو العلاء السياسي
٢٨٥	ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء المعري
٢٩٤	السلطان يعين الدولة محمود الغزنوي
٢٩٩	١ - الفردوسي
٣٠٧	٢ - الفردوسي (تتمة)
٣١٥	سيرة أحمد بن طولون لأبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي
٣٢٢	من مواقف البطولة الاسلامية فى القتال
٣٣٠	كتب الحسبة وفائدتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير
	٣ - ثلاثة حوادث من التاريخ الاسلامى ساعدت على نمو العربية وانتشارها
٣٣٨	
٣٤٦	اثر مصر فى الاحداث الاسلامية حتى آخر العصر العباسى الاول

القسم الثاني : المغرب والأندلس

٣٥٩	موسى بن نصير
٣٦٤	حديث الفتية المغربيين من أهل لشبونة
٣٦٩	زرياب المغنى
٣٧٥	حكيم الأندلس عباس بن فرناس
٣٨٠	قاض فلضل
٣٨٤	بين خليفة وقاض
٣٩١	١ - الناحية التاريخية من شعر ابن هانيء الأندلسى
٣٩٦	٢ - » » » » » » »
٤٠١	٣ - » » » » » » »
٤٠٦	بنو فراس بن غنم
٤٠٩	قرطبة الاسلامية
٤١٨	لفتة نحو الأندلس
٤٢١	دير الأسكوريال ومكتبته
٤٢٤	بلاد عربية تحتضر فيها العروبة
٤٢٧	فهرس الصور

Bibliotheca Alexandrina



0298871